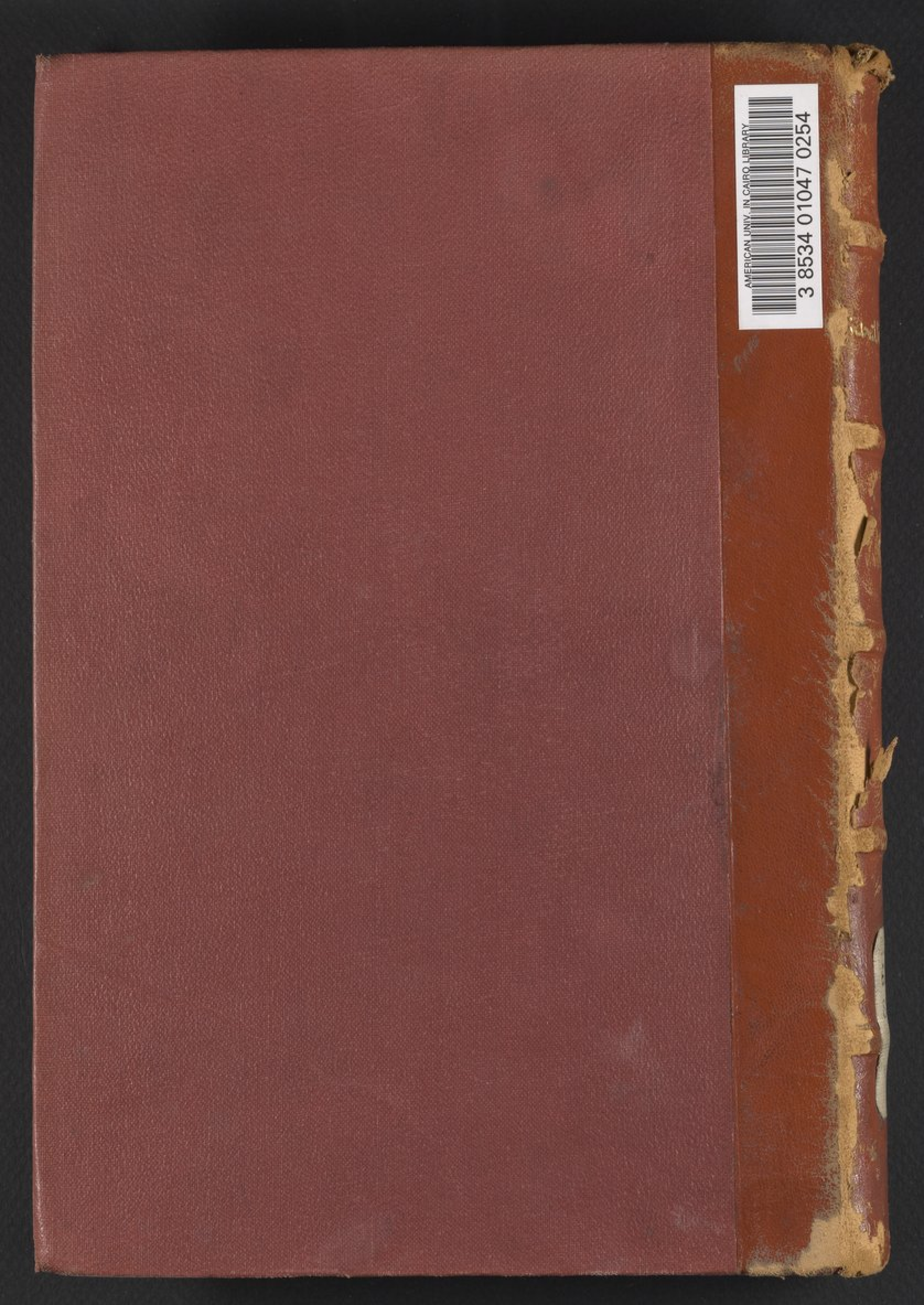
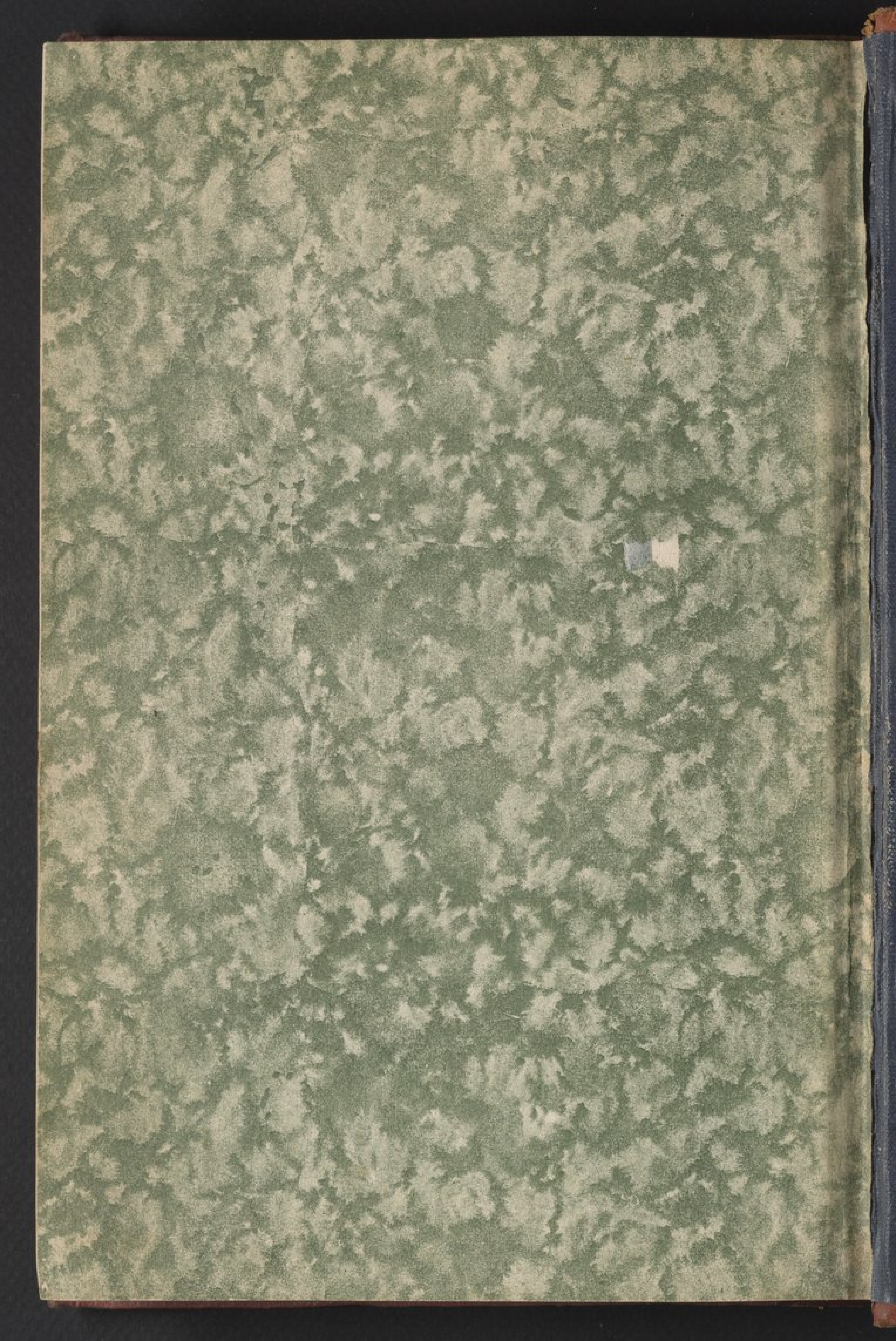
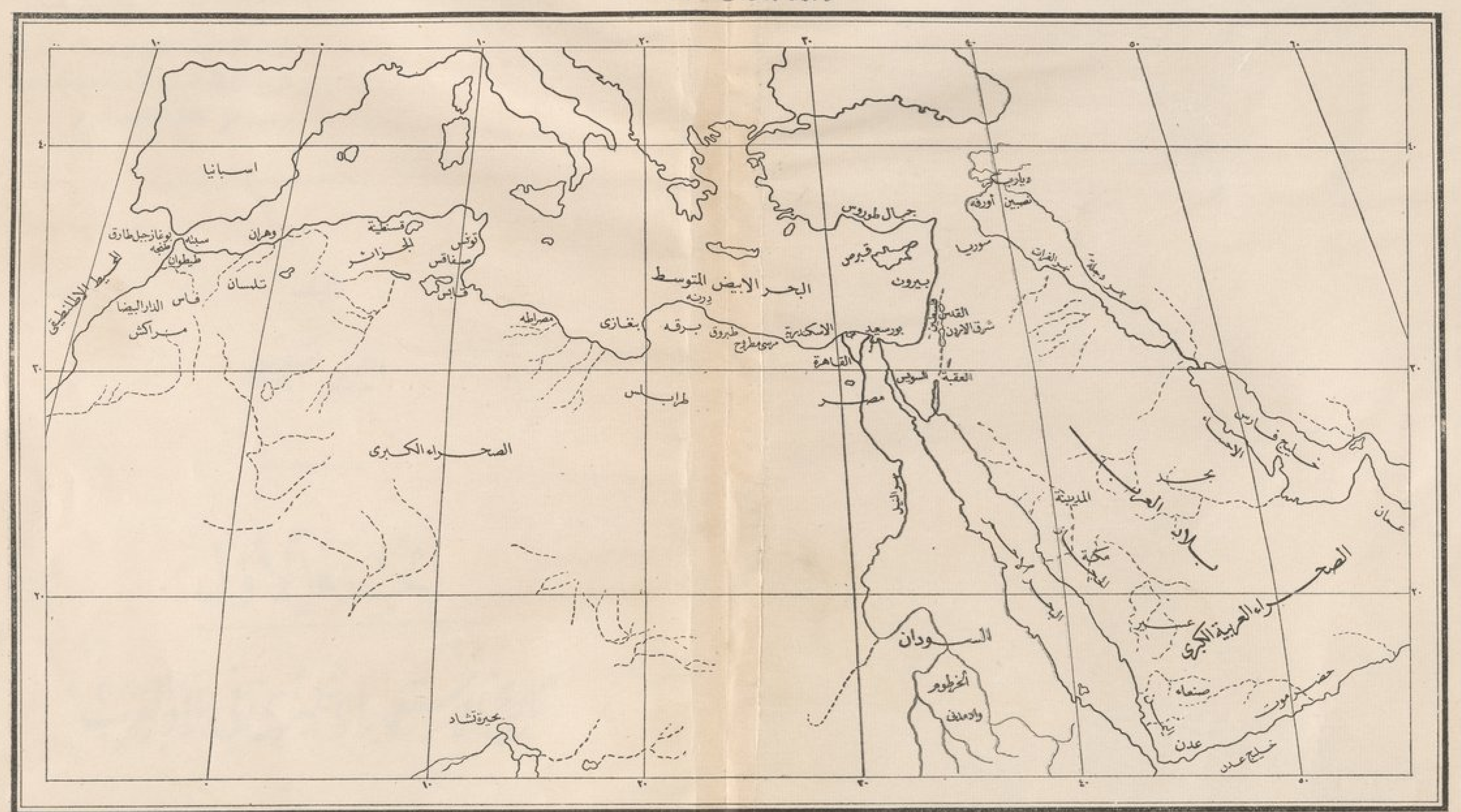

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01047 0254



خريطة الوطن العربي العام



الدولة العربية المتحدة

تاريخ الاستعمار الاوربى فى بلاد العرب
تاريخ اليقظة القومية الجديدة عند العرب
برنامج عملى لانشاء الاتحاد العربى

تأليف

أمين سعيد

الجزء الأول

تاريخ الاستعمار الانكليزى فى بلاد العرب

طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر

للمؤلف

ملوك الاسلام المعاصرون ودولهم

الثورة العربية الكبرى	النضال بين العرب والترك « » والفرنسويين والانكليز امارة شرقى الاردن وقضية فلسطين وسقوط الدولة الهاشمية وثورة سورية

ايام بغداد

تاريخ الاسلام السياسى	نشأة الدولة الاسلامية حروب الاسلام والامبراطورية الرومية
الدولة العربية المتحدة	تاريخ الاستعمار الانكليزى فى بلاد العرب تاريخ الاستعمارين الفرنسوى والايطالى فى بلاد العرب (١) اليقظة القومية الجديدة وبرنامج عملى لانشاء الاتحاد العربى (٢)

---

(١) و (٢) تحت الطبع

موضوعات هذا الجزء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على نبيه العربى ، وعلى اخوانه المرسلين ، وآله واصحابه والتابعين

اما بعد فهذا كتاب « تاريخ الاستعمار البريطانى فى بلاد العرب » اقدمه الى قومى وهو الحلقة الاولى من كتاب « الدولة العربية المتحدة » الذى شرعت باصداره فى ثلاثة مجلدات

اما الحلقة الثانية فهى « تاريخ الاستعمارين الفرنسوى والايطالى فى بلاد العرب » والحلقة الثالثة هى « اليقظة القومية الجديدة وبرنامج عملى لانشاء الاتحاد العربى » والاساليب التى يجب ان تتبع فى تأليفه وسيصدران متتابعين ان شاء الله .

ومنه نستمد العون والتوفيق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على نبيه العربى ، وعلى اخوانه المرسلين ، وآله واصحابه والتابعين

اما بعد فهذا كتاب « تاريخ الاستعمار البريطانى فى بلاد العرب » اقدمه الى قومى وهو الحلقة الاولى من كتاب « الدولة العربية المتحدة » الذى شرعت باصداره فى ثلاثة مجلدات

اما الحلقة الثانية فهى « تاريخ الاستعمارين الفرنسوى والايطالى فى بلاد العرب » والحلقة الثالثة هى « اليقظة القومية الجديدة وبرنامج عملى لانشاء الاتحاد العربى » والاساليب التى يجب ان تتبع فى تأليفه وسيصدران متتابعين ان شاء الله . ومنه نستمد العون والتوفيق



بحث فى القضية العربية

ماهى اغراض هذا الكتاب

....

تعريف القضية العربية وتحديد الوطن العربى

القضية العربية قضية امة تريد الخلاص من انواع المظالم التى نزلت بها لتنهض فى داخل حدود الوطن العربى العام سياسيا وعلميا واجتماعيا واقتصاديا

حدود الوطن العربى

تمتد حدود الوطن العربى العام من خليج فارس وولاية ديار بكر شرقا حتى بحر الظلمات غربا، ومن جبال طوروس شمالا حتى افريقية الوسطى جنوبا وتشمل الاقطار التى يتكلم اهلها اللغة العربية ويتفاهمون بها ويتلقون ثقافة عربية وينشدون مثلا أعلى مشتركا وهى :

العراق ونجد والحجاز واليمن وسورية ولبنان وشرقى الاردن وفلسطين والكويت والبحرين ومسقط وقطر فى آسيا

ومصر والسودان وبرقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر والمغرب الاقصى فى افريقية

غاية القضية العربية

وغاية القضية العربية تحرير بلاد العرب تحريرا كاملا ، وانقاذها من كل نفوذ اجنبي ، وجعلها للعرب وحدهم تنفيذا للمبدأ القائل (بلاد العرب للعرب) وانشاء حكومة متحدة تضم تحت لوائها جميع حكومات البلدان العربية واماراتها على قاعدة احتفاظ كل منها باستقلالها الداخلي وأوضاعها الخاصة ، تعمل لاسعاد العرب وترقيتهم اجتماعيا وادبيا وسياسيا واقتصاديا

هذا هو تعريف القضية العربية ، وتلك هي حدود الوطن العربي العام ، وهذه غاية القضية ، وهي غاية شريفة معقولة لا يماري منصف في عدالتها ، فمن حق هذا الشعب العريق في الحضارة والمجد ، والذي يعد من اقدم الشعوب الحية ومن أعرقها فهو يعيش من خمسة آلاف سنة انشأ في خلالها نحو ثلاثين دولة مستقلة قبل الاسلام وبعده [1] ، وحمل مشعل النور في العصور المظلمة وبث العدل ، ونشر العلم ، وتلقى حضارة الروم والفرس والسريان والكلدان ونقلها بامانة الى ابناء الاجيال الحديثة بعد ما هذبها وصقلها وأضاف اليها اضافات كثيرة ثمينة وكساها ثوبا جديدا فاخرا فساعد بعمله هذا على انشاء الحضارة الجديدة وتعد الحضارة العربية اما لها ومرضعا ـ نقول ان من حق الشعب العربي ان يستقل ويتحرر ويؤسس لنفسه كيانا دوليا خاصا به ويعيش عيشة الأمم المستقلة ، وبينها من لايدانيه في كفاءته وحسن استعداده ، وله من ماضيه الباهر ، ومن حاضره المرجو ، ومستقبله المأمول مايؤهله لهذا العمل العظيم الذي يسعى لادراكه وتحقيقه

أصل القضية التاريخي

ولا يخفى ان الحركة العربية مرت في أدوار شتى ، واجتازت مراحل متعددة .

---

(١) اثبتنا اسماء هذه الدول واوردنا خلاصة تاريخية وافية لكل منها في كتاب خاص تحت الطبع

ويلوح لنا ان مردها التاريخي يرجع الى سقوط الدولة العباسية سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) فقد أضاع العرب فى ذاك اليوم استقلالهم السياسى وفقدوا مكانتهم الدولية فصار عليهم ان يسعوا لاستردادها

ورزح العرب قرنين ونصفا تحت سلطان حكومات الطوائف (سنة ٦٥٦ – ٩٢٣ هـ) ثم انتقلوا الى الحكم العثمانى وخضعوا لنيره الثقيل فكان شر حكم عرفوه كما كانت حكومته شر الحكومات التى توالت على بلدانهم فقد نشرت الفوضى وبثت الاضطراب ، فافقرت البلاد والعباد ، وحاربت العلم ، واقفلت دوره فأثر ذلك فى اخلاق الأمة العربية وبعثها على الاستكانة والخضوع ، وانتزع منها رجولتها

الاستعمار الاوربى و بلدان العرب

واتجهت انظار بعض دول اوربا الكبرى – بعد النهضة الحديثة – نحو بلاد العرب تحاول استعمارها والتسلط عليها مستغلة فرصة الانحطاط الاجتماعى وانتشار الجهل وسوء الحالة الداخلية الناتجة عن الحكم العثمانى السيء وتردى الدولة فى هوة الانحطاط وفقدان القوى المدافعة والمعدات الوفيرة

فرنسا أول من استعمر بلاد العرب

وكان الفرنسيون هم المصلون فى هذا المضمار ، فأول حملة عسكرية اوربية منظمة غزت قطرا عربيا لاستعماره والتسلط عليه فى العهد الجديد هى الحملة الفرنسوية التى قادها نابليون بونابرت الى مصر فى سنة ١٧٩٨ وكانت الغاية منها كما جاء فى التقارير الفرنسوية الرسمية « انشاء دولة عربية كبرى فى الشرق العربى تحت سيطرة فرنسا ونفوذها » ولكنها فشلت وخابت

واستأنف الفرنسيون الغارة سنة ١٨٣٠ اى بعد فشل حملتهم على مصر وارتدادها بتسعة وعشرين عاما فهاجموا الجزائر وهو قطر عربى صميم متذرعين ببعض الذرائع فقاومهم سكانه مقاومة عنيفة استمرت ١٧ سنة ثم خضعوا مضطرين فى

نهايتها لان الدولة العثمانية وهى المكلفة شرعا بالدفاع عن البلاد واهلها تخلت عنهم ولان الحكومات العربية المجاورة لهم خذلتهم ولم تنهض لنجدتهم . واتخذ الفرنسويون الجزائر قاعدة لتوسيع نطاق استعمارهم فى افريقية الشمالية فاستولوا على تونس سنة ١٨٨١ وعلى المغرب الاقصى فى سنة ١٩١٢ ثم على سورية ولبنان سنة ١٩١٨–١٩٢٠ فهم يسيطرون اليوم على اربعة اقطار تعد من اعظم اقطار العرب وهى بحسب دخولها تحت نير استعمارهم :

١ ـ الجزائر سنة ١٨٣٠
٢ ـ تونس سنة ١٨٨١
٣ ـ المغرب الاقصى سنة ١٩١٢
٤ ـ سورية سنة ١٩١٨ – ١٩٢٠

الاستعمار الانكليزى فى بلاد العرب

ومدينة عدن اول مدينة عربية استعمرها الانكليز فقد نزلوها سنة ١٨٣٧ كما ان مصر اول قطر عربى دان لهم فقد نزلوا الاسكندرية فى سنة ١٨٨٢ باسم الدفاع عن سلطة الخديو وتوطيد عرشه ولا يزالون يحتلون هذا القطر عسكريا . ثم عقدوا بعد ذلك سلسلة اتفاقات مع امارات الخليج الفارسى ومسقط والبحرين وقطر والكويت فدخلت بموجبها تحت حمايتهم

واغتنموا فرصة الحرب العظمى فهاجموا العراق فى سنة ١٩١٤ واستولوا عليه بيد انهم اضطروا للجلاء عنه بعد ذلك وتسليم ادارته لأبنائه وعقدوا بينهم وبينه معاهدة تحالف

واستولوا أيضا فى زمن الحرب العظمى على فلسطين وشرقى الاردن ولا يزالون فيهما

فالاقطار العربية الخاضعة للانكليز أو المشمولة بحمايتهم العسكرية هى بحسب ترتيب استعمارها :

١ ـ عدن	سنة ١٨٣٧
٢ ـ مصر والسودان	« ١٨٨١ ـ ١٨٩٧
٣ ـ البحرين	« ١٨٨١
٤ ـ مسقط	« ١٩١٣
٥ ـ قطر	« ١٩١٣
٦ ـ الكويت	« ١٩١٤
٧ ـ فلسطين	« ١٩١٧
٨ ـ شرق الاردن	« ١٩٢٠

الاستعمار الايطالى فى بلاد العرب

وساهمت ايطاليا أيضا فى انتهاب تراث العرب فهاجمت فى سنة ١٣٢٩ (١٩١١) طرابلس الغرب و برقة فهب سكانهما للدفاع عنهما وحمايتهما وقاوموها مقاومة شديدة استمرت عشرين سنة

حالة الاقطار العربية المستعمرة

فالجانب الاكبر من بلدان العرب ـ ولا سيما العامر منه والغنى ـ خاضع للاستعمار الاوربى الذى يعمل من مائة سنة وخمس سنوات (١٨٣٠ ـ ١٩٣٥) لترسيخ اقدامه وتوسيع نطاق نفوذه وهو مقسم بين الفرنسويين والانكليز والايطاليين ويقاسى أبناء هذه الاقطار عناء زائدا فى ظل الدول المستعمرة التى تحارب كل نهضة قومية ، وشعارها افقار الشعب ، وصده عن ورود مناهل العلم الصحيح وجعله فقيرا جاهلا فلا تحدثه النفس بخلع نيرها، والخروج عن طاعتها

جهود العرب وكفاحهم

وسعى العرب فى خلال هذه الفترة الطويلة للاستقلال وعملوا للتخلص من النير التركى فى الحقبة الاولى كما عملوا على مقاومة الاستعمار الاوربى ومكافحته فى الحقبة الاخيرة ولا يزالون فى نضال وكفاح وهذا بيان عن حركاتهم بحسب ترتيبها :

الحركة السعودية الاولى

وربما كانت الحركة التى قادها آل سعود فى جزيرة العرب فى اوائل القرن الثانى عشر للهجرة (أواخر القرن الثامن عشر المسيحى) اول محاولة حاولها العرب بعد سقوط دولة العباسيين لانشاء دولة عربية مستقلة فى داخل الجزيرة

وهلع الترك من هذه البادرة القومية وخافوا نتائجها فسيروا الجيوش لقتالها واخمادها فعادوا يجرون ثوب الفشل وأدركوا انه لاقبل لهم بصد التيار الجارف المتدفق من اقصى بلاد العرب

حركة محمد على

و بينما كانت جيوش السعوديين تكتسح الحجاز واليمن فى الجنوب وتهاجم حدود العراق وسورية وتوطد اقدامها على شواطىء البحر الاحمر كان محمد على باشا يعمل على ضفاف وادى النيل وشواطىء البحر الاحمر لانشاء امبراطورية عربية تضم بلاد العرب فى شرق مصر وشمالها أى سورية و برقة وطرابلس والعراق ، وكان قد خطا خطوات واسعة فى هذا السبيل وانشأ جيشا واسطولا على النظام الحديث فأقلق الباب العالى ظهور هذه النهضة القومية فى بلد عربى وخاف المغبة ورأى ان خير مايفعله هو أن يضرب السعوديين العرب بالمصريين العرب فيتخلص منهما او من احدهما ثم لايعدم وسيلة للتخلص ممن بقى

وصدع محمد على بأمر السلطان بعد لأى وتشمر لحرب السعوديين ورماهم بجيشه

المنظم على أحدث الاساليب والمدرب على أيدى ضباط أور بيين ماهرين والمسلح بمدفعية قوية ، وكانت البندقية سلاحهم الوحيد وكانوا لايزالون يحاربون طبقا للاساليب القديمة ، فتغلب عليهم بعد جهد وعناء ودخل عاصمتهم وقبض على امامهم وقضى على حركتهم فكانت نكبة جديدة أصيبت بها القومية العربية لم يخفف من وقعها سوى الاعتقاد بان الدولة العربية التى يعمل محمد على وابنه ابراهيم لتأسيسها تحقق الآمال القومية

و بديهى انه لولا الصدمة الشديدة التى صدم بها محمد على الحركة السعودية لكان لها شأن عظيم ولعجلت فى تحرير العرب وانقاذهم فقد كان رجالها يقاتلون عن عقيدة صحيحة وجيش يتألف من امثال هؤلاء لايهزم بسهولة

وعكف محمد على بعد ماتم له اخماد حركة السعوديين على تحقيق القسم الآخر من برنامجه لحشد الجيوش وسيرها الى سورية فاستولى عليها واصدر أمره الى ابنه وقائد جيشه العام ابراهيم باشا بأن لايتجاوز جبال طوروس باعتبارها الحد الفاصل بين بلاد العرب و بلاد الترك، ورد ابراهيم باشا على سؤال وجهه اليه أحد رجال فرنسا عن المدى الذى يقف عنده فى زحفه فأجاب بانه سيواصل تقدمه مادام فى استطاعته أن يتفاهم باللغة العربية مع سكان البلدان التى يدخلها . وقد لقى فوزا كبيرا بفضل تأييد العرب له وهزم الترك وكاد يستولى على عاصمتهم و يقوض ملكهم

وانضم الانكليز الى الترك فى مقاومة الحركة العربية الجديدة وألبوا الدول على محمد على وابنه وحرموهما من ثمرة انتصارهما وحملوا الجيش العربى كما كان يسميه قائده ابراهيم باشا على التراجع وأعادوا مصر كما كانت ولاية عثمانية ومنحوها استقلالا داخليا تحت حكم محمد على وذريته فكانت نكبة أخرى نكبت بها القومية العربية على ايدى الانكليز والدول التى انضمت اليهم وهى روسيا والنمسا و بروسيا لانها خافت قيام دولة عربية قوية على ساحل البحر الابيض المتوسط وعلى ضفتى البحر

الاحمر تحول دون تحقيق امانيها فى التهام المملكة العثمانية وقد ازدادت بعد هذه الاحداث وهنا على وهن فوثبت الدول على بلدان العرب تقطعها وتلتهمها القطر بعد القطر ، والمقاطعة تلو المقاطعة

دور اليقظة

ولقد انشأ تكالب دول الاستعمار واحتكاك الشرق بالغرب من أواسط القرن الماضى ورواج الحركة العلمية وانتشار المدارس والمعاهد وتقدم الطباعة حركة جديدة فى بلاد العرب ونبه الاذهان الى وجوب مضاعفة السعى لتحرير بلدان العرب سواء منها الباقى تحت النير التركى او الخاضع للحكم الاجنبى فظهرت فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن حركات قومية فى مصر والشام والعراق زادها اعلان الدستور العثمانى فى تركيا سنة ١٣٢٦ (١٩٠٨) وسقوط الحكم الحميدى قوة ونشاطا

واهتبل مفكرو العرب من الذين كانوا لايزالون تحت النير التركى الفرصة فأنشأوا الجمعيات القومية والسياسية فى مصر وسورية والحجاز والعراق لتحرير بلادهم ، متعاونين الى حد كبير مع اخوانهم أبناء الاقطار التى كتب عليها الخضوع للاجانب

اعلان الثورة العربية

وأعلنت الحرب العظمى فى سنة ١٣٣٢ (١٩١٤) فضاعفت الجمعيات العربية نشاطها فى الداخل والخارج واتصل الانكليز بالشريف حسين امير مكة يومئذ (الملك حسين فيما بعد) واقترحوا عليه الدخول فى جانبهم وجانب حلفائهم مقابل وعود قطعوها له باستقلال العرب وانشاء حكومة عربية تضم معظم الاقطار العربية التى كانت خاضعة يومئذ للسلطنة العثمانية وهى الحجاز وسورية وفلسطين والعراق فقبل اقتراحهم ونال منهم وعودا خطية وثار على الترك فى سنة ١٣٣٤ (١٩١٦) وانضم اليه العرب

وايدوه . ونكث الانكليز بوعودهم بعد ماوضعت الحرب اوزارها وابوا الوفاء فكان لصنعهم هذا اسوا صدى و وقع فى العالم العربى . ثم مالأوا الفرنسويين واطلقوا يدهم فى احتلال بلاد الشام كما فتحوا ابواب فلسطين فى وجه اليهود ومكنوا لهم فى ربوعها وسعوا لانشاء حكومة استعمارية فى العراق فثار عليهم العراقيون وقاتلوهم واضطروهم للوفاء مكرهين

ثورات العرب بعد الحرب

ولقد هزت الحرب العظمى واحداثها وما تلاها من سقوط دول وقيام غيرها الشعوب العربية هزا فاستيقظت وقامت تكافح الاستعمار الاوربى وتقاتله وتطالب بالاستقلال والحرية وهذا بيان الثورات التى حدثت فى بلاد العرب بعد الحرب العظمى وتاريخ حدوثها :

مصر	سنة	١٩١٩
العراق	«	١٩٢٠
تونس	«	١٩٢٠
سورية	«	١٩٢٥
المغرب الاقصى	«	١٩٢٥
فلسطين	«	١٩٢٩

فضلا عن حوادث الاضطرابات فى برقة والجزائر وغيرها

ولا تزال الحالة غير مستقرة فى معظم هذه الاقطار ولا يزال سكانها يترقبون الفرص السوانح لاسترداد حقوقهم والحصول على استقلالهم

واقترنت هذه الاحداث بأحداث خطيرة اخرى لها اتصال كبير بنهضة العرب القومية وتحولهم السياسى وهى :

١ ـ سقوط الدولة الفيصلية فى الشام سنة ١٩٢٠

٢ ـ انشاء امارة شرقى الاردن « ١٩٢١

٣ ـ نشأة الدولة العراقية سنة ١٩٢١
٤ ـ اعلان استقلال مصر « ١٩٢٢
٥ ـ نشأة الدولة المتوكلية فى اليمن « ١٩٢٣
٦ ـ سقوط الدولة الهاشمية فى الحجاز وقيام الدولة السعودية الجديدة سنة ١٩٢٥
٧ ـ سقوط الامارة الادريسية سنة ١٩٣٣

كتاب الدولة العربية المتحدة

و بعد فكتاب الدولة العربية المتحدة يبسط تاريخ هذه الاحداث و يعالجها معالجة وافية و يؤيد بالدليل والبرهان حق العرب فى التحرر والاستقلال وانشاء الحكومة التى يشعرون بشدة الحاجة الى انشائها و يذكر الاساليب التى يرى ان اتباعها يحقق بلوغ الاتحاد العربى أسوة بالاميركيين والالمانيين والايطاليين الذين سبقوهم وتقدموهم ولم يكونوا حين استقلالهم فى حالة تفضل حالة العرب

ولا ريب ان كل منصف عادل يؤيد العرب فى سعيهم و يشد أزرهم لانهم يطلبون حقا و يسعون لادراك غاية شريفة نافعة مفيدة للحضارة وللانسانية ومنه تعالى نستمد العون والتوفيق

امين سعيد: الدولة العربية المتحدة

١

العرب وسقوط الدولة العباسية

ليس من شأننا هنا أن ندرس العوامل التى اودت بالدولة العباسية وسهلت للتتر سبل التغلب عليها فأمر ذلك يطول فضلا عن انه لا صلة له بموضوعنا مباشرة ولذلك نمر بحادث سقوطها مرورا باعتباره رأس تاريخ فى تحول العرب السياسى والقومى حرمهم أعظم دولهم شأنا وأقصاهم عن المعترك السياسى وعن الحياة الدولية العامة وجعلهم تبعا للعناصر الاخرى التى قبضت على زمام الحكم فى بلدانهم بعد ما كانت تبعا لهم و بعد ماسادوها زهاء ستة قرون فى العهد الاسلامى . ومما يستوقف النظر بوجه خاص انه لم يكن للعرب يوم سقوط الدولة العباسية فى العراق دولة مستقلة سواها اذا استثنينا الخلافة الزيدية فى اليمن العليا فكان المماليك الشراكسة يسيطرون يومئذ على مصر والشام والحجاز كما كانت دولة المرابطين وهى من البربر تسيطر على المغرب الأقصى ومثل ذلك كانت الدولة الحفصية فى تونس والجزائر وطرابلس الغرب ومؤسسها من البربر ايضا . نعم كانت هنالك ولايات عربية صغيرة تحتفظ باستقلالها فى الاندلس ولكنها مالبثت ان سقطت وانطوى عهدها . فلم تقم للعرب دولة بعد ذلك حتى الحرب العظمى ــ اذا استثنينا دولة الاشراف الحسنيين فى المغرب الأقصى فقد نشأت سنة ١٦٤٠ وفقدت استقلالها سنة ١٩١٢ بدخولها تحت الحماية الفرنسوية ولا تزال قائمة حتى الآن

وهنالك من يعتقد ان فقد العرب لاستقلالهم السياسى كان من جملة العوامل

التى أخرت الشرق الادنى وقعدت به عن اللحاق بالأمم الاخرى التى تقدمت وارتقت ، ومن يقابل بين حالة الشرق يوم كان العرب يسيطرون عليه فى ايام دولهم الثلاث الكبرى وهى دولة الخلفاء الراشدين ثم الدولة الاموية فالدولة العباسية وما كان عليه من ازدهار وتقدم وعمران ، و بين ما صار اليه فى عهد الدول الاخرى التى تقلبت عليه من سقوط الدولة العباسية حتى ختام الحرب العظمى سنة ١٣٣٦ يرى الفرق ظاهرا ، فقد عمل الخلفاء الامويون والعباسيون على تعزيز الحضارة ، وتعمير البلاد واصلاحها ، ونشروا العلوم والمعارف والآداب والفنون ونقلوا علوم اليونان والفرس والسريان والكلدان الى اللغة العربية وشادوا المعاهد الراقية وأسسوا حضارة راقية ونقلوا الى لغتهم عددا كبيرا من مؤلفات الفلاسفة اليونانيين وغيرهم من علماء الشعوب الاخرى

ويجب أن لاننسى ماأسدته الدولة الاموية فى الاندلس من خدمة جليلة للحضارة والى جهود علمائها يعود بعض الفضل فى ايقاظ أوربا . وعلماء التاريخ مجمعون على ان الدولة العربية فى الاندلس كانت من ارقى الدول وا كملها . فسقوط الدولة العباسية لم يكن نكبة على العرب وحدهم وقد أفقدهم استقلالهم واقصاهم عن سدة السيادة والنفوذ بل كان نكبة على الحضارة نفسها لحرمها من نشاط شعب أثبت فى جميع ادوار التاريخ انه من انصار التقدم والعمران

وكان أيضا نكبة على الشرق لانه حال دون تقدمه واخذه بأسباب الحضارة الحديثة . ولا يخامرنا شك فى انه لو كان أمر الشرق بيد العرب لما ظل فى تأخره وتقهقره بل لجارى الغرب فى شوطه ، ولكان له شأن غير شأنه اليوم ولكان منافسا، بدل أن يكون تابعا

ولا يخامرنا شك ايضا فى ان الشرق لن يبلغ مايتمناه من حرية ولن يسترد

مقامه ومجده ولن تستقر الحالة فى اقطاره الا يوم يسترد العرب مكانتهم القديمة و يؤسسوا دولتهم الجديدة و يعودوا كما كانوا أصحاب النفوذ فى ر بوعه ، وذوى الكلمة العليا فى تصر يف شئونه

الاستبداد كاللدار

٢

العثمانيون فى الشام ومصر

ظل التتر يغادون آسيا الوسطى ويراوحونها ويكرون على مدنها وعواصمها سحابة قرن كامل (هو القرن الهجرى السابع) فاكتسحوا دولها ، وقضوا على حكوماتها ، وقوضوا عمرانها ، فلم يسلم من شرهم ، أحد ، ولم ينج من اعتدائهم بلد ، ولولا طارىء داخلى طرأ عليهم فى أواسط القرن الثامن و بعثهم على الارتداد والرجوع بعد مابلغوا أبواب مصر لاقتحموها ودكوا عمرانها وأوغلوا فى افريقية الشمالية مدمرين ومخربين ، شأنهم فى جميع غزواتهم وحروبهم

وكانت دولة السلاجقة فى الاناضول بين الدول التى دوخوها فكان سقوطها مصدر خير وبركة للعنصر التركى فقد تلقى عثمان بك احد امراء تلك الدولة علم الترك الهاوى باليمين وشمر عن ساعد الجد فوضع اساس دولة عظيمة سيطرت على الغرب والشرق و بسطت ظلها على معظم اجزاء العالم المعمور وأرهبت دوله وحكوماته وهكذا كانت الغزوة التترية مصدر نكبة وشقاء للعرب كما كانت مصدر خير وبركة للترك فقد تركت الميدان خاليا أمامهم فاهتبلوا الفرصة واغتنموها وشقوا طريقهم الى الامام ، بعكس العرب الذين تردوا بعد دولتهم فى الانحطاط السياسى لان حالتهم الاجتماعية يومئذ ما كانت تساعد على نهوض امير منهم يحذو حذو الامير التركى ويسير على غراره فيجمع شتاتهم ويؤلف منهم كتلة سياسية تسترد المجد الدابر

ومن المقرر اجتماعيا ان النهضات لاتتكون ولا تنمو الا فى البيئات الملائمة وهيهات أن يستطيع فرد أن ينهض بعبئها مهما أوتى من كفاءة وقوة الا اذا كانت البيئة ملائمة وكان الشعب نفسه مستعدا لقبول الدعوة التى يدعى اليها

اصل الترك العثمانيين

واصل الترك العثمانيين من بلخ (بخارى) هاجروا بقيادة زعيمهم سليمان بك فى اوائل القرن السابع الى الأناضول عقب ظهور التتر فى الميدان الحربى ونزلوا فى جوار السلجوقيين فآووهم ، ومات زعيمهم سليمان بك غرقا فى نهر الفرات عند عبوره فى مكان اسمه قلعة جعبر وقبره معروف هنالك وقد زاره كاتب هذه السطور فى خلال احدى رحلاته سنة ١٩٣١ فخلفه نجله ارطغرل بك فى قيادة العشيرة ونزح بها الى جهات ارضروم وكان يوالى السلجوقيين ويؤيدهم على طريقة والده فمال اليه السلطان علاء الدين السلجوقى واقطعه مقاطعات يحكمها فأضاف اليها مدينة قره حصار (الاناضول) اغتصبها من الروم وارضا اخرى ومات سنة ٦٨٧ فخلفه ابنه عثمان فأقره علاء الدين السلجوقى على مابيده

وسقط علاء الدين هذا قتيلا تحت سنابك خيل التتر حين غارتهم على بلاده سنة ٧٠٠ فانقرضت بموته الدولة السلجوقية ، فاستقل الامراء الذين كانوا تبعا لها واقتسموا ممتلكاتها وكان عثمان بن ارطغرل من جملتهم فناله جزء غير قليل علاوة على الاراضى التى كانت له واتخذ مدينة يكى شهر عاصمة لدولته التى شرع فى انشائها طبقا لقواعد جديدة تختلف عن نظام القبيلة الذى كانوا يخضعون له ولقب بلقب بادشاه أى سلطان

الاستيلاء على اوربا الشرقية

ووجه سلاطين الدولة العثمانية وجههم فى خلال الدور الاول شطر الشمال فاستولوا على بورصة ثم عبروا البحر فاستولوا على ادرنة ومقدونية ثم القسطنطينية وتدفقوا على اوربا الشرقية فأخضعوها ووصلوا فى زحفهم حتى مدينة فينا كما استولوا من جهة أخرى على القرم وارمينية و بلاد القوقاس

الاستيلاء على بلاد العرب

والسلطان سليم الاول بن بايزيد هو أول من حمل على بلاد العرب وتجهز للاستيلاء عليها فقد أعد فى سنة ٩٢٢ ـ أى بعد انقضاء ٢٢٢ سنة على قيام الدولة العثمانية وانقضاء ٢٦٨ سنة على سقوط الخلافة العباسية ـ قوة زحف بها من القسطنطينية الى الشام وكانت مع مصر والحجاز تخضع لدولة المماليك الشراكسة

وجاءت الاخبار الى الملك قانصوه الغارى بان السلطان يتجهز لغزوه فغادر القاهرة الى دمشق ومنها الى حلب وفيها استقبل وفدا ارسله السلطان سليم للمفاوضة فى الصلح. ويقول المؤرخون ان سليما اراد من عمله هذا كسب الوقت وتخدير أعصاب خصمه ليضربه ضربة شديدة. واكرم الغورى وفد السلطان واهداه هدايا ثمينة وانتدب احد رجاله واسمه مغلباى الداودار لاتمام المفاوضة فقبض عليه السلطان حينما وصل الى بلاطه وسجنه ولم يطلق سراحه الا بعد ما اوغلت جنوده فى التقدم واستولت على ملاطية وعنتاب وكانت تابعة لحكومة مصر

معركة مرج دابق

ونفذ السلطان خططه الحربية ، وتقدم حتى مرج دابق وهو فى شمالى حلب الغربى وعلى مقربة منها ، وكان الغورى لايزال فى حلب يرجو ان يتم الصلح وأن يعود السطان الى بلاده ، والتقى الجيشان يوم ١٥ رجب سنة ٩٢٢ فدارت الدائرة على المماليك وقتل الغورى ومعظم امراء جيشه وعاد الباقون مشتتين ويقول بعض المؤرخين ان خيرى بك وهو احد قواد الغورى انضم الى خصمه ودله على عوراته فعجل ذلك فى انتصاره وسار سليم بعد هذا الفوز الى حلب فامتلكها بلا عناء كما امتلك حمص ودمشق وكان السكان فى كل مكان يستقبلونه بالترحيب وواصل زحفه الى القاهرة منفذا خطته العسكرية باحكام

الاستيلاء على مصر

وحاول طومان باي ابن اخي الغوري، وقد بويع بالملك بعد قتل عمه ، ان يقاوم الترك فجمع عددا من رجاله ولقيهم بهم فى الريدانية فهزموه ودخل السلطان سليم القاهرة يوم اول المحرم سنة ٩٢٣ ولم يضعف ما جرى من عزيمة طومان باى فجمع بعد فراره من الريدانية بقية الانصار والاعوان وباغت ليلة الاربعاء ٥ المحرم معسكر السلطان فى القاهرة واستبسل مع رجاله فى الحملة لاعتقاده انه آخر سهم يرميه من كنانته فدارت معركة عنيفة استمرت الليل بطوله وامتدت الى ضحى الغد وانتهت بتشتيت المهاجين وفنائهم بنيران المدافع العثمانية ، ولم يكن لديهم شيء منها

ولجأ طومان باى الى الصعيد بعد ما استفرغ الجهد فى النضال والقتال فجمع طائفة من الانصار والاعوان وسار بهم الى القاهرة يجرب حظه للمرة الثالثة ، وعرف الترك بما يعده اعداؤهم فساروا الى الجيزة فالتقوا بهم فدارت معركة عنيفة استبسل فيها المهاجمون على جارى عادتهم وابلوا أحسن بلاء ومع انهم حازوا فوزا فى ابتداء القتال الا ان كفة الترك رجحت فى النهاية بفضل جودة سلاحهم

ونجا طومان باى من المعركة ولجأ الى صديق قديم له اسمه حسن مرعى فى قرية البوضة واستضافه فأضافه واقسم له بأن لايخونه وان يحميه . والظاهر ان بعضهم عرف امره فدس عليه فأرسل السلطان قوة احاطت بالقرية وقبضت على الملك واقتادته موثقا بالاغلال فسجنه ثم اعدمه شنقا يوم ١٤ ربيع الاول سنة ٩٢٣ امام باب زويلة بالقاهرة ، و بموته انتهى حكم المماليك وقد استمر ٢٧٥ سنة (٦٤٨ - ٩٢٣)

وفقدت مصر بهذا الفتح استقلالها وصارت مقاطعة من مقاطعات الدولة العثمانية ولم يطل السلطان سليم الاقامة فيها بل غادرها الى عاصمته بعد ما انشأ فيها حكومة جديدة تتبع حكومته مباشرة وتتلقى منها التعليمات ، وعين خيرى بك الشركسى وهو الذى خان مولاه فانضم اليه فى حلب، واليا مكافأة له على خيانته

٣

الخلافة الاسلامية وآل عثمان

فى سنة ٦٦٠ اى بعد فاجعة بغداد الكبرى باربع سنوات فقط وفد الى القاهرة احمد ابن الخليفة الظاهر محمد بن الخليفة الناصر ابن عم الخليفة المستنصر العباسى الذى قتله التتر فعقد الظاهر بيبرس البندقدارى ملك مصر يومئذ مجلسا حضره اكابر العلماء ، وبعد ان ثبت لدى القاضى بطرق الاثبات الشرعية صحة نسب الوافد بايعه الظاهر واقطاب الدولة واصحاب الحل والعقد بالخلافة ولقبوه بالمستعز بالله فعادت بذلك الخلافة العباسية الى الظهور مجردة من القوة المادية ومن مظاهر الحكم والسلطان وهى الاصل فى الخلافة اى انها اصبحت فى العهد الجديد قاصرة على المظهر الدينى وحده

واعد الظاهر بيبرس حملة عسكرية اعلن انه سيسير على راسها الى بغداد لاستردادها ثم نهض من القاهرة الى دمشق فنزلها واقام فيها ، وارسل المستنصر الى بغداد يقود جانبا منها واستبقى الجانب الآخر معه ، فخرج التتر للقائه ونازلوه فى خارج بغداد وقتلوه ومع اننا لانعرف الاسباب التى بعثت الظاهر على التخلف فى دمشق الا اننا نرجح انه لو رافق الحملة فى زحفها الى العراق وعززها بالقوى التى استبقاها لديه وبالقوى التى كان فى استطاعته تجنيدها من الشام لفازت ولاستطاعت ان تعمل عملا عسكريا خطيرا ، والظاهر ان الظاهر وهو فى الاصل مملوك شركسى حسب حساب ما قد يكون لاحياء الخلافة العباسية العربية من اثر فى نفوس المصريين والسوريين والعراقيين وبقية الشعوب العربية وخاف ان تنعشهم وتحيي القوى الادبية

فى نفوسهم ، وقد اماتتها الغارة التترية ، فاعتذر وفضل القعود . وأرسل المستنصر وهو غير واثق من نجاحه فلقى حتفه وتشتت شمل الذين كانوا معه ولم يكونوا كثيرين ، وكان ماجرى مجازفة كلفت المستنصر حياته . ولو كان الظاهر راغبا رغبة صحيحة فى احياء الخلافة – كما ادعى – لواصل ارسال الحملات العسكرية الى بغداد ، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك ، بل اكتفى بان استقدم من حلب احمد ابا العباس بن على ، وهو من سلائل العباسيين ، وكان من جملة الذين وفدوا اليها فارا من التتر فأنزله بقربه وبايعه بالخلافة ولقبه بالحاكم بامر الله وعدل عن الزحف على العراق نهائيا الامر الذى يؤيد ماذهبنا اليه من عدم اخلاصه فى محاولته استرداد بغداد

واستقر سلائل العباسيين فى القاهرة يتوارثون الخلافة « الاسمية » تحت حماية المماليك ويقيمون فى المساجد ويجمعون النذور ويعيشون من الصدقات حتى هبط القاهرة السلطان سليم فأرسل فاستحضر خاتمة الخلفاء العباسيين واسمه المتوكل على الله محمد فانتزع منه الخلافة كما انتزع منه الآثار النبوية الشريفة وهى الراية والسيف والبردة وكانت بعهدته وكان العباسيون يتوارثونها كابرا عن كابر ، وحملها معه حينما رجع الى القسطنطينية كما حمل الخليفة العباسى نفسه وآل بيته فماتوا هنالك وانقرضوا. واضاف سلاطين الترك لقب الخلافة الى اسمائهم فكان هذا اول حادث من نوعه ايضا فقد تهيب امراء المسلمين من غير العرب تلقيب انفسهم بهذا اللقب ولم يتطاولوا اليه حتى جاء سليم فاقدم على ما احجم عنه سواه وتهيبه

وانتقل مقر الخلافة « الاسمية » من القاهرة الى القسطنطينية بهذا الانتقال وصار هذا اللقب مما اختص به الخلفاء العثمانيون ، وقد ظل هذا شأنهم حتى سنة ١٣٤٠ (نوفمبر سنة ١٩٢٢) فقد اصدر مجلس انقره الوطنى الكبير قرارا فصل فيه بين الخلافة والسلطة ونادى بعبد المجيد افندى ابن السلطان عبد العزيز خليفة للمسلمين وجرده من كل سلطة مادية وحصر هذه السلطة فى رئيس الحكومة التركية نفسه

وعاد هذا المجلس فقرر يوم ٤ مارس سنة ١٩٢٤ سنة ١٣٤٢ هـ الغاء الخلافة

الاسلامية نهائيا من تركيا وطرد سلائل الخلفاء العثمانيين فطردوا ومن جملتهم الخليفة عبد المجيد نفسه فقد قاده رجال الحكومة التركية عقب صدور هذا القرار الى خارج الحدود فلجأ الى قرية تريبه السويسرية وهى على حدود فرنسا ولا يزال يقيم فيها حتى هذه الساعة محتفظا باللقب الذى منحه اياه المجلس الوطنى الكبير اى لقب الخليفة

وبذلت فى خلال السنوات الأخيرة جهود لاحياء الخلافة الاسلامية واعادتها الى العرب فلم تقترن بنتيجة ايجابية . وكان فى مقدمة الذين سعوا هذا المسعى الأمير عبد الله بن الحسين امير شرقى الاردن ، فقد دعا الى مبايعة والده الحسين بن على ملك الدولة الهاشمية بالخلافة ، عقب إلغاء الترك لها ، فاستجاب له اهل الحجاز والعراق والشام و بعض المصريين والهنود وجرت البيعة بالخلافة فى الشونة (شرقى الاردن) فى شهر ذى القعدة سنة ١٣٤٢ (مارس سنة ١٩٢٤)

ولم يطل عهد هذه الخلافة ولم تعش كثيرا فقد اضطر الحسين بن على الخليفة الجديد للتنازل عن عرش الدولة الهاشمية يوم ٤ ربيع الاول سنة ١٣٤٣ و ١٤ اكتوبر سنة ١٩٢٥ نخلفه نجله وولى عهده الملك على و بويع بالملك لا بالخلافة عقب تنازل والده وجاء فى كتاب بيعته مانصه : « لقد بايعت الأمة جلالتكم ملكا دستوريا على الحجاز فقط » وبذلك الغيت الخلافة ضمنا

هذا هو ملخص تاريخ الخلافة الاسلامية بعد غارة التتر و بديهى ان نقلها من بغداد الى القاهرة ومن هذه الى القسطنطينية ، وخروج الأمر من يد العرب وانتقاله الى يد الترك ، اضر بالحركة القومية العربية ضررا بليغا وحمل السلاطين الترك على محاربتها بشتى الوسائل والسعى للقضاء عليها فلا تنتعش وتشتد فتنتزع الخلافة منهم وتكون وسيلة لسلخ بلدان العرب عن دولتهم بعد ماضعف شأنها وملها جميع الذين دانوا لها

هذا من جهة ، اما من الجهة الاخرى فقد كانت الخلافة الحصن المتين الذى اعتصمت به الدولة العثمانية فى العهد الأخير واحتمت وراءه للنجاة من خطر الانقراض فوقاها كثيرا من الشرور

و بديهى والحالة كما وصفنا ان يحرص العثمانيون على الخلافة وان يعملوا بشتى الوسائل لاستبقائها وان يقاوموا كل سعى يرادبه انتزاعها منهم وان يقمعوا كل حركة يتحركها العرب للاستقلال ليخلوا لهم الجو و ينفردوا بالحكم وان يعملوا لاستمالة زعماء العرب و بذل الاموال لهم استرضاء واسكاتا وقد كان للسلطان عبد الحميد الثانى ١٢٩٣ - ١٣٢٦ قصب السبق فى هذا المضمار فهو لم يدع وسيلة للارضاء والتخدير الا توسل بها فساعده ذلك فى تعزيز دولته وتوطيد مقامها وقد ظل هذا شأن العثمانيين يعتزون بالخلافة ، و يعضون عليها بالنواجذ حتى انقرضت دولتهم فى ختام الحرب العظمى وحلت محلها الجمهورية الكمالية الحاضرة فاتخذت القومية الطورانية لها شعارا ودثارا

٤

خادم الحرمين الشريفين

كانت صفقة السلطان سليم فى غزوة بلاد العرب من اربح الصفقات فقد استولى على اقطار واسعة غنية تمتد من جبال طوروس حتى حدود برقة كما استولى على الخلافة الاسلامية واضاف الى نفسه لقبا جديدا تهيب الملوك والسلاطين الذين تغلبوا فى البلدان الاسلامية وهم من غير ارومة عربية حمله احتراما له واجلالا لمكانته

ونال السلطان ايضا فى هذه الغزوة لقبا آخر وهو لقب خادم الحرمين الشريفين فقد روى المؤرخون ان شريف مكة ارسل ولده الى القاهرة فقابل السلطان وسلمه مفاتيح الكعبة فاغتنم خطيب المسجد فرصة هذا الحادث ولقب السلطان بلقب خادم الحرمين الشريفين فارتاح اليه وهو مما اختص به السلاطين العثمانيون وحدهم

وغنى عن البيان ان لارسال المفاتيح معنى آخر وهو معنى الخضوع والطاعة للدولة الجديدة وهو مافهمه السلطان فقد أقر الشريف فى منصبه ورتب لأهل الحرمين صدقة القمح وأمر بارسالها من مصر وهو ايضا اول من كسى الكعبة وارسل المحمل من آل عثمان وقد ظل هذا شأن الخلفاء العثمانيين يكسون الكعبة ويرسلون المحمل والهدايا حتى اعلان الثورة العربية سنة ١٣٣٤ فقد ادت الى خروج الحجاز من طاعتهم وقيام الدولة الهاشمية العربية فى ربوعه

٥

الاستيلاء على الاقطار العربية الاخرى

اكمل السلطان سلمان بن سليم وقد خلف والده فى الدست ما شرع فيه من الاستيلاء على البلدان العربيـة واستصفائها ، فقد استولى سلمان باشا الارناؤطى احد مماليكيه على لحج وعدن سنة ٩٤٥ فكان ذلك مبدأ الاستيلاء التركى على اليمن ، وهو الاستيلاء الذى جر عليها اسوأ المصائب وكان سبب شقائها وخرابها

ويقول المؤرخون عن هذا الاستيلاء ان السلطان سلمان اصدر امرا الى مملوكه هذا بان يسير الى الهند لقتال البرتغاليين وكانت اساطيلهم تغزو البحر الاحمر وتصل فى غاراتها الى سواحـل الهنـد ناشرة الهول والرعب فسار بأسطوله الى لقائهـم فلم ينل منالا فقصد جزيرة قمران (احدى جزر اليمن) واستقر بها واتصل عامر بن داود صاحب عـدن وآخر ملوك بنى طاهر الذين حكموا تلك البلاد من سنة ٨٥٨ حتى سنة ٩٤٥ بالقائد التركى واحـكم صلته به رجاء ان ينصره على الامام شرف الدين امام الزيديين وصاحب اليمن يومئذ ، وكانا فى خلاف وشقاق ، فبذل له الوعود بلا حساب ثم سار بأسطوله من قمران الى عدن فرسى فى مينائها وكتب الى ابن عامر يسأله ان يسمح لجنده بدخول المدينـة لابتياع ما يحتاجون اليه فأجابه الى طلبه وكان يرى فيه حليفا وصديقا

واصدر سلمان باشا امرا سريا الى فرحات احد قواده بأن يقبض على ابن عامر ويحمله اليـه فنفذ امره وارسـله اليه مع بعض انصاره فشنقهم فورا وامتلك المدينة بهذه الطريقة الممقوتة واعلن ضمها الى السلطنة العثمانية

ويقول احـد مؤرخى اليمن ان سلمان باشا كتب بعد ان فعل ما فعله الى الامام

شرف الدين يعرفه بوصوله وامتلاكه عدن وزبيد ويقول انه قتل عامرا لما بلغه من انه يريد بيع عدن الى الافرنج يريد بذلك تبرير جريمته الشنعاء

وسعى الترك بعد امتلاك عدن لنشر نفوذهم فى اعالى اليمن واغتنم الفرصة على ابن سليمان البدرى صاحب خنفر فهاجم عدن سنة ٩٥٣ واستولى عليها فأرسلت الحكومة العثمانية قوة من مصر فى السنة التالية استردتها

وعقد العدنيون الذين آلمهم غدر العثمانيين بأميرهم (عامر بن داود) اتفاقا مع البرتغاليين لمحاربتهم ، فأرسل العثمانيون اسطولا فى سنة ٩٥٩ مؤلفا من ٣٠ سفينة بقيادة القبطان بيرى فاسترد عدن وقضى على الثورة واستقرت اقدام الترك بعد هذا الحادث فى عدن ولحج وظلت خاضعة للتاج العثمانى حتى سنة ١٠٥٤ اذ تغلب عليها أئمة اليمن وانتزعوها

الاستيلاء على طرابلس الغرب

اضطرب حال افريقية الشمالية بعد انتقال عاصمة الدولة الفاطمية من المهدية الى القاهرة وانصراف الفاطميين الى العناية بشؤون المشرق بدلا من المغرب ، وقد نشأت دولتهم فى ربوعه ، وزاد الموقف حرجا وصول الدولة الى سن الهرم فكثر المتغلبون والمتنافسون وظل الأمر على هذا المنوال حتى قامت دولة الموحدين فبسطت ظلها على افريقية الشمالية وطرابلس الغرب فى جملتها

وطمع الايطاليون باحتلال طرابلس وهى واقعة على مقربة من بلادهم، وحفزهم الى غزوها ما نقله تجارهم وكانوا يترددون على هذا القطر عن وفرة الثروة واستسلام السكان للدعة والسكينة

وتجهز صاحب جنوه (البندقية) وسار بأسطوله الى طرابلس فاستولى عليها سنة ٩١٥ بدون مشقة اى قبل وصول السلطان سليم الى بلاد العرب فهجرها فريق من ابنائها ولجأوا الى تاجوراء وجبال غريان ومسلاته واستقروا هنالك هربا من

الحكم الاجنبي الجديد وانفة من الخضوع له ، واوفدوا فى سنة ٩٢٦ وفدا منهم الى القسطنطينية قابل السلطان سليمان بن سليم و بسط على مسامعه حالهم ، واستغاث به وطلب انقاذهم من الاحتلال الاجنبى فوعدهم بالمعونة والمساعدة ثم عين مراد اغا وكان من مماليكه ومن الذين يعرفون العربية واليا عليهم ، فسار معهم الى تاجوراء فانضم اليه اهل غريان و بايعوه كما بايعه اهل الريف فصار يغير على الايطاليين فى طرابلس و يضيق عليهم ومن خرج الى خارج السور اختطفه الى ان دخلت سنة ٩٥٨ فمر بهم اسطول السلطان سليمان وكان يقصد حلق الواد (تونس) مددا لعلى باشا وكان يحاصر صاحب صقلية هنالك فزار مراد اغا واعيان تاجوراء قائد الاسطول واسمه طورغود باشا وطلبوا منه ان ينجدهم و يساعدهم فاعتذر بان التعليمات التى لديه لاتجيز ذلك فألحوا عليه وما زالوا به حتى اقنعوه بشرط ان يكتبوا له عهدا يتعهدون بموجبه بحمل كل تبعة امام السلطان ولما نال ماطلب حاصر طرابلس برا و بحرا وافتتحها وطرد الجنويين منها بعد ماظلوا فيها ٤٣ سنة ٩١٥ - ٩٥٨

وكتب طورغود باشا الى السلطان سليمان بما ناله من نصر وتوفيق و باستيلائه على طرابلس فكتب اليه يعينه واليا عليها وعلى قابس و بذلك يكون اول حاكم عثمانى لهذا القطر العربى

الاستيلاء على تونس

دولة الحفصيين فى تونس هى فرع من دولة الموحدين ، ومؤسس هذه الدولة هو الشيخ ابو حفص يحي بن عمر احد العشرة الذين قاموا بدعوة محمد ابن تومرت مهدى الموحدين ومؤسس دولتهم

واول ملوك هذه الدولة هو ابو محمد عبد الواحد بن ابى حفص ولى الحكم فى

تونس سنة ٦٠٣ وتتابع اعقابه على عرش هذه الامارة حتى اواخر القرن التاسع اى حين اتجهت أنظار الدولة العثمانية الى بلاد العرب وكانت اى دولة الحفصيين قد بلغت سن الشيخوخة والهرم ، وكان التنافس على اشده بين امرائها وقادتها

وضم هذا القطر الى الدولة العثمانية على يد خير الدين باشا بار باروس قائد اسطول الترك فى عهد السلطان سليمان واصله رومى من جزيرة مدللى تدرب منذ حداثته على اعمال القرصنة فحاز شهرة واسعة ثم اسلم وتسمى باسم خير الدين واسلم اخوه معه وتسمى باسم اوروج اى الصيام ودخل فى خدمة السلطان ابى محمد الحفصى الذى ملك من سنة ٨٩٩ الى سنة ٩٣٢ وكان من دابه الغارة على مراكب الافرنج فى البحر المتوسط فخافته اساطيلهم

وراى بار باروس خير الدين ان ينضم الى السلطان سليم التركى والد السلطان سليمان فأهداه سفينة ارسلها مع اخيه علامة الطاعة فقبلها وارسل اليه خلعا سنية مع عشر سفن ليستعين بها فى حرب الافرنج فازداد بذلك قوة ومنعة ، وصمم على احتلال بعض سواحل الجزائر وتقديمها الى السلطان عربون مودة واخلاص وشرع فى العمل فاستولى على ثغر شرشل وزحف اخوه اوروج الى داخل البلاد فاستولى على تلمسان

ومات فى تلك الفترة السلطان ابو عبد الله الحفصى فخلفه ابنه الحسن (سنة ٩٣٢) فوقعت بسبب ذلك اضطرابات داخلية فاغتنم خير الدين بار باروس الفرصة وسار الى تونس يبغى الاستيلاء عليها وكان ذلك فى سنة ٩٣٥ وعرف السلطان الحفصى بذلك فلجأ الى الاسبانيين فاستولى خير الدين على العاصمة واعلن دخولها فى طاعة الدولة العثمانية

واغاث الاسبان السلطان الحفصى واعدوا له قوة بحرية كبيرة غادرت ثغر برشلونة الى حلق الواد (تونس) ومعها السلطان نفسه فحاصرتها كما حاصرت مدينة تونس وافتتحتها عنوة ونهبتها وفتكت بسكانها بأمر الامبراطور شارلكان الاسبانى

الذى اعاد الحفصى الى عرشه وعقد معه معاهدة مزرية ببلاده

ووقعت احداث وفتن ارسلت على اثرها الدولة العثمانية طورغود باشا والى طرابلس الغرب فاستولى على المدينة سنة ٩٧٧ وطرد الاسبان منها

وفى سنة ٩٨١ وصل سنان باشا الى افريقية الشمالية يقود جيشا لجبا واسطولا كبيرا فاستولى على حلق الواد عنوة واسر السلطان محمد الحفصى وارسله الى القسطنطينية فاعتقله السلطان ومات فيها و بموته انقرضت الدولة الحفصية ودخلت هذه البلاد نهائيا (تونس والجزائر) فى سلطان العثمانيين

الاستيلاء على بغداد

سقطت مدينة بغداد صريعة تحت اقدام الغزاة التتر الذين استباحوها فى اواخر شهر المحرم سنة ٦٥٦ وقوضوا بنيان الدولة العباسية ودمروا تلك العاصمة العظيمة ونهبوا ذخائرها ونفائسها واحرقوا ما كان فى مكاتبها من كتب واوراق

وولى هولاكو على ولاية العراق فخر الدين الدامغانى رئيس ديوان الخلافة واستبقى بعض رجال الدولة السابقة واقرهم فى مناصبهم . وولى نيابة السلطنة وحماية بغداد قائدين من قواده هما ايلجكتاى وقره بوغاتورين وترك لهما ثلاثة آلاف جندى . وتعرف هذه الدولة فى التاريخ بالدولة الايلخانية نسبة الى لقب هولاكو وهو ايلخان

ولم تعش هذه الدولة طويلا فقد سقطت سنة ٧٣٦ اى انها عاشت ٨٠ سنة وخلفتها الدولة المغولية التترية الجلائرية ومؤسسها هو الشيخ حسن ابن الامير حسين وكان والده من امراء التتر ورئيسا على الرحل المبثوثين فى خراسان وهو ابن اق بوغا ابن ايلكان ابن جلاير وسميت الدولة بالجلائرية اضافة اليه وعاشت هذه الدولة ٧٦ سنة وهوت سنة ٨١٤ وحلت محلها الدولة المغولية التركمانية الاولى او دولة الخروف الاسود « قره قيونلى » ومؤسس هذه الدولة قره يوسف (يوسف

الاسود) من قبيلة قره قيون احدى قبائل التركمان المغول ، كانت تسكن قديما فى تركستان ثم نزحت الى اذر بيجان وسيواس ثم امتلكت الموصل وسنجار وعاشت ٦٠ سنة ثم هوت سنة ٨٧٤ وقامت على انقاضها دولة جديدة عرفت باسم دولة الخروف الابيض « آق قيونلى » او الدولة المغولية التركمانية الثانية ومؤسسها هو اوزون حسن بن على بن جهانكيز بن قره عثمان واصله من قبائل التركمان التى هاجرت من تركستان وتغلب اوزون حسن سنة ٨٧٢ على حسن على مرزا آخر ملوك دولة الخروف الاسود

وهوت هذه الدولة سنة ٩١٤ اى بعد ٤٠ سنة من قيامها وعقب استيلاء الشاه اسماعيل الصفوى على العراق . ولا ريب ان كثرة سقوط هذه الحكومات وقيامها اضر بالبلاد ضررا بليغا سواء من الوجهة الاقتصادية او العلمية والاجتماعية وجاء برهانا على عجز التتر وعدم كفاءتهم للحكم

ووثب الامير ذو الفقار رئيس قبيلة موصلو من عشيرة كلهر الكردية فاستولى على بغداد وعلى معظم المدن العراقية فى سنة ٩٣٠ وذلك عقب وفاة الشاه اسماعيل الصفوى بيد انه مالبث ان احتمى بالسلطان سليمان القانونى العثمانى وخطب له على المنابر فى سنة ٩٣٢ خوف سطوة الصفويين ثم ارسل اليه وفدا يقدم خضوعه وطاعته ويدخل رسميا تحت حمايته ثم ضرب السكة باسمه فكان ذلك فاتحة تدخل العثمانيين فى العراق وتسرب نفوذهم الى انحائه

ولم تدم هذه الحالة طويلا فقد زحف الشاه طهماسب الاول على بغداد فى سنة ٩٣٦ فحاصرها واستولى عليها فاتصل بعض كبرائها وزعمائها بالسلطان سليمان وسألوه النجدة فجهز حملة كبيرة سنة ٩٤٠ قادها الصدر الاعظم ابراهيم باشا ثم سار هو فى اثرها فقصد تبريز فاستولى عليها ثم اتجه الى بغداد فسلمت اليه صلحا فدخلها يوم ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٩٤١ وبذلك دخل العراق رسميا فى طاعة العثمانيين . وجال السلطان فى انحاء العراق وزار النجف وكربلاء وغيرهما وامر بتحصين بغداد وبناء قبة ومنارة على مرقد الامام ابى حنيفة ومرقد الشيخ عبد القادر الكيلانى

ووقف لهما الاوقاف ثم عاد الى عاصمته بعد ما قضى اربعة اشهر فى العراق ونظم حكومته الجديدة

وعاد الايرانيون فاستولوا على بغداد سنة ١٠٣١ فسار اليهم السلطان مراد خان الرابع سنة ١٠٤٨ وطردهم منها بعد حروب طويلة ، ووطد اقدام الترك فى ربوعها وكان الحكم العثمانى اسوأ حكم عرفه العراق

في طريق اليقظة القومية

١

العرب والحكم العثمانى

اتم سليمان ما شرع فيه والده سليم فاستولى على العراق ولحج (اليمن السفلى) وطرابلس الغرب وبرقة وتونس والجزائر نخضعت بلاد العرب كلها للحكم العثمانى ماعدا حكومة المغرب الاقصى فقد احتفظت باستقلالها وكيانها

واحتفظ اليمن باستقلاله ايضا تحت رعاية أئمته الزيود (نسبة الى الامام زيد بن على) وبقيت حضرموت ومنطقة الخليج الفارسى العربية خارج هذه الدائرة على ان بعضها خضع بعد ذلك

وقابل سكان البلدان العربية الاحتلال العثمانى بالارتياح وهتفوا له لانه انقذهم من الحكومات الاقطاعية ومن ملوك الطوائف وحشرهم تحت لواء حكومة قوية ناهضة وظنوا انهم سيلقون الهناء والسعادة فى ظله الا ان ماطرأ على الدولة بعد ذلك من ارتباك واضطراب داخلى وخارجى قضى على آمالهم

ويرى الباحث فى تاريخ الدولة العثمانية انها مرت بادوار ثلاثة :

١ـ دور التقدم والازدهار : وقد ابتدأ بانشاء هذه الدولة على يد مؤسسها عثمان الاول سنة ٦٩٩ هـ وانتهى بوفاة السلطان سليمان القانونى سنة ٩٧٤ وقد استمر هذا الدور ٢٧٥ سنة بلغت فيه الدولة منتهى العظمة والمجد فكانت حدودها تمتد من نهر الطونة فى شرقى اوربا حتى المغرب الاقصى فى شمالى افريقية ومن تفليس حتى عدن وهابها ملوك العالم وتقربوا الى سلاطينها

٢ ـ دور التقهقر : ويبتدىء هذا الدور بجلوس السلطان سليم الثانى سنة ٩٧٤ وينتهى بموت السلطان مصطفى الثالث سنة ١١٨٧ فقد استطاعت الدولة فى خلال هذا

الدور ويمتد ٢٠٠ سنة وكسورا الاحتفاظ بمقامها رغم فقدها جانبا كبيرا من ممتلكاتها واراضيها

٣ - دور السقوط والاضمحلال : ويبتدىء هذا الدور بجلوس السلطان عبد الحميد الاول سنة ١١٨٧ وينتهى بسقوط هذه الدولة وانقراضها سنة ١٣٣٥ عقب الحرب العظمى ، بعد ما عاشت ٦٣٦ سنة بالحساب الهجرى . ويرجع سبب امتداد هذا الدور وطوله الى اختلاف الدول الاوربية على اقتسام ممتلكاتها وسعى كل منها لتفوز بالجانب الأكبر من الغنيمة ، وقد حارب بعضها بعضا فى هذا السبيل ، وظل هذا شأنها حتى ختام الحرب العظمى ، فوثب عليها ابناؤها فألحدوها واقاموا مقامها هذه الجمهورية فى انقرة

فهذا البيان التاريخى الوجيز يدل على ان الاحتلال العثمانى ، لم يحقق للعرب ما كانوا يرجونه من آمال لانه تم فى عهد التدنى والانحطاط لا فى عهد القوة والمنعة . واغتنم معظم الحكام والولاة ولا سيما فى البلدان البعيدة فرصة ضعف الدولة وارتباكها وكثرة مشاغلها الخارجية فشقوا عصا الطاعة ووضع كل منهم يده على البلاد التى كان يتولاها وانشأ حكومة مستقلة خاصة وكانت طبيعة الفتح العثمانى نفسه تساعد على ذلك ، فقد اخضع مؤسسو هذه الدولة الشعوب التى اخضعوها لدولتهم بالسيف ولم يعنوا باكتساب قلوب ابنائها ، ولا باصلاح شأنها ، ولا بنشر العدل فى ربوعها ، فساءت حالتها ، واضطربت امورها ، فراحت تتحين الفرص للافلات من نيرهم الثقيل الذى حملت بالقوة على الخضوع له ، فتخلصت تدريجيا من سيادتهم ، وكانت الامم الاوربية اسبق الجميع ، فانفصلت الواحدة تلو الأخرى ؛ وانشأت الدول ، فحاربت سادتها القدماء وتغلبت عليهم ، وظل امر الدولة يضعف تدريجيا حتى لم يبق لها عند ختام الحرب العظمى سوى هذه المقاطعات الصغيرة الممتدة من شمالى حلب حتى ادرنه

وكان العرب آخر من ثار على الترك وعمل على التخلص منهم . وغنى عن

البيان انه كان للوازع الدينى المقام الاول فى حملهم على موالاتهم والابقاء على ماهنالك من صلات وروابط ، رغم خيبة آمالهم ، ورغم الادارة السيئة التى حملوا على الخضوع لها ، فقد عمت الفوضى اقطارهم تدريجيا لتسرب جرائيم الضعف والانحلال الى هيكل الدولة وانتشار الفوضى بين طوائف جندها فاسترد المماليك فى مصر نفوذهم وعادت الحالة الى شر ما كانت عليه فى العهد القديم ، وانغمست البلاد فى حمأة الفوضى والارتباكات الداخلية وساءت الحالة الاقتصادية وكسد سوق العلم ، وفشا الجهل ومما يستوقف النظر بوجه خاص حدوث ذلك فى الوقت الذى بدأت فيه نهضة اوربا بالاشراق

وما وقع فى مصر وقع فى سورية ايضا فقد قسم الترك هذا القطر بين طائفة من الباشوات فكان فى حلب باشا وفى دمشق باشا وفى صيدا باشا ولا نبالغ اذا قلنا ان عهد هؤلاء الباشوات كان اسوأ حكم عرفته سورية فقد كانوا فى الغالب من طبقة الاميين الاغبياء الذين نالوا مناصبهم بالشراء او بالوساطة فكان اقصى همهم ان يستردوا الاموال التى دفعوها او ان يحصلوا على اموال يرسلونها الى الذين توسطوا لهم او تشفعوا بهم ، وما كان احدهم يتردد فى اعلان الثورة والانتقاض على الحكومة متى آنس من نفسه قوة ومنها ضعفا وعجزا . وكثيرا ماقاتل بعضهم بعضا ولا يتسع المقام لنشر احصاء الثورات التى اوقدوها على الباب العالى فى خلال تلك الفترة فهى كثيرة

وكانت الحالة فى العراق اسوأ منها فى كل مكان تقريبا ، والظاهر ان بعد الشقة بين بغداد والقسطنطينية كان من جملة العوامل التى اغرت هؤلاء بالعصيان والانتقاض فكانت الحكومة ترسل القوى تلو القوى لاخضاعهم ، وكثيرا ما استعانوا بالدول الاجنبية فى محاربة دولتهم ومقاومتها

ولا يخفى ان توالى الفتن والاضطرابات الداخلية وخروج الدولة مكسورة فى معظم الحروب الخارجية وما يستلزمه ذلك من تجهيز الجيوش و بذل النفقات ودفع

الغرامات والتعويضات قضى على الزراعة والصناعة واستنزف الثروة العامة ، واخمد كل حركة علمية وادبية واجتماعية فهوت البلاد فى حضيض الجهالة والفقر . والجهل والفقر من اعدى اعداء العزة القومية . وهيهات ان يرتفع لأمة جاهلة وفقيرة شأن ، او ينبه لها ذكر

٢

حكومات الطوائف والحكم العثمانى

هنالك فرق جوهرى بين حكومات الطوائف التى تقلبت على البلدان العربية فى خلال القرون الوسطى و بين الدولة العثمانية التى حلت محلها فقد كان ملوك هذه الطوائف وامراؤها ورجالها يندمجون فى الامة العربية صاحبة البلاد و يقتبسون عاداتها وتقاليدها و يتأدبون بأدبها ويعدون ذلك فخرا لهم اى انهم ما كانوا يرون انفسهم ارقى من اهل البلاد ولا ارفع منزلة منهم ، ولبعضهم آثار مشكورة فى خدمة اللغة العربية والآداب العربية وتعزيزها والعناية بها ورفع شأن المشتغلين بهما

وتبدلت الحال بعد الاحتلال العثمانى فقد جعل العثمانيون لغتهم رسمية فى بلاد العرب بدلا من اللغة العربية ، لغة الدين ولغة القرآن ، ولغة الدولة منذ الفتح العربى ولغة الادب ، فكانت المكاتبات بين حكومة العاصمة و بين حكام الولايات تجرى بالتركية وحدها

وجرت الدولة منذ الفتح على ان ترسل الى البلدان العربية ولاة من الترك لايفقهون لغة البلاد ، ولا يعرفون شيئا عنها . ولا يكاد الباحث فى اسماء الولاة الذين ارسلوا الى مصر او الى سورية والعراق فى خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر يعثر على اسم وال عربى ولى ادارة اقليم من هذه الاقاليم العربية الا ماندر ومثل ذلك كان الحال فى الجزائر وتونس وطرابلس الغرب

وساعد اختيار الولاة من الترك ، وكان لكل منهم حاشية من ابناء جلدته على انتشار اللغة التركية فخلت محل اللغة العربية فى مصالح الدولة واعمالها واقبل

كثيرون من ابناء البلاد ولا سيما من المتصلين بالحكومة او المنتسبين اليها ، ومن طلاب الوظائف على تعلمها واكتسابها فكان ذلك من جملة العوامل فى اضعاف اللغة العربية وتقهقرها وانحطاطها ولا تنهض اللغة وتتقدم الا فى ظل دولة مستقلة ترعاها وتعتمد عليها فى مخاطباتها

ولم يقف الامر عند هذا الحد بل تناول التعليم الدينى فأهمل فى هذا العهد اهمالا شائنا فراجت البدع والخرافات وانطفأ نور العلم الحقيقى ، وكثر الدجل والتدجيل

و بين ظلمات هذا الانحطاط الدينى والقومى والاجتماعى قام محمد بن عبد الوهاب فى نجد يدعو الى الاصلاح الدينى واحياء السنة والرجوع الى الاسلام الصحيح فهزت دعوته جزيرة العرب هزا ، واحدثت فيها حركة اقلقت الترك وازعجتهم

٣

محمد بن عبد الوهاب

هو محمد بن عبد الوهاب بن محمد بن على التميمى النجدى ولد سنة ١١١٥ هـ فى مدينة « العيينة » من مدن وادى حنيفة (نجـد) ونشأ فيها نشأة علم وتقوى فى ظل والده الشيخ عبد الوهاب مفتى نجـد واحـد كبار علمائها فى ذلك العهـد ، وتلقى عليه علمى التفسير والحديث وكان يدرسهما للطلاب والمتعلمين وكانوا يقصدونه من كل صوب

وظهرت عليه مخايل النجابة والذكاء من الصغر ، فناط به والده ادارة الشئون المنزلية ، ثم زوجه مبكرا على جارى عادة النجديين فى تزويج فتيانهم

ورافق محمد ركب الحج النجدى فهبط مكة حاجا ثم زار المدينة المنورة فقضى فيها شهرين ثم عاد الى حريملة (احدى مدن نجد) وكان والده قد انتقل اليها فعكف على الدراسة والتبحر فى العلوم

وفتحت هـذه الرحلة وهى الاولى الى خارج نجـد عيونه ونبهت ذهنه الى ان هنالك عالما آخر غير عالم نجد ، وعلماء غير علمائها وبعثته على طلب المزيد من العلوم والفنون التى كانوا يتدارسونها فى ذلك العصر وهى العـلوم الدينية والشرعية وفنون اللغة العربيـة ، فلم يطل المقام بل شد رحاله الى البلدان المجاورة طلبا للعـلم فزار الحسا (نجـد) ثم قصد البصرة وحط رحاله فى رحابها واقام فيها زمنا لا يمكن تحـديده بالضبط ولـكن الدلائل تدل على انه غير قصير يتردد على حلقات العـلم ومجالس العلماء والادباء ويحادثهم ويناقشهم ويستعين بهم فى حـل المعضلات وكشف الغوامض فـكشف له عن حقائق الشريعة ونفـذ الى روحها فتبين ان المسلمين ابتعـدوا عن

حقيقتها ومالوا الى بدع لايقرها دينهم الحنيف ولا يرتضيها شرعهم الطاهر فجاهر بانكارها وفى مقدمة ماانكره زيارة القبور وتعظيم الاولياء تعظيما لايقره الشرع ولا يتفق مع الآداب الاسلامية الصحيحة التى سنها السلف الصالح ورسمتها الشريعة المطهرة

وانكر بعض البصريين على ابن عبد الوهاب آراءه ووقفوا فى وجهه وما زالوا به حتى اخرجوه من مدينتهم فقصد الشام ولم يطل الاقامة فيها فقد اضطرته ظروف خاصة للرجوع الى نجد فرجع اليها واستقر فى حريملة

وتختلف عودة ابن عبد الوهاب الى بلدته فى هذه المرة عن عودته فى المرة الاولى يوم جاء من الحجاز ، فهو يعود الآن من العراق والشام بدعوة جديدة لتنقية الاسلام مما لصق به والرجوع الى اصل الشريعة فلقى فى حريملة مالقاه فى البصرة فأنكره قومه ، ونبذوه فهاجر الى العينة (مسقط رأسه) فلقى من عثمان بن معمر اميرها نصيرا ومؤيدا فأنزله على الرحب والسعة وارتاح الى دعوته وارتضاها واعلن انه يؤيده قلبا وقالبا فكان ذلك اول فوز له كما كان مبدأ تحول خطير فى حركته فانضمام احد الامراء اليها وتوليه حمايتها مما لا يستهان به وخصوصا فى تلك الآونة الحرجة فقد كان يعمل فريدا وحيدا عاطلا من الانصار والاعوان

وشرع الشيخ بعد ما اشتد ساعده بانضمام ابن معمر اليه فى هدم القباب والاضرحة القائمة هنالك فهدم اضرحة الشهداء من الصحابة الذين استشهدوا فى معركة اليمامة الكبرى سنة ١١ للهجرة اى فى حروب الردة المشهورة ومن جملتها قبر زيد بن الخطاب نجل الخليفة عمر بن الخطاب فقد استشهد فى تلك المعركة ودفن فى وادى حنيفة وكان الناس يزورونه ، وكذلك هدم ضريح ضرار بن الازور صاحب الوقائع المشهورة فى فتح الشام وهو مدفون فى وادى غبيرة وقطع شجرة الذيب وكانت مشهورة مقصودة فى وادى حنيفة تشد اليها الرحال واشجارا اخرى كان يزورونها واقام الحدود الشرعية ونفذها بلا هوادة فرجم زانية اعترفت بالزنا وشهد على

اقرارها اربعة فكان لعمله دوى شديد ، وتحدث به الناس فى كل مكان ووصل خبره الى سليمان المحمد رئيس بنى خالد وامير الحسا وكان نفوذه السياسى يشمل العيينة ايضا فأرسل الى عثمان بن معمر بان ينفى الشيخ او يقتله فأشار عليه بالسفر فسار الى الدرعية عاصمة آل سعود فكان ذلك بدء اتصاله بهم ، وفاتحة انتشار دعوته ، وذيوع اسمه ، وتحول حركته

٤

نجد

يحد نجـدا من الغرب الحجاز ومن الشرق الخليج الفارسى ومن الجنوب اليمن (نجران) ومن الشمال العراق وتتألف من مقاطعات عديدة : الافـلاج والعارض والوشم والقصيم وعنيزة و بريدة والحسا وجبل شمر

ولزمت قبائل نجد الحياد عند ظهور الاسلام وأبت ان تتدخل فى النضال العنيف الذى دار بين المسلمين و بين قريش فلما علت كلمة الاسلام واستولى المسلمون على مكة ودان لهم الحجاز ارسلت وفودها الى المدينـة تعلن دخولها فى الاسلام واهتدائها بهديه فاعتز الاسـلام بها ، وكان لهـا شأن فى نصرته ، وفى مقـدمتها قبائل تميم وطيء وحنيفة واسد وعامر الخ

واسس النبى (ص) حكومة فى نجد ولاها بعض امرائه ، كما ولى بعض زعماء نجد على قبائلهم ، فسارت الامور سيرا حسنا وكانت قبائل نجد فى جملة من ارتد بعـد وفاته فأرسـل عليها ابو بكر الصديق حملة عسكرية كبيرة بقيادة خالد بن الوليد فعادت الى الاسلام واخرجت الزكاة واقامت الصلاة ، وشذت قبيلة بنى حنيفة وقاتلت المسلمين انتصارا لمسيلمة الـكذاب فدارت بين الفريقين معركة حامية قتل فيها الوف وانتهت بفوز المسلمين وانتصارهم واستسلام الحنفيين وخضوعهم فاستقر الاسلام فى نجـد وتوطدت قواعده

وانضم النجديون الى الجيوش الاسلاميـة التى زحفت الى العراق والى الشام فأبلوا بلاء حسنا . وظلت نجـد تابعـة من الوجهة الادارية لحكومة المدينـة مباشرة

فكانت توفد اليها العمال والموظفين

وخضعت نجد للدولة الاموية وكانت فى هـذه الحقبة تتبع امارة المدينة . وظل هـذا حالها ايضا فى العهد العباسى . ولم يخـل الامر من فتن واضطرابات اتقـدت فى الاراضى النجدية ولقيت الحكومة عناء فى اخمادها ، وسيطر القرامطة بعـد ذلك على الحسا ونشروا نفوذهم فى ربوعها

وتقلبت الحكومات والدول على هذا القطر حتى جاء العثمانيون الى العراق فخضعت لهم نجـد خضوعا اسميا فى عهد السلطان مراد الرابع . واحتفظ امراؤها بالاستقلال فى شؤونهم الداخلية لاسيطرة للترك عليهم ولا نفوذ فى داخل بلدانهم ، ولعل مصدر ذلك بعد نجـد عن العراق وعدم وجود مايغرى بالاستيلاء عليها و بالبذل فى سبيلها ولا يزال الاستعمار والفتح من اقـدم ازمنة التاريخ عملية تجارية يراد بها الربح المادى والنفوذ الادبى واكتساب الجاه

٥

ابن سعود وابن عبد الوهاب

كان فى نجد عند ظهور دعوة ابن عبد الوهاب اربع امارات تتجاذب حبل الزعامة والنفوذ وهذه اسماؤها :

١ ـ امارة آل سعود فى الدرعية

٢ ـ امارة دهام بن دواس فى الرياض (العارض)

٣ ـ امارة آل عريعر فى الهفوف

٤ ـ امارة آل معمر فى العيينة

٥ ـ امارة آل خالد فى الحسا

واحدث هذه الامارات عهدا امارة آل سعود فقد اسسها فى تلك الحقبة مؤسسها سعود بن مقرن بن مرخان من نخذ ولد على من بطن مسلم من قبيلة عنزة من ربيعة ، وما كانت منطقة نفوذها تتجاوز الدرعية والواحات الصغيرة المجاورة لها

ولا نملك بيانات تاريخية مفصلة عن سعود هذا وعن نشأته وكل ماوعاه التاريخ من اخباره انه قدم الدرعية فى صباه من بادية نجد فنشأ بها واسس بفضل نشاطه امارة نمت واتسعت

ولئن كنا لا نعرف زمن ولادته ، فزمن وفاته معروف فقد توفى سنة ١١٣٧ هـ (سنة ١٧٣٤م) وأورث امارته نجله الاكبر محمد ويعد المؤسس الحقيقى للدولة السعودية الجديدة وهى اول دولة عربية ينشؤها العرب فى داخل الجزيرة بعد سقوط الدولة العباسية بل هى اول ثمرة من ثمرات اليقظة القومية الجديدة التى نادى بها محمد بن عبد الوهاب

واستعان محمد باخوته الثلاثة وهم ثنيان وفرحان ومشارى فى توسيع نطاق امارته فأعانوه ، وشدوا أزره وعضدوه ، ولجأ محمد بن عبد الوهاب الى الدرعية عاصمة الامارة الجديدة بعد ما طرد من حريمله والعيينة واقفلت فى وجهه الابواب ، فكانت هجرته اليها الهجرة الثالثة بعد حلوله البصرة وشروعه فى نشر مبادئه الجديدة

ويقول المؤرخون ان محمد بن سعود تردد فى الاستجابة للدعوة الجديدة مع الحاح اخويه مشارى وثنيان عليه بقبولها وباكرام صاحبها لانه خاف من غضب العامة وانقلابهم عليه . بيد ان توسط زوجه ـ وكانت عاقلة ، مدبرة ، حكيمة وكان من عادته ان يستشيرها ويأخذ برأيها ـ جعله يعدل عن تردده. فقد اشارت عليه بان يؤيد الشيخ ويشد عضده ، ويروى انها قالت له « انها غنيمة ساقها الله اليك فاغنمها ولا تتردد ففيها الخير والنجاح والتوفيق »

وزار محمد بن سعود بعد ان سمع من زوجه ماسمعه الشيخ فى محل نزوله مبالغة فى تعظيمه كما قالوا ، ورحب به وقال له « ابشر بالعز والمنعة » فارتاح الى ماسمع وتهلل وجهه وقال له « وانت فابشر بالعز والتمكين مادمت عاهدتنى على كلمة التوحيد التى دعا اليها الرسل كلهم »

على هذا المنوال تم الاتفاق بين ابن سعود وابن عبد الوهاب وكان من نتائجه اتساع نطاق الدولة السعودية الاولى و بسطها ظلها على نجد والحجاز وعسير و بعض اجزاء العراق الجنوبية و بلوغ جيوشها حدود الشام واليمن

٦

الاستيلاء على نجد

....

بر محمد بن سعود بوعده لابن عبد الوهاب فاحتضنه وحماه وحمل السيف لتأييد دعوته ، ونشر مبادئه ، فعمت وراجت وكانت مقدمة لانقلاب سياسى خطير الشأن طرأ على نجد فحولها من حال الى حال

وتم للسعوديين فى خلال وقت قصير ، الاستيلاء على العيينة ، عاصمة ابن معمر والمنفوحة ، وحريملة

وساء ابن دواس « امير العارض » ماجرى فحمل بخيله ورجله على المنفوحة لاستردادها ، والقضاء على النفوذ السعودى فى ربوعها ، فأسرع ابن سعود الى انجادها وقاتل دهاما وهزمه فى معركة حامية اصيب فيها هذا برصاصتين ثم شفى وعاد الى ما كان عليه من مقاومة السعوديين ومقاتلة الدعوة الجديدة وكان يرى فيها خطرا على كيانه ، وفوزا لخصمه ومنافسه

ونشط السعوديون لنشر المبادىء الجديدة فى انحاء نجد وحمل الناس على الانضمام اليها فأدركوا نجاحا يذكر وبسطوا نفوذهم على معظم اقطارها فبلغوا الزلفى فى الشمال والخرج فى الجنوب واستعصى عليهم الوشم والسدير فى الوسط وهما من مقاطعاتها الكبرى فقاوم سكانهما الدعوة الجديدة وصمدوا لابن سعود وانصاره وارسلوا الرسل والدعاة الى حريملة يدعونها الى الانضمام اليهم وموالاتهم فاستجابوا لهم فتجددت الفتن وارسل ابن سعود القوى والانصار فقمعوا الفتنة واعادوا حريملة الى حظيرة الطاعة بعد ما غادرها بعض ابنائها الى الرياض مستجيرين بدهام فأنجدهم وسار لمهاجمة ابن سعود وهو يرجو ان ينال فى هذه الحملة مافاته فى الحملة الاولى

وانضم ابن عريعر صاحب الهفوف الى دهام وانضم اليـه ايضا اهـل الوشم والسدير وهكذا تألبت نجد على ابن سعود واجتمعت على قتاله ، وجاء الاحلاف فهاجموا حريملة والعيينة وحاصروها فردوا خائبين وتفرقوا من دون ان ينالوا منالا ولا ريب إن انتصار ابن سعود على الاحزاب وفوزه بتشتيتها رفع مكانتـه وزاد فى هيبته وكان من النتائج المباشرة لهذا الفوز السلبى انضمام اهل السدير والوشم اليه فاعتز بهم وسر بانضمامهم وعدل موقفـه العسكرى فانتقـل من خطة الدفاع الى خطة الهجوم فسار فى سنة ١١٧٥ الى الرياض فاحتلها ثم مالبث ان جلا عنها لاعتبارات عسكرية

وتتابعت بعـد ذلك الحروب والغارات بينـه و بين ابن دواس وكانت سجالا وانتهى هذا الدور بعقد صلح بينهما يقر الحالة الراهنة

وأعد ابن عريعر صاحب الهفوف قوة عسكرية كبيرة زحف بها على الدرعية سنة ١١٧٨ لقتال ابن سعود ، وظن ابن دواس انها فرصة مواتيـة فانضم الى هـذا متناسيا عهده فدارت معارك عنيفة انتهت بانتصار السعوديين فلجأ ابن دواس بعد هذا الاندحار الى الدرعية يطلب الصفح والعفو فناله

واتجهت انظار ابن سعود بعد فوزه المتوالى الى ما وراء حدود نجد فجهز حمـلة كبيرة بقيادة نجله عبد العزيز زحفت الى الجنوب واستولت على وادى الدواسر فاستفز ذلك اهل نجران فهاجموا الحملة وردوها على اعقابها

وأسرع ابن دواس فانضم الى النجرانيين وحمل معهم على السعوديين فتراجع عبد العزيز الى الدرعية وتحصن فيها لعجزه عن المقاومة خارجها

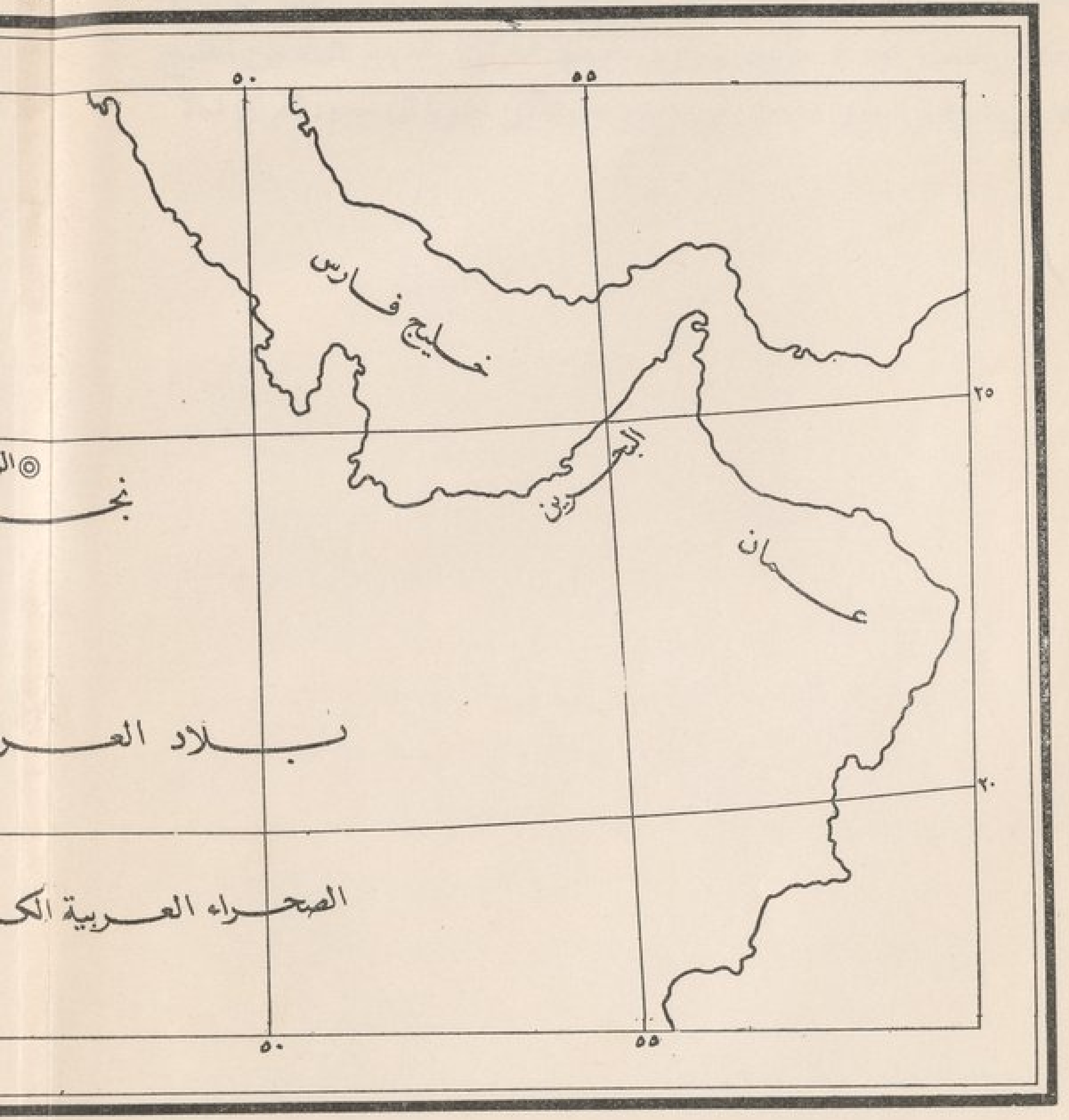
ومات محمد ابن سعود سـنة ١١٧٩ بعد نضال امتد ٢٢ عاما ١١٥٧ - ١١٧٩ و بعد ما اخضع معظم اقطار نجد

وخلفه ابنه عبد العزيز و بو يع بالامارة بدلا من ابيه فـكان اول عمـل شرع فيه انه اعد حمـلة كبيرة لمهاجمـة الرياض ومنازلة خصم السعوديين العنيد (دهام بن دواس) وعرف هـذا بمـا يدبره عدوه فسار الى لقائه ودارت معـركة انتهت بارتداد عبد العزيز مهزوما فلم ييأس بل زاده الفشل اقداما فواصل تجهيز الحملات على الرياض

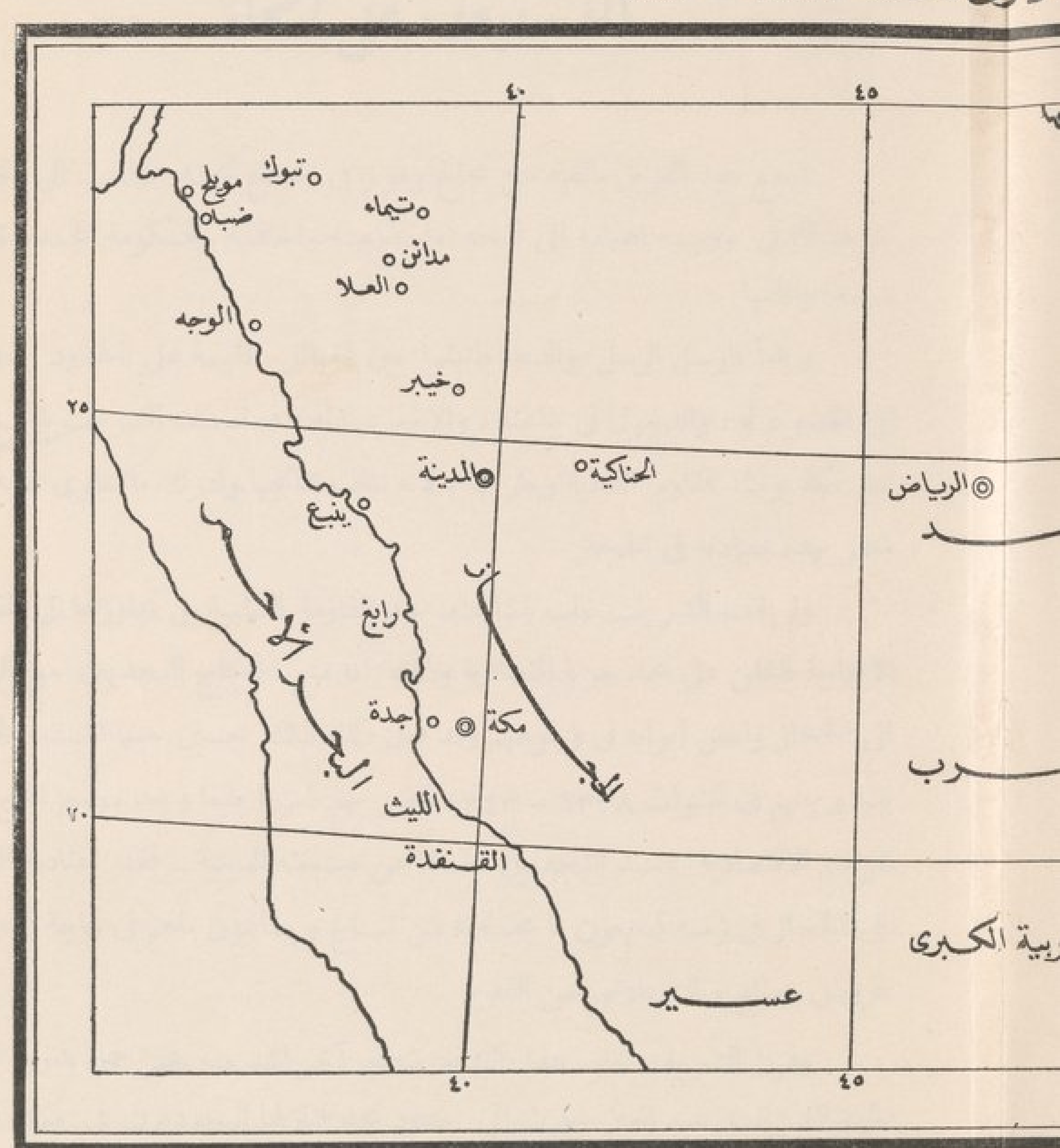
حتى استولى عليها سنة ١١٨٧ بعد حصار دام مدة طويلة ، وفر دهام الى الحسا ومات فيها بعد قليل

واغتنم عبد العزيز فرصة خلاف نشب بين آل عريعر اصحاب الحسا والتجاء بعضهم اليه فأرسل قوة استولت على جنوبيها كما استولى ابن السعدون على شماليها وهكذا خضعت نجد للسعوديين وصارت حدود امارتهم الجديدة تمتد من الخليج الفارسى شرقا الى حدود الحجاز غربا ومن حدوداليمن جنوبا الى حدود العراق شمالا

خريطة الدولة السعودية الاولى س



الاولى سنة ١٧٢٧ - ١٨١٨



٧

الاستيلاء على الحجاز

شجع عبد العزيز مالقيه من نجاح وفوز فى اخضاع نجد فالتفت الى الحجاز جارها الادنى ووجه اهتمامه الى فتحه واخضاعه والحاقه بالحكومة الجديدة التى شيدها واقامها

و بدأ فارسل الرسل والدعاة فانبثوا بين القبائل المقيمة على الحدود يدعونها الى الخضوع له ، والدخول فى طاعته ، والاخذ بمبادئه ، فساء ذلك الشريف غالب باشا امير مكة يومئذ فقاوم الدعاية وحاربها ، لانه خاف نتائجها وادرك ماتنطوى عليه من خطر يهدد سيادته فى الحجاز

ولم يقف الشريف غالب باشا عند حد المقاومة السلبية بل تجاوزها الى المقاومة الايجابية فاعلن على نجد حربا اقتصادية وذلك انه منع الحجاج النجديين من الوفود الى الحجاز واغلق ابوابه فى وجوههم وقد فعل ذلك الملك حسين حينما اشتد الخلاف بينه و بينهم فى سنوات ١٣٣٨ - ١٣٤٣ فاضر بهم ضررا بليغا و يعد موسم الحج من المواسم الاقتصادية عند النجديين فضلا عن صبغته الدينية - فقد اعتادوا الوفود الى الحجاز فى زمنه فيبيعون ما يحملونه من نتاج و يبتاعون ماهم فى حاجة اليه من عروض ومتاع وتلك عادتهم من القديم

وقرن الشريف غالب هذا التدبير بتدبير آخر اشد منه فجهز حملة بدوية قادها اخوه الشريف عبد المعين سارت الى حدود نجد فنازلها السعوديون فى مكان اسمه « السر » وهزموها فكبر ذلك عليه وحفزه الى اعداد حملة اخرى قادها بنفسه وزحف بها الى نجد ولكنه لم يلبث ان ارتد بطريق السوارقية قبل الصدام لانه

(م — ٤)

خاف عواقب حركة التفاف عرف ان عبد العزيز يدبرها و يحبك اطرافها فاغتنم السعوديون الفرصة وحملوا على قبائل الحدود وهى مطر وعتيبة وشمر و بنو عبد الله ، فادبوها واخضعوها ، وتحسنت الحالة بين الامير والشريف بعد ذلك وعقد بينهما فى سنة ١٢١٣ اتفاق يقضى بالمحافظة على الحالة الراهنة ، وقدم الحجاز الامير سعود ولى عهد الامارة السعودية حاجا فى سنة ١٢١٥ فبالغ الشريف فى اكرامه

ونشب خلاف فى سنة ١٢١٨ بين الشريف غالب و بين نسيبه عثمان المضايفى ، وكان عاملا على الطائف فكاتب عبد العزيز السعود واتصل به وانضم اليه وسلمه الطائف مفتاح الحجاز

ومما يستحق الذكر هنا للعظة والاعتبار ان الشريف خالد بن لؤى مثل مع عبد العزيز السعود الثانى نفس الدور الذى مثله عثمان المضايفى مع عبد العزيز السعود الاول فقد انضم ابن لؤى الى السعوديين كما انضم اليهم المضايفى وخرج على ابن عمه وآل بيته من بنى هاشم كما خرج ذاك وسلمهم تربة والخرمة ثم زحف فاستولى على الطائف فى سنة ١٣٤٤ وسلمها اليه كما سلمها زميله المضايفى من قبل وسار بعد ذلك الى مكة فدخلها باسم عبد العزيز السعود وكان هذا لايزال فى الرياض

واتجه المضايفى بعد الاستيلاء على الطائف و بعد مادمرها وفتك بأهلها وقد فعل ذلك خالد بن لؤى ايضا، الى القنفدة وهى ميناء للحجاز على حدود عسير فاستولى عليها باسم السعوديين ثم قصد مكة فحاصرها ودافع عنها الشريف غالب وجاء سعود بالذات فتولى الحصار وفى سنة ١٢٢١ دخل مكة فأبقى الشريف فى منصبه

واستولى السعوديون بعد ذلك على المدينة و ينبع وجده و بقية المدن الحجازية وهدموا القباب والاضرحة وابطلوا كثيرا من العادات القديمة فاستغل الترك ذلك و بثوا دعاية واسعة النطاق فى العالم الاسلامى ضد السعوديين وشوهوا سمعتهم، وصوروا حركتهم القومية بغير صورتها الحقيقية ، فنفر سواد المسلمين وعامتهم منها ، وما كانوا يعرفون حقيقة اغراضها ومقاصدها

٨

السعوديون على حدود العراق

اصطدم عبد العزيز السعود بثويني السعدون زعيم قبائل المنتفك وجاره الجديد فى الحسا فاستغاث هذا بحكومة بغداد العثمانية وطلب منها ان تمده بالمال والرجال لقتال ابن سعود عدوها وعدوه فوافق اقتراحه هوى من نفس الوالى وكان يرى فى الحركة السعودية خطرا على مقام دولته فى العراق ، فرفع الامر الى الباب العالى ملحا بقبوله فاستجاب له واطلق يده فى العمل فعبأ جيشا زحف مع قوات ثوينى السعدون الى القصيم سالكا طريق الحج المعروف (النجف ـ حائل) ففتحت له البلاد التى مر بها ابوابها وامسكت عن قتاله فاستولى عليها وواصل تقدمه بدون عناء حتى بلغ « بريدة » فحط رحاله حولها ، وشرع فى حصارها

وعلم وهو يحاصر بريده ان احد ابناء عمه انتقض عليه ففك الحصار وعاد من حيث اتى فاسرع عبد العزيز وكان يرقب الحالة عن كثب فبسط نفوذه على القصيم

واعد عبد العزيز فى سنة ١٢١٤ اى بعد ماعقد الاتفاق مع الشريف غالب وارتاح باله من جهة حدوده الغربية حملة لمهاجمة العراق ، وكان يرجو ان يحقق اغراضا شتى من وراء حملته هذه فيضرب خصمه ومنافسه ابن السعدون ويحتل العراق وينشر مبادئه فيه ، ومهد لذلك فبث سراياه حول الحدود فواصلت تقدمها حتى قرب البصرة

وابلغ سليمان باشا والى بغداد الباب العالى ماجرى وعكف على اعداد جيش من المتطوعين والبدو ومن بعض عربان نجد ولى قيادته ثوينى السعدون نفسه ،

واسرع عبد العزيز فارسل ابنه سعود وخادمه ابن معقل لمنازلة هـذا الجيش وصده قبل ان يوغل فى نجد . وقتل فى تلك الاثنـاء ثوينى قائده فتفرق الجيش واغتنم السـعوديون الفرصة فتقـدموا حتى السماوة (العراق) وغنموا غنائم عظيمة وعادوا سالمين الى بلادهم

وعبأ سليمان باشا حمـلة اخرى بقيادة عـلى بك كتخداه (وكيله) سارت حتى الحسا واستقرت فيها فالتف حولها بعض النجديين من خصوم آل سعود

ويقول بعض المؤرخين ان جيش على بك هذا كان اكبر جيش حشده الترك لمقاتلة السعوديين فخافه بعض رجالهم واحجم عن لقائه وارتد الى بلاده

وتبدل الموقف عقب حادث خلاف حدث فى الجيش التركى وادى الى انفصال احـد زعماء البلاد عنه وانسحابه مع رجاله وانصاره فخاف قائده النتيجة فراسـل ابن سعود وعقد معه صلحا يقضى بالمحافظة على الحالة الراهنة

وسكنت الحوادث بعد هذا الصلح على الحدود العراقية ـ النجدية حتى سنة ١٢١٦ ففى تلك السـنة عبأ ابن سعود قواه كلها وسار اليها ويقول المؤرخون ان الترك هـم الذين بدأوه بالعـدوان اذ هاجموا قافـلة من قوافل الحجاج النجديين واعتدوا عليها . وبدأ السعوديون هجومهـم على منطقة الفرات السـفلى فاستولوا على كربلاء سـنة ١٢١٦ واغاروا على الحواضر الواقعة بين الزبير والنجف كما هاجموا مدينة النجف ذاتها فدافع عنها اهلها بشـدة وحموها وغنم السعوديون فى هذه الحملة غنائم كثيرة واخذوا ما فى الحرم الحسينى فى كربلاء من مجوهرات وآثار وكان لهذه الحادثة دوى شديد فى العالم الشيعى وقصد احد شبان الشيعة الدرعية متنكرا وباغت الامير عبد العزيز السعود وطعنه بخنجر فى ظهره وهو يصلى العصر فى مسجد الطريف فقتله وذلك سنة ١٢١٨

وحل سعود فى دست الحـكم محـل ابيه فبادر شاه ايران فارسل اليه يهدده ويطلب منـه ان يعيد المجوهرات التى اخـذها من الحرم الحسينى فاجاب بانها وزعت على المجاهدين ولا سبيل لاستردادها ، ثم تحسنت الصـلات بين الحـكومتين وتبادل الامير والشاه الهدايا

٩

الترك والحركة السعودية

ازعجت الحركة السعودية الترك واقلقتهم فأرسلوا الحملات من العراق فهزمت وشتت وكان ذلك ايضا مصير القوى التى جهزها الشريف غالب فقد هزموها واستولوا على الحجاز من اقصاه الى اقصاه كما استولوا على تهامة وعسير ونجران فصارت حدود الدولة السعودية الجديدة تمتد من الخليج الفارسى شرقا حتى البحر الاحمر غربا ومن تهامة جنوبا حتى حدود العراق شمالا وتكاد تكون نفس حدود الدولة السعودية الجديدة التى انشأها وجددها جلالة الملك عبد العزيز الثانى

وكانت الدولة العثمانية فى اثناء زحف السعوديين على الحجاز منهمكة فى حربها مع الفرنسويين وفى تجهيز الحملات لاخراجهم من مصر وكان نابليون بونابرت يحتلها فى تلك الايام باسم الجمهورية الفرنسوية ويطمع فى الاستيلاء على الشام ، وقد وصل فى زحفه حتى عكا مكتسحا المنطقة الواسعة بينها وبين الحدود المصرية ولولا ثبات من فيها واشتراك الاسطول البريطانى فى الدفاع عنها لدك اسوارها ، واخضع رجالها ،

ونشط الترك لمحاربة الفرنسويين ، بعد ذلك ، فتم لهم بمساعدة الانكليز اخراجهم من مصر وبسط سلطانهم عليها ، ولما استقرت حكومة محمد على باشا فيها وقد تولاها (سنة ١٨٠٥ - ١٢٢٠ هـ) ندبه الباب العالى فى سنة ١٨٠٧ لمحاربة السعوديين وللقضاء على حركتهم فاعتذر فالح عليه فتجهز فى سنة ١٨١٠ لقتالهم فجرت بينه وبينهم حروب امتدت ثمانى سنوات ١٨١٠ - ١٨١٨ وسيأتى الكلام عليها فى الفصل المقبل وانتهت باخضاعهم واعيدت بعد ذلك جزيرة العرب الى حكم الترك فعاد اليها الفوضى والاضطراب

وعلى كل فان الفوز الذى ادركه السعوديون فى حركتهم تلك مما لايستهان به مطلقا ، فاخضاع نجد وتوحيدها ثم الاستيلاء على الحجاز وتهامة وعسير ونجران ، واكتساح الحدود العراقية والوصول الى السماوة وساحل الفرات فى العراق ، ومنطقة حوران فى الشام والتغلب على قوات الترك وقوات الاشراف فى الحجاز وكان الترك يؤيدونها و يشدون ازرها ـ ليس من الهنات الهينات وهو يدل على سلامة تلك النهضة القومية ومتانتها وصحة المبادىء التى قامت عليها ، كما يدل على قوة مادة الحياة فى الشعب العربى وعلى انه كان مؤمنا بتلك الحركة ومؤيدا لها ولولا ذلك لما تدفقت الى البلاد المجاورة لها وقضت على الحكومات التى كانت تسودها وتسيطر عليها . ولا يخامرنا شك فى انه لو اعتقد الباب العالى ان فى استطاعته التغلب عليها بسهولة لما استعان بمحمد على ولما كلفه ان يتجهز لها . ونحن فى غنى عن القول انه كان للاموال العظيمة التى نثرها محمد على فى الحجاز وللنظام الحديث الذى ادخله على جيشه وللمدفعية القوية التى جهز بها هذا الجيش وللضباط الاوربيين الذين اشتركوا فيه تأثير لاينكر فى احراز النصر الذى احرزه ابراهيم باشا على السعوديين بعد نضال شاق وطويل لانهم كانوا يحاربون طبقا للاساليب القديمة ، ولان مواردهم المالية كانت محدودة ، بعكس موارد الحكومة المصرية كما ان سلاحهم كان من الطراز القديم

فسقوط الدولة السعودية كان طعنة جديدة اصابت القومية العربية ولم يخفف من وقعها سوى انها جاءت من دولة عربية فتية كان العرب يعلقون عليها آمالا كبارا وهى الدولة التى تقرأ تاريخها فى الفصل الآتى

محمد على والامبراطورية العربية

١

الانكليز يجلون عن مصر

ما كاد الفرنسويون [١] يجلون عن مصر فى سنة ١٨٠١ حتى عاد النضال بين الترك والمماليك الى عهده القديم وتجددت بينهما المنافسات والمنازعات وكان كل منهما يعمل ليفوز بالسلطة والنفوذ ، فينفرد بالحكم ، ويستغل القطر لمصلحته

وقبض الصدر الاعظم يوسف ضيا باشا على ازمة الحكم وعكف على انشاء الحكومة الجديدة ، فأقلق ذلك المماليك لانهم كانوا يطمعون بتسلم زمام البلاد واحياء النظام القديم واعادة ما كان الى ما كان ، فقاوموا الصدر سرا ووضعوا العقبات فى طريقه كما اتصلوا من الناحية الاخرى بالانكليز وكانوا لا يزالون ينزلون العاصمة ورجوهم المساعدة فشجعوهم ونفخوا فيهم روحا جديدة وكانوا يرجون ان يتاح لهم بفضل هذه السياسة ترسيخ اقدامهم فى الوادى ، وما قاتلوا الفرنسويين الا رجاء ان يحلوا محلهم فيه

ونسج قادة الترك شبكة احسنوا حبك اطرافها لاصطياد المماليك والفتك بهم فاتفق الصدر الاعظم وحسين باشا اميرال الاسطول على ان يدعو كل منهما فريقا من زعماء المماليك الى زيارته ومتى جاءوا يوعز لرجاله بقطع رؤوسهم وكثيرا ما كان رجال الدولة العثمانية فى ذلك العهد يلجأون الى مثل هذه الاساليب للتخلص من منافسيهم وخصومهم ، وقد فعلها السلطان سليم نفسه مع وفد السلطان الغورى حينما ارسله اليه قبل مرج دابق

ولما تم الاتفاق على تفصيلات المؤامرة ارسل الاميرال حسين باشا من

---

(١) تقرأ اخبار الحملة الفرنسوية الى مصر فى هذا الجزء

الاسكندرية يدعو عثمان بك الطنبورجى خليفة مراد بك فى زعامة المماليك وعثمان بك البرديسى ومراد بك الصغير وعثمان بك المرادى ومحمد بك الحسينى وعثمان بك الاشقر وابراهيم بك السنارى لزيارته وقال فى كتاب الدعوة انه يريد الاتفاق معهم على تسليمهم زمام الحكم فطاروا اليه فاستقبلهم بالحفاوة الزائدة ، وبالغ فى اكرامهم، فقضوا اياما فى ضيافته على افضل ما يكون من الرعاية . ولما وثق من اطمئنانهم اليه دعاهم الى اجتماع كبير واخرج فرمانا « مزورا » قال انه صادر من السلطان وتلاه عليهم وهو يتضمن رضاه عنهم وامره (العالى) باعادتهم الى الحكم وتسليمهم زمام البلاد فضجوا بالدعاء للسلطان ، وبعد يوم او يومين على هذا الحادث دعاهم الى زيارته فى بارجته بالميناء لمشاهدتها وحضور المأدبة التى امر ان تؤدب لهم ، فأجابوا الدعوة ونزلوا فى زورق الباشا نفسه ونزل معهم ، وكان ذلك يوم الخميس ٢٨ اكتوبر سنة ١٨٠١ وما كاد الزورق يبعد عن البر حتى التقوا بآخر قادم من البارجة وفيه سعاة اقتربوا من زورق الباشا وابلغوه انهم يحملون رسالة باسمه ، فانتقل فورا الى زورق هؤلاء وعاد معهم الى البر معتذرا بانه يريد الاطلاع على الرسالة وامر البحارة بان يواصلوا السير بالبكوات الى البارجة وتلك كانت العلامة المتفق عليها لتنفيذ المؤامرة ، وما كادوا يبتعدون حتى انهال عليهم الرصاص فشعروا بالمكيدة فقابلوا الاعتداء بمثله ، وكانوا يحتفظون بسلاحهم ، وقتلوا عددا من رجال الباشا قبل ما قتلوهم

وبين الذين قتلوا منهم فى المؤامرة عثمان بك الطنبورجى (كبيرهم) وعثمان بك الاشقر ومراد بك الصغير وعلى بك ايوب ومحمد بك المنفوخ ومحمد بك الحسينى وابراهيم بك كتخدا السنارى ، ونقل عثمان بك البرديسى ، وحسين بك وسليمان اغا مجروحين الى بارجة الباشا فقرنوا الى اخوانهم الذين سلموا وفعل الصدر الاعظم فى القاهرة مافعله صنوه فى الاسكندرية فأرسل فدعا ابراهيم بك وكبار انصاره الى اجتماع عقده يوم الثلاثاء ١٩ اكتوبر (اى قبل تنفيذ مؤامرة الاسكندرية بتسعة ايام) فلما تكاملوا تلا عليهم فرمانا مزورا كالفرمان الذى تلاه حسين باشا وفيه يعلن

السلطان رضاه عنهم ، ويأمر بان يعودوا الى الحكم كما كانوا ويزيد بأنه يعين ابراهيم بك « شيخ بلد » وهو لقب رئيس حكومة مصر فى عهد المماليك ، فاطمأنوا وارتاحوا ودعوا لجلالة السلطان بالنصر والتأييد

وقبل ان ينفض الاجتماع ، احاط بهم رجال الصدر ووضعوا الاصفاد فى ايديهم وارجلهم ونقلوهم الى سجن القلعة بعد ما ابلغوهم بأنهم سيرسلونهم الى استانبول فتبت الحكومة فى امرهم

وكبر على الانكليز ماصنعه الترك بأصدقائهم المماليك فارغوا وازبدوا واحتجوا واستنكروا ، وهددوا الاميرال حسين باشا بالاسكندرية كما هددوا الصدر الاعظم بالقاهرة بانقاذ المماليك جبرا اذا لم يطلق سراحهم فأطلقوهم مرغمين فانضموا الى انصارهم وزعمائهم الآخرين ، وكان بعض هؤلاء قد لجأ الى الجيزة حينما عرف بالمؤامرة ، وكانت عدتهم جميعا لاتقل عن ٢٥٠٠ مملوك وكانوا يجاهرون بعداء الترك وينادون بانهم سينتقمون منهم ، وكان الانكليز يشجعونهم فى هذه الخطة ويرجون ان يجدوا فيهم اداة لتنفيذ سياستهم القائمة على التمكن فى الوادى

معاهدة اميان

وحدث فى تلك الفترة حادث فى السياسة الدولية اضطر الانكليز الى الجلاء ، فقد عقدت يوم ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢ بين فرنسا وانكلترا وهولندا واسبانيا معاهدة اميان ونص فيها على جلاء الانكليز عن مصر

وسبقت هذه المعاهدة معاهدة اخرى عقدت بين فرنسا والباب العالى يوم ٩ اكتوبر سنة ١٨٠١ اعيدت بموجبها العلاقات السياسية بين هاتين الحكومتين وحاول الانكليز ان يحولوا دون عقدها ، فأجابهم الباب العالى بانه يشترط عليهم قبل كل شئ الجلاء عن مصر ، فترددوا ، واخيرا ، وافقوا على الجلاء لانهم ادركوا صعوبة البقاء ، وكانت فرنسا تعلن بانها لاتصالحهم قبل تركهم مصر ، اى انها عاملتهم بما عاملوها به . وانتهى هذا الدور بصدور الامر الى الجيش بالجلاء فغادر القاهرة يوم ٢

مايو سنة ١٨٠٢ الى الاسكندرية وظل فيها حتى يوم ١٤ مارس سنة ١٨٠٣ فجلا عنها نهائيا . وقاتل الترك فى هذه الحقبة المماليك وطاردوهم فتغلب هؤلاء عليهم واستولوا على المنيا حربا ثم على دمنهور فأقلق ذلك بال الوالى خسرو باشا فاستدعى قوات طاهر باشا وكانت ترابط فى الاسكندرية فجاءت الى القاهرة وكان محمد على باشا من قواد هذه الحملة وكان يقود فيها طائفة من قومه الالبانيين ويحمل رتبة بكباشى فى الجيش التركى

وعرف الجنود القادمون انه جىء بهم لارسالهم الى الصعيد لقتال المماليك ، فثاروا يوم ٢٣ ابريل سنة ١٨٠٣ واعلنوا التمرد والعصيان ، وذهب بعض رؤسائهم الى خسرو باشا يطالبون برواتبهم المتأخرة فأحالهم الى مدير المالية ، واحالهم هذا الى محمد على فذهبوا اليه ، وكان قد وعدهم بدفع رواتبهم فى ذلك اليوم فاعتذر اليهم بانه لم يقبض شيئا فثاروا امام منزله ثورة مصطنعة . ويقول بعض المؤرخين ان ماجرى كان بايعاز منه ومن طاهر باشا فقد كانا يعملان للتخلص من الوالى وذاع خبر هذا التمرد فى المدينة فأقلق التجار وازعجهم فشرعوا ينقلون الى بيوتهم الثمين والغالى من الاقمشة فلا تمتد اليها ايدى الجند وكان من عادته ان ينهب فى ايام الشغب ، وسكنت الفتنة اياما ثم تجددت بذهاب الجند الى منزل مدير المالية فى الازبكية يطالبون برواتبهم ، فبعث الى الوالى يطلب اليه ان يمده بالمال ليدفع لهم ، فأمر هذا مدفعية القلعة فضربتهم فثاروا وهاجموا منزل المدير ونهبوه وعظمت الفتنة واتسع نطاقها واقفلت الاسواق والمخازن وساد الهرج والمرج واستمر القتال دائرا بين الالبانيين المتمردين و بين انصار الوالى حتى اليوم التالى وتم فيه للاولين الاستيلاء على القلعة واستولوا فى اليوم الثالث على اهم مواقع المدينة واضرموا النار فى منزل الوالى وحاصروه فغادر العاصمة سرا ومعه عائلته و بعض رجاله الى دمياط واستقر فيها فشغر بذلك منصب الولاية، فدعا طاهر باشا المشايخ والعلماء ورؤساء الجند الى الاجتماع لاختيار وال فاجتمعوا يوم ٦ مايو فى بيت القاضى وذهب وفد منهم فقابل طاهر باشا وابلغه انهم اختاروه « قائمقام » للولاية « وكيل والى » الى ان

تحضر له الولاية او يعين وال آخر بشرط ان يرفع المظالم

وابلغ المشايخ طاهر باشا فى هذا الاجتماع انهم تلقوا رسالة من المماليك يعرضون فيها الصلح والكف عن القتال ، ويطلبون منهم (اى المشايخ) التوسط للصلح فأجابهم طاهر باشا بالايجاب وكتب الى زعماء المماليك يطمئنهم

وسار طاهر باشا فى حكمه سيرة سيئة واطلق العنان لجنوده يسلبون وينهبون وضرب الغرامات الفادحة على التجار فشكوا وضجوا

ومما زاد الحالة سوءا اشتداد المنافسة بين الانكشارية (الجنود الترك) والالبان (جنود طاهر باشا) وكان هذا يعطف على جنده ويغدق عليهم الاموال ويضن على اولئك بكل شئ

وفى يوم ٢٦ مايو ذهب ٢٥٠ تركيا بسلاحهم الكامل الى منزل طاهر باشا لمطالبته بالرواتب فدخل عليه اثنان منهم فانتهرهما واغلظ لهما فى الرد فجرد احدهما سيفه وقطع رأسه ورمى به من الشباك ، ثم احرقوا داره بعد مانهبوها وقبضوا على زمام السلطة وعينوا احمد باشا والى المدينة المنورة ، وكان ينزل القاهرة فى طريقه الى الحجاز

واقترح هذا على العلماء ان يقابلوا محمد على ويقنعوه بقبول ولايته ويحملوه على الطاعة والاذعان ، فلما كلموه رفض وقال لهم : وليت طاهر باشا الحكم لكونه محافظ الديار المصرية من طرف الدولة العلية وله شبه علاقة . اما احمد باشا فليس له ادنى علاقة ويجب ان يسافر فورا

ورأى محمد على ان مصلحته تقضى بالاتفاق مع المماليك والتعاون معهم للتخلص من الانكشارية فسار الى الجيزة واجتمع بابراهيم بك ولمح له فى خلال الحديث بانه احق الناس بولاية مصر وان مقتل طاهر باشا فرصة لاتعوض فيجب عليه ان ينهض للعمل ووعده بالتأييد ضمنا

وجمع ابراهيم بك جموعه وسار على الفور الى القاهرة فطرد احمد باشا وكانت مدة ولايته ٢٤ ساعة فقط ونودى فى العاصمة بتحالف المماليك والالبانيين وقتلوا

اسماعيل اغا قاتل طاهر باشا كما قتلوا مدير المالية السابق و يوسف كتخدا (وكيل) خسرو باشا . وطاف المنادون فى شوارع القاهرة ينادون بالامان « بحسب مارسم ابراهيم بك حاكم الولاية وافندينا محمد على » وذلك طبقا لاصطلاح قديم كان متبعا فى تلك الايام فكان هذا اول اعتراف رسمى بسلطة محمد على بمصر

أقصد محمد علي ج الأول

٢

محمد على فى الميدان

ضمن لمحمد على تحالفـه مع المماليك تخلصه من الترك (الانكشارية) وكانوا قوة يحسب حسابها فمن يضمن له التخلص من المماليك والقضاء على قوتهم ؟ وكيف السبيل الى ذلك ؟

كانت الخطة التى رسمها لنفسه فى المرحلة الجديدة تقوم على التخلى عن المماليك مع التظاهر لهم بالود وترك حبلهم على غاربهم ، وعدم التدخل فى شؤونهم او نصحهم فيظلمون الشعب ، ويسيئون اليه ، فينهض لمقاومتهم وقتالهم ، فينضم هو (محمد على) اليه ويستعين به عليهم فيحاربهم ويتخلص منهم فيصفو له الجو ويصبح صاحب القوة الكبرى ، فيثب الى الحكم ويدرك اوطاره

واسرع الباب العالى فعين على باشا الجزائرى واليا على مصر بدلا من خسرو باشا وارسل معه الف جندى الى الاسكندرية فقدمها وشرع فى تحصينها خوفا من هجوم المماليك عليها ، وكانوا قد اغتصبوا كل سلطان ونفوذ ، فلم يغن ذلك عنه شيئا فقد احتالوا عليه وقتلوه ، واسكرهم هذا الفوز فانطلقوا يسلبون وينهبون ويفرضون الغرامات الباهظة متبعين الاساليب القديمة التى كانوا يسيرون عليها قبل الاحتلال الفرنسوى ، وغافلين او متغافلين عن التحول العظيم الذى طرأ على حالة البلاد وعن الروح الجديدة التى ظهرت فى الشعب

ومما زاد فى استياء الناس وتذمرهم نقص النيل فى تلك السنة (سنة ١٨٠٣) فارتفعت اسعار الحاجيات ولا سيما الخبز ، واشتدت الضائقة على الفقراء والاوساط فأثر

ذلك فى الحالة الاقتصادية وضايق التجار ، فجهروا بالشكوى من سوء حالتهم ومن اعتداء الجنود عليهم ونهبهم لاموالهم وسلعهم ، والف التجار فى النهاية وفدا كبيرا زار العلماء والزعماء و بسط لهم الحالة فذهب السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى (شيخ الازهر) والشيخ الامير الى ابراهيم بك وطلبوا منه وضع حد لاعتداء الجند فركب الاغا والوالى وامامهما جماعة من الالبان والمنادى ينادى بالامان للرعية و بأنه اذا وقع اعتداء او نهب فان للمعتدى عليه او المنهوب ان يضرب الجندى وان لم يقدر عليه فيأخذه الى رؤسائه

واضطربت الحالة لمطالبة الجند بباقى المتأخر من رواتبهم ففرض البرديسى ضريبة جديدة على العقارات والبيوت ، لسد العجز وعهد الى عمال الحكومة بتحصيلها ، فامتنع الكثيرون عن الدفع محتجين بسوء الحالة وعدم وجود المال ، وتجمهر كثيرون فى الشوارع حاملين الرايات والدفوف والطبول ضاجين صاخبين ، واغلق التجار دكاكينهم ومخازنهم وساروا جميعا بمظاهرة كبيرة الى الازهر فقابلوا المشايخ وشكوا لهم سوء الحالة فذهب وفد منهم فقابل المماليك مطالبا بالغاء الضريبة

واغتنم محمد على الفرصة ، وكانت بوادر الثورة قد لاحت ، وكان الشعب يتحفز لمحاربة المماليك والفتك بهم ، فأمر جنوده الالبانيين باعتزال هؤلاء ، وحثهم على التحبب من الشعب وذهب فقابل العلماء وتعهد لهم بأنه سيبذل نفوذه لالغاء الضريبة الجديدة و بأن يكون معهم فى مقاومة الظلم ، واختلط بالعامة ، وأخذ يجول فى الاسواق فشاع ذلك بين طبقات الشعب فأثر فى نفوسها فأقبلت عليه ومالت اليه

وساء البرديسى ما وقع ، وكبر عليه ان يعصى الشعب امره فغادر بيته فجأة وذهب الى مصر القديمة مؤكدا انه لا بد له من تقرير الضريبة ثلاث سنوات اراد المصريون ام كرهوا وشرع فى التأهب لقمع الحركة بالقوة

وادرك محمد على ان مصلحته فى ضرب المماليك والتخلص منهم قبل ان يجمعوا

جموعهم وقواهم من الاقاليم فأرسل جنوده يوم ١١ مارس سنة ١٨٠٤ فهاجموا المماليك الذين كانوا بالقاهرة وقتلوا بعضهم وحاصروا بيت ابراهيم بك ببركة الفيل و بيت عثمان بك البرديسى بالناصرية و بيوت باقى زعمائهم ففروا الى الاقاليم ، وعلم المماليك المحتشدون فى القلعة بفرار زعمائهم وكانوا يضربون العاصمة بمدافعهم فاوقفوا الضرب وفروا لاحقين بهم ، ويقدر عدد من قتل فى ذلك اليوم منهم بثلاثمائة وخمسين قتيلا ، فهتف الشعب لمحمد على ورجاله وسر بما صنعوا

ووصلت اخبار ثورة القاهرة الى الوجه البحرى فانقض اهله على المماليك وقتلوا بعضهم وفر البعض الآخر الى الصعيد لاحقين بزعمائهم و بقية اخوانهم ، فانتشروا هنالك يسلبون و ينهبون

ولم يثب محمد على الى الحكم رغم قضائه على قوة المماليك بل ذهب فى الغداة الى القلعة فأطلق سراح خسرو باشا (الوالى التركى القديم وهو الذى فر الى دمياط على اثر ثورة المماليك الاولى واقام فيها حتى هاجمها المماليك واستولوا عليها فأسروه وجاءوا به الى القاهرة والقوه فى السجن) معلنا انه صاحب الولاية فى البلاد ونادى المنادى بالامان « حسبما رسم محمد باشا خسرو ومحمد على » فلم يرق ذلك لانصار طاهر باشا واصدقائه من الالبانيين وهم رجال محمد على بل ثاروا على خسرو باشا وعزلوه وارسلوه الى رشيد ومنها الى الاستانة فلم يعارضهم محمد على فى ماصنعوه ولكنه الح فى اختيار وال تركى دفعا للقيل والقال والظاهر انه رأى الجو غير ملائم لتنفيذ خطته ، فاجتمع الشيوخ وزعماء الجنود واتفقوا على تعيين خورشيد باشا واليا ومحمد على قائمقاما (وكيلا) واوفدوا وفدا الى الاسكندرية ليبلغ الوالى قرارهم ويعود به فجاء فى اواخر شهر مارس وقبض على زمام الحكم ، وكان كمعظم رجال تركيا فى ذلك العهد ، قصير النظر ، سيىء التدبير ،ميالا الى الظلم والاستبداد اقصى همه جمع المال وادخاره

واتجهت همة الوالى الجديد الى التخلص من محمد على والقضاء على سلطانه

ونفوذه ، وكان يزداد يوما عن يوم ، لانه عرف ان بقاءه الى جانبه يغل يده ، ويكسف نفوذه ، فارسل سرا الى الاستانة فاستصدر فرمانا حمله رسول خاص الى القاهرة يقضى بعودة الالبانيين ورؤسائهم وفى جملتهم محمد على الى البانيا ، ومع ان هذا ادرك سر المكيدة فلم يتردد فى اعلان الطاعة والانقياد والتظاهر باعداد معدات الرحيل علنا ، واثار انصاره سرا ، للمطالبة بابقائه والالحاح بعدم اخراجه ، وقد تم له ما اراد ، فاغلقت العاصمة احتجاجا وقابل وفد العلماء الوالى ملحا بابقائه لمصلحة الامن فوافق مكرها وخوف الفتنة

وكاد الوالى مكيدة جديدة لمحمد على ، بعد فشل المكيدة الاولى - فاصدر اليه امرا بان يذهب بقواه الى الصعيد لمحاربة المماليك فاجاب بالطاعة والامتثال وان لم تخف عليه الغاية ، وغادر القاهرة يوم ١٧ اكتوبر يقود ثلاثة آلاف البانى ، ويشد ازره جيشان آخران جردهما الوالى الاول بقيادة سلحداره وعدده نحو اربعة آلاف والثانى بقيادة حسن باشا وعدده نحو ١٢٠٠ مقاتل . وواصلت هذه القوة تقدمها حتى المنيا فاستولت عليها يوم ١٥ مارس سنة ١٨٠٥ بعد حصار دام ٥٦ يوما فانسحب المماليك موغلين فى جنوبى الصعيد

وجدد خورشيد باشا مساعيه عند الباب العالى مقترحا ارسال حملة عسكرية كبيرة يستعين بها على محاربة المماليك وعلى ترسيخ نفوذ الدولة فامده بثلاثة آلاف مقاتل وعرف محمد على وهو فى اعالى الصعيد بما جرى وادرك ان الغاية من ارسال هذا الجند هو محاربته بالذات فعجل بالرجوع لمراقبة الحالة عن كثب وجاء معه حسن باشا ايضا

ووصلت الحملة الى القاهرة قبل وصول محمد على اليها ، فانطلق رجالها يسلبون وينهبون ، ويضربون ويقتلون ، ويهدمون البيوت والمنازل فساء ذلك الشعب ونفر ، وعاد يتذمر ويشكو

وحاول الوالى ان يحول دون دخول محمد على الى القاهرة فارسل قوة الى الجيزة لمنعه ، فعرف كيف يتخلص منها ، وواصل السير الى منزله فاستقر فيه ، وعكف

على الاتصال بالعلماء والتقرب من الشعب

وسارت الحوادث بسرعة مدهشة وازدادت النقمة على الجنود لانهم هاجموا يوم اول مايو سنة ١٨٠٥ مصر القديمة واخرجوا بعض سكانها من منازلهم ونهبوا امتعتهم وقتلوا فريقا منهم ، فقصد هؤلاء نساء ورجالا الى الجامع الازهر ضاجين صاخبين ، وانتشر الخبر فى العاصمة ، فاقلقها وازعجها ، وكان الناس بطبيعتهم ميالين للثورة ، املا بان تنقذهم من حالتهم المقوتة ، ومن الحكم السيء الذى عادوا اليه

وذهب علماء الازهر فقابلوا الوالى ، وطلبوا منه اخراج الجنود من البيوت التى استولوا عليها ووضع حد لفظائعهم ومعاقبتهم بما يستحقون ، فتظاهر بالاهتمام واصدر امرا باخراجهم ولكنه لم ينفذ فعاد العلماء فخاطبوا الوالى ، فطلب امهاله ثلاثة ايام ، وزاد صخب الجمهور حينما علم بجواب الوالى وارتفعت الاصوات بالدعاء الى الثورة

وازدادت الحالة تحرجا فى الغداة (الخميس ٢ مايو) فاغلقت المخازن ، وتعطلت الاعمال ، واضرب الازهريون عن الدرس واحتشدت الجماهير فى الشوارع والميادين ، فأرسل الوالى وكيله والمحافظ الى الازهر لمقابلة العلماء والسعى لوقف الهياج فلم يجدا احدا ، فقصدا بيت الشيخ الشرقاوى و بعد اخذ ورد رفض العلماء التدخل وطلبوا اجلاء الجنود عن المدينة فورا واغلظوا للوكيل فى القول ، فانصرف خائبا والجمهور يرشقه بالحجارة

وابى الوالى تنفيذ طلب العلماء الخاص باقصاء الجند لانه يضعف مركزه فهم عدته كما ان اقصاءهم يحتاج الى مال لدفع رواتبهم المتأخرة ، ولا مال لديه ، وكانت النتيجة استمرار الاضراب تسعة ايام ظلت العلاقات فى خلالها مقطوعة بين الشعب والوالى

ووصل ـ والعاصمة مضطربة والعلاقات بين الشعب والوالى مقطوعة ـ فرمان بتعيين محمد على لولاية جدة وذلك باقتراح الوالى والحاحه فأسرع فأرسل اليه يوم ٣ مايو

يبلغه خبر ورود الفرمان ويدعوه الى القلعة لابلاغه اياه وليخلع عليه خلعة الولاية فأرسل يعتذر عن المجىء ويقول انه مستعد لتلقى امر التعيين فى اى منزل يختاره من منازل المدينة ـ والظاهر انه خاف الفتك به اذا صعد الى القلعة ـ فغضب خورشيد باشا لهذا الجواب ، وكاد الخلاف ان يستفحل بينهما ، لولا توسط المتوسطين، واخيرا تم الاتفاق على ان يكون الاجتماع فى منزل سعيد اغا وكيل الوالى وصديق محمد على وهنالك تلى الفرمان بحضور عدد كبير من الاعيان والوجهاء وقد رفع ما جرى من منزلة محمد على فى العيون ، ولم يبعده عن الميدان كما كان يرجو الوالى

وفى صباح ١٢ مايو اجتمع زعماء الشعب وذهبوا الى بيت القاضى فرفعوا الدعوى على الوالى فأرسل القاضى فاستدعى وكلاءه فجاءوا وكانت خلاصة الدعوى كما يأتى : ـ

١ ـ منع الوالى من فرض ضريبة الا اذا اقرها العلماء وكبار الاعيان

٢ ـ جلاء الجنود عن القاهرة ونقل مقرهم الى الجيزة

٣ ـ عدم السماح بدخول اى جندى الى المدينة بسلاحه

٤ ـ اعادة المواصلات بلا ابطاء بين العاصمة والوجه البحرى

ولما تلقى الوالى هذه الطلبات ، ارسل يستدعى السيد عمر مكرم كبير زعماء الشعب مع العلماء ليبحث معهم فأبوا الذهاب خوف الغدر ، ولان الوالى اعد لهم كمينا فى الطريق ، فعد رفضهم المجىء اليه عصيانا فرفض طلباتهم

وفى يوم الاثنين ١٣ منه اجتمع زعماء الشعب والعلماء ونقباء الصناع بدار المحكمة للمداولة فى الموقف فاتفقت كلمتهم على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد على بدلا منه . وانتقلوا على الفور الى منزل محمد على وابلغوه مااتفقوا عليه وقالوا :

« اننا لانرضى الا بك واليا بشروطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير »

وظهر محمد على بمظهر المتردد وقال انه غير كفء لهذا المنصب ولايستحقه وطلب اعفاءه فألحوا عليه وقالوا له لقد اخترناك برأى الجميع والكافة ، والعبرة برضا اهل البلاد ، بشرط ان تسير بالعدل وتقيم الاحكام والشرائع وتبطل المظالم ولا تعمل

عملا الا بمشورة العلماء واذا خالفت ذلك تعزل ، فقبل محمد على ذلك فنهض السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى والبساه خلعة الولاية ، ونادى المنادى فى جميع الانحاء بولايته

وذهب وفد الى القلعة فقابل الوالى وابلغـه قرار الشعب بعـزله فابى الخضوع وقال : « انى مولى من طرف السلطان فلا اعزل بأمر الفلاحين »

ونشب القتال على اثر ذلك بين الوالى الذى تحصن فى القلعة ومعه جنده ورجاله و بين الشعب واستمر دائرا حتى يوم ٩ يوليو ففيه وصل رسول من الاسـتانة يحمل فرمانا موجها الى محمد على باشا والى جده سابقا بتثبيته واليا على مصر « حيث رضى بذلك العلماء والرعية و بعزل خورشيد باشا عن ولاية مصر » فانتهى بذلك النضال

وفى يوم الاثنين ٥ اغسطس سنة ١٨٠٥ و ٩ جمادى الاولى سنة ١٢٢٠ سـلم خورشـيد باشا القلعة وسار الى تركيا فـكان آخر وال عثمانى تقلد حكم مصر كما كان خروجه فاتحة عهد جديد فى تاريخها ومبدأ قيام الدولة العلوية رسميا وانقضاء الحـكم التركى الذى عانت منه مصر الامرين فى خلال ثلاثة قرون

٣

محمد على باشا

هو محمد على بن ابراهيم اغا رئيس حراس الطريق بمدينة قوله . ولد فى قوله سنة ١٧٦٩ وهى السنة التى ولد فيها نابليون وولنجتون وشاتو بريان الكاتب الروائى وكوفييه العالم الكيميائى وشلر الشاعر الالمانى وكان يفخر بذلك : و يقول لقد ولدت فى السنة التى ولد فيها كثير من العظماء

كان محمد على سابع عشر مولود لابو يه لم يعش منهم سواه وتوفى والده وهو فى الرابعة من عمره فكفله عمه طوسون وتوفى هذا بعد مدة يسيرة فكفله الشور بجى (حاكم المدينة) وصديق والده الحميم فنشأ فى كنفه ، وتحت رعايته ، ولم يؤت حظا من العلم ، ولم يقرأ ولم يكتب

والتحق بالجندية حينما بلغ اشده فتجلت مواهبه ، وظهر ذكاؤه ، وعلا صيته

وحدث ان قرية براوسطه من القرى التابعة لحكومة قوله عصت وامتنعت عن دفع الضرائب فاقترح محمد على على الشور بجى ان ينتدبه لتحصيلها ، فتردد فى القبول لعدم وجود قوة عسكرية كافية لديه يصحبه بها واخيرا و بعد الحاح شديد سمح له فقصد القرية ومعه عشرة جنود وام مسجدها فظنه الناس عابر طريق

وارسل بعد ما ادى الفريضة فدعى ار بعة من اعيانها لمباحثتهم فى امر قال انه يخصهم وانقض رجاله عليهم حينما دخلوا المسجد وكبلوهم بالحديد وساروا بهم فورا الى قوله

واقبل اهل القرية لنجدة اعيانهم وانقاذهم فوجه محمد على بنادقه الى صدور هؤلاء وانذرهم باطلاق الرصاص عليهم واعدامهم اذا بدرت من انصارهم بادرة



محمد علي باشا

عدوان فارتدوا الى قريتهم خوفا على سادتهم وتابع سيره ومعه اسراه حتى قوله ، واسرع مواطنوهم فى الغداة فدفعوا المتأخر عليهم من الاموال فكان عمل محمد على موضع الاعجاب والتقدير

وزوجه حاكم قوله بعد ذلك قريبة له كانت ثيبا وذات ثروة لا بأس بها فولدت له ابراهيم وطوسون واسماعيل

واستقال بعد زواجه من الجندية فتاجر بالدخان ، مستعينا بثروة زوجته فربح وكان فى قوله تاجر فرنسوى اسمه ليون افاده بتجاريبه وخبرته

وتطوع سنة ١٨٠١ فى الكتيبة التى الفها حاكم قوله للاشتراك فى الحملة التى ارسلت برئاسة حسين بك قبودان الى مصر لاخراج الحملة الفرنسوية ، وكان عدد رجال الكتيبة ٣٠٠ شاب وكانت بقيادة على اغا نجل الحاكم وكان محمد على معاونا له على انه لم يلبث حتى حل محله فى قيادتها

ووصل محمد على الى الاسكندرية مع الحملة فى شهر مارس سنة ١٨٠١ واشترك فى الزحف الى القاهرة وناط به حسين باشا قبودان احتلال الرحمانية وكان يدافع عنها الجنرال لاجرانج فاستولى عليها بدون عناء

وترقى محمد على فى خلال ذلك و بلغ رتبة البكباشى قبل جلاء الفرنسويين ، ثم رقى بعد ذلك الى رتبة سرجشمه اى لواء . وفى سنة ١٨٠٤ عين واليا لجدة وفى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ اختاره الشعب المصرى وعينه حاكما لما عرفه من مزاياه فاقر الباب العالى ماجرى فتسلم الحكم رسميا يوم ٥ اغسطس من تلك السنة وعكف على اصلاح البلاد وتحسينها وقطع دابر الفوضى ، فنجح نجاحا باهرا و برهن على كفاءة خارقة ، وذكاء ممتاز وعد فى طليعة النوابغ والعصاميين وعمل من الامور الجسام ماخلد ذكره فى التاريخ وما نسجل بعضه فى هذا الكتاب وتوفى سنة ١٨٤٩ ودفن بالقاهرة

٤

الحملة على السعوديين

بينما كان التنافس على اشده فى مصر بين الترك والمماليك من جهة و بين الولاة والموظفين الترك انفسهم من جهة اخرى كان سعود الكبير يعمل بنشاط واقدام لتوطيد قواعد الدولة السعودية الجديدة التى نشأت فى نجد والحجاز وعلى ساحل تهامة فاقلق ذلك الباب العالى وازعجه فضرب اخماسا فى اسداس ثم كتب الى محمد على فى شهر ديسمبر سنة ١٨٠٧ يجدد فيه ثقته و يسند منصب دفتردار مصر الى نجله ابراهيم باشا ، وينتدبه - مقابل ذلك - لقتال السعوديين واخراجهم من الحجاز والقضاء على حركتهم ، فادرك فورا ان الدولة تبغى التخلص منه باسناد هذه المهمة الخطيرة اليه ، وكانت اقدامه لم ترسخ بمصر ، ونفوذه لم يوطد، فاعتذر باشتغاله بمحاربة المماليك وقال انه لايستطيع ان يترك البلاد بلا قوة كافية تصون الامن والنظام ، فلم يقنع هذا العذر الباب العالى ، وكان يرجو ان يضرب محمد على باآل سعود فيتخلص منهما معا فجدد تكليفه فى سنة ١٨٠٨ ثم فى السنة التالية

وكان محمد على يعتذر فى كل مرة بحرب المماليك ، وكان يطاردهم فى الصعيد فعلا وكرر الاقتراح فى سنة ١٨١٠ وكانت حرب الصعيد قد انتهت ، وكان نفوذه قد رسخ فلبى الطلب وشرع يجهز حملة عسكرية ولى قيادتها نجله احمد طوسن وكان لايزال فى السابعة عشرة من سنيه

مذبحة المماليك

واغتنم الباشا فرصة الاحتفال بسفر الحملة الى الحجاز فدبر مكيدة للتخلص من المماليك وكان عددهم نحو الفين وخمسمائة وكانوا قد ملوا حياة الحرب وقدموا له الخضوع والطاعة واعترفوا بسلطانه وكان بعضهم يقيم فى الجيزة والآخر فى القاهرة وقد جاءوها باجازة منه بعد ماتعهدوا له باعتزال السياسة

والظاهر انه خاف ثورة يثورونها فى خلال اشتغاله بالحرب العربية فاعلن انه يحتفل يوم اول مارس سنة ١٨١١ فى القلعة بالباس نجله احمد طوسن باشا خلعة القيادة ودعا العظماء والاعيان والعلماء الى حضور هذا الاحتفال الرسمى الكبير كما دعا المماليك الذين فى القاهرة ، فعدوا ذلك دليل القبول فجاءوا فى الموعد المحدد مع اتباعهم وعدتهم ٤٧٠ بملابسهم وزينتهم وسلاحهم ، ولما دخلوا عليه هش و بش وبالغ فى الالتفات اليهم

وفى الوقت المضروب بدأ الموكب سيره الى مقر الحملة ، وما كاد فرسان المماليك وامراؤهم ، وكانوا يسيرون فى الموكب ، يتوسطون الدهليز الموصل بين باب القلعة الخارجى والباب الداخلى حتى اغلق الاول و بدأ الجنود الالبان باطلاق الرصاص عليهم من فوقهم ومن ورائهم فابادوهم جميعا ولم ينج منهم سوى مملوك واحد اسمه امين بك كان فى مؤخرة الموكب التى بفرسه من القلعة فنزل الى الارض سالما وفر الى سورية ومات فيها

وكانت الاوامر التى اصدرها محمد على باشا الى حكام المديريات تقضى بالوثوب على المماليك الذين فى منطقتهم وقتلهم فى نفس اليوم الذى تنفذ فيه مؤامرة القاهرة ففعلوا وقدر عدد المماليك الذين قتلوا فى القاهرة والاقاليم فى ذاك اليوم بنحو الف ، ولجأ الباقون الى اعلى الصعيد والسودان ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك

وتأخر سفر الحملة الى الحجاز بعد هذا الحادث العظيم وقد قامت له مصر وقعدت حتى يوم ٣ سبتمبر سنة ١٨١١ (رمضان ١٢٢٦) فغادرت القبة (وكانت مقر احتشادها) الى السويس ثم ابحرت الى ينبع وعددها ٦٠٠٠ من المشاة والمدفعية

ولما كان نقل الحملة من السويس الى الحجاز يحتاج الى عمارة بحرية فقد اصلح الباشا ترسانة بولاق وحشد فيها مهرة الصناع الحربيين ، فكانوا يصنعون السفن اجزاء مجزأة ويرسلونها على ظهور الابل الى السويس وهنالك تضم الى بعضها وتكمل نواقصها وتنزل الى البحر ، فصنعوا ١٨ سفينة كانت نواة الاسطول الجديد

وودع محمد على باشا رجال الحملة حينما ركبوا السفن وعاد الى القاهرة وفى يوم ٦ اكتوبر غادر طوسن باشا القاهرة الى ينبع برا ومعه قوة الفرسان وهى ٢٠٠٠ فارس وسافر معه السيد محمد المحروقى مدير مهمات الحملة مستشارا له وار بعة من العلماء يمثلون المذاهب الاربعة وهم السيد احمد الطهطاوى الحنفى والشيخ محمد المهدى الشافعى ، والشيخ الخانكى المالكى ، والشيخ القدسى الحنبلى مع طائفة من الصناع من كل حرفة ، وكانوا يؤلفون القسم الفنى فى الحملة

الحملة فى الحجاز

واصلت السفن المصرية السير من السويس الى ينبع فبلغتها فى اواخر شهر سبتمبر فاستولت عليها بلا مقاومة فقد جلا عنها حاكمها السعودى ومعه بعض رجاله واستسلم الباقون

ووصل طوسن باشا بعد ذلك الى ينبع بطريق البر فقضى فيها اياما ثم زحف الى المدينة فالتقى بالسعوديين فى بدر وكانوا قد حصنوها واستعدوا للقاء الجيش المصرى فدار قتال بين الفريقين استمر ساعتين وانتهى بانسحاب السعوديين الى وادى الصفراء فتحصنوا فيه ، ورابطوا فى آكامه وكمنوا للجيش الذى جاء يطاردهم ، فلما صار فى طريق ضيقة اطلقوا عليهم نيرانهم الحامية ، فسقط معظم رجاله صرعى ووقع الذعر فى صفوفه وانهزم الاحياء بلا نظام تاركين اثقالهم ومدافعهم واحصى طوسن باشا الذين وصلوا الى ينبع سالمين فكانوا ثلاثة آلاف فقط ومعنى ذلك ان الحملة خسرت

خمسة آلاف مقاتل فى هذه المعركة وفقدت مدافعها ومعداتها ولوازمها

وكتب طوسن باشا من ينبع الى والده بما حدث والقى التبعة على قواده واتهمهم بالاختلاف والتنافس وطلب منه ان يمده بحملة اخرى . ولابد لنا من القول ان معظم جنود تلك الحملة وضباطها كانوا من الالبانيين وان محمد على باشا كان يود التخلص منهم بارسالهم الى صحارى الحجاز ونجد ، فاعد حملة اخرى وارسلها الى ينبع فوصلت فى شهر اكتوبر سنة ١٨١٢ اى بعد انقضاء سنة على الحملة الاولى فزحف بها طوسن باشا على وادى الصفراء فاحتله بدون عناء ، وكان قد استمال مدة اقامته الطويلة فى ينبع القبائل التى تقيم حولها وفى جوارها وهى قبائل حرب وجهينة و بلى وبذل لها الاموال والهدايا والاعطيات فانضمت اليه ومالأته وانقلبت على السعوديين فكان ذلك فوزاسلميا لايستهان به

واحتل المصريون وادى الصفراء بدون مقاومة ولا عناء ، وواصلوا زحفهم الى المدينة فاحتمت الحامية السعودية وراء الاسوار فأبى طوسن باشا ان يضربها بالمدافع خوفا على الحرم ، واكتفى بوضع لغم فى جانب من السور فانفجر واحدث فيه ثغرة فتدفق المصريون الى الداخل وقتلوا بعض رجال الحامية واسروا البعض الآخر وارسل طوسن باشا مفاتيح المدينة الى والده فسر وابتهج

وتقدم الجيش المصرى من المدينة الى الحناكية وهى تقع فى شرقيها الشمالى على الطريق بينها و بين نجد فاستولى عليها بدون عناء

وعاد طوسن الى ينبع ، بعد ماوطد مركزه فى المدينة وفى الحناكية ونشر النفوذ المصرى فى شرقى الحجاز وشماله ، ومنها سار بحرا بقواه الى جدة ، فاستولى عليها واستقبله فيها الشريف غالب باشا بالحفاوة وسار منها الى مكة فدخلها بدون مقاومة ، وكان السعوديون قد جلوا عنها

وسار من مكة الى الطائف فاستولى عليها ايضا بدون مقاومة و بذلك دخلت ثغور الحجاز وقواعده الكبرى وهى ينبع والمدينة وجدة ومكة والطائف بيد المصريين

فلم يحل ذلك المشكلة لان قوى السعوديين ظلت سليمة ولانهم كانوا يسيرون على خطة عسكرية مرسومة تقوم على استدراج الجيش المصرى الى الداخل حيث الصحراء المحرقة ، ورمالها المتعبة ، وحيث الماء قليل ، ووسائط المواصلات مفقودة ، لمنازلته فى معركة فاصلة

وشرع الامير سعود الكبير فى الزحف على المصريين بعد مابلغوا الطائف وكان قد اعد جيشين كبيرين

الاول: فى تربة اى فى جوار الطائف ، والثانى فى منطقة المدينة اى فى جوار الحناكية وكان المصريون يرابطون فيها . وتولى بنفسه قيادة هذا الجيش كما تولت قيادة الجيش الآخر سيدة من نسائهم اسمها غالية

واعد طوسن قوة عسكرية كبيرة ولى قيادتها احد ضباطه واسمه مصطفى بك وسيرها الى تربة لمهاجمة السعوديين ، وضربهم قبل ان يضربوه فسار اليها وقبل ان يستقر به المقام انقضوا عليه وهزموه فارتد بغير نظام الى الطائف تاركا مدافعه وذخائره وعدده

واصيب الجيش المصرى المرابط فى الحناكية بما اصيب به فى الطائف ، فلم يستطع ثباتا امام الحملة الشديدة التى حملها سعود الكبير فجلا عنها وارتد الى المدينة بعد حرب عوان فسار وراءه محاولا اخراجه منها

وزاد فى حراجة الموقف انتشار الامراض والحميات بين الجيش فمات كثيرون لقلة الوسائل الصحية ، فكتب طوسن باشا الى والده بما تم وطلب منه ارسال نجدات قوية ، كما امر بتحصين المدينة والطائف والاكتفاء بالدفاع عنهما انتظارا لورود النجدات الجديدة

محمد على فى الميدان

واسرع محمد على بعد ماتلقى هذه الانباء بالسفر الى الحجاز يقود حملة عظيمة

فبلغ جدة فى شهر اغسطس سنة ١٨١٣ ثم قصد مكة واستقر فيها يدرس الحالة العسكرية والادارية فأحيا وصوله القوة الادبية فى صدور جنوده ونشطهم كما دل على شدة اهتمامه بالحرب الجديدة ورغبته فى حسمها فلا تكون مصدر قلق له تذهب بقواه وموارده

وفى شهر نوفمبر امر محمد على باشا بالقبض على الشريف غالب باشا امير مكة لانه ارتاب فى اخلاصه للجيش المصرى مع ماكان يتظاهر به من الميل له ، ومع ما كان بينه و بين السعوديين من عداوة ، وارسله مخفورا الى مصر وعين ابن اخيه الشريف يحي بن سرور بدلا منه

واعد محمد على حملة تضم خمسة آلاف من المشاة والف فارس وستة مدافع وولى عليها ابنه وامره ان يزحف الى تربة فنازله السعوديون وكانوا على تمام الاهبة فعاد الى الطائف بعد ما خسر معظم قواه

وارسل محمد على من مقامه فى مكة قوة احتلت القنفدة (جنوبى الحجاز) فهاجم العرب هذه القوة ، بعد ماقطعوا عنها الماء فارتدت الى جدة بحرا بعد ماخسرت معظم رجالها ، فكبر عليه ذلك فارسل الى نائبه بالقاهرة يأمره بارسال حملة جديدة فامده بسبعة آلاف مقاتل مع مبلغ كبير من المال فساعد وصولهم على تحسين موقفه العسكرى . وفى شهر يناير سنة ١٨١٥ زحف بقوة قوامها اربعة آلاف مقاتل من الطائف الى تربة فالتقى فى مكان اسمه بسل بقوة كبيرة من السعوديين بقيادة عبد الله بن سعود وكان هذا قد خلف اباه سعودا فى زعامة النجديين ولم يكن مثله فى الكفاءة والاقدام فدارت معركة عنيفة استمرت من الصبح الى المساء وانتهت بهزيمة السعوديين بعد مافقدوا ٦٠٠ قتيل وتعد هذه المعركة من اعظم معارك تلك الحرب وتم للمصريين على اثرها احتلال تربة ورينه و بيشة والقنفدة وعاد محمد على الى مكة منصورا فائزا

ووجه المصريون وجههم شطر الميدان الشمالى بعد انتصارهم فى الميدان الشرقى فسار طوسن بقواته الى المدينة ومنها واصل التقدم الى الرس احدى مدن نجد الكبرى

وتبعد عن المدينة ٢٧٠ ميلا فاستولى عليها و واصل تقدمه فاحتل الشبيبية وفتح الطريق الى الدرعية عاصمة السعوديين

الهدنة والصلح

وارسل عبد الله بن سعود الى طوسن قبل مباشرة القتال يقترح عليه عقد صلح يرضى الفريقين ، فرد عليه بانه لابد له من استشارة والده ثم اتفقا على عقد هدنة مدتها ٢٠ يوما يرجع فيها الى والده و يستشيره ، و يقول المؤرخون ، ان قواد الجيش المصرى كانوا يعدون المعدات للجلاء عن الرس والرجوع الى المدينة حينما تلقوا اقتراح عبد الله بن سعود لانهم ادركوا خطأهم بالايغال فى تلك الصحارى ورأوا ان طول مكثهم يعرضهم لنكبة جديدة ، و يستدل بعض المؤرخين على ضعف عبد الله بن سعود بهذا الطلب ويقول انه لو حمل على الجيش المصرى لشتته وهزمه وساقه امامه سوقا الى المدينة ، وقبل ان يصل كتاب طوسن الى والده ، غادر هذا مكة عائدا الى القاهرة فبلغها يوم ٢٣ يونيه سنة ١٨١٥ بعد ماترك تعليمات الى ولده يقول فيها انه عائد الى مصر لشؤون هامة وانه ترك له عددا عظيما من الجند بقيادة خازنداره ، و يلح عليه بالزحف على الدرعية (عاصمة السعوديين) بلا ابطاء

وارسل طوسن فجاء بالخازندار الى الرس وعقد مجلسا عسكريا ضم رؤساء القبائل الموالية وشيوخها فاتفقت الكلمة على قبول اقتراح ابن سعود وعقد الصلح طبقا للشروط الآتية :

١ ـ ان يحتل الجيش المصرى الدرعية

٢ ـ ان يرد النجديون كل ما اخذوه من الحجرة النبوية من نفائس

٣ ـ ان يكون عبد الله بن سعود تحت تصرف قائد الجيش المصرى فيسافر الى اى جهة يريده على السفر اليها

٤ ـ ان يضمن تأمين سبل الحج

٥ ـ ان يكون خاضعا لحاكم المدينة

٦ ـ ان لا تكون معاهدة الصلح نافذة الا بعد عرضها على محمد على باشا واقراره لها

ولما عرضت هذه الشروط على عبد الله بن سعود ارسل وفدا من قبله الى القاهرة لمفاوضة محمد على مباشرة فبلغها فى شهر سبتمبر سنة ١٨١٥ وقابل الباشا فرفض الدخول فى مفاوضات مع النجديين وقال : ان عليهم ان يسلموا من دون قيد ولا شرط وان تسلم الدرعية (عاصمتهم) الى حاكم المدينة وان يأتى عبد الله بنفسه الى القاهرة ليرسل منها الى الاستانة فيقابل جلالة السلطان الذى يفصل فى امره

ويقول المؤرخون ان محمد على باشا اراد من تشدده هذا التشدد ان يرفض السعوديون شروطه فيواصل الحرب و يقضى على قواهم و يبسط نفوذه على جزيرة العرب

وقال ابن سعود فى رده على مقترحات محمد على انه ليس فى استطاعته اعادة النفائس المسلوبة لانه لم يبق لديه شىء منها وانه يأبى الذهاب الى الاستانة ووافق على ان يعين محمد على نائبا عنه فى الدرعية يقبض الخراج

وعبأ محمد على فى اثناء مفاوضات الصلح ـ وكان يتشدد عمدا لتخفق وتفشل ـ حملة عسكرية رابعة ابحرت يوم ٥ سبتمبر سنة ١٨١٦ الى جدة بقيادة نجله ابراهيم باشا ، فقد عين بدلا من اخيه طوسن باشا الذى عاد الى القاهرة فى شهر نوفمبر سنة ١٨١٥

وسافر مع ابراهيم باشا ضابط فرنسوى من ضباط اركان الحرب وطبيب وجراحان وصيدلى ايطاليون وقصد المدينة مباشرة فاستراح فيها ثم قصد الصويدرة (شمالى المدينة الشرقى) فاتخذها قاعدة لجيشه ثم مشى الى الحناكية فالرس ، وكان النجديون قد عادوا اليها بعد انسحاب طوسن باشا وسفره الى مصر فاشتبكت طلائعه بالنجديين فهزمتهم فانسحبوا الى الرس ، وكانوا قد حصنوها فضرب ابراهيم

باشا نطاقا حولها وهاجمها ورماها بمدافعه فدافع النجديون عنها دفاعا شديدا وحمل المصريون عليها ثلاث مرات فردوا وصدوا و بلغت خسارتهم حولها نحو ٣٤٠٠ قتيل

ولما طالت مدة الحصار ورای ابراهيم باشا ان الاستيلاء عليها يكلفه ثمنا غاليا جنح الى الصلح فدارت مفاوضات بينه و بين اهل الرس — وذلك بعد انقضاء ثلاثة اشهر ونصف شهر على وضع الحصار — فتم الاتفاق على الشروط الاتية :

١ — رفع الحصار عن الرس

٢ — يضع اهلها سلاحهم و يقيمون على الحياد

٣ — لايجوز لجنود ابراهيم باشا وضباطه دخول الرس

٤ — لا يجبر اهل الرس على تقديم شيء من المؤن والميرة للجيش ولا يدفعون غرامة او ضريبة

٥ — تسلم الرس للجيش المصرى اذا استولى على عنيزة بدون قتال وان لم يستول يعود القتال

واطلق هذا الاتفاق يد ابراهيم باشا فسار الى الخبرا ، فاستولى عليها واستراح فيها ثم زحف الى عنيزة فسلمها شيخها محمد بن حسن بعد حصار ستة ايام فقط بشرط عدم معارضة حاميتها فى خروجها وسفرها على ان لاتأخذ شيئا من الذخيرة والسلاح

وارسل ابراهيم كتيبة الى الرس فاستولت عليها طبقا للاتفاق فعزز الاستيلاء على هاتين المدينتين مركز الجيش المصرى فى نجد وحمل بعض قبائل القصيم على تقديم الطاعة له كما اضعف نفوذ عبد الله بن سعود فارتد الى الشقرا ، وحصن الدرعية استعدادا للدفاع عنها

وتابع ابراهيم زحفه فاستولى على بريدة وهى من حواضر نجد الكبرى ، ثم تقدم الى الشقرا فبلغها فى اوائل شهر يناير سنة ١٨١٨ فحاصرها وضربها بالمدافع ، وكانت من امنع مراكز النجديين وشدد عليها فطلب اهلها الصلح فصالحهم على الشروط الآتية :

١ – ان لا يأخذ منهم اسرى وان يأذن لهم بالذهاب حيث شاءوا
٢ – ان لا يحملوا سلاحا ولا يعودوا الى قتال الجيش
٣ – ان يستحل دماءهم اذا نقضوا الشروط المذكورة آنفا

وفى يوم ٢٢ يناير دخل الشقرا واتخذها قاعدة لجيشه وشرع يعد المعدات للزحف على الدرعية آخر حصون النجديين ، وفى شهر فبراير مشى اليها فمر بمدينة اسمها خرمة فهاجمها فامتنعت عليه وقاومته مقاومة شديدة واخيرا صالح حاكمها على الجلاء فجلا وترك الاهالى فانتقم منهم ابراهيم انتقاما شديدا عقابا لهم على ما انزلوه بجيشه ، وفى ٢٢ مارس سار الى الدرعية ، فبلغها يوم ١٦ ابريل وكانت محصنة . ودافع الدرعيون عن مدينتهم دفاع الابطال وشاركت النساء الرجال فى القتال

واصيب الجيش المصرى بكارثة حول الدرعية ، وكان قد مضى عليه اكثر من شهرين وهو ينازلها ، فقد هبت عاصفة يوم ٢١ يونيه على معسكره فأطارت شرارة من نار كان جندى يوقدها فأحدثت حريقا سرى الى مستودع الذخيرة ، فانفجر واودى بحياة كثيرين من رجال الجيش فاضطرب الجند فتجلد ابراهيم وارسل على الفور يستورد ذخائر من المراكز المجاورة فوردت بعد ايام

وعرف النجديون ما نزل بالجيش المصرى ، وانه فقد الجانب الاكبر من ذخيرته فحملوا عليه وهم يرجون ان يدحروه فنازلهم بالسلاح الابيض وردهم ووضع ابراهيم فى الشهر الخامس من شهور الحصار خطة عسكرية جديدة تقوم على مهاجمة كل حى من احياء الدرعية الخمسة ، بدلا من الهجوم عليها كلها كما كانوا يفعلون ، وقد نجحت هذه الخطة نجاحا كبيرا فاستولى فى الهجوم الاول على الحى الذى هاجمه اذ جرد عليه قواه كلها ، ثم استولى على الثانى والثالث فأدرك عبد الله بن سعود انه لا فائدة من المقاومة فأرسل الى ابراهيم باشا رسولا يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨١٨ يطلب وقف القتال فأوقفه حالا

وقصد عبد الله بن سعود الى معسكر ابراهيم باشا فاستقبله بالحفاوة وتم الاتفاق بينهما على الشروط الآتية :

١ - تسلم الدرعية للجيش المصرى

٢ - يتعهد ابراهيم باشا بان يبقى عليها وان لايوقع بأحد من سكانها

٣ - يسافر عبد الله بن سعود الى مصر والاستانة عملا برغبة جلالة السلطان

ودخل الجيش المصرى الدرعية عملا بهذا الاتفاق بعد ما حاصرها ستة اشهر نخضعت له مدن نجد كلها . فأقام فيها مدة ينظم حكومتها ويرتب شؤونها وفى شهر ديسمبر سنة ١٨١٨ غادرها الى مصر

ولم يقر محمد على الشرط الثانى من شروط الاتفاق حينما عرض عليه فأرسل الى ولده تعليمات بهدم حصونها واسوارها وتخريب منازلها وان يرسل الى القاهرة اخوة عبد الله بن سعود فنفذ اوامر والده

ووصل عبد الله الى القاهرة يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٨١٨ ومنها ارسل الى الاستنانة فأعدم فيها بأمر السلطان محمود

٥

مصر والشام

....

تؤلف مصر والشام وحـدة جغرافية كاملة ، فجبال طوروس هى الحد الطبيعى لمصر من جهة الشرق كما انها الحد الفاصـل بين بلاد العرب و بلاد الترك او بين الوطن العربى والوطن التركى

وكذلك فلا استقرار ولا امان لحكومة تقوم فى دمشق او القـدس لا ارتباط بينها و بين حكومة القاهرة ولا تعاون لان حدودها الجنو بيـة تظل على الدوام عرضة للغزو والاكتساح

ويجب ان نضيف الى هـذه الاعتبارات العسكرية اعتبارات اقتصادية لاتقل عنها شأنا فمصر فى حاجة الى كثير من المواد الاولية الموجودة فى القطر الشامى وفى مقدمتها الخشب والفحم والاسفلت والحديد والصابون والزيت وغير ذلك كما ان الشام فى جملتها تعتبر سوقا لكثير من حاصلات مصر كالارز والسكر والجلود و بقية المنتوجات الاخرى التى ترد عليها من اسواق مصر . وهنالك ايضا الروابط اللغوية والدينيـة وهى ذات مقام واعتبار

ثم ان هذين القطرين لايزالان مرتبطين من اقدم ازمنة التاريخ برباط وثيق من العلاقات الاقتصادية والتجارية والعسكرية وطالما غزى الفراعنة بلاد الشام ، وطالما قصـدت سفن الفينيقيين ساحـل مصر حاملة المتاجر والعروض ، ولمـا ظهرت روما و بسطت نفوذها على الشرق كانت مصر والشام بين الاقطار التى خضعت لها ، وحلت القسطنطينية بعـد ذلك محـل روما فى امتلاك هـذين القطرين ، واغار الفرس غارتهم الكبرى على البيزانطيين فى اوائل القرن السابع فاكتسحوا الشام ومصر و بلغوا حدود برقة ثم عاد الروم فأخرجوهم . وجاء الاسلام بعد ذلك فدخلتا فى طاعة حكومة

الخلفاء الراشدين ثم انتقلتا الى الدولة الاموية فى الشام فالعباسية فى بغداد وحمل الفاطميون بعد ذلك من تونس على مصر وجاءوها من الغرب فانتزعوها من العباسيين واستولوا على الشام معها . وزحف الايوبيون من دمشق الى القاهرة فاستولوا عليها ، واتسع نطاق دولة المماليك فى مصر فشمل الشام وظلتا خاضعتين لنظام حكم واحد حتى جاء السلطان سليم فاستولى عليهما

وشعر محمد على من الساعة الاولى التى شرع فيها بتأسيس دولته الجديدة على ضفاف النيل انه فى حاجة الى الشام لانها جزء متمم لمصر ، ولان السيطرة عليها تضمن لها الحصول على كثير من موارد القوة والثروة ، واقليم الشام من الاقاليم الغنية وهو ذو مقام ممتاز من الناحية العسكرية ومن ناحية المواصلات باعتباره مركزا متوسطا بين الشرق الاوسط والاناضول و بلاد العرب

و يقول المؤرخون ان اول سعى سعاه محمد على لاحتلال بلاد الشام كان فى ابان الحرب السعودية فقد اقترح على الباب العالى ان يوليه اياها حينما طلب اليه ان يزحف لقتال السعوديين ، فيجند بعض رجالها و يستعين بهم فى الحرب فاعتذر وتعلل لانه ما كان يجهل غايته ولان قبوله الاقتراح يعزز مركز محمد على باشا وكانت سياسة الباب العالى ترمى الى اضعافه ، والقضاء على نفوذه ، لاعلى التمكين له ، فلم يثن ذلك من عزيمة الباشا ولم يحمله على التراجع او التخاذل بل سار فى تنفيذ خطته وكانت تقوم على ركنين اساسيين :

١ ـ تنظيم قواه العسكرية وتعزيزها على منوال يضمن له التغلب على الدولة عسكريا

٢ ـ انشاء صلات منظمة مع حكام الشام وامرائه واعيانه وشيوخه ووجهائه ونشر الدعوة لمصر بينهم فيسهل ذلك مهمة الجيش عند زحفه و يضمن له الاستيلاء على البلاد من دون عناء

و بينما كان محمد على يعد معدات العمل ، ثار اليونانيون فى بلادهم على الباب

العالى ينشدون استقلالهم و يعملون للتخلص من النير التركى الثقيل فحشد القوى لاخضاعهم فهزموها فلجأ الى محمد على طالبا اليه ارسال جيشه واسطوله لقتال الثوار واصدر فى مقابل ذلك فرمانا يعينه بموجبه واليا على كريت والمورة فتردد فى القبول ، لانه اعتقد انها مكيدة اخرى يراد بها القضاء على قواه فى حرب لاناقة له فيها ولا جمل فاعتذر ثم قبل بعد استشارة اهل بيته ورجال حكومته لما فى استنجاد السلطان اياه من فخر له

وارسل اسطوله فى سنة ١٨٢١ فقاتل اسطول اليونان ثم ارسل حملة عسكرية كبيرة سنة١٨٢٢ قادها ابراهيم باشا بالذات فقاتلت الثوار وهزمتهم وكادت تقضى على حركتهم فأقلق ذلك روسيا وانكلترا وكانتا تعطفان على الثورة اليونانية وتشجعانها خدمة لمصالحهما واغراضهما فعقدتا اتفاقا لحل المشكلة اليونانية انضمت اليه فرنسا وارسلت الدول الثلاث اساطيلها الى الساحل اليونانى لارغام الدولة العثمانية على تنفيذ مقترحاتها . وتولى الانكليز قيادة هذه الاساطيل فهاجمت يوم ٢٠ اكتوبر سنة ١٨٢٨ الاسطولين المصرى والعثمانى فى ميناء نافارين واخذتهما غدرا وقضت على معظم سفنهما

وانتهت الحرب بعد هذه الكارثة على قاعدة الاعتراف باستقلال اليونان وعاد ابراهيم باشا الى الاسكندرية فى شهر اكتوبر سنة ١٨٢٨ وخسرت مصر فى هذه الحرب مالا يقل عن ٣٠ الف جندى ومعظم سفنها فضلا عن نفقات الحملة . وكان غنمها المادى جزيرة كريت ، اما غنمها الادبى فقد كان كبيرا اذ نالت مركزا دوليا رفيعا ، وعززت مكانتها ، ولفتت الانظار الى نهضتها وعظيم استعدادها

وضاعف محمد على باشا جهوده بعد ختام الثورة اليونانية لتحقيق برنامجه الخاص بالاستيلاء على الشام و بلاد العرب الاخرى لملاءمة الوقت له فقد كانت الدولة فى ذاك العهد منهوكة القوى بسبب الثورة اليونانية وما تلاها من حربها مع روسيا ومن فتن الانكشارية فهيأ قواه ونظم اسطوله واعدهما للعمل عند اول فرصة

وكتب محمد على الى عبد الله باشا والى صيدا يومئذ يطلب اليه ارسال ستة

آلاف مصرى لجأوا الى فلسطين فرد عليه بان فلسطين ومصر من بلاد الدولة وان اللاجئين هم من رعاياها فلا يرى حاجة الى تسليمهم ، فكتب اليه بأنه سيحضر لاخذهم بزيادة واحد (يريد عبد الله باشا نفسه) واصدر على الفور امرا الى جيشه واسطوله بالسفر فاتجها الى فلسطين

وكانت الحروب بين الولاة فى تلك الايام من الاشياء المألوفة

٦

محمد علي والامبراطورية العربية

لم يعن الذين دونوا تاريخ محمد على من الاجانب والترك او المصريين ببحث هذه الناحية من تاريخه فاكتفى الاولون بذكر سيرته ، ووصف بطولته ، واصلاحاته، وعنى الآخرون بتشويه صورته ، والانتقاص من قيمة عمله ، اما المصريون فدرسوا تاريخه من الناحية الاقليمية الخاصة بمصر وحدها و بين ايدينا الآن كتابان حديثان اولهما تاريخ الحركة القومية بمصر للاستاذ عبد الرحمن الرافعي والثاني الامبراطورية المصرية للاستاذ محمد صبرى وقد حاول كل منهما ان يصبغ الحركة بالصبغة المصرية المحلية من دون ان يعنى بدرس الناحية العربية منها مع ان فى كتابيهما كثيرا من النصوص والمذكرات والوثائق السياسية التى تثبت ان محمد على وابنه ابراهيم كانا يعملان لانشاء امبراطورية عربية تضم الاقطار الممتدة من حدود الجزائر غربا حتى ديار بكر وخليج فارس شرقا ومن جبال طوروس شمالا حتى اواسط افريقية جنوبا وبذلك تدخل فى دائرتها جميع الاقطار التى ينطق ابناؤها بالضاد وهى الجزائر وتونس وطرابلس الغرب و برقة ومصر والسودان والشام والعراق وخليج فارس ونجد والحجاز واليمن . ولا يبقى فى خارجها سوى المغرب الاقصى لانه كان خارجا عن نطاق الامبراطورية العثمانية وهو القطر العربى الوحيد الذى لم يخضع للاحتلال العثمانى ولم يفقد استقلاله

ولقد عنينا فى هذا الفصل باثبات الوثائق والمراسلات السياسية والمذكرات والاقوال التى عثرنا عليها فى بطون الكتب التى نشرت عن محمد على وابراهيم مما له صلة ببحث الامبراطورية العربية وسيتبين القارىء منها ان هذين البطلين العظيمين سعيا

لانشاء امبراطورية عربيـة تكون القاهرة عاصمة لها تنهض بالعرب وتجدد مفاخرهم ، وتهيء لهـم سبل التقدم فينهضوا من الهوة السحيقة التى اوصلهـم اليها الحكم التركى ويلحقوا بالامم الاوربيـة فى تحولها ورقيها وكانت نهضـة اوربا فى ابتداء اشراقها

وادرك ابناء الشام هذه الحقيقة فرحبوا بابراهيم باشا حينما زحف الى قطرهم ووالوه ، وفتحوا له الابواب ففى فلسطين انضم اليـه آل عبد الهادى وآل درويش والعمر وغيرهم من الاسر الكبرى كما انضم اليـه فى لبنان الامير بشير الشهابى مع الموارنة والدروز ورحبوا به وعـدوه منقذا ومحررا ، لانه خاطبهم بلسانهم العربى ونادى انه قدم لتحريرهم وانقاذهم من النير التركى . واذا استثنينا ماوقع من المقاومة فى عكا فان جميع البلدان الشامية من العريش حتى ابواب حمص سلمت اليـه تسليما والمعارك الوحيدة التى اشتبك فيهـا مع الترك فى خلال فتح الشام هى معركة الزراعة فى جنوبى حمص ومعركة حمص ومعركة بيلان

ويقول سليمان ابو عز الدين فى كتابه « ابراهيم باشا فى سورية » ان جيش ابراهيم باشـا حينما بلغ دمشق كان يتألف من ١٨ الف مقاتل نصفهـم من الجند المنظم والنصف الآخر من الدروز والعربان بين سوريين ومصريين وان المصريين نزلوا فى سهل القابون اما اللبنانيون وكانوا بقيادة الامير بشير فنزلوا فى المرجة وان المدينة سلمت بعد مقاومة بسيطة قاومها الترك وان اعيانها ووجهاءها جاءوا مرحبين بالفاتح الكبير

ولما زحف ابراهيم باشا الى حمص للقاء الجيش التركى وكان قد احتشد فيهـا بقيادة الباشوات ـ انضم اليه ٧٥ عينا من اعيان دمشق معهـم نحو الف من رجالهم والامير بشير الشهابى وولده الامير خليـل وامراء وادى التيم الشهابيون ومشايخ جبل نابلس وغيرهم من اعيان البلاد الشامية وساروا معه

ولا يخامرنا شـك بأنه لولا انضمام اهل البـلاد اليه وتأييدهـم له فى نضاله لما اكتسح بلاد الشام كلها بمثـل تلك السرعة العظيمة ولمـا هزم الترك تلك الهزائم

الشنعاء ولما بلغ مابلغه من توفيق

واذا قيل لنا ان اهل الشام انقلبوا على ابراهيم باشا فى آخر الامر وقاتلوه نجيب ان محاولته جمع السلاح وتجنيد الرجال وتطبيق نظم الاحتكار التى كانت تطبق بمصر هو السبب المباشر لما جرى ، فقد اراد محمد على ان يطبق فى الشام الانظمة التى كانت تطبق بمصر غير مقيم وزنا لما بين القطرين من فوارق اجتماعية ويقول الاستاذ عبد الرحمن الرافعى ان ابراهيم باشا كتب الى والده مقترحا عليه العدول عن تطبيق هذه القوانين والانظمة بسبب حالة البلاد فاصر على تنفيذها فلم يجد بدا من الطاعة فكان ما كان يضاف الى هذا ما كان هنالك من دسائس اجنبية يجب ان يحسب حسابها

الوثائق والمستندات الرسمية

وهذا ماعثرنا عليه من الوثائق والمستندات الرسمية التى تؤيد رأينا فى سعى محمد على باشا وابنه ابراهيم باشا لانشاء الدولة العربية :

١

من محمد على الى الحكومتين الفرنسوية والانكليزية

لما جاءت الاخبار الى القاهرة باستيلاء ابراهيم باشا على دمشق وزحفه الى حلب استأجر محمد على باشا سفينة فرنسوية لتحمل منه رسالتين الاولى الى حاكم مالطة الانكليزى والاخرى من قنصل فرنسا بمصر الى حكومته . وهذا ما جاء فى رسالة هذه الى المسيو سبستيانى وزير خارجية فرنسا يومئذ قال :

« ان محمد على لم يستأجر السفينة الفرنسوية لتحمل الى مرسيليا ومنها الى اوربا خبر فتح دمشق ولكنه استأجرها لتحمل منه رسالة الى الحكومة الانكليزية

بواسطة حاكم مالطة لانه لا يثق بالقنصل الانكليزى بمصر و يعتقد بأنه يتلاعب بالاعراب عن افكاره وآرائه

« ولم يسلمنى رسالة مكتوبة ولكنه املى على افكاره التى يريد ان يعرضها على وزير الخارجية وهى :

« يرى محمد على ان تركيا واصلة حتما الى ازمة من الازمات الكبيرة التى يتقرر بها مصير الامم والدول . وانه يتم الآن الانفصال بين شطرين من السلطنة تقضى الحوادث والانظمة والضرورة والاقدار بفصل احدهما عن الآخر (يريد انفصال بلاد الترك عن بلاد العرب)

« وكان فى الامكان تلافى ذلك لولا غفلة السلطان لان محمد على كان يود دائما ـ بالرغم من انفصال احد الشطرين عن الآخر بالفعل والواقع ـ ان يظل التابع الخاضع المخلص ولكن العناية ارادت غير ما اراد فالآن قد تم انشاء المملكة العربية . والبلاد العربية هى مهبط الوحى وهى تحتضن الاماكن المقدسة وفيها مقر الخلافة وتطوقها الجبال من كل جانب كالاسوار ، واذا اضطرت للدفاع عن نفسها انشأت القلاع والحصون التى يتضاعف عددها

« واليوم ينتظر ان يرتمى السلطان وجيشه على اسطول محمد على وجيشه فيكون مصير اسطول السلطان وجيشه السحق فلماذا يستمر هذا القتال الذى لا فائدة منه ؟ واية امة اوربية تجد فيه ربحها ؟ فلا هى فرنسا ولا هى انكلترا ولا النمسا ذاتها وذلك للاسباب التى يعرفها الجميع ولا يجهلها احد

« والدولة الوحيدة التى يهمها سقوط الدولة العثمانية هى روسيا ويقوم الدليل على ذلك بدفعها الباب العالى بكلتا يديها ضد محمد على مع اعلان الغضب والسخط عليه وتملكت الغفلة الباب العالى فلا يعمل شيئا الا بنصيحة روسيا واوامرها وروسيا تعرف ان مصر صارت قوة وان هذه القوة تؤيد عند الحاجة الباب العالى ضدها . وتملك

الباب العالى الجنون فانساق لارادتها ضد الشعور القوى الحى فى السلطنة ولذلك تريد روسيا ان يمزق بعضنا بعضا

« فهل تسمح فرنسا وانكلترا بان تحفر السياسة الخادعة هذه الحفرة ليتردى فيها الجهل والغباوة ؟ ان عليهما وحدهما وعلى رأيهما ووساطتهما تتوقف الحيلولة دون الدسائس فاذا فعلتا كان عملهما خدمة للباب العالى ذاته وللسلام والانسانية

« ان محمد على وان كان اهين فهو لايطلب ـ والنصر حليفه ـ الا ما كان يطلبه قبل القتال فلا يمتد نظره الى اكثر من الحاق سورية حتى حلب بمصر تحت سيادة السلطان وعلى شروط موافقة للسلطان كل الموافقة . اما اذا ترك قياد السلطان لصديق ماكر فقد تكون النتيجة عليه بلايا شديدة

« وهل من يشك الآن فى ان الانتصار فى سهول حلب بفضل عبقرية ابراهيم العسكرية ، و بفضل تفوق العرب و بفضل فوز الاسطول المصرى سوف يقرر مصير الاستانة »

٢

المطالبة بضم تونس وطرابلس الغرب وبغداد الى الدولة العربية

وفى يوم ٣ فبراير سنة ١٨٣٣ كتب ابراهيم باشا عند وصوله الى كوتاهية فى طريقه الى الاستانة يقول الى والده : ارى ان يكون الاستقلال مقدما على كل شىء فى المناقشات التى تدور بينك و بين الرسولين (مورافيف مندوب روسيا وخليل رفعة باشا مندوب الباب العالى)

« فمسألة الاستقلال مسألة حيوية تقدم على كل شىء ، و بعد الاعتراف بالاستقلال يجب ان نطلب اضاليا وادنه وجزيرة قبرص وان تضم الى مصر ـ اذا كان ذلك بالامكان ـ تونس وطرابلس، ذلك اقل مايجب ان نطلبه ولا نتساهل فى اى شىء كان مهما كان الامر لان مصلحتنا تقضى به

« اما اصرارنا على طلب الاستقلال فلكى نوطد مركزنا ونحوطه بالضمانات فاذا لم ننل الاستقلال ذهبت جميع جهودنا ضياعا ، ومكثنا تحت يد هذه الحكومة الخبيثة التى توقرنا بمطالبها الدائمة و بطلب المال ، فمن الآن يجب ان نتخلص من الاعباء الباهظة ولا خلاص الا بالاستقلال

« والذى يدعونا لطلب اضاليا وادنه هو شدة حاجتنا الى الخشب ، لان مستقبل اسطولنا معلق على ذلك ، مادامت بلادنا محرومة من الخشب ، وانت تذكران انكلترا منعت اصدار الخشب الينا فاضطررنا ان نلجأ الى النمسا التى ازعجنا رفضها اصداره ازعاجا لانستطيع نسيانه . واما ضم قبرص الى مصر فهو ايضا لازم لامندوحة عنه لسببين : الاول لتكون مركزا لاسطولنا ، والثانى لمنع الباب العالى من ان يكون له طريق الى املاكنا واذا شئت ان تطلب بغداد فلا مانع من طرح هذه المسألة على بساط البحث »

٣

ابراهيم باشا والفكرة العربية

يقول عبد الرحمن الرافعى فى كتابه تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر فى الجزء الثالث مانصه : « ومن الراجح الذى تؤيده الحوادث ان مشروع محمد على كان يتناول انشاء دولة عربية مستقلة فى مصر تضم اليها البلاد العربية فى افريقية وآسيا ، ففى افريقية قد استقل بمصر وفتح السودان ، وفى آسيا فتح معظم جزيرة العرب ، و بسط عليها نفوذ الحكومة المصرية و بطموحه الى سورية اراد ان يؤسس الدولة المصرية الكبرى

« و يزيد هذه الفكرة رجحانا تصريحات فاه بها ابراهيم باشا فى خلال الحرب السعودية فقد ذكر المسيو كادليفن و بارد فى كتابهما انه بينما كان الحصار مضروبا على عكا سئل ابراهيم باشا الى اى مدى تصل فتوحاته اذا تم له الاستيلاء على عكا فقال

مامعناه « الى مدى مايتكلم الناس واتفاهم واياهم باللسان العربى »

وقابل البارون « لبو الكونت » ابراهيم باشا قرب طرسوس سنة ١٨٣٣ بعد عودته من كوتاهيه فحادثه حديثا طويلا وكتب عنه يقول : يجاهر ابراهيم باشا علنا بانه ينوى احياء القومية العربية واعطاء العرب حقوقهم ، واسناد المناصب اليهم سواء فى الادارة ام فى الجيش ، وان يجعل منهم شعبا مستقلا ويشركهم فى ادارة الشئون المالية ، ويعودهم سلطة الحكم كما يتحملون تكاليفه

« وتتجلى فكرته هذه فى منشوراته ، ومخاطباته لجنوده فى الحرب السعودية الاخيرة ، فانه لايفتأ يذكرهم بمفاخر الامة العربية ومجدها التالد ، ويتصل بهذا المعنى مجاهرته بان كل البلدان العربية يجب ان تنضم تحت لواء ابيه . وقد قال لى ان اباه يحكم مصر والسودان وسورية ومن الواجب ان يضم العراق الى حكمه ، وان جزيرة العرب تابعة لابيه الذى يعمل الآن على اتمام فتحها

« وهو فى صلاته مع اهل البلاد يستخدم اللغة العربية ، ويعد نفسه عربيا ، ولذلك لاينفك يطعن فى الترك ، وقد لاحظ عليه ذلك احد جنوده وخاطبه بتلك الحرية التى كان يشجع رجاله عليها وسأله كيف يطعن فى الترك وهو منهم فأجابه على الفور « انا لست تركيا . فانى جئت مصر صبيا ومنذ ذلك العهد قد مصرتنى شمسها وغيرت من دمى فجعلته دما عربيا »

٤

محمد على يعتز بقومه العرب

وفى شهر مارس سنة ١٨٣٣ اى فى اثناء الفترة التى كان فيها الجيش المصرى يهدد الاستانة ارسل محمد على باشا الى قنصلى انكلترا وفرنسا فى مصر الكتاب الآتى :

« انه بما لى من القوة التى استمدها من شعبى ومن القانون المقدس والفتاوى الشرعية الموجهة الى من جميع علماء البلاد العربية قد اصبح من واجبى الذى لامحيد عنه ان اوطد اركان حكومتى ومكانة قومى بجميع الوسائل . وما تلك الوسائل سوى

الحصول على كل البلدان التى اطلبها وهى البلاد التى استوليت عليها

« وبما انى قد بذلت فى سبيل ذلك وقتا طويلا وجهودا جهيدة فمن الواجب على الاقل ان يتركوا لى فى هذا الكون شيئا من الشهرة ولن يحملنى حب الراحة عن ارتكاب عار التخلى عن شعبى الذى وضع كل ثقته بى ، بل انى سأكون سعيدا بان اموت شريفا فى سبيله . فأرجو والحالة هذه من دولتى انكلترا وفرنسا ان تتخذا نحوى قرارا مطابقا للعدالة والانصاف ولمصالحهم الخاصة »

٥

محمد على وسفير فرنسا

وفى يوم ٨ مارس سنة ١٨٣٣ ارسل محمد على الى البارون روسان سفير فرنسا فى الاستانة الكتاب الآتى ردا على كتابه اليه قال :

« تقول ياسعادة السفير فى كتابك المؤرخ ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٣ انه لاحق لى بالمطالبة بسوى بلاد عكا والقدس ونابلس وطرابلس الشام وانه لذلك يجب على ان استرد جنودى حالا من البلاد الاخرى وتنذرنى بسوء العاقبة اذا رفضت ذلك . كما ان رسولك ابلغنى شفاها و بناء على التعليمات التى زودته بها ، انى اذا بقيت مصرا على التمسك بمطالبى فان الاسطولين الانكليزى والفرنسوى يتظاهران امام الشاطىء المصرى

« فبأى حق يجوز لك ياسعادة السفير ان تعمل على تجريدى مما غنمته ؟ ان شعبى بأسره يعضدنى به ولو شئت لناديت الروملين والاناضوليين الى الثورة ولو شئت لأحدثت حدثا عظيما فى تركيا بمساعدة الشعب العثمانى

« ومع انى اسيطر على ولايات عديدة والنصر حليفى فقد اكتفيت بأخذ سورية التى اقيم فيها بقوة السلاح ومساعدة الرأى العام ، واوقفت جندى عن التقدم ولا قصد لى سوى عدم اراقة دم الترك عبثا وعدم اغضاب دول اوربا فكانت المكافأة على هذا وعلى الضحايا العظيمة التى قدمها شعبى الذى مكننى بمساعدته الفعالة من الحصول على انتصارات باهرة ، ان أطالب الآن بالتخلى عن البلاد التى استوليت عليها

وان استرجع جيشى الى منطقة صغيرة يسمونها باشاوية ! الا ترون بذلك انكم تصدرون على الحكم بالموت السياسى ، ان لى وطيد الامل بان فرنسا وانكلترا لاتأبيان معاملتى بالانصاف والاعتراف بما لى من الحقوق . ان شرفهن يقضى بذلك

« اما اذا كنت مخدوعا فيما املت فانى سأطيع قضاء الله لاغير وسأفضل الموت على احتمال الضيم وسأقدم نفسى بكل ابتهاج فدى لمصلحة قومى ، واشعر بانى سعيد بان اخدمهم حتى اغيب فى لحدى . هذا هو قرارى الذى وطنت النفس عليه »

٦

الانكليز يحاربون فكرة الامبراطورية العربية

وفى تلك الفترة كتب اللورد بلمرستون وزير خارجية انكلترا الى السر ويليام كامبل سفير انكلترا فى كابل يقول :

« ان الشروط المعروضة على محمد على باشا حسنة جدا (يريد بها الشروط الخاصة باعطائه ولاية عكا) ما دامت تحرمه من دمشق وحلب وهما الطريق الى العراق . وفوق هذا يجب ان يثبت كل سنة فى ما اعطى له وان كان تثبيته فى مصر دائما

« لقد كان محمد على يرمى الى تأليف مملكة عربية تجمع بلاد العرب والمشروع جليل الشأن بذاته لولا انه يقضى بتقسيم تركيا وهذا لايمكننا ان نسلم به فتركيا هى افضل دولة تملك طريق الهند وهى خير من اى ملك عربى يقوم على هذه البلاد ويكون نزاعا للعمل كثير الحركة

« والواجب علينا أن نساعد السلطان فى اعادة تنظيم جيشه واسطوله وماليته ، فاذا استطاع ان يعيد النظام الى تلك الولايات الثلاث استطاع البقاء »

٧

النمسا والامبراطورية العربية

وكتب بوغوص بك نوبار الذى كان يتولى ادارة ديوان الخارجية فى حكومة

محمد على الى قنصل النمسا بمصر فى سنة ١٨٣٤ يقول :

« لاشك انك عرفت الميول العدائية التى اظهرها الباب العالى حديثا ضد مصر فهو يجمع منذ بضعة شهور بدون سبب ظاهر جيشا ضخما فى سيواس بقيادة الصدر الاعظم رشيد باشا مع ان سموه (اى محمد على) ارسل مندو به لاتمام المباحثات بشأن الجزية التى تدفع و بشأن الجلاء عن ادرنه التى امر ابراهيم باشا باحتلالها موقتا ليصد بعض القبائل البدوية المتمردة . وفى خلال ذلك اخذ الباب العالى يوزع الاموال بواسطة عبد الله باشا والى عكا السابق لاثارة الفتن والثورات فى جبل نابلس وخليل الرحمن والقدس وقد عمت الثورات تلك الجهات وتطلب اخمادها مجهودا استمر ثلاثة اسابيع

« ولما وصل الى محمد على خبر هذه الحركات العدائية ابلغ قناصل الدول انه قد يرى نفسه مضطرا لاعلان استقلاله لان الباب العالى لايرضيه سوى هدمه سياسيا والجميع يعرفون ان سموه لم يطلب فى حين من الاحيان استقلالا ، والتفرقة التامة الدائمة بين الوطنين العربى والتركى هى الضمانة الوحيدة العامة من النتائج المهلكة من جراء حرب اهلية ومن غزوة اجنبية

« واذا اعترف باستقلال سموه فانه يستطيع بعد هذا الاعتراف ان يحصر همه فى تنظيم ماليته وفى حشد ١٥٠ الف جندى منظمة تنظيما كاملا فيتمكن من القيام بالمهمة الكبرى وهى انقاذ تركيا من روسيا »

ولما اطلع مترنيخ (وزير خارجية النمسا يومئذ) على هذا الكتاب كتب الى سفيره فى بطرسبرج يقول : اننا نستنتج من اعتراف محمد على انه يريد امرين : استقلاله التام عن الباب العالى وانشاء الدولة العربية »

٨

قنصل انكلترا فى بغداد ومحمد على

وفى ٦ فبراير سنة ١٨٣٣ كتب الكولونيل تايور قنصل انكلترا فى بغداد الى

الكولونل كامبل قنصل انكلترا فى بغداد يقول :

« ان هذه الولاية (ولاية بغداد) هى الآن فى اشد حالات البؤس والضيق تحت حكم على باشا الذى كان قبل مجيئه الى بغداد واليا على حلب

« ان انظار الشعب العربى متجهة فى هذه الفترة نحو ابراهيم باشا وهو يحبه »

٩

قنصل النمسا واليقظة العربية

وفى ١٦ يوليو سنة ١٨٣٣ كتب الهر بروكسى اوستن معتمد النمسا بمصر الى الكونت مترنيخ يقول :

« ان اسبابا عديدة تثبت ان فكرة تأليف الامبراطورية العربية لاتزال حية ولا تزال موجودة ، ولكن ارى الى جانب العقل المدبر ، عقل محمد على ، المطامع الواسعة ، والهمة العالية فى صدر ولده وخليفته ، فابراهيم باشا ابن هذا العصر وقد تربى تربية عصرية عالية وتنزه عقله عن الانطباع على الخضوع للسلطان بحكم المبادىء الدينية

« وارى الى جانب ضعف الباب العالى وهزاله جيشا عربيا قويا ممرنا على احدث مبادىء القتال ، وارى اسطولا قويا ، وكلا الجيش والاسطول يسهل مضاعفتهما . اضف الى هذا كله يقظة الروح العربية بعد سباتها فمحمد على يتمتع بحسن السمعة والصيت فى جميع البلاد العربية »

١٠

تقرير عن الامبراطورية العربية

وعثروا فى محفوظات وزارة الخارجية البريطانية على تقرير قدم الى محمد

على بين سنة ١٨٣٢ و ١٨٣٣ عن انشاء الامبراطورية العربية هذا نصه :

« ان اصدق ترتيب وافضل تنظيم هو ان تؤلف المملكة العربيـة من مصر و بلاد النوبة وسنار ودارفور وكردوفان فى افريقية ومن بلاد العرب كلها حتى الخليج الفارسى ومن الشاطئ الشرقى لنهر الفرات مع دخول سورية فى هذه المنطقة

« فاذا تم ذلك يحييكم العالم العربى كما يحيي الثائر للخلافة الاسلامية وللخلفاء الراشدين وكما يحيي الرجل الذى ارسله الله لانقاذ الاسلام ، وينظر اليه كل عربى كقبلة لأمانيه وآماله

« وهذه الروح الدينية والسياسية قد تحولت اليكم ، وهـذا شريف مكة هو اول المعجبين بقوتـكم وعظمتـكم والرأى العام يؤيدكم بأصدق امانيه ودعائه ولا ريب ولا شك فى افضلية وسائلكم على ماعند الباب العالى

« ولبلوغ الغرض يجب البـدء بمفاوضة اعيان بغـداد وزعماء الشعب على الشاطئ الشرقى للفرات . ولا يعارض الانكليز فى التقرب من شيوخ الخليج الفارسى وتستطيعون حماية التجارة والصناعة والدين فى تلك البـلاد بفضل نفوذكم — ونحن نثق بقرب حلول نكبة فى استانبول ، فانكلترا وفرنسا لاتستطيعان الحيلولة دون ذلك ، والنمسا وروسيا لاتريدان هـذه الحيلولة . ومن ذلك تـكون خطتـكم الدفاع فتدع تركيا اوربا وشأنها وما هو واقع وراء جبال طوروس لما تقرره اوربا . ولما كان الباب العالى سيحاول ان يسترد سورية فان من الواجب عليكم العمل السريع

« وتنقص جيشـكم فى الشام الآن معـدات الدفاع فهو يحتاج الى ٢٠ بطارية وفرقتين مهندسين و ٣٠٠ مستشفى وعددكاف من الاطباء وان يكون عدد الجيش العامل ١٣٠ الفا ماعدا العربان المتطوعين والواجب التمسك بصداقة رشيد باشا والولاة الآخرين »

١١

محمد على وقبائل العراق

وكتب المستر فارن قنصل انكلترا فى دمشق سـنة ١٨٣٥ الى وزارة خارجية

دولته ـ حينما اراد ابراهيم باشا احتلال بيره‌جك على الفرات يقول « ان هذا الاحتلال يجعل لمحمد على النفوذ الكبير فى بلاد العراق ، واذا وصل العراق بدمشق بمرابط عسكرية فانه يضع لحاما يلحم به بين القبائل »

١٢

محمد على والانكليز والعراق

وارسل اللورد بالمرستون وزير خارجية انكلترا الى الكولونيل كامبل يوم ٨ ديسمبر سنة ١٨٣٧ المذكرة الآتية لابلاغها الى محمد على وهذا نصها :

« اكلفك ان تبلغ محمد على باشا بان حكومة جلالة الملكة تلقت تقارير عن حركات الجنود المصرية فى سورية و بلاد العرب وهى تدل على انه ينوى ان يبسط سلطة مصر الى جهة خليج فارس وولاية بغداد فابلغ الباشا بكل صراحة ان الحكومة الانكليزية لاتستطيع ان تنظر دون اكتراث الى تنفيذ مثل هذه المشروعات »

٧

فى طريق الحملة الى الشام

يقول الدكتور كلوت بك وكان من اقرب المقربين الى محمد على باشا فى كتابه محمد على « ان ضم سورية الى مصر كان ضروريا لصيانة ممتلكات مصر ، فمذ تقرر ان انشاء دولة مستقلة على ضفاف النيل يفيد المدنية فائدة عامة وجب الاعتراف بان هذه الغاية لا تدرك الا بضم سورية الى مصر ، وقد رأينا فعلا ان موقع البلاد الحربى لا يجعلها فى مأمن من الغزوات الخارجية على طريق برزخ السويس ، فاذا استثنينا غزوة الفاطميين وغزوة نابليون ، نجد ان سائر الغزوات جاءت من طريق سورية كغزوة الفرس وغزوة الاسكندر وغزوة الايوبيين والترك ، ولذلك لايطمئن على بقاء مصر دولة مستقلة الا باعطائها حدود الشام لان حدودها ليست فى السويس بل فى طوروس »

ويقول سليمان ابو عز الدين فى كتابه ابراهيم باشا فى سورية : « ان بوادر طموح محمد على باشا الى امتلاك سورية ظهرت فى سنة ١٨١٠ عند ماجأ اليه يوسف باشا الكنج والى دمشق فارا من وجه سليمان باشا والى صيدا ، فسعى عند رجال الدولة لاعادة الاول الى منصبه مشترطا عليه ان يكون معينا له فى بسط سيطرته على سورية ، ولم يتلق رجال الاستانة طلبه بالارتياح لانه تبين من احاديثه انه يبغى اعادة يوسف باشا الى دمشق وتولية ولده طوسن باشا على عكا وصرح باكثر جلاء بمطامعه فى سورية وامله بالحصول عليها يؤيد ذلك الرسالة التى ارسلها المسيو دروفانى قنصل فرنسا فى مصر سنة ١٨١١ الى حكومته فقد جاء فيها ان محمد على طامع فى باشاوية سورية وقد قال لى فى احد الايام انه لايستبعد حصوله عليها بتضحية مبلغ من المال يتفاوت

بين ٧ ـ ٨ ملايين قرشا يدفعها الى خزينة السلطان واخذت فكرة الاستقلال تزداد قوة منذ تغلبه على اعدائه وحله مشاغبات الجنود والارتباكات التى كانت تسود مالية البلاد

« ولما شرع محمد على فى تجهيز حملته الاولى لقتال السعوديين اشاع بعضهم انه يحاول الزحف للاستيلاء على الشام وكتب المسيو دروفانى الى حكومته يقول بهذه المناسبة « ان جميع الاستعدادت التى يقوم بها تدل على انه سيخترق الصحراء ويتجاوزها الى سورية اما غرضه الحقيقى فلا يزال سرا مكتوما فى ضميره ، وهو لم يحد فى هذه المرة عن خطته المعهودة وهى التأنى ثم التصرف حسب مقتضيات الاحوال »

ولجأ الامير بشير الشهابى حاكم جبل لبنان فى اواخر شهر يوليو سنة ١٨٢٢ الى محمد على خائفا من الدولة لانه انضم الى عبد الله باشا فى نزاع قام بينه وبين درويش باشا والى دمشق فعزله الباب العالى كما عزل عبد الله باشا ، وامر درويش باشا والى دمشق ومصطفى باشا والى حلب بالزحف الى عكا لتأديب عبد الله باشا فلجأ هذا الى مصر ايضا فتوسط محمد على عند الباب العالى ونال عفوا لهما واعادهما الى منصبيهما بعد ما بالغ فى الحفاوة بهما

واستغل محمد على هذه اليد عند هذين الحاكمين للتدخل فى شؤون بلاديهما مباشرة فامر الامير بشيرا ان يهيىء اربعة آلاف مقاتل من لبنان ليرسلهم الى المورة لمساعدة ابراهيم اذا مست الحاجة . كما طلب من عبد الله باشا ان يعد له عشرة آلاف من اللبنانيين المشهورين بالشجاعة

واستفحل فى خلال تلك الفترة النزاع بين الامير بشير الشهابى وبين الشيخ بشير جنبلاط كبير مشايخ الدروز فنشبت الحرب بينهما فكتب محمد على الى عبد الله باشا يحثه على المبادرة لتأييد الاول ففعل فكان النصر حليفه . وقبل ان يتلقى بشرى النصر ارسل « جوخداره » مع ٤٠ هجانا الى الامير بشير وقال له انه اعد حملة مؤلفة من ٢٠٠٠ فارس واربعة آلاف من المشاة لنجدته وانه ارسل الجوخدار مع تتر

« صاحب البريد » لكي يطلع على الحالة ويعيد اليه « التتر » سريعا حتى اذا كان هنالك ما يقتضى ارسال النجدات ارسلت بسرعة فاجيب بانه لا حاجة الى ارسال شيء

واوفد الامير بشير بعد ذلك و بعد ظهور محمد على بهذا المظهر، ولده الامير امين لزيارة صديقه فجاء القاهرة مع حاشية كبيرة ونزل فى ضيافته مدة ثلاثة عشر شهرا ولم يعد الا قبل زحف الحملة بزمن قليل، ليعد المعدات اللازمة لاستقبالها ولتهيئة الجو المناسب ، فقد كان محمد على يطلع اصدقاءه على نيته ، وكانوا يقابلون ذلك بالارتياح و يعدونه بالمساعدة

و بين الذين زاروا القاهرة فى تلك الفترة ايضا الشيخ على العماد من كبار شيوخ الدروز فى جبل لبنان فاحتفى به الباشا وا كرم وفادته وانزله فى ضيافته وانشأ صلات وثيقة معه على جارى عادته مع زائرى القاهرة من كبار العرب فى الشام

وفترت العلاقات بين محمد على باشا وعبد الله باشا والى عكا بعد ذلك لكثرة تدخل الاول فى شؤون ولاية الثانى ولان هذا كان يحسده وينفس عليه ما بلغه من رفعة واتساع نفوذ ويخاف على مركزه منه يضاف الى هذا ان عبد الله كان فى عنفوان شبابه ، فما كان سنه يزيد على الثلاثين ، وكان يفخر بحصون عكا المنيعة ويعتقد انها لا ترام ويرى فى نفسه الكفاءة لقهر محمد على وهزيمته اذا حدثته النفس بالزحف الى عكا ورده خائبا عنها كما ارتد نابليون ، ويجب ان لا ننسى ان الباب العالى كان من وراء عبد الله باشا يحرضه على مقاومة محمد على و يغريه به وقد لا يبعد ان يكون اطمعه بمصر نفسها ، ولذلك لم يتردد فى ان يقلب ظهر المجن لصديقه القديم وان يرفض طلبه بتسليم اللاجئين المصريين اليه حينما طلب تسليمهم منه يؤيد هذا الاستنتاج قوله لابراهيم باشا حينما اسره : « ان وعد مومسة اشرف من وعد الباب العالى وان الخاسر من يعتمد عليه و يثق بمواعيده واقواله »

وجملة القول ان الباب العالى ورجاله فى الشام لم يفاجأوا بزحف الحملة المصرية على سورية ، فقد كانوا يعرفون حقيقة نيات محمد على باشا و يعرفون انه يعمل سرا وجهرا لانتزاعها منهم وضمها الى الدولة العربيـة التى كان يسعى لانشائها على ضفاف النيل بالاتفاق مع نجله ابراهيم باشا

٨

فتح الشام والاناضول

....

فى اواسط شهر اكتوبر سنة ١٨٣١ غادرت الحملة المصرية الخانكة برا الى فلسطين بطريق العريش بقيادة ابراهيم باشا يكن . اما ابراهيم باشا قائد الحملة العام او « صارى عسكر الجيش العربى » وهو لقبه الرسمى فقد سافر الى الاسكندرية ومنها ابحر الى يافا ومعه هيئة اركان حربه وتتألف من ابن اخيه عباس باشا بن طوسن وسليمان بك (باشا) « الكولونيل سيف الفرنسوى » واحمد بك المنيكلى

وكانت الحملة تتألف من ستة الايات من المشاة و ٤ الايات من الفرسان يبلغ مجموعها نحو ٣٠ الف مقاتل و يتبعهم عدد كبير من الفرسان العرب ومن رجال القبائل

وكانت معداتها تتألف من ٤٠ مدفعا من مدافع الميدان ومثلها من مدافع الحصار

وانضم الاسطول المصرى الى الحملة ، بعد ما جدده محمد على وكان يتألف من خمس سفن كبيرة وعدد من السفن الصغيرة وسار الى يافا فرسا امامها ، فاسرع اعيانها بتقديم الطاعة والخضوع لابراهيم باشا حينما وصلها قادما من الاسكندرية بحرا فانزل قوة عسكرية صغيرة احتلتها رسميا واقر المتسلم (الحاكم) فى منصبه . وكان فى قلعة يافا ٤٧ مدفعا مع ذخائرها فاستولى عليها

وجاءته وهو فى يافا حامية غزة مستسلمة طائعة فأرسل من يتسلم غزة .

ولما ازمع السفر الى عكا اصطحب طائفة من بحارة يافا لارشاد رجال الاسطول المصرى فأدوا وظيفتهم على الوجه الاكمل

ووصلت الحملة الى عكا قادمة بطريق العريش من دون ان يحدث لها حادث وبدأت من يوم ٢٦ نوفمبر بمحاصرتها براً كما بدأ الاسطول بمحاصرتها من البحر. وكان الباب العالى قد جدد حصون عكا ورممها بمساعدة مهندسين اوربيين فنيين وحصنها تحصينا زائدا استعدادا لمثل هذا اليوم

وكانت حامية عكا حين وصول الحملة المصرية تتألف من ستة آلاف مقاتل بقيادة عبد الله باشا

وفى يوم ١٩ ديسمبر بدأ الجيش المصرى يضرب حصونها بمدافع الحصار الكبرى، يشد ازره الاسطول، واستمر على ذلك حتى اواخر شهر يناير سنة ١٨٣٢ من دون ان ينال منها منالا. ولما طال عليه المطال شرع ابراهيم باشا فى درس خطة عسكرية جديدة تقوم على الايغال فى سورية الوسطى وسورية الشمالية على ان يترك حول عكا قوة عسكرية كافية لمضايقة الحامية وصدها اذا حاولت الخروج او قطع خطوط مواصلاته، وكتب الى الامير بشير الشهابى (وكان فى دير القمر) يستقدمه للاتفاق معه على تفاصيل الخطة الجديدة

وحدث فى اثناء ذلك وقبل تنفيذ الخطة الجديدة ان رفع عبد الله باشا راية بيضاء على الابراج علامة التسليم فأرسل اليه ابراهيم باشا رسلا لمفاوضته، ووصل الى عكا والمفاوضة دائرة رسول من السلطان يدعو الباشا الى المقاومة والثبات ويقول ان النجدات قادمة فى الطريق، فقطع المفاوضة واعاد الرسل المصريين الى معسكرهم وعقد العزم على مواصلة القتال

الترك يحاولون انقاذ عكا

وساء ابراهيم باشا ما وقع وعرف ان الباب العالى حشد حملة عسكرية عددها ٢٠ الف مقاتل بقيادة عثمان باشا لبيب محافظ طرابلس للزحف الى عكا. ولما كانت اوامر والده اليه تقضى بلزوم التشديد على عكا وفتحها قبل ان يصل الترك لنجدتها عقد مجلسا حربيا ضم نخبة ضباطه واركان حربه فتقرر بالاجماع ان يبقى قوة

كافية حول عـكا لحصارها . ثم يتقدم بالجانب الاكبر من قواه للقـاء الجيش القادم وضربه وتمزيقه قبل ان يبلغها

وقبل ان يشرع ابراهيم باشا فى زحفه وصـل الى المعسكر المصرى حول عكا الامير بشير الشهابى مع ١٠٠ فارس من رجاله فركب لاستقباله وحيته المدفعية واقام قرب صديقه القديم يشد ازره و يساعده فى مهمته

واصـدر الامير بشير امرا الى كبير انجاله الامير خليل بأن يجنـد اللبنانيين لينضموا الى الحملة و بأن يسير بألف مقاتل الى طرابلس ، ليقطع الطريق على الجيش التركى القادم لمنازلة المصريين وامر نجله الثانى امين بأن يشرف على حشد الجند وارسل قاسما ابنه الآخر الى زحلة يقود الف رجل من رجاله لجمع المؤن للحملة

و وصلت ايضا طوائف من عرب فلسطين ولا سيما من جبـل نابلس والخليل فانضمت الى جيش الباشا

تدابير الترك فى سورية

كان اول ما فعله البـاب العالى حينما جاءه نبأ تقـدم جيش ابراهيم باشا الى سورية ان ارسـل رسولا الى محمـد على باشا اسمه مصطفى ناصف افنـدى ليقنعه باسترداد حملته وليقول له ان تعليمات صدرت الى عبد الله باشا بالـكف عن معارضته و ينذره بأن حركته ستؤدى الى تعطيل موسم الحج

وقضى مندوب الباب العالى ٣٠ يوما فى المحجر الصحى بالاسكندرية قبل ان يقابل محمد على فلما قابله ذكره بخدماته الجليلة للدولة وقال انه يطالب بسورية لحاجاته اليها فانقلب هذا بعد ذلك الى الاستانة من دون ان ينال منالا فأصدر الباب العـالى الاوامر الى ولاة قونيه وقيصرى وسيواس ومرعش وادنه و بياس بأن يجندوا الجنود و يرسـلوها الى حلب ، كما اصدر امرا الى والى حلب بأن يكون على قدم الاسـتعداد وعين محمد باشا حاكم الرقة قائدا عاما للحملة الجديدة، كما عين عثمان باشا لبيب معاون

حاكم الشام السابق حاكما لطرابلس وامره بأن يسير الى عكا على رأس قوة عسكرية كبيرة لصد المصريين فسار اليها من حلب بطريق اللاذقية

اول معركة بين العرب والترك

ارسل ابراهيم باشا من مقامه فى عكا قوة بقيادة الامير خليل بن الامير بشير فاستولت على بيروت وطرابلس وعين مصطفى اغا بربر وكان من انصار الجيش المصرى حاكما لمدينة طرابلس والمناطق المجاورة لها

واستقر الامير خليل فى طرابلس وكان يقود الف لبنانى الى جانب ٥٠٠ نابلسى و ١٥٠٠ مصرى بقيادة اميرالالاى ادريس بك ومعنى هذا ان الحامية المصرية فى طرابلس الشام كانت تتألف من ٣٠٠٠ مقاتل نصفها مصرى والنصف الآخر سورى

وغادر عثمان باشا لبيب اللاذقية يوم ٢ مارس سنة ١٨٣٢ الى طرابلس والمسافة بينهما نحو ٧٠ كيلو مترا وكان يقود قوة كبيرة من خيالة الاكراد والترك تشد ازرها مدفعية ولما اقترب من طرابلس اصلته الحامية بقيادة الاميرالاى ادريس بك نارا حامية فارتد

ولحق ادريس بك بالعدو ومعه نحو ٦٠٠ من رجاله فارتد عثمان باشا عليهم وقد طمع فيهم لقلتهم وقاتلهم فانسحبوا الى طرابلس فاقتفى أثرهم فقابلته الحامية بنيرانها فارتد الى الوراء بعد ماخسر عددا كبيرا من رجاله

ابراهيم باشا فى طرابلس

ووصلت اخبار ما حدث فى طرابلس الى ابراهيم باشا وكان لا يزال يحاصر عكا فسار يوم ١٢ ابريل يقود فرقة من الحرس وفرقة من المشاة وفرقة من الفرسان وقوة من فرسان البدو وستة مدافع يريد طرابلس ، وعرف عثمان باشا بقرب وصوله وكان

يرابط قرب طرابلس فانسحب نحو حمص تاركا مدافعه وخيامه و بعض معداته فغنمها الجيش المصرى وسار فى أثره الى حمص ولما وصل الى القصير وهى فى جوارها استقبله اعيان حمص مرحبين

معركة الزراعة

ولم يشأ ابراهيم باشا ان يوغل فى الشمال – لئلا يبتعد عن خطوط مواصلاته ، ولان عكا كانت لاتزال تقاوم ولان ذخائره لم تكن كثيرة بل غادر حمص الى بعلبك وهى فى جنوبها فتوهم عثمان باشا لبيب انه انسحب خوفا منه فسار وراءه فوقف فى سهل الزراعة جنوبى حمص وهنالك التقى الجيشان يوم ١٤ ابريل سنة ١٨٣٢ (١٤ ذى القعدة سنة ١٢٤٧)

وكانت قوات ابراهيم باشا فى هذه المعركة تتألف من آلايين مشاة وآلاى من الفرسان وعدد من المتطوعين ومجموع ذلك نحو ستة آلاف مقاتل ، اما قوات الترك فكانت اكثر و يقال انها تفوق عدد الجيش العربى اضعافا

وعبأ ابراهيم باشا جيشه تعبئة متقنة وستر مدافعه عن الانظار فلما بدأت المعركة نشر صفوفه بغتة فانكشفت مدافعه المحكمة الوضع وصبت قنابلها المهلكة على اعدائه فاضطربوا وزلزلوا فأمر جنوده فحملوا عليهم فانهزموا فطاردوهم حتى نهر العاصى فهلك بعضهم غرقا . وتقدر خسارة الترك فى هذه المعركة بثلاثمائة قتيل وهى اول معركة يفوز فيها الجيش العربى على الترك

واستقر عثمان باشا لبيب فى حماه بعد انكساره واخذ يجمع فلوله

اما ابراهيم باشا فسار الى بعلبك ، وكان عباس باشا قد سبقه اليها فدخلها قادما من عكا بطريق صفد – مرجعيون – البقاع يقود فرقة من المشاة واخرى خيالة مع ١٨ مدفعا فأمره بأن يستقر فيها لانها فى مركز متوسط بين حلب ودمشق و بيروت وطرابلس وسار هو الى عكا لاتمام فتحها

فتح عكا

اغتنم عبد الله باشا فرصة خفض القوات العربية بسبب سفر ابراهيم باشا الى الشمال فجمع جموعه و برز من وراء اسواره وحمل على القوة المحاصرة فردها الى الوراء وغنم بعض مدافعها ثم عاد الى معقله

وعاد ابراهيم باشا من غزوته فى الشمال بعد ما اخضع شقة سورية الساحلية فحط رحاله حول عكا وشدد عليها الحصار وجاءته وفود السوريين من بدو ودروز وموارنة تشد ازره

وواصلت المدفعيـة المصرية ضرب الاسوار فصـدعتها وافتتحت فيها ثغرتان كبيرتان واخرى صغيرة فقرر ابراهيم باشا مهاجمتها وضرب لذلك يوم ٢٧ مايو موعدا

وشرع المصريون بهجومهم فى صباح اليوم المحدد فحملوا من ثلاث جهات فدار قتال عنيف امتد حتى الظهر فاستولوا على ثغرتين من الثلاث وارتد الجنود الذين وصلوا لاحتلال الثغرة الثالثة بسبب مالقوه من مقاومة شديدة فبادر الباشا الى انجادهم بجزء من الاحتياطى ، وتقـدم الجند مشهرا سيفه بيده فتبعه الجنود فاحتـل الثغرة ودخل المدينة بآلايه وتحصن فى احدى الخانات وامتنع فيه

وادرك عبـد الله باشا بان المقاومـة لا تجـديه نفعا ، بعـد مادكت اسواره ، وخسر معظم رجاله ، ونفدت ذخيرته فجنح الى التسليم

وألف سكان عكا ـ وكانوا كاخوانهـم الآخرين يعطفون على الحمـلة المصرية و يرجون لها التوفيق ـ وفدا زار عبد الله باشا وطلب منه التسليم لعدم فائدة المقاومة وزار هذا الوفد ايضا ابراهيم باشا يطلب منه العفو والسماح فقال انه لا يمس احدا بسوء اذا القت الحامية السلاح فى الحال وسلم الاهالى

وارسل ابراهيم باشا ثلة من الجند الى قصر عبد الله باشا فجاء تحت حمايتها ومعه اللواء سليم بك فدخل على الباشا وفى عنقه منديل ابيض علامة التسليم والخضوع فلما اقترب منه انحنى الى الارض فأخذه بكلتا يديه وقال له :

ـ انا وانت متساويان فذنبك الى يغتفر ، ولكنك تجرأت على محمد على باشا وهو اكبر منا

ـ هكذا حكم القدر

وجامل ابراهيم باشا ضيفه كثيرا حتى ازال وحشته ، ولما ازف وقت النوم قال له :

ـ ستنام الليلة مرتاحا ياباشا

ـ كراحتى كل ليلة مضت . ثم قال : لاتعاملنى ياباشا معاملة الحريم فان دفاعى يبرهن لك على الضد ، وكل خطأى اننى اعتمدت على الباب العالى الذى لايزيد شرفه فى نظرى على شرف مومس، ولو عرفت ذلك من قبل لما كنت اليوم ملق بين يديك ولاتخذت الحيطة والحذر

و بعد يومين ارسل عبد الله باشا ووكيله الى الاسكندرية بسفينة حربية

و بلغت خسارة المصريين حول عكا ١٤٣٩ جريحا و ٥١٢ قتيلا . و يقول عبد الله باشا ان ٥٦٠٠ جندى من رجاله قتلوا فى حروب عكا

وامر محمد على باشا بعمل وسام بحجر البرلنتى كتب عليه اسم محمد على باشا وارسله الى ابنه تذكارا لفتح عكا

وهذا نص التقرير الرسمى الذى ارسله ابراهيم باشا عن فتح عكا :

« فى يوم الاحد ٢٦ ذى الحجة سنة ١٢٤٧ كلفت احمد بك امير اللواء ومعه مختار بك من الآلاى الثانى بالهجوم على الباب بطرف القلعة وان يذهب اسماعيل بك امير الآلاى اللواء الثانى ومعه الاورطة الثانية الى باب البرج الذى يصير عليه الهجوم وان يذهب الى الزاوية اللواء عمر بك ومعه الاورطة الثالثة والى برج الكريم عسكر الاورطة الاولى وان يكونوا مستعدين لتسلق الاسوار ومعهم السلالم فبدأ الهجوم بعد مرور تسع ساعات ور بع من الليل بمجرد سماع اطلاق ثلاث قنابل .وجعلنا احمد بك يكن مأمورا على محل الهجوم وتوجهت الى طابية المدافع خلف عسكر المحار بين على رأس الزاوية ووقفت الاورطة الرابعة مع ابراهيم يكن باشا قبالة البرج ، ووراءها

الامداد لان فى البرج مستودع عبد الله باشا ، وكان التصميم ان نرسل عسكرا الى الوكالة الواقعة على البحر ولكن قبل الهجوم بليلة واحدة قرر الذين فروا من القلعة ان تحت الوكالة اربعة الغام فعدلنا عن ارسال القوة »

وانتقل الباشا بعد ذلك الى وصف الهجوم فقال :

« ويضيق المقام دون وصف الشجاعة الفائقة التى ابداها جنودنا ، واذا اخذنا بالاصول الحربية ، حكمنا بان استبسالهم كان فوق ما يمكن تقديره ، ولكن الاورطة التى تساقت برج الكريم كانت خسارتها كبيرة لجهل قائدها لانه لم يدعهم يهجمون على جميع انحاء المكان عند اعطاء الاشارة، والهاجمون على الزاوية تسلقوا السور بكل سرعة . وعند وصولهم الى الخندق اطلقوا البنادق ثم صعدوا منه الى الجهات الاخرى ولحق بهم بقية العسكر حتى برج الخزينة الذى اندك سوره ، ولما وصلوا الى باب البرج استل عبد الله باشا سيفه وهجم على عسكرنا ، فردوه الى طرف الخندق ، ولما رأينا هذا الارتداد هجمت القوة التى معى على طابية المدافع ثم ارتدوا ثلاثين او اربعين خطوة فسللت سيفى انا واحمد بك امير الآلاى الفرسان ومشيت نحوهم لنردهم الى الامام ، ولكنهم كانوا يمشون تارة الى اليمين وتارة الى الشمال ، وحينئذ امرت احد الجاويشية بان يأخذ العلم من حامله ، فأبى هذا تسليم العلم ، فتقدم جاويش آخر لأخذه منه ، فامتنع عن تسليمه ، ثم تقدم وفى دقيقة واحدة فعل عسكرنا العجب وتوارى عسكر العدو واخذوا يتراشقون بالحجارة ولم يستطع العدو ان يرجع الى مكانه الاول وقل الذين نجوا منه

« وحينئذ رجع عسكرنا بعلمهم وهجموا على البرج الصغير وصعد الجنود بسرعة واخذوا يقاتلون دون ضباطهم فشتتوا العدو وارتمت بقاياه فى الخندق ، وامرت ببناء متراس لحماية الرجال واستل ثلاثة من الجاويشية سيوفهم ثم رأيتهم يرمون الرجال امامى وسيوفهم مكسرة . وفى الساعة الحادية عشرة وقف اطلاق الرصاص وارسلت ضابطا الى الباب فوجدته مفتوحا فوقف لضبط الوكالة وحصرها وامرت بجمع

الجرحى من الفرسان اذ رأيتهم صرعى فى الارض سالين سيوفهم عند حدود القلعة ، و بعد ذلك حضر اناس لطلب الامان »

الزحف على دمشق

احكم ابراهيم باشا مدة اقامته حول اسوار عكا ـ وقد استمرت نحو ستة اشهر ـ صلاته مع زعماء البلاد الفلسطينية وشيوخها ، فجاءه مشايخ نابلس وعاهدوه على المال والروح ، وجاءه مشايخ القدس والاردن و يقدرون عدد القوات التى استطاع الامير بشير جمعها ووضعها تحت تصرف الباشا بخمسة وثلاثين الف رجل اشتركت فى معظم الاعمال العسكرية التى عملت وأدت للجيش المصرى اعظم الخدمات وسهلت امامه السبل

وقسم ابراهيم باشا جيشه بعد الاستيلاء على عكا الى ثلاثة اقسام قاد هو القسم الاول وتولى العمل فى المنطقة الشرقية وقاد القسم الثانى الامير خليل بن الامير بشير وكانت طرابلس قاعدته وقاد القسم الثالث عباس باشا ومعه سليمان باشا الفرنسوى وكان مقره فى بعلبك اى فى سورية الوسطى

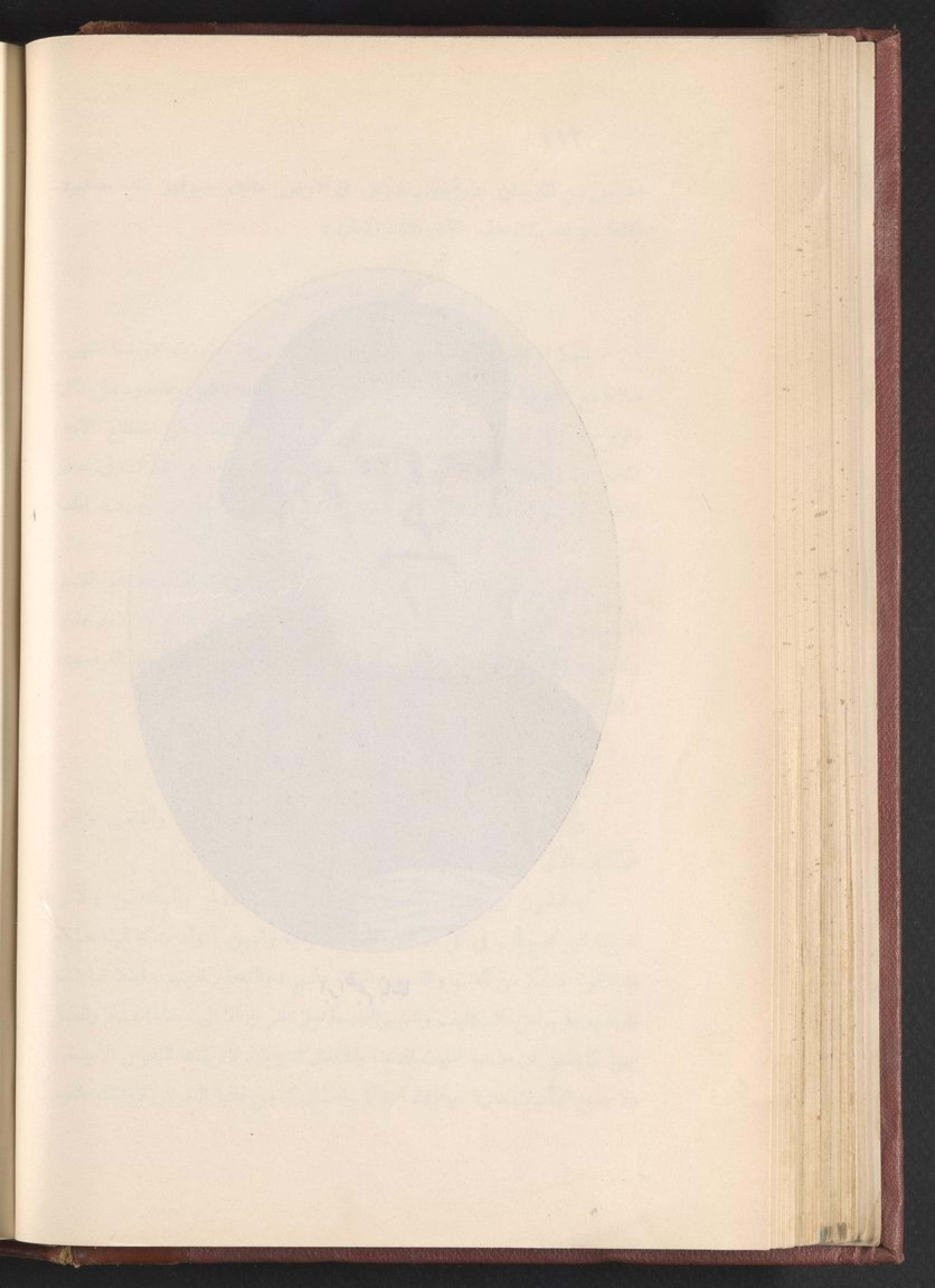
بلاغ الى حكومة القدس

وارسل ابراهيم باشا بعد دخول عكا الى حاكم القدس والقاضى والمفتى الكتاب الآتى :

« تعلمون ان فى بيت المقدس كثيرا من الاديار والكنائس والآثار الدينية التى تحج اليها فى كل عام الطوائف النصرانية واليهود ، وقد شكا الينا هؤلاء ما يلاقونه منكم من العنت والقسوة والغلظة عليهم ، والتحقير لدينهم ، فضلا عما انتم فارضوه عليهم من التكاليف والمغارم الفادحة غير ناظرين الا الى ارضاء انفسكم والعمل بهواكم ، على ان هذه الغايات الدنيئة والافعال المزرية ، لاترضاها النفوس الأبية ، ولا يصح السكوت عليها ، ولذلك انهاكم واحذركم من عاقبة التعرض لأولئك القوم



ابراهيم باشا



واسألكم ان تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان والشمامسة واهل البيت المقدس من جميع المذاهب قبطا كانوا او روما او ارمنا فى دينهم ودنياهم ولا تمنعوهم من اقامة شعائر دينهم ، ولا تأخذوا ممن يذهبون زائرين لبحر الشريعة شيئا من الكلف والمغارم ، ولا تضيقوا على زائرى كنيسة القيامة ولا تلزموا الصغار بدفع المال فان اطعتم احسنتم لأنفسكم وان خالفتم اسأتم لها والسلام عليكم ورحمة الله »

الاستيلاء على دمشق

بعد ما اتم ابراهيم باشا تنظيم خططه العسكرية الجديدة وترتيب قواه وتعبئتها غادر عكا يوم ١١ يونيو يقود جيشا مؤلفا من ١٨ الف مقاتل نصفه من الجنود النظاميين والنصف الآخر من البدو المصريين والسوريين والدروز فسار الى دمشق بطريق صفد ـ طبريا ـ القنيطرة اى انه لم يسلك طريق الساحل بل اوغل زاحفا فى وسط البلاد فاستولى على طبرية والقنيطرة بلا مقاومة ومنها سار الى قرية داريا وهى فى ضواحى دمشق وتبعد عنها نحو ٧ كيلو مترات ، وكان القائد التركى قد خرج اليها بقواته وتحصن فيها وجمع بعض الانصار والاعوان للمقاومة فلم يستطيعوا ثباتا فى وجه القوة القادمة فولوا الادبار وسلمت المدينة وجاء اعيانها لتحية القائد العربى عند وصوله . وهذا نص البلاغ الرسمى الذى نشر فى القاهرة عن الاستيلاء على دمشق :

« فى يوم ١٠ المحرم سنة ١٢٤٨ و١١ يونيو سنة ١٨٣٢ توجه العسكر المنصور الى جهة دمشق فوصل فى ١٤ منه الى القنيطرة ثم انتقل الى داريا التى تبعد عن دمشق ساعة ونصف ساعة ، وفى الساعة الثامنة رتب عسكر آلايات المشاة والفرسان كهيئة قلعة . ولما شاهدوا فى اليوم التالى نحو ٨٠٠ فارس من الاعداء فى الجانب الايسر طلبا للحرب وفى الجانب الايمن جماعة من المشاة ، استحسن افندينا السر عسكر ان يستصحب من آلايات الفرسان احمد بك امير اللواء مع الاورطة الرابعة من الآلاى الثامن ويذهب الى الذين وقفوا فى الجانب الايسر ، ويذهب خوجه احمد اغا مستصحبا

فرسانه وفرسان العرب الى الذين وقفوا فى الجانب الايمن

« فلما راى اصحاب الشأمة اقدام افندينا السر عسكر عليهم ولوا الادبار فتبعهم العسكر وقتلوا منهم بعضا وقبضوا على البعض ، وكان على باشا والى دمشق والشور بجى وشمدين اغا فى المعسكر فى المكان المسمى « المرجة » وكل من امين الكلار والمفتى والنقيب ورشيد اغا الترجمان فى بيت امين الكلار والقاضى فى المكان المسمى « باب توما » فهربوا جميعا وكانوا نحو ١٥٠٠ فارس و ٥٠٠ راجل وحينئذ جاء جماعة من المدينة طلبا للامن والامان وطلبوا ان يتشرفوا بمقابلة افندينا رئيس المعسكر فارسل اليهم رسولا يبلغهم بانه اعطاهم ماطلبوه من الامن والامان

« وعند شروق الشمس وصل الامير بشير ومعه نحو ٥٠٠٠ من الفرسان والمشاة وتقابل مع افندينا وذهب مع رجاله الى المدينة من طريق وذهب افندينا اليها من طريق آخر ، وبينما هو فى الطريق جاء كبار دمشق لاستقباله . وفى الساعة الرابعة اعد لكل فريق من جيشه المنصور مكانا خاصا به فى المدينة »

وهكذا تم الاستيلاء على دمشق رسميا يوم ١٦ يونيو

انشاء حكومة فى دمشق

وانشأ ابراهيم باشا على الاثر حكومة فى دمشق ولاها احمد بك اليوسف يساعده مجلس شورى لضبط الاعمال وهذا نص الامر الرسمى الذى اصدره بهذا الشأن :

« صدر امر سر عسكر ابراهيم باشا فى ١٥ صفر الى الاشخاص المذكورة اسماؤهم فيما بعد وهم من اشهر عائلات دمشق الشام واكابرها واعيانها وشيوخها ليكونوا اعضاء للمجلس المخصوص وهم :

« محمد حافظ بك العظم ، وسليم افندى كيلانى ، ومحمد افندى عجلانى ، ومحمد نسيب افندى حمزه ، وعلى اغا كاتب الترجمان ، وصالح اغا المهايني ، وعلى اغا كاتب الخزينة ، وعبد القادر اغا كيلاهلى ، واحمد افندى البكرى ، واحمد افندى المالكى ، ومحمد راغب افندى حسنى ، واحمد افندى انسى ، وابراهيم بك المسودن ، والحاج

نعمان اغا باشجى ، والشيخ سعيد والحاج ابراهيم بستولى من التجار وصياح اغا الحكيم ومحمد اغا الكبير ومحي الدين اغا خير ، وعبد القادر اغا خطاب من اغوات الاختيارية والخواجه روفائيل فارحى والخواجه ميخائيل كحيل

« فليكن معلوما انه عملا بالحديث القائل كل راع مسؤل عن رعيته وجب علينا النظر فى امور الرعية واحوالها بما فيه الراحة والرفاهية من كل الوجوه ، الامر الذى لايحصل الا بنشر بساط العدل والاحسان عليهم ، وفصل الاحكام بالحق فيهم ، قد استحسنا « تشكيل » مجلس مخصوص من خواص العقلاء واصحاب الراى من الاعيان والاكابر والتجار للنظر فى القضايا والمشورة فيها ، ولذلك قد اخترناكم من عموم اهل دمشق الشام واذناكم بسماع الدعاوى وتحويل الشرعية منها على الشرع الشريف

« اما مايتعلق بسياسة الامور الاخرى فيكون الفصل برايكم و بعد التشاور وتداول الآراء بين ارباب المجلس جهرا واتفاق الآراء يحكم بما تتفق عليه الآراء و بعد الحكم يقدم تقرير بذلك الى مجلسنا للتنفيذ ويكون ذلك بلا ميل ، ولا غرض فى النفس ، ولا شهوة خاطر ، ولا انحراف الى كبير او صديق او وجيه وكل من اخفى رايه لعلة او لعدم ثقة كلام من هو اعظم منه من ارباب المجلس فيكون قد خالف امرنا واوقع نفسه تحت طائلة الملامة

« صدر امرنا هذا ليكون حجة عليكم فاغتنموا ثواب الرعية وجزاء الخدمة الدينية الجليلة والحذار الحذار من الخلاف »

وعين محمد على باشا بعد ذلك شريف بك واليا لدمشق وكان نفوذه يشمل شرقى سورية كلها

معركة حمص

قضى ابراهيم باشا ١٥ يوما فى دمشق بعد افتتاحها يرتب امورها ، وينظم شؤونها ويزيل المظالم ، ثم غادرها يوم ٣٠ يونيو الى حمص للقاء جيش الترك وكان قد احتشد فيها

وسار مع ابراهيم باشا الى حمص الامير بشير وابنه الامير خليل وامراء وادى التيم ومشايخ نابلس واعيان دمشق ، ولما وصل الى النبك وهى فى منتصف الطريق بين دمشق وحمص والمسافة بينهما ١٦٢ كيلو مترا ، قسم جيشه الى قسمين فقاد هو القسم النظامى وسار بطريق القصير اى انه تقدم الى حمص من الغرب وقاد الامير بشير القسم الآخر وسار بطريق دير عطية اى انه تقدم بطريق الشرق

وواصل ابراهيم باشا تقدمه حتى جوار حمص فنزل عند تل النبى مندو ومنها تقدم الى بحيرة قطنة وكان الجيش التركى نازلا على ميلين منها

قوات الترك فى حمص

عاد عثمان باشا لبيب بعد سفر ابراهيم باشا للجنوب الى حمص واتخذها قاعدة له ، ثم وافاه محمد باشا قائد الحملة العام وتواصلت بعد ذلك الامدادات الاخرى حتى قدر عدد الجيش التركى الذى احتشد بحمص يومئذ بخمسة وعشرين الفا يقودهم ثمانية باشاوات هذه اسماؤهم :

محمد باشا والى حلب (قائد عام) وعثمان لبيب باشا والى طرابلس ، وعثمان باشا والى قيصرى ، وعثمان باشا والى ارغنى معدنى ، وعلوى باشا والى دمشق ، وكريدلى محمد باشا ، ونجيب باشا ، ودلاور باشا

كيف دارت المعركة

عبأ محمد باشا قائد الترك العام جيشه تعبئة سيئة فرتبه فى صفين اثنين جاعلا جناحه الايمن فى مكان منفصل فى جزيرة واقعة بين نهر العاصى وقناة ماء لاعتقاده ان عدوه لايستطيع ان يبلغ هذا المكان كما وزع مدافعه بنسبة مدفع واحد لكل كتيبة فافقدها هذا التوزيع قوة التوازن

تعبئة ابراهيم باشا

وما كان جيش ابراهيم باشا فى معركة حمص يقل عن ثلاثين الفا ، بسبب انضمام قوات عباس باشا وكانت ترابط فى بعلبك ، وقوات حسن بك وكانت ترابط فى طرابلس اليه ، فقد اصدر اليهما امرا بان توافيانه الى حمص فجاءتا تلبية لطلبه

وعبأ الباشا قواه فى ثلاثة صفوف فاقام فى الصف الاول ثلاثة آلايات من المشاة وعن يمينها آلاى فرسان ومثل ذلك عن يسارها

وحشد آلاى الحرس فى الصف الثانى ومعه فريق من المشاة وعن يمينها وشمالها آلايان من الفرسان . وعبأ احتياطى المشاة والفرسان فى الصف الثالث

وعبأ مدفعيته وكانت اقوى من مدفعية الترك واكثر عدداً على منوال يختلف عنه فى الجيش التركى فاقام ثلاث بطاريات فى الصف الاول : واحدة امامه والثانية على يمينه والثالثة على يساره اى لحماية الجناحين كما ان الاولى تحمى القلب واقام بين الصفين الثانى والثالث ثلاث بطاريات اخرى . واقام على جانبى الصف الثالث متطوعة السوريين والبدو

وجمع ابراهيم باشا هيئة اركان حربه واستشارهم فى الخطة التى يسير عليها فقرروا ان يبدأ الهجوم فورا ، وان يحملوا على الترك قبل ان يحمل هؤلاء عليهم ، وما كانت هنالك خطة مرسومة للقيادة التركية تسير عليها

وفى صباح ٨ يوليو امر ابراهيم باشا قوات الفرسان التى ترابط على ميمنة الصفوف الثلاثة بالزحف شرقا للقيام بحركة التفاف حول ميسرة الترك وتولى هو بالذات قيادة هذه الحركة وطبقها بمهارة زائدة فاضطرب الترك امام الحملة العنيفة ولم يطيقوا ثباتا فتراجعوا وانهزموا فاسرع فرسانهم الذين كانوا فى الصف الثالث لصد الهجوم فامد ابراهيم باشا فرسانه الهاجمين بقوة من الحرس فرسانا ومشاة مع المدفعية فتغلبوا على الترك

وحمل المشاة المصريون حملة صادقة على قلب الترك فتقهقروا وارتدوا فتم بذلك

انسحاب الجناح التركى الايسر وتخليه عن خطوطه

وتقدم الجناح المصرى الايسر للاحداق بالجناح التركى الايمن فاحتل شاطىء القناة فاحرج بهذا الاحتلال مركز الترك وسد الطريق عليهم

ولما شاهد محمد باشا قائد الجيش التركى اضطراب موقف جنده امر بهجوم عام فى جميع اجزاء الميدان ، وظن انه بهذه الطريقة ينقذ جيشه ، فقابلهم المصريون بنيران حامية فارتدوا على اعقابهم فتقدم ابراهيم باشا بجيشه واحتل مواقعهم وخطوطهم وصف جيشه على شكل مربع اقام المدافع على كل زاوية من زواياه

وواصل الترك انهزامهم وتقهقرهم الى حلب وانضموا الى جيش حسين باشا وكان قد بلغها وحاول ان يتخذها قاعدة لجيشه وان يتحصن فيها ، فعارض اعيانها فى ذلك واغلقوا ابواب مدينتهم فى وجه الترك وقالوا انهم لا يسمحون الا بدخول الجرحى والمرضى فقط ، فارتد حسين باشا بجيشه الى بيلان ورابط فى مضيقها وتحصن فى جوارها

واسر ابراهيم باشا من الجيش التركى فى معركة حمص ٢٥٠٠ اسير وغنم ٢٠ مدفعا وكمية من ذخائره وامتعته . ولم تزد خسارة المصريين على مائة قتيل وقتيلين و ١٦٢ جريحا مقابل ٢٠٠٠ قتيل من الترك

ودخل ابراهيم باشا حمص يوم ٩ يوليو فاستقبله اعيانها ورجالها بالحفاوة والترحيب واسر فيها ١٥٠٠ تركى واستولى على كمية كبيرة من ذخائرهم وعددهم واخذ اوراق محمد باشا القائد التركى العام

بلاغ عن معركة حمص

وارسل ابراهيم باشا من حمص الكتاب الآتى الى مصطفى اغا بربر حاكم طرابلس وصف فيه المعركة قال :

« غب التحية والتسليم ، بمزيد الاعزاز والتكريم ، المبدى اليكم انه امس تاريخه نهار السبت المبارك ، الواقع ٩ صفر سنة ١٢٤٨ فى الساعة السابعة من النهار

قد كان ابتداء وصول عساكرنا المنصورة التى بمعية ركابنا الى بحيرة حمص . وفى تلك الساعة نفسها نظروا قدومنا العساكر وخيلها التركية المحتشدة بمعونة البشاوات بمدينة حمص، وحالا هجمت عليهم العساكر المنصورة الجهادية والعرب وضربوهم وشتتوا شملهم واذاقوهم كؤوس الوبال والنكال فقد ولوا هاربين والى النجاة طالبين ، فاتبعوا آثارهم عساكرنا بالظفرة امامهم اربع آلايات عساكر نظام استيانية ليه قرابه وثلاث آلايات خيالة فعند ذلك تقدمت لمحاربتهم باقى العساكر المنصورة وترتبت الصفوف على الرسم البديع وهجموا عليهم هجوم الاسود الكواسر، واذاقوهم كؤوس المنايا بطعن الحراب وفتك السيوف البواتر ، ولم يتحملوا سوى ساعة واحدة الا وولوا الادبار ، صارخين الفرار ، الفرار ، من بعد ان وقع منهم مابين قتيل وجريح ماينوف عن الف وخمسمائة نفر واخذ منهم اسرى بمسك اليد ماينوف عن الفين وخمسمائة من ضمنهم اورطتين قد كانوا ابقوهم فى قلعة حمص للمحاصرة عند ما كانوا عزموا على الهرب مع جانب عساكر ارناؤود . وبمجرد حلول ركابنا فى اردى (معسكر) الباشاوات الفارين فى صحراء حمص ، واستيلاءنا على اطوابهم (مدافعهم) وخيامهم وسائر جباخاناتهم (ذخائرهم) صاروا جميعهم غنيمة لنا ، فالاورطتين والعساكر الارناءود الذين كانوا فى القلعة عند مانظروا هذا الهول المريع ، والظفر البديع ، استغاثوا وطلبوا الامان ، فحيث ان العفو زكاة الظفر فقد اغثناهم ، ورحمة منا اعطيناهم الامان وخرجوا من القلعة آمنين مطمئنين فنحمده تعالى على هذه النعمة العظيمة ، والموهبة الكبيرة الجسيمة ، فالآن لأجل تبشيركم اصدرنا لكم مرسومنا هذا فيلزم منكم بوصوله تشهروا ذلك الى كافة الرعايا بعمل شنك (زينة) واعلان البشائر الى سائر المقاطعات والبلاد لكى يكونوا جميعهم دائما متبادرين على تأدية الدعاء الخيرى بدوام دولة وتأييد صولة ، سعادة افندينا والدنا المعظم ، وقهر اعداه المخذولين على ممر الايام والسنين

اعلموه فى ١٠ صفر سنة ١٢٤٨

الحاج ابراهيم
سرعسكر مصر

الزحف الى حلب

ولم يطل ابراهيم باشا الاقامة فى حمص بل واصل تقدمه شمالا فاستولى على حماة والمعرة والمدن والقرى الواقعة بينهما ثم تقدم الى حلب ففتحت له ابوابها ورحب به سكانها فدخلها يوم ١٥ يوليو

وجاءه وهو فى حلب وفد من اهل اورفا وآخر من ديار بكر يحمل اليه تحيات اهليهما ، ويبلغه رغبتهم فى الانضمام الى الحكم المصرى والدخول فى طاعة محمد على

وجاءه وهو فى طريقه الى حلب فرسان العرب بستة من الاسرى وقابلوه فى قرية زينان واخبروه ان قواد الترك ومعهم السر عسكر حسين باشا طلبوا من محكمة حلب اصدار حكم بتقديم المؤن للجند فأبت وابى الاهالى تقديم المؤن وتظاهروا بالعداء فغادر البشوات الترك حلب الى عينتاب تاركين ١٦ مدفعا وخياما ومهمات وذخيرة فركب ابراهيم باشا مع الفرسان بقيادة عباس باشا ووصل الى حلب فدخلها وقدم له الطاعة قاضيها ومفتيها واعيانها

واصدر ابراهيم باشا المنشور الآتى الى اهالى حلب وهو :

« عمدة العلماء الاعلام حاكم الشريعة الغراء بمدينة حلب الشهباء الافندى الانخم زيد فضله

« والمأذون بالافتاء فيها نخبة العلماء الكرام الافندى المكرم زيد بقاؤه

« وفرع الشجرة الزكية ، طراز العصابة الهاشمية ، قائمقام نقيب اشرافها الافندى الاكرم زيد شرف سيادته

« وافتخار الاماجد والاكارم متسلمها حالا سياف زاده السيد ابراهيم اغا زيد مجده

« ومفاخر الاماجد والاعيان وجهاؤها الكرام واعيانها وسادتها ذوى الاحترام

« أحيطوا جميعا بانه يجب قيامنا وتحريك ركابنا لطرف مرعو فاقتضى ايفاد

قائمقام لأجل تدوين امور بلدتكم ، وضبطها ، واجراء حكومتها ور بطها

« بناء على ذلك قد نصبنا رافع امرنا هذا افتخار الاماجد والاكارم سياف زاده السيد ابراهيم اغا ، المتسلم المومى اليه آنفا ، وابقيناه لأجل ادارة مصالح البلدة العامة ورؤية امورها

« فأنتم ايها المخاطبون اذا صارت الكيفية معلومكم تكونون جميعا مع الاغا المومى اليه بالاتفاق وتشدون عضد المواحدة والاتفاق ، لايفاء مراسم الخدمة المبرورة ، واجراء مراسم المساعى المقبولة المشكورة لدى جانب ولى النعم افندينا السر عسكر باشا المعظم

« وانت ايها القائمقام يلزم منك الانتباه واليقظة فى محافظة الطرقات وابناء السبيل ، وعدم التعرض لأحد الا بالوجه الشرعى ، واستجلاب دعوات الفقراء والرعية ، وديعة رب البرية ، و بذلك تحوز رضا سعادة افندينا ولى النعم المعظم ورضانا

معركة بيلان

واتم ابراهيم باشا فى خلال اقامته القصيرة بحلب تحصين قلعتها وارسل قوة عسكرية الى المنطقة الواقعة فى شرقها لارتيادها ومعرفة ما يدبره الترك فعادت تقول انه لا شىء هنالك ، فاطمأن وارتاح واخذ يعد المعدات للزحف الى بيلان لمطاردة الترك الذين تحصنوا فيها

وكانت لهم فيها قوة عسكرية كبيرة تتألف من ٤٥ الف جندى نظامى مسلحة بمائة وستين مدفعا . وكان القائد العام لهذا الجيش وهو السر عسكر حسين باشا من اعظم قواد تركيا فى تلك الايام وقد اختاره السلطان لهذه المهمة وعينه قائدا للحملة وواليا على مصر والسودان و بلاد الحبشة ، اى البلاد التى يحكمها محمد على باشا والبسه كسوة القيادة بنفسه

ولا ريب ان حسين باشا وفق فى اختياره مضيق بيلان الحصين قاعدة لجيشه فهو بطبيعته من امنع المواقع ولولا الخطيئة الكبرى التى ارتكبها وضمنت النصر للمصريين لما استطاعوا اقتحام ذلك المضيق ولما سحقوا ذلك الجيش العظيم بمثل تلك السرعة الفائقة

ووصل الجيش المصرى بعد ظهر يوم ٢٩ يوليو الى بيلان فعكف قائده على دراسة حالة المضيق وارتياد الاماكن التى احتشد فيها اعداؤه ، فتبين انهم اهملوا تحصين بعض انجاده العالية ، فقرر الاستيلاء عليها فورا ولكى يستر غرضه و يصرف عنه نظر عدوه امر مدفعيته و بعض قواته بان تزحف على اعدائه لمشاغلتهم ريثما تبلغ القوات التى أرسلت للاستيلاء على تلك الانجاد اغراضها

وانتهت المعركة التى دارت هنالك وقد استمرت ساعتين فقط بانكسار الترك وارتدادهم واستيلاء الجيش المصرى على المضيق بفضل يقظة قائده واحكام خططه وهذا هو نص البلاغ الرسمى المصرى الذى اذيع عنها :

« انه فى يوم ٢ ربيع الاول سنة ١٢٤٨ فى نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل زحفت قواتنا من جسر مراد باشا وفى الساعة الثامنة قبل الظهر وصلت الى المضيق المسمى بوغاز بيلان ، وفى الساعة الخامسة انبئنا ان المشير حسين باشا ومحمد باشا الذى كان واليا على حلب وآخرين سواهم قد عسكروا وراء المضيق مع بقية جيوشهم النظامية والمتطوعة ، وانهم نصبوا المدافع على الروابى والآكام وانهم نصبوا بعض البطاريات على القنن العالية

« ولما ثبتت للقائد العام صحة هذه الاخبار ، امر اللواء حسن بك بان يتقدم بالآلاى الثالث عشر من المشاة والآلاى الثامن من الفرسان مع خمسة مدافع فى الطريق الواقع على الميمنة وسار القائد العام على الميسرة ومعه الآلاى ١٨ والفرقة ٨ المشاة وآلاى الحرس و ١٢ مدفعا . اما الآلايات الاخرى من الفرسان فاوقفت فى الجهات الاخرى من المضيق

« ولما رأى العدو تقدم قواتنا اخذ يطلق مدافعه من الآكام المشرفة على طريق الجيش ولكن مدافعنا صبت عليهم النار الحامية فأسكتت مدافعهم بعد ساعة الا

مدفعا واحدا ظل يطلق نيرانه . و بينما كانت مدافعنا تصب نارها على ميسرة العدو صدر الامر الى الآلاى الثامن بالتقدم ولم يمض الا القليل حتى وصل هؤلاء الابطال الى الاعالى التى تشرف على مواقع العدو فى الميسرة ومن هنالك ضربوه بشدة عظيمة فاضطر الى الفرار تاركا مدافعه ومهماته وذخائره عند ما اذنت الشمس بالمغيب ومتجها الى ادنه

« اما معسكرنا فانه صرف ليلته فى محل المعركة وفى اليوم التالى اى ٣٠ يوليو وجهت فرساننا منذ الفجر لاقتفاء اثر العدو وذهب باقى الجيش الى بيلان وهنالك التحق عارف بك امير الالآى الفرقة العاشرة من جيش العدو بجيشنا فعينه القائد العام اميرالايا للآلاى العشرين من المشاة

« ومما يقوله عارف بك ان فرقته كانت مؤلفة عند قيامه من قونية من ٢٢٦٨ رجلا فصار عددها من جراء المرض والموت والفرار فى صباح امس ١٨٨٨ رجلا

« و بعد فرار عليش باشا من اللاذقية جاء ٦٠ فارسا و ٦٠٠ رجل من الاسكندرونه مستسلمين للقائد العام فترك لهم حرية البقاء او العودة الى بلادهم وامر بان يعطوا حاجتهم فى السفر . والذى رواه هؤلاء ان عليش باشا ارسل حريمه الى قبرص وركب باخرة الى الاسكندرونه لينضم الى ابراهيم باشا ومعه ستة مدافع »

وكتب ابراهيم باشا عن هذه المعركة الى احمد بك اليوسف حاكم دمشق يقول :

« افتخار الاماجد الكرام ، ذوى الاحترام الحاج احمد بك

« غب السلام التام بمزيد العز والاكرام نبدى اليكم :

« انه نهار الاحد الواقع فى ٢ ربيع الاول سنة ١٢٤٨ قد شرفت حلول ركابنا بالعساكر المنصورة الى مرحلة خان قراموط لأجل ضرب العساكر المحتشدين فى بوغاز بيلان

« وفى الساعة السادسة باليوم المذكور قد تحرك ركابنا من مرحلة الخان المذكور بالعساكر المنصورة ، وآلة الحرب المهولة ، حيث ان البوغاز المرقوم المتحصنين فيه بالقرب من المنزلة التى تحول ركابنا بها

« وفى الساعة التاسعة قد كانت المصادمة مع عساكر الدشمان « الاعداء » وابتدأ ضرب « الاطواب » المدافع عليهم

« وبخصوص تحصينهم بعمل الطوابى ، وعسر الطرقات هـذا جميعه ما افادهم شيء سوى انه فى مسافة ساعتين زمان الذى تبقى منهم بعد الذى قتلوا انمسكوا باليد مابين مجروح وقتيل قد فروا هار بين وللنجاة طالبين ، مهزومين الى ناحية ادنه عن طريق اسكندرونه وتركوا اطوابهم وموجوداتهم ، فعند ذلك صدر امرنا بتوجيه خيالة العساكر المنصورة الجهادية والعرب لاجل اتباع أثرهم ومسكهم جميعا ، بحيث انه لاينفد منهم احد ، وبحوله تعالى لابد من حصول المراد ، وتدمير الجميع

« فبناء على ذلك أصدرنا اليكم مرسومنا هذا لكى بوصوله تعلنوا البشائر الى جميع المقاطعات لكى يكونوا جميعا حائزين على السرور والفرح على النصرة العظيمة ، والمنة الجسيمة ، وليكونوا دائما مداومين بالدعوات الخيرية ، بدوام بقاء هـذه الدولة السعيدة بوجود دولة افندينا ولى النعم ، والدنا عزيز مصر المعظم وبناء على ذلك اصدرنا لكم مرسومنا هذا اعلموه واعتمدوه غاية الاعتماد »

وواصل الترك انسحابهم بعد هزيمة بيلان الى اسكندرونه ليلجأوا الى اسطولهم فلم يجدوه لانه سبق فاقلع خوفا من الاسر فواصلوا التقدم متجهين الى ادنه والمصريون يضربون فى اقفيتهم ويأسرونهم

واحتل المصريون بياس (شمالى اسكندرونه) واسروا فيها ١٩٠٠ جندى واستولوا على اسكندرونه وانطاكية واللاذقية والسويدية وبذلك سيطروا على سورية الشمالية كلها

واختفى المشير حسين باشا قائد الجيش التركى العام بعد هـذه المعركة وهام على وجهه ولم يعرف له خبر

الاستيلاء على ادنه

وفى يوم ٣١ يوليو وصلت طلائع الجيش المصرى الى ادنه واستولت عليها بدون مقاومة

الاستيلاء على اورفا ومرعش

وارسل ابراهيم باشا آلايين من جنوده الى اورفا ومعهما قوة من فرسان العرب لمراقبة الطريق من ارضروم وسيواس وديار بكر فدخلتها بدون مقاومة واحتلت مرعش ايضا

العراقيون يثورون

وثار العراقيون على موظفيهم الترك ، وكانوا كما قال داود بركات فى كتابه «البطل الفاتح ابراهيم باشا» كسواهم من العرب فى صف ابراهيم باشا ـ وقتلوا واليهم داود باشا وقتلوا معه عددا من انصاره لجوره وظلمه

الاستيلاء على معابر طوروس

وارسل ابراهيم باشا قواته الى جبال طوروس وتقع فى شمالى ادنه فاستولت على معابرها وشرعت فى تحصينها وتحكيمها فلا يفاجىء الترك الجيش المصرى ولا يأخذونه على غرة منها

٩

محمد على باشا يسعى للاتفاق مع السلطان

اتم ابراهيم باشا فتح بلاد الشام من العريش حتى جبال طوروس فى خلال مدة لاتزيد على عشرة اشهر اكتوبر سنة ١٨٣١ – يوليو سنة ١٨٣٢ فاخضع هذا الاقليم الواسع الشاسع وطرد الترك منه بعد ما اشتبك معهم فى ثلاث معارك كبرى وهى :

١ – معركة الزراعة قرب حمص فى شهر ابريل

٢ – « حمص فى شهر يونيو

٣ – « بيلان فى شهر يوليو

والباحث فى العوامل التى ضمنت لابراهيم باشا التفوق وجعلت كفته ترجح كفة الترك يراها مجملة فيما يأتى :

١ – كفاءة الجيش المصرى الفنية ، وحسن استعداده وجودة سلاحه

٢ – كفاءة القيادة المصرية وما امتاز به ابراهيم باشا نفسه من مزايا وصفات نادرة جعلته فى الخالدين ورفعته الى رتبة كبار القواد ومشاهيرهم

٣ – سوء حالة الجيش التركى واضطرابه وجهل قواده

٤ – انضمام سكان البلاد المغزوة الى الجيش الفاتح وانقلابها على الترك ونهوضها لقتالهم مع الجيش المصرى وتطوع عدد غير قليل من ابنائها فى صفوفه واشتراكهم فى الحرب الى جانبه فقد قاتلوهم فى طرابلس وفى الزراعة وفى دمشق وفى حمص وفى حلب وفى بيلان يضاف الى ذلك الخدمة السلبية التى اسداها الحلبيون الى الجيش المصرى باقفالهم ابواب مدينتهم فى وجه اعدائه فتراجعوا حتى مضيق بيلان فكان ذلك من جملة العوامل التى ساعدت ابراهيم باشا على تمزيقهم

فى مدة لاتزيد على ساعتين مع انهم كانوا يزيدون عنه عددا وعدة

وفى ادنه تلقى ابراهيم باشا امرا من ابيه بان يقف فيها ، طبقا لما وعد به من قبل وهو ان غايته من حركته هذه هى الاستيلاء على سورية حتى جبال طوروس باعتبارها الحدود الطبيعية لمصر ليعيش مرتاحا مطمئنا وانه لا مطمع له فى البلاد التركية

ووجه محمد على بعد هذا النصر الباهر عنايته لحمل الباب العالى على قبول الامر الواقع والتسليم بضم مقاطعة سورية الى مصر لقاء مبلغ معين من المال يدفع سنويا كما اخذ من الجهة الاخرى يعمل عند الدول الاوربية ، ليأمن جانبها فلا تتدخل لمصلحة الترك ولا تحرمه من اقتطاف ثمرة انتصاره

وكان اول مافعله فى هذا الباب انه ارسل كتابا الى خليل باشا اميرال الاسطول التركى (قبطان باشا) يقول فيه انه قد حان الوقت لحقن دماء العثمانيين وانه يود تلافى الخطر الذى يهدد السلطنة وانه مستعد ان يدفع للباب العالى المبالغ التى كان يتقاضاها من البشوات الذين كانوا يحكمون سورية وان مثل هذا الاتفاق فى مصلحته ومصلحة الباب العالى على السواء

وارسل الاميرال خليل باشا الكتاب الى الباب العالى وكتب الى محمد على باشا يقول انه من رأيه وانه يقترح عليه ارسال يوسف بوغوص بك الى عاصمة السلطنة لمباحثة اهل الحل والعقد

وفى اوائل شهر اكتوبر تلقى محمد على باشا كتابا من الصدر الاعظم خسرو باشا (عدو محمد على لانه طرده من مصر) ردا على كتابه الخاص بطلب الصلح وقد جاء فيه ماخلاصته « ان الباب العالى يوافق على ضم الشام الى ولاية مصر بالشروط التى عرضها ولكنه يود ان يعرف الضمانات التى يقدمها على حسن نيته وعلى تنفيذ عهوده » فرد عليه بان وعده خير ضمانة وان كلمته كافية وكرر قوله بانه « يود وضع حد للقتال وسفك الدماء وانه يأسف كل الاسف ان يكرهه الباب العالى على ان يذهب الى ماوراء الحد الذى وضعه نصب عينيه »

وقصدت فى تلك الاثناء الاستانة زهرة هانم ارملة اسماعيل بك النجل الثالث لمحمد على لزيارة نجلها عارف افندى قاضى عسكر الاناضول فقيل انها رسول محمد على وانه يريد ان يتقرب للسلطان ورجال الدولة بواسطة ولدها

وارسل محمد على السفينة « النيل » الى الاستانة لتقل الاميرة فى رجوعها الى الاسكندرية فاهداها السلطان حين سفرها هدايا نفيسة ونفح بحارة السفينة وربانها مبلغا من المال واصحبها باحمد فوزى باشا احد القواد البحريين ليوصلها الى الاسكندرية

وتوصلت الاميرة الى معرفة نيات السلطان وتحققت انه لا يريد الصلح ولا يستمع الى نصيحة احد وانه يعتمد على روسيا وانكلترا فى الدرجة الاولى ، وانه فى كل مايعمله يحاول اكتساب الوقت لحشد قوات كافية يلاقى بها المصريين ويهزمهم

واوعز محمد على الى كاتم سره بان يصحب فوزى باشا و يبالغ فى اكرامه وظل هذا فى الاسكندرية حتى تلقى امرا من السلطان بالسفر الى القاهرة والبحث مع محمد على باشا بالصلح

و بينما كان هذا يتداول مع محمد على باشا بالقاهرة جمع السلطان رجال ديوانه واطلعهم على ماعهد به الى فوزى باشا فاتفقت كلمتهم على استدعائه وارسال صارم افندى بدلا منه

واكرم محمد على باشا وفادة صارم افندى حينما وصل فحاول هذا اقناعه بان يذهب معه الى الاستانة لزيارة السلطان فاعتذر ثم عرض عليه ولاية عكا وطرابلس اى سورية الجنوبية والوسطى فاصر على الاحتفاظ بما فتحه من بلاد الشام على ان يكون ارثا له ولذريته وفى مقابل ذلك يدفع ضريبة للسلطان

وعاد صارم افندى الى العاصمة يحمل اقتراحات محمد على و بعد ايام ارسل يقول ان السلطان يوافق على توليته ولاية مصر وطرابلس وعكا وعلى تولية ابنه ابراهيم باشا الحرمين الشريفين (الحجاز) فادرك محمد على انها دسيسة جديدة يراد بها التفريق

بينه و بين ابنــه فرد بانه ينتظر مندوبا من السلطان ليتناقش مع سامى بك سكرتيره الخاص بوغوص يوسف مدير ديوان الخارجية فلم يتلق جوابا فكان ذلك ايذانا بفشل المساعى وحبوطها والرجوع الى القتال

ويلوح لنا ان الباعث الحقيقى لتجدد الحرب اعتقاد السلطان بان الجيش الذى حشـده فى قونية كاف لضرب جيش ابراهيم باشا وتمزيقـه و بان الروس والانـكليز والنمسويين سيساعدونه

١٠

فى طريق الاستانة

كانت روسيا اول دولة اوربية عرضت مساعدتها على الباب العالى حينما ظهر الخطر المصرى فقد اقترحت عليه ان ترسل جنودا الى الاستانة لمقاومة جيش محمد على وصده . وبديهى انها لم تفعل ذلك حبا فى الترك بل لانها خافت – على تلك العاصمة – وكانت ولا تزال مطمح انظار الروس – اذا انتقلت الى ايد قوية تعرف كيف تدافع عنها

ورد الباب العالى على روسيا شاكرا ، وعكف من الناحية الاخرى على حشد الجيوش والقوى فى جوار جبال طوروس ، وفى اولوقشله ، وجفتهخان وهى فى طريق قونية لمقاومة جيش ابراهيم باشا اذا حدثته النفس بالتقدم

وشعر ابراهيم بما يدبره الترك – وعرف انهم يريدون من ارسال الرسل الى مصر – وكانوا قد ارسلوا احمد فوزى باشا ثم صارم افندى – اكتساب الوقت ، املا فى ان يتم لهم تعبئة جيش قوى كبير يتغلب على الجيش العربى و يعيده القهقرى فكتب الى والده ، يسأله السماح بمواصلة الزحف وضرب الترك قبل ان يكملوا حشدهم و يطلب اليه ان يوافق على حمل خطباء المساجد على الخطبة باسمه فرد بكتاب ارسله اليه يوم ٨ سبتمبر سنة ١٨٣٢ جاء فيه : «تقول فى كتابك انك تريد ان تسك المعدن وهو حام وانك تريد ان تخطب باسمى فى جميع المساجد والمعابد فاعلم ياولدى اننا لم نصل الى مركزنا الذى نشغله الآن الا بقوة الوداعة وخفض الجانب فانه يكفينى ان احمل اسم محمد على خالصا من كل رتبة وزينة ، فهو اكبر لى من جميع القاب السلطنة والملك ، لان هذا الاسم وحده هو الذى خوانى الشرف الذى يجللنى الآن ،

فكيف استطيع ياولدى ان اتركه الى سواه ؟

« ياولدى انى احتفظ باسم « محمد على » وانت يا ابنى تحتفظ باسمك « ابراهيم » وكفى وعليك رحمة الله و بركاته »

ولم يضع ابراهيم باشا وقته فى ادنه فقد اعاد تنظيم جيشه واعده على قدم الاستعداد يؤيد هذا ما كتبه قنصل فرنسا فى الاسكندرية الى حكومته يوم ٢٤ سبتمبر فقد جاء فيه ماخلاصته : ان الاسباب التى دعت ابراهيم باشا الى الوقوف فى ادنه والى عدم متابعة الزحف هى انتظار جواب من والده على بعض امور كما ان والده ينتظر الحصول على نتيجة مساعيه الخاصة بانهاء حالة القتال

« وقد شرع ابراهيم باشا ، وهو القائد الذى لاشبيه له بحزمه وعزمه فى استغلال خيرات اقليم ادنه العظيم فهو يقطع الخشب من غاباته الكثيفة وفيها من الخشب الصالح لبناء المراكب ما لا يوجد فى سواها . ودار صناعته فى الاسكندرية فى حاجة الى ذلك وقد ارسل عدد كبير من عمال هذه الدار لاختيار الاشجار الملائمة وقطعها ولفتح الطرقات و ينتظر ان تصل الى الاسكندرية بين آونة واخرى كميات من الخشب

« وتعزيز الجيش هو موضع اهتمامه فاذا استؤنف القتال كان جيشه ١٢٠ الفا حتى قال لى محمد على من ايام انه ينوى ان يجعل جيشه ٢٥ الايا من المشاة بدلا من ٢٠ و ١٥ الايا من الفرسان بدلا من ١٠

« ولا يدخل فى هذا الحساب فرسان العرب من المصريين ولا رجال البدو من السوريين وقد ادمج ابراهيم باشا فى جيشه اربعة آلاف اسير تركى اسرهم فى المعارك الاخيرة »

وعاد ابراهيم باشا يلح على والده طالبا منه السماح له بمواصلة الزحف و يقول له انه لم يأت الى ادنه لقطع الاخشاب وان رؤوف باشا فى قونية يجمع الجنود والقوى لمهاجمته وانه يجب الاسراع فى تفريق شمل ذلك الجيش وتمزيقه قبل ان يقوى و يشتد

ولما كان محمد على لا يميل الى التوسع فى الاناضول تجنبا للاصطدام بالدول الكبرى فقد ابلغ قناصل الدول بأنه لم يدخر وسعا للوصول الى الاتفاق مع الباب العالى ، وان مماطلته وتسويفه اضطرته الى ان يأذن لولده بالزحف حتى قونية فقط . وانه اذا ظل الباب العالى على مطله فلا توجد قوة تحول بين ابنه المتقد حمية و بين الوصول الى اسكودار فاذا لم يستطع الوقوف هنالك لقلة المؤن فى بلاد خربها الجور والظلم فلا يعرف ماذا تكون النتيجة

الى قونية

وفى صباح ١٤ اكتوبر بدأت طلائع ابراهيم باشا تزحف من جبال طوروس متقدمة الى قونية شمالا ، وكانت اوامر محمد على باشا الى ابنه صريحة فى عدم تجاوزها فاستولت على جفته خان بعد معركة مع الترك وفى يوم ١٥ منه دخل الجيش المصرى الى اركلى وظل فيها حتى ٢٠ نوفمبر ومنها تقدم الى قونية . وسار جيش مصرى آخر من قرمان وهى فى سفح جبال طوروس الشمالى متقدما الى قونيه ، ومعنى ذلك ان المصريين كانوا يزحفون على هذه المدينة من جهتين

واخذ الترك فى الجلاء عن قونيه قبل ان يصل اليها الجيش المصرى ، وكانت خطتهم العسكرية تقوم على الدفاع فى غربيها ، لوجود اماكن اصلح للدفاع فأسرع ابراهيم باشا فأرسل فرسانه لمطاردتهم واستقر فى قونيه ، واتخذها قاعدة لجنده وشرع يمرنهم فى الاماكن التى يتوقع ان ينشب فيها القتال

معركة قونية

وفى يوم ١٨ ديسمبر وصلت طلائع الجيش التركى الى شمالى قونية فناوشها ابراهيم باشا وعجم عودها وحاول جرها الى الاشتباك معه فأبت وانسحبت بعد ما تركت عددا من القتلى والاسرى وشرع كل من الفريقين يستعد للمعركة الفاصلة

قوات الجيش التركى

كان الجيش التركى فى معركة قونية يتالف من ٥٣ الف مقاتل ، حشدوا فى الاستانة ، و بعد ما عرضهم السلطان محمود بالذات ، اتجهوا الى قونية ، وتولى الصدر الاعظم رشيد باشا القيادة العليا لهذا الجيش ، وكان يعد من اكفاء قواد تركيا العسكريين

وكانت مدفعية هذا الجيش قوية ايضا . وكان يضم عددا من الجنود النظاميين الذين شرع السلطان محمود فى تدريبهم طبقا للفن العسكرى الحديث بعد ما قضى على الانكشارية وتخلص منهم على اثر معركة ات ميدان الشهيرة

اين احتشد الجيشان

احتشد الجيش المصرى شمالى قونية فى اماكن اختارها ابراهيم باشا بنفسه ، فكانت الجبال امامه وعلى سفحها احتشد الجيش التركى ، وكانت ميمنة الجيش المصرى ممتدة حتى مستنقعات هنالك كانت تحميها وكانت بمثابة حاجز طبيعى بينها و بين الترك اما الميسرة فكانت ممتدة حتى مدينة سيلة

وتأهب الجيشان للقتال يوم ٢١ ديسمبر وكان يوما عبوسا خيم فيه الضباب فمنعهما من رؤية بعضهما بعضا، كما كان شديد البرد قارسه ، فقد هبطت درجة حرارته الى ١١ تحت الصفر

ورأى ابراهيم باشا ان يحمل على ميسرة الترك لانها رابطت فى اماكن مكشوفة بعكس ميمنتهم فقد كانت تستند الى الجبل ، فسار على رأس قوات من الحرس ومن فرسان العرب فاغار عليهم من ثغرة عثر عليها بين صفوفهم فتقهقروا بغير نظام وسقطوا فى المستنقعات

و شجع المصريون انهزام ميسرة الترك فاندفعوا الى القلب ونازلوا الصف الثالث من المشاة الترك الذين اقتحموا الميدان بأمر رشيد باشا فأحاطوا بهم واسروهم

ونزل رشيد باشا بنفسه الى الميـدان ، حينما رأى الاخفاق ماثلا امامه ، فضـل الطريق بسبب تـكاثف الضباب فوقع فى ايدى العرب فأحاطوا به وجردوه من سلاحه واقتادوه الى ابراهيم باشـا ، وقد جرى كل ذلك ولم يمض على نشوب الحرب سـوى ساعتين

وواصل المصريون التقدم وحملوا على الصف الرابع للمشاة الترك فهزموه

وبينما كانت هذه الاعمال تعمل فى الميسرة كان الجناح التركى الايمن يحمل على ميسرة الجيش المصرى املا بأن يزحزحـه عن مراكزه ، فنشبت معركة عنيفة بين الفريقين استمرت ٤٥ دقيقة وانتهت بصد الترك فتقهقروا وتشتتوا فى الجبال

وفى الساعة السابعة مساء انتهت المعركة تماما وقد استمرت سبع ساعات فقـد بدأت عند الظهر وحاق الفشل بالترك وتمزق جيشهم واسر المصريون قائده وستة آلاف من جنوده وضباطه وغنموا ٤٦ مدفعا وعددا من الرايات والذخائر

وتعد معركة قونية من امجد الصفحات العسكرية فى تاريخ الجيش المصرى ولم يبق بعدها مانع يمنع ابراهيم باشا من احتلال الاستانة متى اراد

١١

اتفاق كوتاهية

تجددت المكاتبات بعد معركة قونية بين محمد على وابنه واشتد الاخذ والرد بينهما فهذا يريد مواصلة الزحف الى الاستانة ما دامت ابوابها مفتحة ، وذاك يرى التريث واخذ الامور بالتروى والحكمة ، والسعى لعقد اتفاق مباشر مع الباب العالى خوفا من تدخل اوربا ، وكان محمد على يعرف بأنها لاتوافق على موت السلطنة العثمانية ولا تنظر الى تجاوزه قونية بعين الرضا

فقد كتب ابراهيم باشا الى ابيه بعد استيلائه على قونية بأسبوع اى يوم ٢٨ ديسمبر يقول : « استطيع ان اصل الى الاستانة فى اسبوع ومعى الصدر الاعظم محمد رشيد باشا واستطيع خلع السلطان حالا وبدون صعوبة ولكننى مضطر ان اعرف هل تسمح لى بتنفيذ هذه الخطة حتى اتذرع باتخاذ الوسائل اللازمة لان مسألتنا لا تسوى الا فى استانبول فالواجب ان نذهب الى استانبول لكى نملى ارادتنا

« انى مضطر ان اكرر على مسامعك ان بث الدعوة لا يوصلنا الى اغراضنا وانت اذا رميت من الاشاعات التى تذيعها الى غرض سياسى بأننا نهدد استانبول لتقبل شروطنا كان من العبث ان نقف فى قونية فلا نتقدم منها الى الامام ، فان قونية بعيدة عن رجال الاستانة فهم لا يقبلون عقد الصلح منا الا اذا دخلنا عليهم فى العاصمة ، كذلك هم فعلوا مع الروس فلم يقبلوا عقد الصلح معهم الا بعد وصولهم الى جكمجه بناحية استانبول

« فالواجب اذن ان نواصل الزحف حتى بورسه على الاقل مع احتلال المدن

الواقعة على بحر مرمرة وجعل هذه المدن مراكز تموين لجيشنا فى البحر وحينئذ نستطيع ان نذيع الاخبار التى قد تفضى الى خلع السلطان واذا نحن لم نفلح فى اسقاطه توصلنا على الاقل الى ابرام صلح يحقق امانينا . ولولا الامران الاخيران اللذان تلقيتهما منك لكنت الآن على ابواب استانبول وانى لاسائل نفسى ما هو الداعى الى اصدار تلك الاوامر الى ؟ اهو الخوف من اوربا ام شىء آخر لا اعرفه »

ورأى محمد على ان الحق فى جانب ولده فكتب اليه يأمره بالتقدم فغادر قونية يوم ٢٠ يناير سنة ١٨٣٣ وكتب الى والده يوم زحفه يقول :

« اليوم بدأ الجيش الزحف من قونية تتقدمه شراذم صغيرة لشدة البرد ولقلة عدد الجمال للنقل . وتدل الاخبار الواردة من استانبول انه لا توجد فى طريقنا قوة تقاومنا حتى ان استانبول ذاتها ليس فيها حركة الاستعداد للمقاومة . وهذا يدل الدلالة الكافية على انهم قد وضعوا الآن جميع آمالهم فى الصلح ، ولاجل هذا الصلح ارسلوا اليك خليل رفعت باشا ولكننى ارى حسبما يصل اليه علمى الضعيف انه مادام السلطان محمود المشؤوم على العرش لا يمكن ان يكون هنالك صلح صحيح ولا نهاية للازمة لانه سيكون عرضة للظروف ينتهزها للانتقام و يعمل لها كما كان فى الماضى وللجور على هذه الامة الاسلامية التعيسة وظلمها

« فباسم حبنا لهذه الامة وباسم غيرتنا الدينية ارى من الواجب المحتم علينا العمل لا لمصلحتنا فقط بل العمل لمصلحة هذه الامة كلها فوق كل شىء وقبل كل شىء ومن اجل هذا يجب علينا ان نرجع الى القرار الاول اى خلع هذا السلطان المشؤوم ووضع ابنه (ولى العهد) مكانه على العرش حتى يكون ذلك بمثابة محرك هذه الامة من سباتها العميق

« فاذا اعترضت على بان اوربا تعترضنا قلت لك اننا لا ندع الوقت للتدخل و بذلك نتقى الخطر من ذلك الجانب لان مشروعنا ينفذ قبل ان يعرف و بذلك نضع اوربا امام الامر الواقع . واذا كانت اوربا تغتنم الفرصة لاشباع مطامعها من هذه

الدولة فأى تبعــة تقع علينا وهــل فى استطاعتنا ان نمنعها من تحقيق خطة تســعى لتحقيقها من ٤٨ سنة

« اننا نسأل الله العون والمدد والافضل ان يقع اليوم ما لابد من وقوعه فى يوم من الايام ، ومع الاستعانة بالله لتحقيق ذلك عزمت على التقدم الى بورسة ومدانية فلا وقت اذن عندى لتلقى شىء منك يحرم على التقدم . ولو بقيت هنا لما وجدت اقل وسيلة لتموين الجيش لفقر البلاد فلم يبق لى الا الذهاب الى بروسه ومن هنالك ارسل اليك رسولا بما نــكون قد قررناه تبعا للظروف »

السعى للصلح

اقلق نبأ خــبر انتصار ابراهيم باشا فى قونية واسره الصــدر الاعظم ، الباب العالى وازعجه ووقع عــلى رأس رجاله وقوع الصاعقة والقى الخوف والهلع فى دوائره فقــد ذهبت معركة قونية بكل ما كان للدولة من قوة وعتاد وجعلتها ضعيفة مشلولة امام الجيش المصرى القوى

وكان قيصر روســيا اول من سعى لاغتنام هذه الفرصة فأرســل الجنرال مورافيف فقابل السلطان وعرض عليه مساعدته البرية والبحرية

وقرر الباب العالى بعد طول بحث وتمحيص ان يتصل بمحمد على باشا مباشرة ويعمل للتفاهم معه على قاعدة التنازل له عن عكا وطرابلس ودمشق وانتدب خليل رفعت باشا وكان من اصدقاء محمد على القدماء فسافر الى الاسكندرية لمقابلته واقناعه بقبول هذا الحل

ووصل المندوب الى مصر وقابل الباشا وطالت الاجتماعات والمداولات بينهما ثم عاد الى الاستانة يحمل مشروعا جديدا اتفق عليه معه ويقوم على تعيينه لولاية سورية وادنه وان تعقد بينه و بين خسرو باشا معاهدة تعاون تضع حــدا لتنازعهما وان يكون الاثنان بمثابة قيمين على املاك الدولة احــدهما فى الاستانة والآخر فى القاهرة

شدخل روسيا

وقبل ان يبلغ مندوب الباب العالى القاهرة ، كان مندوب قيصر روسيا وهو الجنرال مورافيف ، قد سبقه فوصل الاسكندرية يوم ١٣ فبراير وقابل الباشا واعرب له عن رغبة القيصر بأن يتفق مع السلطان ولا بأس ان تكون فرنسا هى الوسيطة فرد عليه بأن هذا هو الذى يطلبه وذكر له انه اقترح على السلطان عقد الصلح من شهر نوفبر

ولكى يثبت للجنرال حسن نيته وقع امامه على كتاب وجهه الى ابنه بالتوقف فى اى مكان يبلغه كتابه

وارسلت حكومة الاستانة رسولا الى ابراهيم باشا يبلغه انها انتدبت مندوبا سافر الى القاهرة للاتفاق مع والده ، وارسل الجنرال مورافيف ايضا رسولا يطلب منه الكف عن الزحف ، وارسل اليه المسيو دى فارن سفير فرنسا فى استانبول رسولا اسمه بودوليا فقابله فى معسكره فى كوتاهية وسلمه كتاب السفير و به يرجوه وقف الزحف فكتب اليه يقول :

« لست سوى قائد عام موكول اليه القيام بأعمال عسكرية وما عدا ذلك فانا ارجع الى السلطة التى انا تابع لها و بناء على ذلك فسأتابع زحفى ولكنى ارجع فى الامر الى والدى فى الاسكندرية »

وكتب ابراهيم باشا الى ابيه يوم ٣ فبراير يقول : ارى ان يكون الاستقلال مقدما على كل شىء فى المناقشات التى تدور مع الرسولين (مورافيف وخليل رفعت) و بعد الاستقلال يجب ان نطلب اضاليا وادنه وجزيرة قبرص وان تضم الى مصر ـ اذا كان ذلك بالامكان ـ طرابلس الغرب وتونس الى آخر هذا الكتاب وقد نشرناه بنصه الكامل فى ص ٩١

السلطان يطلب تدخل الدول

ولما بلغ مسامع السلطان نبأ زحف ابراهيم باشا امر ريس افندى صديق سفير روسيا ان يطلب منه انجاز الوعد الذى وعد به القيصر فيرسل ٢٠ ـ ٢٥ الف

جندى لمساعدة الدولة

ووصلت بعد ايام الى الاستانة اخبار اخرى بأن ابراهيم باشا بلغ قره حصار فطلب الباب العالى بأمر السلطان من سفيرى انكلترا وفرنسا التوسط لوقفه فعلق الاول توسطه على استرداد طلب التدخل من روسيا

ووصل فى تلك الاثناء الجنرال مورافيف عائدا من الاسكندرية وابلغ الباب العالى ان محمد على اصدر امره الى ولده بالتوقف وقال انه وقع امره بحضوره ومع ذلك فهو يرى ان من مصلحة الباب العالى اتخاذ الحيطة وعدم التساهل

الروس يزحفون

وعملا بطلب السلطان غادر الاسطول الروسى سباستبول يوم ١٤ فبراير قاصدا البوسفور وصدر الامر من بطرسبرج الى الجنرال كيسليف بأن يتقدم الى الاستانة للدفاع عنها كما صدر امر آخر الى قائد اوديسا بأن يحشد جيشه و يجعله على اهبة السفر

وصول اسطول فرنسوى

وقبل ان يصل الاسطول الروسى الى الاستانة وقد وصل اليها يوم ١٩ فبراير ، وصل اسطول فرنسوى يوم ٢٠ يناير بقيادة الاميرال راسين الى الدردنيل فأبلغ هذا الباب العالى بأنه مستعد للدفاع عنه ضد ابراهيم باشا اذا استرد طلب المساعدة من روسيا

ولما وصل الاسطول الروسى بعد ذلك احتج على وصوله وقال ان ذلك يفقد الباب العالى استقلاله وان وجود السفير الفرنسوى صار عبثا

وحاول ريس افندى حمل الاميرال على التوسط على قاعدة منح محمد على باشا مقاطعات عكا وطرابلس والقدس ونابلس وقال ان الزيادة غير ممكنة فوافق الاميرال

على ذلك بشرط خروج الاسطول الروسى من تركيا وكتب بذلك صك بينهما وقعه ريس افندى والاميرال يوم ٢١ فبراير سنة ١٨٣٣

وكتب الاميرال على اثر ذلك كتابين الاول الى محمد على باشا يطلب فيه منه استدعاء جيشه فى الحال «لان الاعتدال صار لازما والاصرار على مطالبك يوقع عليك مصائب اذا زادت جزعت لها ، ففرنسا تتمسك بالعهود التى قطعتها انا وهى تملك القوة وانا ضمين ارادتها »

وارسل كتابه مع رسول خاص اسمه الكبتن اوليفيه حمل رسالة منه الى قنصل فرنسا فى الاسكندرية قال فيها « انه لايصدق ان ابراهيم باشا يتعرض للتبعة الهائلة التى تقع عليه اذا هو تقدم ، هذا اذا لم يتقهقر ، والواجب ان يرسل اليه والده بريدا بالوقوف »

وارسل الثانى الى ابراهيم باشا ، وكان قد بلغ كوتاهية فى زحفه ووقف فيها بناء على امر والده يقول « انه يجب اعتبار الصلح مبرما على الشروط التى بحثها مع الباب العالى ولا يمكن تغيير شىء فى اساسها بل الواجب قبولها ووقف القتال »

ولم يكتف الاميرال راسين بما فعله ، ويقول بعض المؤرخين الفرنسويين بانه تصرف تصرفا فضوليا ، وان حكومته لم تأمره بالتدخل مطلقا ، وكانت تميل الى منح سورية لمحمد على باشا - بل فكر فى ارسال جانب من اسطوله الى الساحل الشامى لقطع المواصلات بين جيش ابراهيم باشا ومصر ، ولما طلب من زميله اميرال الاسطول البريطانى الاشتراك معه فى هذا العمل وارسال جانب من اسطوله اجابه انه وان كان يقره على تصرفه الا انه يعتذر عن الاشتراك معه

وكتب ابراهيم باشا من كوتاهية الى الاميرال يقول « انه يقيم حيث يقيم فى كوتاهية بأمر والده وانه لايتقدم او يتأخر على هواه ، بل طبقا للاوامر التى يتلقاها من مصر »

اما محمد على باشا فقد اظهر استياءه مما حدث وقال للمترجم بعد ما انتهى من تلاوة كتاب الاميرال ونص الاتفاق الذى عقده مع الباب العالى :

« اذا كانت الدول التي يهمها امر مصر اكثر من سواها (يريد بذلك فرنسا وكانت تتظاهر بصداقته وتعده العون والتأييد) قد تخلت عنى بهذا الشكل فأنا اعتبر ذلك حكما منها على بالموت ، ولكنى اعرف كيف اموت شريفا ، وكيف اجعل موتى مجيدا ، كما كانت حياتى مجيدة »

« وسأقابل الحكم وسيفى فى يدى ، واذا قبلت هذا الثمن بعد النصر الذى نلته فالباب العالى يعود بعد سنة او سنتين الى دس الدسائس ضدى بعد ما يكون نظم قواه ، فالأفضل ان اعرف كيف اموت بدلا من ان اذهب ضحية دسائسه »

وقال قنصل فرنسا لمحمد على باشا حين زيارته له فى الغداة ان رفضه للاتفاق سينتج نتائج سيئة ، لان فرنسا تضطر الى استدعاء جميع ضباطها من جيشه واسطوله ، ولما الح عليه بالقبول قال له :

« ان ظهور الاسطول الروسى فى الاستانة مكيدة دبرها الروس مع رجال المابين الذين اشتروهم بالمال

« لقد اغتنموا فرصة وصول الاميرال راسين الذين يعرفون ضعفه وتسرعه فدفعوه فى ما اندفع فيه. وكذلك خسرو باشا هو عدوى وقد جاء بالروس الى العاصمة بينما كان مندوبه يفاوضنى هنا للاتفاق

« على انى لافهم كيف تتدخل الدول الاوربية فى هذا النزاع العائلى ، مع ان المتفق عليه معها تركه وشأنه ثم كيف يوقعون اتفاق ٢١ فبراير ويضمنون تنفيذه مع غياب احد الطرفين ، وكيف يجوز لهم اعتبار الغالب مغلوبا

« انا لا اصدق ان فرنسا وانكلترا تقدمان على هدم دولة تعد كل واحدة منها وجودها مفيدا لها . كما ان ظهور الاسطولين الانكليزى والفرنسوى على سواحل مصر لايمنع وجود الاسطول الروسى تحت اشراف السلطان محمود

« ان اوربا تجهل مسألة مصر كما يظهر ، انهم يظنون انى اطلب الاستقلال ، وانت تشهد انى لم اطلب ذلك بل جل قصدى وغايتى ، النهوض بالسلطنة وتوطيد

اركانها وان ازيد اراضيها ، واضاعف قوتها بمضاعفة القوة المصرية و بهذه الوسيلة نحول دون غزوات روسيا وتنهض بالامة الاسلامية لتدافع عن بلادها التى يستولى عليها عدوها الطبيعى قطعة قطعة وشطرا شطرا »

وفى يوم ٨ مارس سلم محمد على باشا الى الكبتن اوليفيه ، رسول الاميرال راسين رده على كتابه وقد جاء فيه :

« ان الامة كلها فى جانبى ، وانا قادر على اثارة الروم ايلى والاناضول متى اردت وقد بسطت سيادتى على جميع البلاد ، وانتصرت فى جميع المعارك ولما جاءنى من لسان الامة ومن الذين يتكلمون باسمها انهم يولوننى حكم سورية اوقفت جيشى عن الزحف حقنا للدماء ولمعرفة ميول السياسة الاوربية ، فهل يكون ثمن الهوادة التى عملت بها – بعد تلك الضحايا الكبيرة من اجل امة دعتنى اليها ، وانضمت الى جانبى وانالتنى النصر بعد النصر – ترك البلاد التى استوليت عليها ، وان يطلب منى سحب جنودى الى مقاطعة صغيرة يسمونها الولايات الاربع . ان هذا لا يكون وان فى هذا حكم على بالاعدام السياسى »

محمد على بنذر

ووصل يوم ٨ مارس اى يوم كتابة هذا الرد ، خليل رفعت باشا الى الاسكندرية قادما من القاهرة فى طريقه الى الاستانة ، فأبلغه محمد على باشا انهم يريدون ان يكرهوه على قبول شروط وضعوها هم وانه مصمم على السير حتى النهاية وعدم قبول ما اتفقوا عليه ، فرد عليه مدافعا عن حكومته واقترح عليه ان يسمح له بارسال معاونه رشيد بك الى الاستانة ليطلع الحكومة على حقيقة الحالة ، فسافر هذا فورا يحمل مطالب محمد على باشا النهائية ومؤداها : « انه لايقبل ادخال اى تعديل على شروطه الاولى وانه خول ابنه السلطة المطلقة للمفاوضة وتوقيع الصلح باسمه ، اذا اجيبت مطالبه والرجوع الى البلاد مع جيشه . واذا لم تجب شروطه واصروا على التمسك باتفاق ٢١

فبراير فانه يطلق لابنه حرية العمل و يسمح له بان يواصل زحفه وان يعمل ما يرى عمله بلا قيد ولا شرط تبعا للظروف »

وساد القلق والجزع دوائر الباب العالى جينما وصل انذار محمد على باشا فأسرع فطلب من سفير روسيا التعجيل بارسال خمسة آلاف جندى لحماية العاصمة

وطاف ريس افندى على سفراء الدول فى الاستانة يسألهم رأيهم فى الخطة التى يجدر بالباب العالى اتباعها فقال له سفير انكلترا : ليس فى استطاعتى ابداء رأى رسمى ، ولا انصح الباب العالى بالتسليم اذا كان يستطيع المقاومة ، واذا كان الامر بالعكس فالافضل له اختيار اهون الشرين ، واهونهما اعطاء محمد على طلباته

وقال سفير فرنسا « ان اعطاء محمد على سورية وادنه اقل شرا من دخول الروس الى الاستانة

وقال سفير روسيا « من الصعب على الاجنبى بذل النصيحة مادام الوزراء الترك يعرفون مالديهم من قوة للمقاومة . ان الامدادات الروسية تصل متأخرة لانهم لم يرتضوها عند ماعرضت عليهم »

وقال ريس افندى لسفيرى انكلترا وفرنسا ان الباب العالى مستعد ان يعطى حلب ودمشق لمحمد على باشا ولكنه لايستطيع التنازل عن ادنه ، فاذا ايده السفيران فى ذلك يصعب على ابراهيم باشا الرفض

السعى عند ابراهيم باشا

ودارت مباحثات جديدة بين الباب العالى والامبرال راسين اقترنت باتفاق جديد عقد يوم ٢٩ مارس يقضى بالتنازل عن سورية كلها لمحمد على باشا وعلى تخفيف الشروط بشأن ادنه جهد ماتصل اليه الطاقة ، وتم الاتفاق ايضا بان يحمل هذه الشروط الى ابراهيم باشا المسيو دى فارين سفير فرنسا مع رشيد بك مندوب الباب العالى فسافرا الى كوتاهية و بلغاها يوم ٥ ابريل . وكان ابراهيم باشا قد اصدر امره بالزحف قبل وصولهما بايام قليلة فلما عرف بانهما قادمان اوقفه

وفى يوم ١٠ ابريل ارسل الباب العالى رسولا الى الاميرال راسين يطلب اليه ان يصدر تعليمات الى المسيو دى فارين بان يتمسك فى مباحثاته باتفاق ٢١ فبراير لا باتفاق ٢٩ مارس - وكان ذلك بعد دخول الجنود الروسية الى الاستانة لانه ليس فى الامكان التنازل عن دمشق وحلب فرد عليه بانه اذا تغير حرف واحد من اتفاق ٢٩ مارس فان فرنسا تستدعى دى فارين وتنفض يدها فاعتذر ريس افندى وسحب طلبه

وكتب المسيو دى فارين بعد مقابلته ابراهيم باشا ومحادثته الى الاميرال روسين يقول : ابلغ رشيد بك ابراهيم باشا ان الباب العالى يعطى محمد على باشا سورية كلها وبذلك لم تبق هنالك من صعوبة الا فى امر المقاطعات الاخرى فالباشا يطلب اورفا وسلفكه وديار بكر ، وقد قبل بعد اخذ ورد التنازل عن طلب اورفا وديار بكر وقال انه لايتنازل عن ادنه بحال من الاحوال ، فاذا وافق الباب العالى على ذلك فانه يرسل الى والده بان الصلح قد تم ويأمر سليمان بك بان يعيد الى قونيه الفرق التى غادرتها الى كوتاهية »

ولما اطلع الباب العالى على هذا الكتاب طلب ريس افندى من سفير انكلترا ان يكتب الى ابراهيم باشا بان الباب العالى وافق على التنازل لوالده عن حكم ادنه ايضا

وعارض الاميرال روسين فى تنازل الباب العالى لمحمد على عن ادنه ، وقال ان استيلاءه عليها يمكنه من الحصول على الاخشاب التى يريدها ويجعله مسيطرا على طريق الاستانة ومضايق طوروس وكان من رأيه ان تتفق الدول جميعا على مقاومته وان تقاتله عند الحاجة

وفى ١٥ ابريل صدرت التوجيهات باسماء الولاة والحكام فى الدولة وقد نص فيها ان ولايات مصر ودمشق وحلب وعكا و بيروت وطرا بلس الشام قد حولت الى عهدة محمد علي وان ولاية الحبشة وجدة ومكة قد حولت الى عهدة ابراهيم باشا مع بقاء ولاية ادنه تابعة للدولة ، فلما اطلع ابراهيم باشا عليها صاح صيحة الغضب وقال للرسول

كيف استطيع الآن ان اكتب الى والدى بان الحكومة التركية تنفذ عهودها .
فليكتب الباب العالى بذلك اليه اما انا فانى اوقف كل حركة الى الوراء »

وقرر الوزراء على أثر وصول هذه الاخبار ان يطلبوا من ابراهيم باشا ان يرسل الى الاستانة عثمان بك او باقى بك من رجاله لمباحثتهما فى مسألة ادنه ، فادرك ان غرضهم التسويف والمماطلة انتظارا لوصول الامدادات الروسية ، وقد وصلت فعلا بعد ذلك بقليل وهى ٦ - ٧ آلاف مقاتل و ١٠ سفن حربية فاحدث وصولها تأثيرا سيئا فى نفوس الاهالى والعلماء خاصة ، و بثت دعايات شديدة ضد الحكومة ، واخيرا وفى يوم ٣ مايو وافق السلطان على اعطاء ادنه لمحمد على باشا وفى يوم ٦ منه اصدر الفرمان الآتى :

« ان تأكيد الامانة والاخلاص الذى قدمه فى العهد الاخير محمد على باشا وولده ابراهيم ، قد لقى الحظوة لدينا فتوجه اليهم رضانا العالى الشاهانى

« واثبت فى ولايتى كريت ومصر محمد على باشا ونظرا لالتماسه الخاص وليته مقاطعات دمشق وطرابلس الشام وصيدا وصفد وحلب واقليمى القدس ونابلس وحراسة الحج ونال ابنه من جديد من عطفنا الشاهانى لقب شيخ الحرم المكى وولاية جدة وفوق هذا قد اجبت ملتمسه بشأن ادارة مقاطعة ادنه التى تديرها ادارة الاملاك الشاهانية وذلك بلقب محصل

« وانى لما طبعت عليه من الانصاف والشفقة والحلم اصدر امرى هذا لجميع من فى بلاد الاناضول بالا يحاسبوا احدا من السكان والاعيان عن الماضى وان ينسوا جميع الحوادث التى حدثت ، وانتم جميعا تبلغون من فى ادارتكم عفوى ، وتبذلون جهدكم لتطمئن الخواطر من هذا الوجه ، وتعملون كل ما فى استطاعتكم لرفع الادعية لشخصنا الشاهانى من كافة الشعب الذى هو امانة من الله فى يدنا

« ولاجل اعلامكم اصدرنا فرماننا هذا طبقا لخطى الشريف فابلغوا ارادتى

السامية لكل من عندكم ، وطمئنوا الاهالى وحثوهم على الدعاء لى وابذلوا الجهد لتنفيذ ارادتى دون ان تسمحوا لاحد باهانة احد ومخالفة مقاصدى السامية »

ولما ابلغ هذا المرسوم الى ابراهيم باشا فى معسكر كوتاهية ارسل يوم ١١ مايو الى السلطان الكتاب الآتى :

بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله القدير الجبار الذى تتعالى قوته عن كل شبيه ومثيل ، اسأله وهو خير مسئول ان ينعم بالغبطة التى لاتنتهى و بالسعادة التى لاتزول على صاحب العظمة السامية والحلم المتناهى جلالة مولانا القدير ، العظيم الشان الذى غمرتنا ، وغمرت العالمين مبراته واحسانه واسأله بسط ظله الوارف الذى يستظل به سائر العباد على عبده هذا سائلا الله اجابة دعائى بجاه المصطفى سيد الرسل والانبياء

« اما بعد فقد تفضلت نعمة الجلالة الشاهانية بان منحت هذا الخادم المطيع لقب محصل حكومة ادنه ، وشملت شمس انظاره هذا العبد الذى غمرته النعمة فردت اليه الحياة حتى تصاعدت مع انفاسه الدعوات بطول حياته و بدوام سلطانه وانى مابقيت حيا لاكون وقف خدمة ، وتمسكى بواجب الاخلاص الذى لايعتريه اقل فتور اسأل الله وحده ان يمد بعونه وحوله عبد عظمتكم الذى لا امنية له الا ان يقف حياته على شرف خدمتها فى كل ماينطبق على مشيئتها السامية

« واذا تعالى الى مسامع عظمتها رفع هذه العريضة الى مواطىء عرشها السامى لشكرها على حلمها وانعامها الذى لاحد له يتنازل مولاى وولى نعمتى ونعمة العالمين جميعا فيأمر بما يروق له ، وله على كل حال ان يأمر و يشمل هذا الخادم الامين بتعطفاته التى لاحد لها »

وارسل ابراهيم باشا كتابا الى الصدر الاعظم ذكر فيه انه تلقى الفرمان فدله ذلك على ان الالتماس الذى رفعه قد تفضلت جلالته بقبوله فاولته مهمة محصل حكومة ادنه وانه امر الجنود بعد ماتلقى الفرمان بان تسافر من مرابطها وانه سيسرع بالذهاب الى ادنه دون الوقوف فى الطريق

اعلان الخبر فى مصر

وفى صباح ١٥ مايو وصلت الى الاسكندرية سفينة حربية تحمل خبر الاتفاق وتسليم الباب العالى بالتنازل عن ادنه ، فامر محمد على بان تطلق القلاع فى جميع انحاء البلاد مئة مدفع وسافر الى القاهرة فاستقبل رسميا مندوب السلطان الذى جاء بالفرمان بالحفاوة المعتادة

١٢

معركة نصيبين

عاد ابراهيم باشا بعد عقد الاتفاق من كوتاهية الى ادنه ومنها قصد انطاكية فاستقر فيها واتخذها مقرا له يشرف منه على سير الحالة وتقع انطاكية فى متوسط بين ادنه ودمشق وكان غير مطمئن الى الباب العالى ولا واثق من اخلاصه ومعتقدا بانه لايحجم عن مهاجمته متى سنحت له الفرص

ووقعت بعد ذلك فتن واضطرابات داخلية فى بعض انحاء سورية وانتقض السكان فى فلسطين وفى حوران ولبنان وطرابلس ودمشق على الادارة المصرية الجديدة لاسباب شتى يمكن ايجازها فى مايلى :

١ ـ صدور امر محمد على بتطبيق القوانين الاقتصادية والمالية التى كانت نافذة فى مصر على سكان الشام وشروع الحكومة الجديدة فى تجنيد الشبان وجمع السلاح واحتكار القوت والتجارة الخارجية

٢ ـ دسائس الباب العالى ومكائده فقد ارسل عبد الله باشا والى عكا السابق الى فلسطين لمقاومة الحكومة الجديدة وزوده بالاموال الكافية كما ارسل رجالا آخرين اندسوا بين سكان البلاد لبذر بذور الفتن

٣ ـ دسائس الاجانب وفى مقدمتهم الانكليز الذين ما كانوا ينظرون بارتياح الى قيام الحكومة الجديدة

٤ ـ نقمة ارباب الاقطاعات والزعامات الذين جردهم الحكم الجديد من كل سلطان ونفوذ

٥ ـ صراحة ابراهيم باشا وشدته الزائدة فما كان يراعى احدا ولا يحابى احدا

ولابد لنا بهذه المناسبة من ترديد ما رواه الاستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه تاريخ الحركة القومية ، فقد نقل ان ابراهيم باشا كتب الى والده يقترح عليه ارجاء تطبيق القوانين النافذة فى مصر على السوريين لان حالتهم ليست كحالة المصريين فاصر على وجوب تطبيقها فلم ير بدا من العمل بامر ابيه ، وكان محمد على فى حاجة الى المال والجند فكانت النتيجة حدوث تلك الاضطرابات المؤلمة وقد اخمدها الجيش المصرى وقضى عليها بعد عناء وجهد شديدين وزاد ايضا فى حراجة الموقف الاشاعات التى كانت تشاع عن نيات الترك الذين حشدوا فى تلك الفترة قوات فى سيواس تحت ستار تأديب القبائل الكردية الثائرة مع ان غايتهم الحقيقية هى تهديد الجيش المصرى واغراء اهل الشام به وتشجيعهم على الانتقاض

وتدخل الاميرال راسين مندوب فرنسا واللورد بونسونبى سفير انكلترا فى الاستانة عند السلطان ونصحاه بعدم تأييد الثوار السوريين وقالا له ان اقدامه على محاربة محمد على يهدد تاجه وعرشه و يعرضه للاخطار فتردد بعض تردد ثم مالبث ان عاد الى سياسته القديمة

وما كان محمد على بغافل عما يعمله الترك ولا عما يسعونه من المساعى السرية عند الدول لحملها على التدخل لقهره ، ورأى ان افضل حل للمشكلة هو ان يسعى للاستقلال التام والتخلص من سيادة السلطان نهائيا

ولم يشأ ان يبت فى الامر من دون استشارة ابنه فكتب اليه يوم ٢٤ اغسطس سنة ١٨٣٤ يذكر له سعى الباب العالى عند الانكليز والفرنسويين لانتزاع ادنه وسورية وتأهبه لمحاربة الجيش المصرى و يطلب منه ان يكون واقفا على قدم الاستعداد و يقول « ولعلنا نستطيع ان نتمكن من التخلص من نير الباب العالى اذا استطعنا افهام الدول سوء نيته »

والظاهر ان ابراهيم باشا لم يكن يشاطر اباه رأيه فى السعى لطلب الاستقلال فقد حذره فى كتاب ارسل اليه من هذا المسعى وقال له ان الباب العالى قد يتخذ ذلك ذريعة يتذرع بها للهجوم علينا ، وانه ليس من مصلحتنا الاشتباك فى حرب جديدة

لان جيشنا تعب ، وقد مل من طول القتال ، ثم قال فى ختام كتابه :

« وتقول فى ختام كتابك انه يجب علينا الآن ان نتمكن من تحطيم هـذا القيد ، قيـد العبودية الذى نحمله الآن فى اعناقنا وان نحمله لرجال استانبول فهل تذكر ياوالدى ومولاى انى ابان الحرب الاول طلبت منك ان نلقى نير العبودية فاجبتنى بانك تكتفى باسم محمد على . فاذا كنت ترى ان الوقت قد حان لالقاء هذا العبء فانا ارى ان هـذا المسعى ليس من السهل تحقيقه بل ارى الامر على عكس ذلك اى انى اراه صعبا جـدا . فعند الترك رجال اقوى من رجالنا و ربما كانوا اشد بطولة ، ومهاجمة اسطولهم للسواحل تضر بك اكثر من اضرارها بى »

ورد محمد على على ولده بكتاب اعرب فيـه عن عدم ارتياحه الى جوابه وحكم عليه بانه لم يفهم مغزى اقتراحه ومرماه ومما قاله له « تقول فى كتابك الاخـير تاريخه (٢٧ سبتمبر) ان عبارتك كانت منحصرة فى ضرورة تحطيم نير التابعية . وانى انا فى كتابى عزوت اليك لاحب تحطيم القيد بل دفعه الى اعناق الترك وهذا الخطأ منى مرجعه عدم فهمك كلامى

« والحقيقة انى ادركت فهم الفاظك وعبارتك ، واذا كنت قد زدت عليها كلمة « تحميل القيد لاعناق الترك » فانى قد تعمدت ذلك واليك البيان والسبب : .

« ان السلطنة التركية تدعى تبوأ عرش الخلافة لانها تملك الحرمين الشريفين والارض المقدسة . و بما ان الحجاز هو فى قبضة يدنا الآن فاذا نحن نلنـا استقلالنا سقطت حجة تركيا من تلقـاء نفسها وسقطت الخلافة عنها لانهم لا يستطيعون ان يقولوا بعد ذلك فى المساجـد عن السلطان انه خادم الحرمين الشريفين لان الحرمين والأراضى المقدسة تـكون فى يدى الحـكومة المصرية وهذا هو معنى قولى « تحميل الترك نير العبودية بدل مصر »

وابى محمـد على ان يأخذ برأى ابنـه ابراهيم بل كاشف الدول سرا بطلب الاستقلال التام متذرعا بحشد السلطان جيشه واثارته الفتن فى سورية وهذا هو نص الـكتاب الذى وجهه مدير خارجية محمد على الى قنصل النمسا بهذا الشأن :

«عرفت من غير شك الميول العدائية التى اظهرها الباب العالى حديثا نحو مصر فهو يجمع من بضعة اشهر ومن غـير ما سبب ظاهر جيشا ضخما فى سيواس بقيادة الصدر الاعظم رشيد باشا مع ان محمد على باشا ارسل مندو به الى الاستانة لمباحثة الباب العالى فى الضريبة التى تدفع وفى الجلاء عن اورفا التى امر ابراهيم باشا باحتلالها موقتا لصد بعض القبـائل العربية المتمردة

« وكذلك فقد اخذ البـاب العالى يوزع الاموال بواسطة عبد الله باشـا الذى كان حاكما فى عكا لاثارة الثورات والفتن فى جبل نابلس وفى خليل الرحمن والقدس وقد عمت الثورة تلك الجبال وتطلب اخمادها مجهودا استغرق ثلاثة اسابيع

« ولما اتصل خبر هذه الحركات العدائية بمحمد على باشا ابلغ قناصل الدول انه يرى نفسه مضطرا لاعلان استقلاله لان الباب العـالى لا يرضيه الا هدمه سياسيا والجميع يعرفون انه لم يطلب فى حين من الاحيان استقلاله ، ولـكن التفرقة التامة والدائمة بين الوطنين الوطن العربى والوطن التركى هى الضمانة الوحيدة العاصمة التى تحول دون النتائج المهلـكة المتولدة من حروب اهلية

« واذا اعترف باستقلال سموه فانه يستطيع بعد هذا الاعتراف ان يحصر همه فى تنظيم ماليته وحشد ١٥٠ الف مقاتل منظمين تنظيما تاما فيتمكن من القيام بالمهمة الـكبرى وهى المبادرة لانقاذ تركيا من روسيا »

واتصل بابراهيم باشا خبر هذه المذكرة فـكتب الى والده معاتبا وقال له :

« تذكر ياوالدى انى عند ماوصلت الى قونية الححت بكل خضوع ان نـكتسب الفرصة لاعلان استقلالنا فرددت على فى الحال بانك تـكتفى باسم « محمد على » وكنا فى ذلك الحين منتصرين ، وكانت الفرصة سانحة فلم ترد ، فهل بعد سنتين من تسوية المسألة ، واقامة الحدود نطلب الاستقلال ؟

« لقـد ابرم الترك معاهدة مع روسيا جاء فيها ان كل خطوة نخطوها وراء الحدود تعتبرها روسيا اعتداء تدفعه عن تركيا ، ولم يشترط فى هذه المعاهدة على تركيا منع الاعتـداء علينا . فالترك يملـكون ضمانة منا ولـكنهم احرار فى ان يهاجمونا ولا

تعترض دولة من الدول عليهم

« ولما وثقت من ان الباب العالى يوقد الثورات فى سورية جنحت الى طلب الاستقلال مع ان الظروف غير موافقة وهذا الاعلان الذى تعلنه افسد الصلات بيننا و بين الترك ولقد نبهتك من قبل الى مايكون لمثل هذا العمل من نتائج خطيرة فاكتفيت بان رددت على بانك « اعلنت ارادتك فى الاستقلال »

« وغرضى الوحيد من ذكر ماتقدم ، هو تذكر الاخطاء الماضية فلا نتسرع فى المستقبل بأى عمل من الاعمال وحتى نقدر لكل عمل من اعمالنا نتائجه »

وجاء سير الحوادث مؤيدا لما توقعه ابراهيم باشا فقد اتفقت كلمة الدول على منع محمد على من القيام بأى حركة ضد السلطان محمود وابلغت قرارها هذا لمحمد على فاقترح ان يكون الحكم وراثيا فى اسرته فابلغت الدول اقتراحه للباب العالى فقال انه يوافق على منح محمد على باشا راتبا مدى الحياة ويبنى له قصرا للسكنى على ضفاف البسفور

و بينما كانت المحادثات دائرة بين الدول لحل المشكلة توفى رشيد باشا الصدر الاعظم وقائد الجيوش التركية على الحدود السورية فخل محله فى القيادة حافظ باشا ، فاخذ يتحكك بالمصريين كما منع الرعايا الترك من الاتجار مع سورية فكتب ابراهيم باشا الى والده بما يجرى وذكر له ان الترك يواصلون حشد الجيوش والقوى على الحدود ، وشرع فورا بحشد القوى واعداد المعدات وكتب الى الامير بشير يكلفه ان يتولى حفظ الامن وخطوط المواصلات فى منطقة حمص ، كما ارسل قوة عسكرية الى عينتاب ، وجاء احمد باشا المنيكلى من مصر مع قوات عسكرية كبيرة لتعزيز الجيش المصرى

وسعى القناصل بمصر عند الباشا ونصحوه بالمحافظة على السلام وعلى طاعة الباب العالى وبمواصلة دفع رسوم الويركو ، وكان قد اوقف دفعها ، فرد عليهم بانه مستعد لتنفيذ اقتراحاتهم ولاصدار الامر الى ابنه بالرجوع حتى دمشق ولسحب ٨٠ الفا من جيشه اذا اجيبت طلباته وهى :

١ ـ ارتداد حافظ باشا عن الحدود وتقهقر جيشه الى ماوراء ملاطية

٢ ـ ان تضمن الدول السلام

٣ ـ ان يكون الحكم وراثيا فى ابنائه

وابت الدول ان تتعهد بتنفيذ ما طلب ففشل المشروع . واوفد السلطان محمود على اثر ذلك الى مصر مندوبا اسمه صارم افندى لحل الخلاف مع الباشا فعاد صفر اليدين الى الاستانة لان هذا تشدد

محمد على يسعى للاستقلال

وعاد محمد على ثانية الى مشروعه القديم القائم على المطالبة بالانفصال عن الباب العالى فاستدعى وكلاء الدول فى شهر مايو سنة ١٨٣٨ وابلغهم ان فى نيته اعلان استقلال بلاده معتمدا على حق مصر ومؤكدا ان استقلالها خير ضامن لاستتباب الحالة فى الشرق

ويؤخذ مما رواه بعض الكتاب المعاصرين ان محمد على كان يعتقد ان الدول لاتعارضه فى الحصول على استقلاله وانشاء الدولة العربية التى كان يسعى لانشائها اسوة باليونانيين الذين لولا مساعدة اوربا لهم ووقوفها فى جانبهم وتعضيدها لهم، لما افلتوا من نير الباب العالى ، فعارض مندوبو الدول فى تحقيق هذه الامنية ونصحوه بالعدول عنها لما تولده من اخطار ، واتصل ذلك بالسلطان فزاده تشددا واندفاعا فى مقاومة الحركة العربية ونشط لحشد جيوشه بكثرة على الحدود استعدادا للقتال

اوربا تتدخل ثانية

وعادت الحكومة الفرنسوية الى التوسط حينما خيف من تجدد الحرب ،

فاوفدت رسولا الى الباب العالى لمقابلة السلطان كما اوفدت رسولا آخر الى محمد على فقابله وحمل منه كتابا الى ابراهيم باشا يأمره فيه بان يقف موقف الدفاع وان لا يكون مهاجما . اما الرسول الذى قصد الاستانة فلم يأذن الترك له بالذهاب الى الاناضول ، لانهم كانوا مصممين على الحرب لاعتقادهم ان القوى التى حشدوها تكفى للتغلب على جيش ابراهيم باشا وطرده من سورية ، ولذلك رفضوا كل مشروع يرمى الى الصلح والتوفيق ، وكان الانكليز فى هذه المرة يدفعونهم الى القتال سرا وجهرا و يعدونهم التأييد ومثل ذلك كانت النمسا وروسيا . ومعنى ذلك ان هذه الدول الثلاث كانت متفقة ضمنا على تأييدهم وشد ازرهم

مقدمات الحرب

وعزز المصريون مراكزهم فى سورية كلها من مضيق كولك بوغاز غربا حتى اورفا شرقا ، وحشدوا قوات كبيرة استعدادا للقتال ، حينما ادركوا انه لم يبق فى الامكان اتقاء الحرب

ورأت هيئة اركان حرب الجيش التركى وكانت تتألف من الضباط البروسيين (الالمان) وهم فون مولتكه القائد الالمانى الاعظم وقاهر فرنسا فى حرب السبعين ، ومر باخ وفيشر وفون ونك وغيرهم انه ليس فى الامكان مهاجمة الجيش المصرى من طريق طوروس لان ابراهيم باشا حصنه تحصينا زائدا وان الافضل الاتجاه الى بلاد الجزيرة وهى فى شرقى هذه المنطقة اى الى اورفا وعينتاب ومرعش ومهاجمة المصريين هنالك حيث طبيعة الاراضى اسهل وحيث لاتوجد عوارض طبيعية ولا مضايق كما هى الحال فى جبال طوروس

وفى يوم ١٧ مايو سنة ١٨٣٩ عبر الترك نهر الفرات قرب بيرهجك وشمالى حلب الشرقى وعسكروا فى ضواحى نصيبين قادمين من سيواس حيث كانوا يجمعون قواهم ويدربونها من سنة ١٨٣٤ استعدادا لهذا اليوم العصيب ، وارسلوا قوة احتلت

بعض القرى السورية ، كما تقدم سليمان باشا احد قواد الجيش التركى فاحتل قرى حول عينتاب كانت تابعة للحكم المصرى

ثم عبر الترك نهر الساجور وهو فى شرقى حلب و يبعد عنها نحو ٨٠ كيلو مترا وكان الحد الفاصل فى تلك الايام بين املاك مصر واملاك تركيا اى انهم تخطوا خط الحدود واوغلوا فى داخل الاراضى الخاضعة لمصر ،فالتقوا فى تقدمهم بقوة من عرب الهنادى المصريين فهزموها واسروا منها ٧٠ اسيرا فكتب ابراهيم باشا الى والده بما وقع وابلغه انه ناهض للقائهم فكتب اليه والده يوم ٩ يونيو بان يسارع اليهم والا يتردد فى منازلة جيشهم وان يواصل الزحف بعد انتصاره عليهم الى ملاطية وخربوط واورفا وديار بكر . ومعنى ذلك انه كان يسعى لتوسيع نطاق حدود الاقطار الجديدة التى استولى عليها من ناحية الشرق و بلوغ اقصى حدود البلاد التى ينطق اهلها بالضاد. وقبل ان يتلقى ابراهيم باشا كتاب والده غادر حلب فى اول يونيو الى نهر الساجور يقود سبع فرق خيالة و ١٢ بطارية فوصل يوم ٣ يونيو الى الاماكن التى خيم فيها الترك فجلوا عنها بلا قتال فكتب يوم ٨ منه كتابا الى حافظ باشا قائد الترك العام قال فيه : « اذا كنتم يا صاحب السعادة تلقيتم الامر باعلان الحرب فما فائدة الاسترسال فى بث الدسائس وتحريك الفتن ، واذا كنتم تودون القتال فهلموا الى ميدانه باقدام وجرأة . واملى ان لايغرب عن ذهنكم انكم ستلقون ابطالا لايتسرب الخوف الى نفوسهم . ويجب ان تعلموا انه لم يبق فى الامكان الصبر طويلا على الدسائس التى تدسونها ولا احتمالها »

وجاء رد الباشا مبهما مغلقا وعملا بالاوامر التى اصدرها ابراهيم باشا الى سليمان باشا الفرنسوى احد قواده سار بقواه الى الساجور وكانت تتألف من ١٣ فرقة من المشاة و ١٥ بطارية وانضم الى الجيش

قوات الجيش

كانت قوات ابراهيم باشا فى هذا الميدان تتألف كما يأتى :

١٣ فرقـة مشاة و ٧ فرق فرسان والفا متطوع ومجموع ذلك ٤٠ الف مقاتل مسلحين بمائة وستين مدفعا

وكان جيش الترك يتألف من ١٧ فرقة مشاة و ٩ فرق من الفرسان و ٦٠٠٠ متطوع ومجموع ذلك ٩٠ الف مقاتل نظامى وغير نظامى مسلحين بمائة واربعين مدفعا

وفى يوم ٢٠ يونيو تحرك ابراهيم باشا الى قرية المزار وكان معـتزما ان يبـدأ الترك قبل ان يبدؤه وان يضربهم قبل ان يضربوه كما هى عادته

وتقع قرية المزار جنوبى نصيبين الغربى وفى نصيبين كان مقر حافظ باشا قائد الترك العام وهيئة اركان حربه . اما القوة التى كانت على نهر الساجور فـكانت بقيادة سليمان باشا والى مرعش وجلا الترك عن قرية المزار حينما علموا باقتراب الجيش المصرى منها مرتدين الى نصيبين ومنضمين الى جيشهم العام

وعبأ ابراهيم باشا جيشه فورا على ضفة نهر المزار اليسرى وشرع من صباح ٢١ منه يرتاد مواقع الترك العسكرية لمعرفة النقطة الضعيفة فيحمل عليها ، وكان معه اربعة آلايات من الفرسان و بطاريتين و ١٥٠٠ من متطوعة العرب ، فارسل الترك قوات من الفرسان النظاميين ومن المتطوعين لمنازلته فحمل عليهم وهزمهم وتعقبهم حتى نصيبين فأشرف عليها واطال النظر اليها فادرك صعوبة الاستيلاء عليها من الامام، فأجهد فـكره لابتـكار خطة يستطيع بها ان يضرب الترك ضربة شـديدة كما وقع له فى معركة بيـلان ، فاهتـدى اخيرا الى طريقـة افادته وضمنت له النصر وتقوم عـلى الدوران حول الجيش التركـى ومهاجمتـه من الخلف بدلا من الامام حيث استعد وتأهب

وشرع ابراهيم باشا من صباح ٢٢ منه فى تنفيذ خطته الجديدة فترك مواقعـه الاولى وانسحب شرقا على محاذاة نهر المزار ثم نهر كرزين وهو نهير يصب فى الفرات وتقع نصيبين على ضفته اليسرى ، ثم انثنى شمالا حتى بلغ الطريق الموصل من حلب الى

بيره‌جك والمفضى الى ماوراء مواقع الترك فى نصيبين

وعقد حافظ باشا على الأثر مجلسا حربيا حضره كبار ضباطه والمستشارون الالمان لتقرير الخطة التى يسار عليها فى مقاومة حركة ابراهيم باشا الجديدة واحباطها فكان من رأى الضباط الالمان وعلى رأسهم فون مولتكى ان يبادر الترك فورا فيهاجموا الجيش المصرى قبل اتمام حركته وقبل ان ترسخ اقدامه فى الاماكن التى يختارها فعارض حافظ باشا والضباط الترك فى هذه الخطة وابوا الاخذ بها واصروا على الاحتفاظ بمراكزهم المنيعة ، وعلى عدم المغامرة بالهجوم على الجيش المصرى فى الصحراء وفى سهول خالية من استحكامات تحميهم

ونفذ ابراهيم باشا خطته بنجاح عظيم وتدبير فائق فعبر نهر كرزين ليلا بجميع قواه واحتشد على الضفة اليسرى اى وراء الجيش التركى فغير حافظ باشا واجهة جيشه ليواجه الجيش المصرى وشرع فى انشاء حصون جديدة بدلا من الحصون القديمة التى لم تبق فائدة منها

وقضى الجيشان يوم ٢٣ منه فى التأهب والاستعداد وفى فجر ٢٤ منه باغت حافظ باشا المصريين وهو يرجو ان يأخذهم على غرة ويفتك بهم فردته مدفعيتهم وفتكت به فعاد القهقرى بعد ان منى بخسارة عظيمة

وامر ابراهيم باشا جيشه بالهجوم عقب ذلك طبقا للخطة التى رسمها ، وحمل بنفسه على الجناح الايسر للترك وكان يمتد الى نصيبين ويتجاوزها قليلا مرتكزا الى غابة من اشجار الزيتون وبديهى انه لم يختر هذا الجانب لهجومه الا لانه تبين انه الاضعف وان فى الامكان التغلب عليه بأقصر وقت واقل ثمن

وفعل ابراهيم باشا بالترك هنا مافعله بهم فى معركة بيلان ، فقد امر سليمان باشا الفرنسوى ان يسرع الى احتلال اكمة تجاه ميسرتهم تسيطر على مواقعهم فسار اليها من الجناح الايمن المصرى يقود قوة من المدفعية والفرسان فاستولى عليها وركز فيها مدافعه ، وصب منها نيرانا عليهم فاضطربوا وزلزلوا ، وكانت هذه الحركة مفتاح النصر وسبيله فى هذه المعركة العظمى

واسرع حافظ باشا فأرسل قوة كبيرة من فرسانه ومدافعه لانتزاع الأكمة من يد المصريين فأصلوهم نارا حامية وردوهم خائبين

وامر ابراهيم باشا جناحه الايمن ، بان يحمل على الميسرة التركية فقاومت بشدة وثبتت نحو ساعة ونصف نفد فى خلالها ماكان عند المدفعية المصرية من عتاد ، فاضطرب المشاة المصريون من وقع قنابل الترك . فأمر ابراهيم باشا فرسانه بالهجوم فارتدوا امام نيران العدو الشديدة ، ثم تقهقروا مع المشاة واستطاع ابراهيم باشا وقف هذا التقهقر بعد جهد شديد

ووصلت الذخيرة الى المدفعية فصبت نيرانها على الترك بالاشتراك مع المشاة والفرسان فاضطربت صفوفهم وتزلزلت وظهر عليها الضعف فشرع المتطوعون الكرد يفرون متقهقرين فشدد ابراهيم باشا الهجوم فعجز الترك عن وقفه وفروا منهزمين وتاركين مدافعهم وامتعتهم وذخائرهم و بينها خيمة حافظ باشا المزخرفة وفيها اوراقه واوسمته

وخسر الترك فى هذه المعركة نحو اربعة آلاف بين قتيل وجريح ومثل ذلك كانت خسارة الجيش المصرى ، ومما يدل على هول المعركة وشدتها ان المصريين أسروا نحو ١٢ الف اسير وغنموا نحو ٢٠ الف بندقية وخزينة الجيش وكان فيها مبلغ كبير من المال

وتقدم ابراهيم باشا فاحتل بيره‌جك وغنم فيها ٣٠ مدفعا كما احتل عينتاب واورفا ومرعش

تسليم الاسطول العثمانى

ولم تقف مصائب الترك عند حد ضياع جيشهم فى نصيبين وقد قضوا سنوات فى اعداده وتدريبه وجاءوا له بأفضل الضباط الاوربيين وسلحوه بكل ماكان عندهم من سلاح ومعدات ، بل فقدوا اسطولهم ايضا فقد جاء الى الاسكندرية مستسلما بقيادة الاميرال احمد فوزى باشا

و بيان ماحـدث انه على اثر وفاة السلطان محمود وقد توفى قبل ان تصل اخبار معركة نصيبين الى الاستانة ، تولى العرش السلطان عبد المجيد ، فاختار خسرو باشا وعينـه صدرا اعظم فأرسل على الفور يدعو احمـد فوزى باشا لـكى يعود باسطوله من البحر المتوسط الى العاصمة ، وحسب هـذا حساب هـذه الدعوة وخاف نتائجها ، وكان بينه و بين الصدر نفور ، فقصد الاسكندرية ، وكان صديقا قديما لمحمد على باشا ، فاستقبله بالحفاوة . وكان الاسطول يتألف من تسع بوارج كبيرة و ١١ سفينة من طراز الفرقاطة و ٥ من طراز الـكورفت وعدد بحارته ١٦١٠٧ بحارة ومعه آلايان من الجنود المشاة

ولا ريب ان انضمام الاسطول العثمانى الى الاسطول المصرى على هـذا المنوال كان فوزا جـديدا لمحمد على باشا لا يقل عن فوز جيوشـه العظيم فى معركة نصيبين وكانت باتفاق الآراء اعظم المعارك التى دارت بين المصريين والترك فى خـلال تلك الحرب الطويلة

البلاغات الرسمية المصرية عن معركة نصيبين

ونثبت هنا التقارير الرسمية التى ارسلها ابراهيم باشا الى والده عن هـذه المعركة وعن الحوادث التى تقدمتها لما لها من القيمة التاريخية :

١

كان الجيشان يوم ٢٠ يونيو سنة ١٨٣٩ فى عينتاب على مقربة من بعضهما ، وكانت جنود العـدد تحتل المدينة بقيادة سليمان باشا والى مرعش ، وكان جواسيس حافظ باشا واعوانه يحرضون الاهالى على الثورة والعصيان وجنوده لاتكف عن العدوان ، فـكان الجيشان فى حالة حرب ولـكنا اتبعنا اوامركم واوامر قناصل الدول فلم نقابل القوة بالقوة ضابطين انفسنا ومخالفين ميولنا بالوقوف بلا عمل تلقاء مايبديه

المخالف من الاعداء والغطرسة

وفى يوم ٢٣ يونيو غادرت توزل مع فصيلة من الفرسان و بعض بطاريات خفيفة وار بع اورط مشاة لمداهمة قوة العدو بالقرب من المزار على نهر الفرات ، وعند وصولنا حمل الفرسان على العدو والزموه الفرار فغنمنا ار بعة عشر مدفعا وصندوق المال وفيه ٥٠ الف قرش واسرنا ٧٠٠ اسير ثم التقينا بين المزار ونسبى بفرقة من المخالفين فأ كرهناها على التراجع الى مقر جيش حافظ باشا

وفى ٢٤ منه رتبنا جيشنا فى صفوف القتال تجاه الجيش العثمانى فى ضواحى قرية نصيبين بالاراضى التابعة لبلاد الشام وعلى مسافة بضعة فراسخ من الفرات وكان جيشنا يتألف من ٤٠ الف جندى نظامى وكان جيش العدو يتألف من ٩٠ الف جندى نظامى وغير نظامى

وارتكب الاعداء خطأ كبيرا جدا لانهم لم يوجهوا الينا فى الصدمة الاولى سوى الفرسان فقصروا مهمتهم على مهاجمتنا فى كل مكان وعلى طول الخطوط فلم تلبث طلقات البنادق ان فرقتهم واكرهتهم على التقهقر نحو صفوف المشاة فأوقعوا الخلل فى تلك الصفوف ، وادرك الفرسان المصريون ذلك فقاموا بمناورة موفقة وتحرك فى الوقت نفسه الجناح الايمن من المشاة فلم يسع الصف الاول من مشاتهم الا ان يلقى السلاح و يتفرق فى كل ناحية وصوب ، وحينئذ وقع الهلع فى الجيش كله فلم يسمع الا صوت المناداة بطلب النجاة وترك المخالفون جميع مهماتهم . ولم تحن الساعة التاسعة حتى كنا متمكنين فى معسكر العدو ، وقد عثرنا فى خيمة حافظ باشا على الفرمان السلطانى الذى يقلده فيه ولاية مصر

واقتفى فرساننا اثر الهار بين فاسروا اورطة بأ كملها وسلم كثير من الضباط وسبعة باشاوات والمقدر ان حافظ باشا نفسه لا ينجو من ايدى الفرسان

والذين اخذناهم اسرى فى ساحة القتال خمسة آلاف منهم سليمان باشا والى مرعش وجيشه باكمله نخيرناهم بين الرجوع الى اوطانهم و بين الانخراط فى سلك

جيشنا فقبل خمسة آلاف دخول جيشنا فسيرناهم فى الحال الى الاسكندرية واتجه شطر من الجيش المخالف الفـار الى نهر الفرات . وقد فات حافظ باشا ان يمد القناطر على ذاك النهر فمـات ١٢ الفا غرقا وهم يعبرونه سباحة ، واعتصم قسم كبير من هذا الجيش فى جبال يخشاب فقتلهم البدو والكرد والتركمان

اما جيشنا فقد سار متجها نحو مرعش وملاطية وديار بكر

٢

من خيمة حافظ باشا

«اكتب هذه الاسطر وانا فى خيمة حافظ باشا التى لم ينقل العدو منها شيئا وقد استولينا على الامتعة والمدافع والخزينة واسرنا عـددا عظيما من العساكر وانى اود ان اقتفى اثر العدو ولـكنى لا اجـد امامى احدا منهم لان تفرق هـذا الجيش كان تاما وسريعا بعد معركة دامت ساعتين . وكان هجومنا عليه من كل ناحية فى وقت واحد وكان على قيادة الميمنة احمد باشا المنيكلى وعلى الميسرة سليمان باشا ، اما انا فقد كنت اتولى قيادة القلب

« ولقد اعاد الى هذا النصر السريع الـكامل ما كنت عليه وانا فى العشرين من عمرى من النشاط والقوة »

٣

تقرير سليمان باشا الفرنسوى

وهذا ملخص تقرير سليمان باشا الفرنسوى قائد الميسرة عن هذه المعركة :

فى ١٨ يونيو ١٨٣٩ خرجنا من دو بيك فوصلنا بعد مسيرة يومين الى المزار وهى على

ساعتين من معسكر الجيش العثمانى ، وكان زحفنا مواجهة على خمسة صفوف متطاولة من المشاة وصفين من الفرسان

وفى ٢١ منه شرعنا فى استكشاف مواقع العدو ومعنا ١٥٠٠ فارس من البدو واربعة آلاف من الفرسان و بطاريتين من المدافع السريعة فثبت لنا ان خطوطه فى منتهى المناعة والقوة ولا يمكن الهجوم عليها لامواجهة ولا مجابهة وكانت تحمى واجهته من الخلف آكام محصنة وعلى فمها المدافع وامامها ثلاثة معاقل كبيرة وميمنته تستند الى ربوة عالية وضعت فيها اورطة من المشاة وفيها معقل وفى اسفل هذا المعقل بطارية مدافع ، وميسرته تستند الى ربوة باستدارة الثدى وعرة المنحدرات ، فكان الهجوم والحالة هذه من الواجهة والجناحين عملا محفوفا بالمخاطر ولا مندوحة معه من خسارة كبيرة بدون نتيجة مرضية فرأينا ان نقوم بحركة التفاف على العدو من ميسرته و بالزحف عليه من الجانب

وفى صباح ٢٢ منه زحف الجيش زحفا جانبيا بصفوف متطاولة و بعد مسيرة ١٠ ساعات وصلنا الى قنطرة هركون وكان الترك قد ارسلوا بعض الاورط والمدفعية نحو ميسرتنا فاحتلت ربوة مستديرة على ميمنة جنودنا . وارسلت الايا من المشاة وآخر من الفرسان الى ميمنة الزحف الجانبى فاتخذا موقفهما فى اتجاه جانبى الفيلق التركى فما وسعه الا الانسحاب فاستأنف الجيش الزحف بسكون واطمئنان الى ان اتخذ موقفه فى قنطرة هركون

وانقضى يوم ٢٣ منه فى اعداد معدات القتال ، وقبيل منتصف ليلة ٢٤ منه جاء العدو ببطاريتين من مدافع القنابل المستطيلة فالقى على معسكرنا ٢٥٠ - ٣٠٠ قنبلة فاوقعت بعض الخلل وقتل جواد الاميرالاى محمد بك والظاهر ان العدو تمكن من معرفة خيمة سليمان باشا فصب فى اتجاهها نارا حامية فذهب سليمان باشا الى النقط الامامية وامرها باطلاق نارها فانسحب الترك بعد ما اصيبوا بخسارة فادحة

واستأنف الجيش سيره الجانبى فى الصباح وقد انفصل بعض اورطه عن بعض

فارتد الترك الى الوراء وانتشروا على الآكام والروابى خلف معسكرهم القديم ثم اتجه المصريون الى ربوة على ميمنتهم وغيروا اتجاه الصفوف ، ولكنهم فوجئوا بنصب بطارية كبيرة على الاكمة التى كانت عندنا مفتاح القتال ، فشرع المصريون على الاثر بالهجوم على جميع الخطوط بكل قواهم ، واخذت مدافعهم تطلق النار الدائمة مع الزحف المتواصل الى الامام فانسحب الترك الى معسكرهم القديم فلحق بهم المصريون واحتلت مدفعياتهم الروابى فكانت هزيمة العثمانيين تامة وغنمنا ١٤٤ مدفعا وصناديق ذخائرها و ٣٥ مدفعا فى حصون بيرهجك وجميع الخيام من خيمة حافظ باشا الى خيمة آخر جندى ومن ١٨ الفا الى ٢٠ الف بندقية واخذنا من ١٢ الفا الى ١٥ الف اسير »

٤

بلاغات ابراهيم باشا الى الولاة

وارسل ابراهيم باشا الى كل وال من الولاة يبشره بانتصاره ببلاغ على نمط البلاغات المتقدمة وامرهم باقامة الافراح لمدة اسبوع واخبرهم انه زاحف الى قونية

١٣

تآمر الدول على العرب

....

مات السلطان محمود بعد معركة نصيبين بستة ايام فلم يعرف شيئا عن نتائجها وخلفه السلطان عبد المجيد وكانت المشكلة المصرية فى مقدمة المشكلات التى تقلق بال الدولة وتتطلب المعالجة بسرعة ، خصوصا بعد ما وصلت الاخبار بان ابراهيم باشا تقدم نحو قونية من وراء جبال طوروس

وارسل الباب العالى عاكف افندى الى مصر يحمل كتابا كتبه خسرو باشا وهو مؤرخ يوم ٥ يوليو سنة ١٨٣٨ ونصه :

« ان عظمة مولانا السلطان الممتلىء حكمة وعدلا من فضل الله قال عند ما رقى عرش آبائه العظام ان باشا مصر محمد على كان قد ارتكب اعمالا مكدرة نحو ساكن الجنان والدى المعظم ، فوقعت بعد ذلك وقائع عديدة حتى انهم من عهد قريب اخذوا فى اعداد معدات العداء ، ولكنى لا اود تكدير صفو رعيتى واراقة دماء المسلمين فانا اذن انسى الماضى واغض عنه بشرط ان يقوم محمد على بواجبات العبودية والتابعية نحوى لينال عفوى السامى وانى امنحه النشان العالى الشأن الذى يحمله وزرائى وامنحه ان تكون ولاية مصر فى سلالته »

وكانت الدلائل تدل على ان الباب العالى يميل الى الاتفاق مع محمد على باشا طبقا للشروط الآتية :

١ ـ ان تكون مصر لمحمد على باشا

٢ ـ ان تكون سورية لابراهيم باشا

٣ ـ عند وفاة محمد على باشا ينتقل ابراهيم باشا الى ولاية مصر فتعود سورية الى الباب العالى

وارسلت الدول يوم ٢٧ يوليو سنة ١٨٣٩ اى قبل ان تقترن المفاوضات الجديدة بين مصر وتركيا بنتيجة ، مذكرة الى الباب العالى وقعها سفراء انكلترا وروسيا وفرنسا والنمسا و بروسيا وهذا نصها :

« ان سفراء الدول الموقعين على هذه المذكرة يتشرفون بان يبلغوا الباب العالى انهم تلقوا صباح اليوم من حكوماتهم بان الاتفاق على المسألة الشرقية تام بينها فهم يطلبون منه ان يوقف كل قرار قاطع دون مساعدتها نظرا لما يكون له من المنافع التى يرونها »

ونحن فى غنى عن القول ان هذه المذكرة شدت عزيمة الباب العالى وجعلته يعدل عن التساهل الذى كان ينويه

ودارت مباحثات بين الدول الموقعة على المذكرة فى الخطة التى تتبع لحل المشكلة فكانت فرنسا طبقا لسياستها التقليدية القائمة على مناوئة السياستين الانكليزية والروسية تقترح اعطاء سورية لمحمد على مع مصر

وكانت سياسة انكلترا تقوم على الاحتفاظ بسلامة الدولة وابقاء محمد على فى مصر واعادة سورية الى الدولة وشد ازرها لتعود قوية وتتخلص من نفوذ روسيا وسيطرتها

اما سياسة روسيا فكانت قائمة على تأييد الباب العالى بدون شرط ولا قيد طبقا للاتفاقات المعقودة بينها و بينه ولانها كانت ترجو ان تنال بهذه الواسطة ماترجوه من مأرب فى تركيا وتتوصل الى بسط نفوذها عليها

وكانت سياسة النمسا تقوم على مقاومة محمد على تقربا من الدولة العثمانية واملا بأن تنال الغنائم منها مقابل مساعدتها ومعنى هذا ان انكلترا والنمسا وروسيا كن على اتفاق فى تأييد الباب العالى ومقاومة الحركة الجديدة خوفا

على مصالحها ولئلا يفسد عليها نجاحها خططها ويحرمها من الحصول على الغنائم التى كانت ترجوها من تركيا

ويقول سفير فرنسا الجنرال سبستيانى فى لندن يومئذ انه قابل اللورد بالمرستون وزير الخارجية البريطانية وحادثه فى المسألة المصرية فقال له « ليس فى استطاعتنا أن نضمن سلامة الدولة العثمانية الا اذا فصلنا مصر عن تركيا بالصحراء ، فلتبق سورية لتركيا وليظل محمد على واليا لمصر بالتوارث »

وكتب هذا السفير الى وزارة خارجية دولته على اثر هذه المقابلة يصف سياسة انكلترا بقوله: « انها تريد اتباع سياسة الشدة نحو محمد على لحمله على قبول ولاية مصر بالتوارث ولاعادة الاسطول العثمانى الذى انضم اليه . ولا يفتأ اللورد بالمرستون يكرر القول بانه يجب اتخاذ الوسائل التى تجعل محمد على عاجزا عن الاضرار بتركيا وعن القضاء عليها »

واستمرت المفاوضات دائرة بين الدول من جهة وبينها و بين محمد على من جهة اخرى مدة ثلاثة اشهر من دون ان تصل الى نتيجة بسبب معارضة فرنسا وكانت تتظاهر بتأييد وجهة نظر مصر واخيرا وافقت انكلترا على منح محمد على ولاية عكا (فلسطين الحاضرة) فارسل وزير الخارجية البريطانية مذكرة الى فرنسا يوم ٣ اكتوبر سنة ١٨٣٩ جاء فيها « ان الحكومة البريطانية توافق على ان تضاف الى ولاية مصر بالتوارث باشاوية عكا ماعدا قلعة عكا التى تظل تحت حكم الباب العالى لانها مفتاح سورية ، وان تبتدىء الحدود من جبل الكرمل المشرف على خليج عكا الى طبريا ومن هناك تنحنى الى خليج العقبة فيظل طريق الحج فى يد السلطان او الخليفة »

واعترضت الحكومة الفرنسوية على هذا الاقتراح واصرت على اعطاء سورية لمحمد على ولما ابلغ سفيرها فى لندن وزير خارجية انكلترا اعتراضها اجابه فورا بانه باسم مجلس الوزراء يسحب التصريح الخاص باعطاء محمد على منطقة من باشاوية عكا . ولما حاول السفير اقناعه بالتساهل التزم الصمت وابى ان يجيب على

اقواله . فسحبته فرنسا وابدلته بآخر اسمه المسيو جيزو ولما قابل هـذا الوزير البريطانى قال له : « انه سيجعل فى دائرة تفكيره جهد ماتصل اليـه طاقته التساهل مع محمد على ارضاء لفرنسا ليحملها على قبول مبادىء الاتفـاق الذى يوضع وانه لايقرر شيئا نهائيا قبل اطلاعه عليه »

وواصل سفير فرنسا فى لندن السعى لاقناع انـكلترا بالتساهل مع مصر واستمال الى جانبه سفيرى روسيا والنمسا ثم عاد فاقترح باسم حكومته تقسيم سورية بين مصر وتركيا وان تعطى لمحمد على مقاطعة عكا حتى حدود دمشق وطرابلس

وحدث فى ابان ذلك ان عزل السلطان خسرو باشا من الصدارة العظمى وكان محمد على ينادى بان هذا هو خصمه الوحيد وانه لولاه لذهب الى الاستانة بالذات واتفق مع رجالها . فقوبل هذا العزل بالارتياح من جانب فرنسا ومحمد على ولـكنه لم يرق للانـكليز الذين اعتبروه فوزا للنفوذ الفرنسوى فى الاسكندرية والاستانة ونقضا لمذكرة ٢٧ يوليو سنة ١٨٣٩

معاهدة لندره

وحـدث فى اثناء ذلك ان اوفدت روسيا مندوبا خاصا الى لندن للتقرب من الانـكليز مغتنمة فرصـة التشاد القائم بينهم وبين فرنسا على المسألة الشرقية ، وكانت سياستها متفقة مع سياستهم

ودارت بين سفراء روسيا وبروسيا والنمسا فى لندن ووزارة الخارجية البريطانية وسفير تركيا مفاوضات انتهت يوم ١٥ يوليو سـنة ١٨٤٠ بعقد معاهـدة وقعت عليها تركيا والدول الاربع وهى روسيا وانـكلترا وبروسيا والنمسا وهى :

المادة الاولى ـ اتفق جلالة السلطان مع اصحاب الجـلالة ملك بريطانيا العظمى وايرلندا وامبراطور النمسا والمجر وبوهيميا وملك بروسيا وقيصر روسيا عـلى شروط التسوية التى تريد الدول منحها لمصر ، وهى مذكورة فى الفصل الخاص الملحق بهذا ويتعهد اصحاب الجلالة بان يعملوا متحدين وبان يوحدوا مجهوداتهم لاكراه

محمد على باشا على ان يتبع هذه التسوية و يتعهد كل فريق بان يعاون على بلوغ هذا الغرض تبعا للوسائل التى يستطيع استخدامها فى هذا السبيل

المادة الثانية – اذا ابى باشا مصر ان يسلم بهذه التسوية التى تبلغ اليه من لدن السلطان بمعاونة اصحاب الجلالة فان هؤلاء يتعهدون بان يتخذوا – بناء على طلب السلطان – الوسائل المتفق عليها بينهم حتى تنفذ التسوية . وقبل ذلك يدعو السلطان حلفاءه لمعاونته على قطع المواصلات البحرية بين مصر وسورية ، والى منع ارسال الجنود الجديدة والسلاح والذخائر ومعدات الحرب من كل نوع

و يتعهد اصحاب الجلالة بان يصدروا اوامرهم اللازمة الى قواتهم البحرية فى البحر المتوسط و يعدون فوق ما تقدم بان يقدم قواد اساطيلهم طبقا للوسائل المتوفرة لديهم كل تأييد وكل معاونة فى امكانهم وكذلك لرعايا السلطان الذين يعربون عن اخلاصهم

المادة الثالثة – اذا رفض محمد على باشا الخضوع لشروط التسوية المذكورة ووجه قواته البحرية والبرية الى الاستانة فان المتعاقدين يلبون دعوة السلطان التى يوجهها الى سفرائهم فى الاستانة فيتذرعون بالوسائل التى يتفقون عليها للدفاع عن عرشه وجعل البسفور والدردنيل وعاصمة السلطنة بمنجاة من كل عدوان

ومن المتفق عليه ان القوات التى تنتدب للقيام بمهمة فى مكان معين تظل قائمة بمهمتها الى ان يستغنى السلطان عنها ، وعند مايرى السلطان ان وجودها لم يعد لازما تنسحب تلك القوات راجعة الى البحر الاسود او البحر المتوسط

المادة الرابعة – ومن المعلوم حتما ان التعاون المذكور فى البند السابق والذى يرمى الى وضع البسفور والدردنيل والعاصمة التركية تحت رعاية الدول المتعاقدة لمقاومة كل عدوان من محمد على باشا لا يعد الا وسيلة استثنائية متبعة بناء على طلب السلطان والغرض منها الدفاع عنه فى الحالة المتعبة . والمتفق عليه ان هذه الوسيلة لا تخالف فى شىء ما القاعدة القديمة المتبعة فى السلطنة العثمانية وهى التى منعت فى كل وقت المراكب الحربية للدول الاجنبية من دخول البسفور والدردنيل

و يعلن السلطان من جهـة انه مصمم فى ما عدا الحالة المذكورة ، كل التصميم على ان يحتفظ كل الاحتفاظ بالقاعدة القديمة المقررة فى سلطنته وانه مادام الباب العالى فى سلام لايسمح لاى مركب حر بى بالمرور فى البسفور والدرنيل و يتعهد اصحاب الجلالة المتعاقدون باحترام ذلك

ملحق المعاهدة

والحق بهذه المعاهدة الملحق الآتى لتوضيح اغراضها وهى :

ينوى جلالة السلطان ان يمنح محمد على باشا مايأتى و يبلغه اياه :

المادة الاولى ـ يعد جلالة السلطان بان يمنح محمد على باشا وسلالته المباشرة من بعده ادارة باشاوية مصر . و يعـد بان يمنح محمد على باشا مدة حياته باشاوية عـكا وقيادة قلعة عـكا مع ادارة الجزء الثانى من سورية الذى يحدد فيما بعد على شرط ان يقبل محمـد على باشا هذه المنح بعد عشرة ايام من تبليغها اليه فى الاسكندرية على يد مندوب من لدن السلطان

وعلى محمـد على باشا ان يسلم الى هـذا المندوب التعليمات اللازمة لقواد البر والبحر لينسحبوا فى الحال من بلاد العرب ومن المـدن المقدسـة ومن جزيرة كريد وادنه ومن الاجزاء الاخرى من املاك السلطنة الخارجـة عن حـدود مصر وحدود باشاوية عـكا كما عيناها

المادة الثانية ـ اذا لم يقبل محمـد على باشا هـذه التسوية فى مدى عشرة ايام يسحب السلطان ادارة باشاوية عـكا على ان يظل راضيا بمنح محمـد على وسـلالته المباشرة حـكم مصر بالتوارث على شرط ان يقبل هـذه المنحة فى مدى عشرة ايام اخرى تالية للعشرة الايام الاولى اى فى مـدى عشرين يوما تبتدىء من اليوم الاول الذى يتلقى فيه البلاغ وعلى شرط ان يسلم محمدعلى باشا مندوب السلطان الاوامر اللازمة لقواد بحريته و بريته بان ينسحبوا حالا

المادة الثالثة ـ ان الضريبة السنوية التى يدفعها محمد على باشا للسلطان تحسب

على حساب الاملاك التى يعطى ادارتها اما على حساب المنحة الاولى واما على حساب المنحة الثانية

المادة الرابعة ـ وعدا ماتقدم فليكن مفهوما انه سواء كان فى الحالة الاولى او فى الحالة الثانية فان محمد على باشا يسلم قبل انقضاء العشرة الايام او العشرين يوما الاسطول التركى وعساكره وسلاحه للمندوب الذى يعين لاستلامه و يشهد قواد اساطيل الحلفاء هذا التسليم

وليكن مفهوما ايضا ان محمد على باشا لا يستطيع بحال من الاحوال ان يدخل فى الحساب او يخصم من الضريبة التى يدفعها للسلطان النفقات التى انفقها على الاسطول العثمانى مدة اقامته فى الموانىء المصرية

المادة الخامسة ـ ان جميع المعاهدات والقوانين فى السلطنة العثمانية تنفذ فى مصر وفى باشاوية عكا . ويرضى السلطان ـ على شرط دفع الضريبة ـ ان يجبى محمد على باشا وخلفاؤه باسم السلطان وكمندوب له فى الاملاك التى يتولى ادارتها ـ الضرائب والرسوم المقررة شرعا ومن هذه الضرائب والرسوم تدفع النفقات الملكية والعسكرية فى تلك الاملاك

المادة السادسة ـ القوات البحرية والبرية التى ينظمها باشا مصر وعكا تعد شطرا من قوات السلطنة وتعتبر دائما كانها معدة لخدمة الدولة

المادة السابعة ـ اذا لم يقبل محمد على باشا فى مدى عشرة ايام او عشرين يوما كما جاء فى المادة الثانية المنح المعروضة عليه فان السلطان يكون حرا فى سحب هذه المنح وفى اتباع الخطة التى توحى بها مصالحه طبقا للنصائح التى يسديها اليه حلفاؤه

فرنسا والمعاهدة

وكتمت الدول عن فرنسا هذه المعاهدة ولم تبلغها اياها واكتفت بان ابلغتها المذكرة الآتية يوم ١٧ يوليو اى بعد توقيع المعاهدة بيومين فقط وهى :

« ثبت لدى الحكومة البريطانية ثبوتا قاطعا فى اثناء جميع المفاوضات التى دارت فى خريف العام الماضى رغبة بلاط النمسا وروسيا و بروسيا وانكلترا فى الوصول الى اتفاق مع الحكومة الفرنسوية على التسوية اللازمة لتسكين الشرق بل على رغبتها فوق ماتقدم فى اظهار الاهمية التى تعلقها هذه الدول على النتيجة الادبية التى تنجم عن هذا الاتحاد والتعاون بين الدول الخمس فى مسألة ذات خطر عظيم وهى متصلة كل الاتصال بالسلم الاوربى

« ولكن الدول الاربع رأت مع الاسف الشديد ان جميع مجهوداتها للوصول الى هذا الغرض كانت عقيمة مع انها اقترحت مؤخرا على فرنسا ان تتحد معها لعرض مقترحات للتسوية على السلطان ومحمد على باشا . وهذه التسوية مؤسسة على الآراء التى ابدها سفير فرنسا فى لندن فى آخر العام الماضى ، فلم تر الحكومة الفرنسوية الاشتراك فى العمل للوصول الى هذا الاتفاق وعلقت تعاونها مع الدول الاخرى على الظروف التى رأت هذه الدول انها لاتتفق مع صيانة استقلال الدولة العثمانية وبقائها ومع راحة اوربا فى المستقبل

« فلم يبق امام هذه الدول الا ان تدع لحكم المستقبل الشؤون الهامة التى تعهدت بتسويتها وان تقر بعجزها ، وتدع سلام اوربا عرضة للاخطار ، التى تتزايد او تخطو الى الامام دون فرنسا فتصل بوسائلها الخاصة ، الى حل مسائل الشرق طبقا للعهود التى قطعتها للسلطان وهى تكفل السلام

« و بين هذين الموقفين ولاعتقاد الدول بضرورة الحل السريع ، لتعلقه بالمرافق المتعلقة عليه رأت الدول الاربع اختيار الموقف الثانى وقد ابرمت مع السلطان اتفاقا لحل المشاكل القائمة فى الشرق

« وعند ماوقعت الدول الاربع الاتفاق شعرت بالاسف الشديد لانفصالها موقتا عن فرنسا فى مسألة اوربية بحتة والذى يخفف من الاسف ان فرنسا كررت تصريحاتها بانها لاتعترض على التسوية التى تقرها الدول الاربع وتحمل محمد على باشا على قبولها اذا هو ارتضاها ولا تعترض على الوسائل التى تتخذها الدول بالاتفاق مع

السلطان لاكراه محمد على باشا على القبول وان السبب الوحيد الذى منع فرنسا عن الاتحاد هو اعتماد الدول على وسائل الاكراه ضد محمد على باشا »

رد فرنسا

وفى يوم ٢١ يوليو ردت فرنسا على هذه المذكرة بمذكرة سلمها سفيرها فى لندن الى اللورد بالمرستون هذا نصها :

« ان فرنسا كانت ترغب دائما فى العمل مع انكلترا والنمسا وروسيا و بروسيا لخدمة السلام ولم تنظر الى المقترحات التى عرضت عليها من وجهة مصلحتها الخاصة بل من وجهة المصلحة العامة ،لانها دون سائر الدول منزهة فى الشرق عن الاغراض. ولهذا اعتبرت كل المقترحات التى ترمى الى حرمان محمد على باشا بقوة السلاح من البلاد التى يحكمها الآن من املاك تركيا مقترحات جائرة ولا تظن ان ذلك مفيدا للسلطان لانهم يعطونه ما لا يستطيع صيانته ولا ادارته . ولا تظن ان ذلك مفيدا لتركيا على وجه عام ولا للتوازن الاوربى على وجه خاص لانه يضعف تابعا يستطيع ان يدافع عن وجود الدولة دون ان ينيل المتبوع اية فائدة

« على ان المسألة مسألة اسلوب وطريقة تختلف فيها الانظار واذا كانت فرنسا عارضت فى استخدام القوة فلانها لم تعرف الوسائل التى تتذرع بها الدول الخمس وظهر لها ان هذه الوسائل اما نافعة واما مضرة ومع ذلك لم يقترح عليها فى العهد الاخير اى اقتراح تستطيع المناقشة فيه فلا يصح ان يقرن اليها رفض ما لم يعرض عليها ولذلك فهى تعلن ان اتخاذ اى قرار دون التذرع بوسائل التنفيذ لهو قرار ليس ثمرة التفكير بل هو قليل التدبير كتلك القرارات التى تبقى دون وسائل التنفيذ او بوسائل بين النفع والضر

« ولقد اغتنموا فرصة انتقاض بعض اهالى لبنان ليجدوا فى هذا الانتقاض وسيلة التنفيذ التى لم تبد قبل اليوم ، فهل هذه الوسيلة وسيلة شريفة ؟ وهل هى مفيدة لتركيا ضد والى مصر ؟ ولماذا يريدون تعزيز السلام وهم فى الوقت ذاته يبذرون بذور الفتن والثورات فى اراضى السلطنة فيزيدون الاضطرابات القائمة اضطرابات جديدة وهل

فى استطاعتهم اخضاع تلك الشعوب التى يثيرونها على الوالى فى المستقبل

« وعلى فرض ان محمد على باشا اخمد الثورة واعاد حكمه الى سورية فهل يكون بعد ذلك اقل تمسكا والين شكيمة ؟ وما هى وسائل الدول الاربع اذا رفض المقترحات التى تعرض عليه

« انهم لم يجدوا هذه الوسائل التى مازالوا يبحثون عنها من سنة خفأة وستكون نتيجتها ايجاد خطر جديد فان محمد على باشا الذى تحدوه والذى ساعدت فرنسا على ايقافه قد يتجاوز جبال طوروس ويعود فيهدد الاستانة فماذا تستطيع الدول ان تفعله فى هذه الحالة ؟ وما هى وسائلها لدخول الاراضى التركية لمساعدة السلطان ؟ ان فرنسا ترى انهم اعدوا لاستقلال تركيا وللسلم العام خطرا اشد من خطر مطامع والى مصر

« فاذا كانت الدول الاربع لم تحسب حساب هذه النتائج فتكون قد انتهجت طريقا مظلما وخطرا ، واذا كانت قد نظرت الى الوسائل والنتائج فالواجب عليها ان تعلنها لاوربا عامة ولفرنسا خاصة ما دامت تطلب منها استخدام نفوذها الادبى فى الاسكندرية

« على ان فرنسا تعتبر ان ما بذلته من النفوذ الادبى كان فرضا عليها وترى ان هذا الفرض محتم ايضا عليها فى الموقف الذى وقفته الدول الاربع »

عرض المعاهدة على محمد على

وعملا باحكام معاهدة لندن وملحقها وهى تقضى بان يتولى السلطان ابلاغ محمد على باشا المعاهدة وملحقها وصل الى الاسكندرية يوم ١٤ اغسطس سنة ١٨٤٠ رفعت بك مندوب الباب العالى لابلاغ محمد على باشا قرار السلطان والدول فكانت اول كلمة نطق بها بعد سماع البلاغ قوله « ان ماخذته بالسيف لا اسلمه بغير السيف »

وجاء قناصل انكلترا وروسيا والنمسا وبروسيا فى الاسكندرية وقابلوا محمد على باشا مجتمعين وابلغوه قرار الدول رسميا واستمهلوه ١٠ ايام فطلب منهم ابلاغه ذلك كتابة ففعلوا وابلغوه فوق ذلك ان فرنسا عاجزة عن مساعدته ، وان الدول مصممة

على تنفيذ قرارها ولو افضى ذلك الى حرب اوربية فقال لهم ان مابيدى هو من حق ولا اتنازل عنه حتى آخر رمق

وفى يوم ٢٤ اغسطس وهو آخر ايام الموعد الذى منح له، جاء مندوب السلطان ومعه قناصل الدول الاربع لمقابلة محمد على باشا واخذ جوابه فرد عليهم بالرفض فابلغوه انه لم يبق له حق بولاية عكا لانه لم يقبلها فى الايام العشرة الاولى وان الدول لاتسمح الا بولاية مصر كما جاء فى متن المعاهدة التى عقدتها ، فاستشاط غيظا واجابهم بانه يزحف على الاستانة اذا تجددت الحرب ثم قال لهم كيف اسمح لكم بالاقامة فى بلادى وانتم وكلاء اعدائى فاجابوه انه ليس لديهم تعليمات بمغادرة مراكزهم فقال لهم ولكنى لم تعد لى ثقة فيكم والعوائد المرعية تقضى فى حاله الحرب ان يرحل اعداؤنا عن البلاد ، فبقاؤكم لايتفق مع الحالة ، فانصرفوا من عنده بعد ما امهلوه مدة عشرة ايام اخرى

محمد على يعرض مقترحات جديدة

ودعا محمد على باشا رفعت بك الى مقابلته بعد ذلك واقترح عليه ان يحل الخلاف بينه و بين الباب العالى مباشرة على قاعدة اعادة ادنه وكريت و بلاد العرب الى السلطان وتكون ولاية مصر له ولورثته من بعده وحكم سورية مدة حياته وسلمه كتابا الى السلطان بما تقدم

وجاء رفعت بك ووكلاء الدول فى الموعد المضروب لمقابلته فاستقبلهم بوغوص بك مدير الخارجية وسامى بك سكرتير الباشا وابلغاهم خبر الكتاب الذى كتبه الباشا الى السلطان ومضمونه وقالا ان هذا الكتاب يعد قبولا للمعاهدة فقال القناصل واذا لم يقبل السلطان ان يخول الباشا حكم سورية فماذا يكون موقفه ؟ فرد بوغوص بك وزميله بانه ليست لديهما تعليمات للرد على هذا السؤال فاعتبر القناصل ان هذا الجواب معناه رفض المعاهدة فحرروا محضرا وانصرفوا

وغادر رفعت بك الاسكندرية الى الاستانة ليبلغ الباب العالى ماحدث وليرفع كتاب الباشا الى السلطان فابلغ الصدر الاعظم السفراء الامر فاتفقوا على رفض

اقتراحات محمد علی باشا وعزله من ولاية مصر وتنفيذا لهذا القرار اصدر السلطان فرمانا بذلك وارسل الى الاسكندرية فوصل اليها يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٤٠ وابلغ الى محمد على باشا وفى ٢٥ منه غادر قناصل الدول الاسكندرية فاصبحت بذلك مصر فى حالة حرب مع تركيا وحلفائها

١٤

الحلفاء يهاجمون سورية

ما كان محمد على باشا بغافل عما يدبره اعداؤه وعما يكيدونه له سرا وجهرا ولما كان معتزما المقاومة الى النهاية فقد شرع من اوائل سنة ١٨٤٠ بتعزيز جيشه فى الشام وانشاء الحصون والاستحكامات كما شرع فى تحصين الاسكندرية وفى تجنيد الرديف وتدريبه والف لجنة برئاسة نجله سعيد بك لتقوية حصون الاسكندرية وتنظيمها

وانشأ ايضا جيشا جديدا سماه الحرس الوطنى جند فيه العمال فى ورش الحديد وورش المهمات الحربية وورش بولاق ماعدا عمال المصانع وطلاب المدارس ، وعهد الى السيد العزبى بتأليف آلايين من الرديف وعهد بمثل ذلك الى الشيخ حسن سرور والشيخ على الجزار واذن ايضا للشيخ عثمان السنارى بتأليف آلايين من شبان باب الشعرية والجمالية فألفهما ثم الف آلايين آخرين . وانشأ الشيخ محمد الابراشى آلايا فى قسم السيدة زينب والخليفة وحذا حذوه ابراهيم عارف فالف آلايا من شبان الدرب الاحمر وقيسون . والف على سعيد وسالم بدوى اربع آلايات ومجموع ذلك ١٢ آلايا تضم ٤٢ الف جندى باعتبار ان عدد الآلاى الواحد ٣٥٠٠ جندى وزعوا على السواحل المصرية من الاسكندرية حتى دمياط وعلى منطقة القاهرة

واصدر امرا الى ابن اخته ابراهيم يكن باشا وكان يرابط فى اليمن بان يعود مع جنده الى مصر . كما امر بتنظيم ابراج الارشادات وكانت تقوم مقام التلغراف بين مصر والشام

واصدر اوامر الى ابراهيم باشا بجمع الحاميات المنبثة فى شتى الانحاء وحشدها

فى المراكز العسكرية الكبرى وامده بمائة مدفع كبيرة العيار

وكانت القوة العسكرية المصرية فى الشام تتألف يومئذ من ٩٠ الف جندى تقريبا منها ٢٠ الفا كانت ترابط فى الساحل بين صيدا و بيروت وطرابلس بقيادة سليمان باشا الفرنسوى

وكانت بذور الثورة التى بذرها الترك والانكليز والنمسويون فى ساحل سورية وجبل لبنان قد بدأت تثمر بانضمام بعض عوامل محلية خاصة

و بيان ذلك ان محمد على باشا اصدر امرا الى حكومة الشام بتجنيد الشباب على اختلافهم فى الجيش و بجمع الاموال الاميرية لمدة سبع سنوات مقدما و بنزع السلاح

ودارت مفاوضات بين زعماء النصارى وشيوخ الدروز فى جبل لبنان للاتفاق على خطة يسيرون عليها وانتهت باتفاقهم على مقاومة الحكومة اذا حاولت اخذ جندى واحد من اهل لبنان وانشئت صناديق لأجل مشترى السلاح والذخائر

وفتح اهل لبنان الجنوبى باب القتال فدارت مناوشات حول صيدا وحول جسر الاولى بين الحامية واهالى دير القمر والمناصف والشحار وساحل صيدا وضيق الثوار الخناق على صيدا وحالوا بينها و بين الماء والمطاحن فارسل سليمان باشا آلايا للدفاع عنها وعن خطوط المواصلات . وكتب الى زعماء الثوار يبلغهم ان امر محمد على باشا لاينطوى على نزع سلاحهم بل على استرداد السلاح القديم الذى وزع عليهم لتسليح الرديف واكد لهم انه لم يخطر ببال الحكومة تجنيدهم وتعهد لهم بحملها على ابقاء سلاحهم لهم . واصدر امرا الى جنده بان يتجنب الاشتباك معهم

وانفق بعض البيروتيين فى اوائل شهر يونيو وكاتبوا اهل المتن ودير القمر وانضم اليهم بعض اهل الساحل وهاجموا بيروت من جهة الشرق فقابلتهم الحامية بنيران المدافع فارتدوا منهزمين

وتحالف نصارى المتن ودروزه واقسموا على ان يعملوا يدا واحدة وانضموا الى

الثوار الآخرين مع بعض اهالى كسروان

وارسل الامير بشير وفدا من شيوخ دير القمر المعمرين الى ساحل بيروت ليدعوا الثوار الى الطاعة فأبوا فأرسل ابنه الامير امين فاشترطوا للعودة الى الطاعة تحقيق المطالب الآتية وهى :

١ - بقاء سلاحهم فى ايديهم

٢ - عدم تجنيدهم

٣ - ان لايدفعوا الفردة (الضريبة) الا على الاحياء فقط ، ولا يكلفوا دفع ما كان مرتبا على الذين توفوا او قتلوا فى اثناء الخدمة

٤ - ابطال السخرة والشغل فى معدن الفحم الحجرى فى قرنايل

واشترطوا على الامير بشير ايضا بصفته حاكم لبنان تحقيق المطالب الآتية :

١ - انشاء ديوان مشورة فى بيت الدين يؤلف من عضوين من كل طائفة

٢ - ان يكون تحصيل مال الميرى فى عيد الصليب (منتصف شهر سبتمبر) اى بعد ختام المواسم الزراعية

٣ - ان يكون معدل الفردة (المال المفروض على الرؤوس) ٣٠ قرشا عن كل مكلف

٤ - ان لايكلف الحوالى (رجل البوليس) المديون شيئا

٥ - اذا عجز المديون عن وفاء دينه لايجوز التحويل على اقربائه

ورفض الامير بشير قبول هذه الشروط فانقطعت المفاوضات وانبث الثوار فى داخل البلاد لاثارة الشعب على الحكومة، فدارت معركة بين الفريقين فى اواخر شهر يونيو بجوار بيروت و بين الثوار والحامية وحصلت معارك اخرى فى جهات طرابلس وشمالى لبنان والبقاع واستولى الثوار على كميات كبيرة من الذخائر والمؤن كانت مرسلة الى الجيش المصرى

واسرع محمد على باشا فارسل قوة عسكرية تتألف من ١٢ الف مقاتل بقيادة حفيده عباس باشا فبلغ بيروت يوم ٢٧ يونيو سنة ١٨٤٠ قادما من الاسكندرية وجاء

عثمان باشا يقود ١٢ الف جندى من شمالى سورية فرابط فى بعلبك فازدادت الحامية التى كانت مرابطة فى الساحل قوة

وتم للقوات المصرية بمساعدة الامير بشير وانصاره و بتأييد العناصر المعتدلة القضاء على الثورة وجمع السلاح من دون كبير عناء . واعتقلوا ٥٧ من زعماء الثورة وارسلوا يوم ٧ اغسطس بحرا الى الاسكندرية ومنها نفوا الى سنار

وكان محمد على فى اصداره التعليمات الى قواده بوجوب التعجيل بقمع الثورة ينفذ اوامر باريس فقد كتب المسيو تيرس وزير خارجية فرنسا الى قنصل دولته فى الاسكندرية يقول « يجب ان تكون خطة فرنسا ومصر واحدة لغرض واحد ، وهو محو النتائج التى تعلقها الدول الاربع على اتفاقها والطريقة الوحيدة لذلك هى اخماد الثورة فى سورية فان الثورة التى اتقدت فى لبنان هى السبب الاصلى فى ابرام ذلك الاتفاق بين الدول فمادامت هذه الثورة ناشبة فالاتفاق موجود

« فاذا اخمد محمد على ثورة لبنان وحصن الاسكندرية وعكا وجمع قواته فى سورية لضبطها وفى سفح جبال طوروس ليوقف اعداءه و يهددهم بالانقضاض عليهم فانهم يعجزون عن اخضاعه و يحملهم على الغاء الاتفاق لانهم لا يملكون اية وسيلة من وسائل الاكراه »

محمد على يامر بالدفاع

وكتب محمد على الى عباس باشا بعد وصوله الى بيروت يقول :

« يدل سير الحوادث ان الدول متحزبة علينا وان قرارها فى لندن ضدنا ومخالف لقصدنا فيجب عليكم اتخاذ الاحتياطات اللازمة فى جميع الاماكن العسكرية على ساحل مصر والشام . واذا حشدت الدول قواتها ضدكم فدافعوا وقد اصدرنا امرنا الى عمكم ابراهيم بما تقدم فسيروا بموجبه . واذا تظاهرت الدول بعمل ضد مصر تحضرون الينا برا او بحرا والخلاصة يجب ان تأخذوا الامور بالحزم »

وكتب بعد ذلك الى ابراهيم باشا والى عباس باشا يقول :

« لم يعرف قرار لندن حتى الآن بالضبط لكن استنتجنا من كتاب قناصل روسيا وانكلترا والنمسا انهم سيعملون على بث الفتن فى بلاد الشام ومساعدة الاهالى بارسال ستة آلاف جندى عثمانى الى قبرص ، وارسال السلاح والذخيرة لتوزيعها على السوريين وارسال فرمان سلطانى الى الامير بشير بالخروج عن طاعتنا والولاء لنا ، وارسال رسل من لدن الدول الاربع على باخرة انكليزية ليوزعوا فى سورية لحض الناس على الخروج من حكم محمد على

« اما فرنسا فانها تعد ١٠٠ الف جندى لمساعدتنا فعليكم بمراقبة السواحل ومنع خروج الاجانب من المراكب ومنع نشر الكتب المهيجة واتخاذ نظام الحجر الصحى حجة لهذا المنع وعليكم ايضا بالشدة المتناهية »

الاسطول الانكليزى فى سورية

فى شهر يونيو سنة ١٨٤٠ وصل المستر ريتشرد وود ترجمان سفارة انكلترا فى الاستانة الى ساحل الشام الشمالى بسفينة حربية ونزل سرا قرب طرابلس وتغلغل فى جبل لبنان ، وكان قد سبق له ان زاره من قبل واقام فيه سنتين يدس الدسائس للحكم المصرى تحت ستار تعلم اللغة العربية

وحاول هذا الداعية الاتصال بالثوار وتشجيعهم على المقاومة والثبات فلم يفلح لان الثورة كانت فى حكم الانتهاء فدعا الى ارسال عرائض الى الباب العالى وسفارة انكلترا وفرنسا بالشكوى من الحكم المصرى والمطالبة باعادة الحكم العثمانى فافلح كما عكف من الجهة الاخرى على ارسال اخبار الى الاستانة واوربا مملوءة بالمبالغات والتهويل عن سوء الحالة فى البلاد وعن استفحال الثورة وخطورة شأنها

وفى يوم ٧ يوليو وصلت الى بيروت بعض سفن الاسطول البريطانى التابعة لاسطول البحر المتوسط بقيادة الكومندور تشارلس نابيار وكانت التعليمات التى

تحملها من اميرال هذا البحر تقضى بعدم التدخل بشأن من الشؤون مطلقا

ولم يفاجأ ولاة الامور المصريون بوصول السفن الانكليزية فقد وصلت الى بيروت يوم ٥ يوليو اى قبل ذلك بيومين سفينة فرنسوية ، وكان الفرنسويون يراقبون حركات الاسطول البريطانى مراقبة دقيقة ، فابلغتهم ما قرره الانكليز من ارسال اسطولهم واقترحت ارسال الاسطول المصرى الى الاسكندرية وعدم تعريضه لنيران الانكليز وعمل هؤلاء بالاقتراح فارسلوا الاسطول فورا

ونزل الكومندور تشارلس نابيار الى بيروت وزار بعض انحاء جبل لبنان واتصل ببعض السكان ودرس حالة البلاد عن كثب . وفى يوم ٣ اغسطس غادر بيروت طبقا لتعليمات وردت اليه فتلقى وهو فى الطريق تعليمات جديدة تقضى برجوعه الى بيروت وتقول انه زيد عدد السفن الموضوعة تحت تصرفه فعاد اليها يوم ١٢ اغسطس وكان يحمل ايضا نص المعاهدة التى ابلغت لمحمد على

وكانت التعليمات الجديدة التى تلقاها تقضى عليه بأن يحمل محمد على على قبول شروط المعاهدة وان يستدرج المصريين الى القيام بعمل عدائى يبرر مقابلتهم بالمثل ولذلك قرر القيام بمظاهرة حربية امام ساحل بيروت ولكى يمهد لذلك ارسل يوم وصوله الى بيروت (١٢ اغسطس) خمسة كتب : الاول الى محمود بك متسلم بيروت يبلغه فيه ان انكلترا والنمسا وروسيا وبروسيا قررت اعادة سورية الى السلطان ويطلب منه ان يضع تحت حمايته الجنود العثمانية التى ارسلها محمد على مع جنوده الى بيروت وان يعيد الى اهالى لبنان السلاح الذى نزعه منهم ويحذره من القيام بأية حركة عدائية

والثانى الى قنصل انكلترا فى بيروت يطلب منه ان يبلغ قناصل الدول والتجار البريطانيين فى بيروت ان الدول قررت رد سورية الى السلطان ويبلغه امر الكتاب الذى ارسله الى المتسلم

والثالث الى قائد الجنود التركية التى ارسلها محمد على باشا الى بيروت يخبره فيه

عن نشرة اذاعها على اهل البلاد والجنود العثمانية وينذره بأنه اذا حاول الانتقال بجنوده من معسكرهم يبادر الى القتال

والرابعة الى الامير بشير الشهابى حاكم جبل لبنان يدعوه الى طاعة السلطان

والخامسة الى الامير بشير قاسم ملحم الشهابى ند الامير بشير قاسم عمر الشهابى يحثه على الانضمام الى جانب السلطان ويعده بان يؤيده وبأن الباب العالى سيوافيه بالنجدات

رسالة الى اهل الشام

وابلغ اهل الشام فى رسالة خاصة وزعها عليهم اتفاق الدول على رد بلادهم الى السلطان الذى اصدر فرمانا بتأمين راحة رعاياه ثم دعا اللبنانيين خاصة الى خلع طاعة محمد على ووعدهم بقرب وصول الجنود والسلاح والذخائر من الاستانة وطمأنهم بأن ساحل بلادهم صار بمأمن من اعتداء المصريين ودعا الجنود العثمانيين - وهم الذين انضموا الى جيش محمد على بعد معركة نصيبين - بان يعودوا الى طاعة السلطان ووعدهم بالعفو عما مضى وبدفع رواتبهم المتأخرة

وشرع الكومندان نابيار بعد ذلك فى مصادرة السفن المصرية التى تصل الى بيروت بعد ما كتب الى سليمان باشا قائد المنطقة يبلغه ان التعليمات التى يحملها تقضى عليه بمصادرة السفن المصرية التى تسافر بين الموانىء المصرية والشامية تحمل جنودا وذخائر واسلحة ومعدات ويقترح عليه وقف حركات هذه السفن فرد عليه معتذرا بان التعليمات التى لديه لا تدل على وقوع حرب بين حكومته وانكلترا ليصدر امرا بوقف حركة السفن

وعثر رجال الاسطول الانكليزى المرابطون امام بيروت فى تلك الفترة على كتاب مرسل من بوغوص بك مدير الشؤون الخارجية الى سليمان باشا يتضمن ان فرنسا ستساعد محمد على عسكريا وانها ستسحب المسيو بورا قنصلها فى بيروت لانه يساعد الثورة ويقاوم محمد على وحكومته

الاسطول البريطانى فى بيروت

١٩٤٠

وفى يوم ٩ سبتمبر وصل الى بيروت الاميرال ستراتفورد قائد الاسطول البريطانى فى البحر المتوسط وقائد قوات الحلفاء البحرية العام يقود ٢٦ سفينة حربية منها ٢٠ انكليزية و ٣ نمسوية و ٣ تركية

ووصلت ايضا الحملة العسكرية وتتألف من ٧٠٠٠ مقاتل وهى معقودة اللواء للجنرال السر تشارلس سمث ومؤلفة من ٥٣٠٠ جندى عثمانى بقيادة محمد عزت باشا ومحمد سليم باشا و ١٥٠٠ بريطانى ومئة نمسوى . وتولى الكومندان نابيار قيادة الحملة بدلا من الجنرال تشارلس لانه كان مريضا

وعقد قادة الحلفاء اجتماعا قرروا فيه ان يبدؤا باحتلال جونيه للاتصال باللبنانيين مباشرة وتوزيع السلاح عليهم . وفى صباح ١٠ منه سار الاسطول اليها والى نهر الكلب وانزل الجند فتوارد اللبنانيون لتسلم السلاح وكان فى مقدمتهم الامير عبد الله حسن شهاب حاكم كسروان وابن اخى الامير بشير

واحتل الحلفاء غزير وحريصا وزوق ميكائيل من بلاد كسروان ولم يلقوا مقاومة من قوات الجيش المصرى وكانت ترابط فى كسروان بقيادة عثمان باشا

و بعد ان رسخت اقدام جنود الحلفاء فى جونية انذر قائد اسطول الحلفاء سليمان باشا طالبا تسليمه مدينة بيروت باسم السلطان فماطل فى الجواب فأطلق المدافع على قلاع المدينة وابراجها فاحتج سليمان باشا احتجاجا شديدا على هذا الاعتداء وقال فى كتابه الذى وجهه الى الاميرال ان عددا من النساء والاطفال والعاجزين والفلاحين الابرياء ذهبوا ضحية هذا العدوان وانهم اذا كانوا حقيقة يرغبون فى سلامة الابرياء فما عليهم الا ان يوجهوا خطابهم بشأن تسليم المدينة الى محمد على باشا نفسه . فالاوامر الصادرة منه تقضى بالدفاع عن بيروت لا بتسليمها ولذلك فانا عازم على الدفاع عنها بكل قواى

الاستيلاء على لبنان الشمالي

واتجهت سفن الحلفاء الى جبيل فاستولت عليها يوم ١٢ اغسطس ثم احتلت البترون

الاستيلاء على حيفا وجنوب لبنان وعكا

وفي ١٧ و ١٨ منه هاجمت سفن الحلفاء حيفا وضربتها بالمدافع فاستسلمت لها وفي ٢٤ منه هاجمت صور واطلقت النار على حاميتها وانزلت جنودا الى البر . وفي ١٦ منه وصلت الى صيدا ثماني سفن حربية بقيادة الكومندان نابيار فطلبت من المتسلم تسليم المدينة فرفض فاطلقت مدافعها على القلعة وثكنات الجند وعلى المنازل فخربت منازل كثيرة وفي جملتها منزل سليمان باشا نفسه

ثم انزلت الجنود الذين جاءت بهم وعدتهم الف مقاتل فقاومت الحامية وكانت تتألف من ثلاثة آلاف مقاتل مقاومة عنيفة واخيرا سلمت بعد ما قتل قائدها حسن بك وعدد من رجالها . واحتل الحلفاء بعد ذلك عكا

١٥

سورية تعود الى الحكم العثمانى

هاج الرأى العام الفرنسوى حينما عرف باتفاق لندن و بما دبره الانكليز من تدابير سرية لمقاومة محمد على باشا و بنجاحهم فى عزل فرنسا وابقائها منفردة فلجأ المسيو تيرس رئيس الوزارة يومئذ الى التهويل فاستصدر امرا بتعبئة الجيش وامر الاميرال لالاند قائد الاسطول الفرنسوى فى البحر المتوسط بان يكون على قدم الاستعداد لمقابلة الطوارىء ، واسرع فارسل رسولا الى الاسكندرية اسمه والسكى ليشير على الباشا بفتح باب المساومة مع الباب العالى والسعى للاتفاق معه مباشرة على قاعدة تخويله حكم مصر الوراثى فى اسرته وحكم سورية مدة حياته والتنازل عن كريت وادنه وجزيرة العرب ففعل الباشا ما اقترح عليه فرد الباب العالى بالرفض فكان رفضه ضربة شديدة اصابت سياسة المسيو تيرس فامعن فى التراجع والهزيمة وامر الاسطول الفرنسوى بالعودة الى فرنسا تاركا محمد على وحده فى المعترك امام اوربا والدولة العثمانية

واشتد الهجوم فى فرنسا على وزارة المسيو تيرس وساء الملك لويس فيليب ما ارتكبته من اغلاط فظيعة فاقالها فى شهر اكتوبر سنة ١٨٤٠ فخلفتها وزارة جديدة برئاسة المارشال سوليه وكان اول ماعملته اعلانها بانها تنفض يدها من المسألة المصرية و بذلك تحللت فرنسا من وعودها لمحمد على و يقول مؤلف كتاب « الحرب فى سورية » ان المسيو تيرس هو الذى شجع محمد على على مقاومة الحلفاء ورفض اقتراحاتهم ووعده بان يمده بالمال و بمئة الف جندى و ١٠٤ سفن حربية

وادرك محمد على بعد تخلى الفرنسويين عنه و بعد استيلاء الحلفاء على الساحل الشامى ان المقاومة لاتفيد وان الافضل له العمل لحل المشكلة بالطرق الدبلوماسية ولذلك لم يتردد فى الاتصال بالكومندان نابيار قائد قوات الحلفاء حينما وصل الى الاسكندرية يقود ثمانى سفن للقيام بمظاهرة بحرية

ففى يوم ٢٢ نوفمبر وجه نابيار رسالة الى بوغوص بك مدير ديوان الخارجية يقول فيها ان الاسكندرية ليست امنع من عكا وان الفرصة سانحة لمحمد على ليؤلف امارته و يحتفظ بالوراثة فى اسرته ، فرد عليه هذا بان « تبعة الحرب فى ساحل الشام لاتقع على عاتق محمد على بل على عاتق الحلفاء الذين ارسلوا اليه بلاغا باسم السلطان فرد عليهم بانه خاضع للسلطان و بانه يسلم بان يكون حكم مصر له ولسلالته من بعده كما عرضوا عليه ولكنه التمس فى الوقت نفسه من السلطان ان يمنحه حكم سورية لمدة حياته وان يضيف الى المنحة الاولى المنحة الثانية لاعتقاده ان سورية اذا ظلت تحت ادارته تدر الخير والبركة على السلطنة فبدلا من الرد على هذا الطلب قابلوه بحكم الخلع من الحكم و بالعدوان فى كل جهة »

ورأى نابيار فى لهجة الكتاب ماينم عن رغبة فى الصلح والوفاق ففتح باب المفاوضة مع محمد على لعقد صلح على قاعدة جعل مصر والسودان امارة وراثية فى بيت محمد على وفى يوم ٢٧ منه وقع على الاتفاق الآتى :

بين الكومندور نابيار قائد القوات البريطانية البحرية الراسية امام الاسكندرية من جانب و بوغوص يوسف بك وزير خارجية صاحب السمو نائب ملك مصر المفوض من قبل سموه من جانب آخر ، تم عقد الاتفاق الآتى :

المادة الاولى — بما ان الكومندور نابيار بصفته المبينة اعلاه احاط صاحب السمو محمد على باشا بان الدول اشارت على الباب العالى باعادة حكم مصر الوراثى الى عهدته ، و بما ان سموه يرى فى ذلك وسيلة لوضع حد للحرب وويلاتها ، فانه يتعهد بأن يصدر اوامره الى ابنه ابراهيم باشا باجراء الجلاء فورا عن سورية ويتعهد ايضا

باعادة الاسطول العثمانى بمجرد ان يصله اخطار رسمى بان الباب العالى يتنازل له عن حكم مصر الوراثى وان يبقى ذلك الحق كما كان مكفولا من الدول

المادة الثانية ـ يضع الكومندور نابيار تحت تصرف الحكومة المصرية سفينة من سفنه لتنقل الى سورية الضابط الذى يعهد اليه صاحب السمو ابلاغ القائد العام للجيش المصرى امره بالجلاء عن سورية و يعين الاميرال سترانفورد قائد القوات البريطانية من ناحيته ضابطا لملاحظة تنفيذ هذا الامر

المادة الثالثة ـ يتعهد الكومندور نابيار بناء على ماتقدم بوقف الحركات العدائية من جانب القوات البريطانية ضد الاسكندرية وضد كل ناحية من انحاء الاراضى المصرية و يبيح حرية الملاحة للسفن المعدة لنقل الجرحى والمرضى وسائر الجنود المصرية الذين ترغب الحكومة المصرية فى نقلهم الى مصر بطريق البحر

المادة الرابعة ـ للجيش المصرى الحق فى ان ينسحب من سورية حاملا معه اسلحته ومدافعه وجياده وامتعته و بالجملة كل مهماته

حررت نسختان من هذا الاتفاق

منشور محمد على

وعلى اثر توقيع هذا الاتفاق اذاع محمد على منشورا وجهه الى العلماء والذوات والحكام وهو :

« انه حضر الى ميناء الاسكندرية جناب الاميرال نابيار قائد السفن الحربية الانكليزية بالبحر المتوسط وعرض لنا اتفاق دول اوربا على احالة حكم مصر لنا بطريق التوارث و بذلك صار حسم مادة سفك دماء المسلمين وصدر الامر للسر عسكر وكافة القواد بترك الشام والاذن بحضورهم لمصر بالجيوش التى يبلغ عددها ٧٠ الفا »

منشور عام

ثم اذيع على الامة المنشور الآتى :

« ان العوارض تعرض للعالم منذ بدء الخليقة الى اليوم والحروب تنقد بين الامم لاسباب وعوامل لاتدركها العقول ومن هذه الحروب معركة نصيبين وقد كانت نتيجتها سفك الدماء ومواصلة القتال دون ان يظهر من وراء ذلك امارات السلم والسلام واستتباب الراحة ، بل ظل روح العداء ساريا حتى الآن

« وقد حضر الى ميناء الاسكندرية قائد السفن الحربية الانكليزية بالبحر المتوسط الاميرال نابيار وعرض علينا وقوع الاتفاق بين دول اوربا على احالة حكم مصر بطريق التوارث الى ولى النعم محمد على باشا و بذلك صار حسم مادة سفك دماء المسلمين الامر الذى ترتاح اليه النفوس

« و بناء على ماتقدم اعطيت الاوامر لدولة سر عسكر الجيش المصرى ولكافة القواد بترك ولاية الشام وادنه والرجوع بالجيوش الى مصر وصار نشر ذلك اعلانا للسرور »

المعارضة فى اتفاق الاسكندرية

وارسل الاميرال ستراتفورد قائد الاسطول البريطانى اتفاق الاسكندرية الى سفير حكومته فى الاستانة بعد ما اعلن انه لايتقيد به لانه مناقض لمعاهدة لندن ولاحكام الفرمان السلطانى الصادر بعزل محمد على باشا ـ انتظارا لوصول رد السفير

ويقول مؤلف كتاب الحرب فى سورية ان الذى شجع الكومندور نابيار على عقد اتفاق اسكندرية اطلاعه بطريقة سرية على رسالة ارسلها رئيس الوزارة البريطانية سرا الى سفيره فى الاستانة تضمنت ان الخطة المثلى لحسم النزاع بين الدولة العثمانية ومحمد على هو اسراع هذا بتقديم خضوعه للسلطان واعادته الاسطول

العثمانى وسحب جنوده من الشام وكريت والبلاد العربية على ان يمنحه السلطان حكم مصر بالوراثة »

وحاول سفير انكلترا فى الاستانة ، وكان من اشد خصوم محمد على ان يحول دون تنفيذ الاتفاق فابلغه سفراء روسيا و بروسيا والنمسا انهم يعتبرونه تسوية معقولة واشاروا على الباب العالى بقبوله فعارض وسوف طبقا لتقاليده ، املا بان يتولى الحلفاء اخراج محمد على من مصر واعادتها اليه

انكلترا تعلن قبول الاتفاق

ولما عرض الاتفاق على اللورد بالمرستون اقره واعتبره تسوية مقبولة واعلن رسميا باسم الحكومة البريطانية قبوله واصدر تعليمات الى سفيره فى الاستانة بان يسعى لتنفيذه ، فقدم هذا مع سفراء الدول الاخرى مذكرة الى الباب العالى يوم ١٠ يناير سنة ١٨٤١ يلحون فيها بوجوب اقراره وتنفيذه وهذا نص المذكرة :

« تطلب الدول من جلالة السلطان ان يظهر بمظهر السماحة نحو محمد على لا لابطال قرار خلعه من الحكم بل بالوعد فوق ذلك بان يكون خلفاؤه فى الحكم من سلالته من الذكور على التوالى كلما خلا منصب الحكم بوفاة الحاكم

« والدول المتحالفة التى تبذل نصيحتها للباب العالى بان يمنح محمد على هذه المنحة لاتبدى رأيا جديدا بل هى تذكر جلالة السلطان بالنيات التى اعرب عنها من تلقاء نفسه عند بدء الازمة الشرقية وهى النيات التى كانت اساسا لاتفاق ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠

« وعدا ما تقدم فالدول الاربع ببذلها النصح للباب العالى وبتكرارها النصيحة بهذه المذكرة تعتقد بانها لاتنصحه بان يعمل مايخالف حقوق السيادة او سلطة السلطان الشرعية ولا اتخاذ وسائل مخالفة لواجبات باشا مصر كتابع لجلالة السلطان يدعوه جلالته لان يحكم باسمه احدى ولايات السلطنة . وتتجلى هذه الحقيقة فى المواد ٣ و ٥ و ٦ من ملحق معاهدة ١٥ يوليو ومثبتة ايضا بتعليمات الدول الى سفرائها فى

الاستانة عقب مباحثات ١٥ اكتوبر . وقد نص فى الاتفاق المذكور على ان جميع المعاهدات وجميع قوانين السلطنة العثمانية الحاضرة والمستقبلة تنفذ فى باشوية مصر كما تنفذ فى الولايات العثمانية الاخرى

« وهذا الشرط الذى تعتبره الدول الاربع لازما لامندوحة عنه هو فى نظرها الصلة الوثيقة التى تربط مصر بتركيا وتبقيها شطرا منها غير منفصل عنها ، يؤيد ذلك ماجاء فى الفقرة السادسة من المعاهدة وهو ان القوات البرية والبحرية التى تؤلفها مصر تكون شطرا من قوات السلطنة يجب ان تحسب معدة للخدمة العامة »

فرمان ١٣ فبراير

وعاد الباب العالى الى المطل والتسويف حتى اذا لم يجد بدا من القبول والاذعان اصدر يوم ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ فرمانا مطولا يولى به محمد على باشا حكم مصر وبان تكون الولاية فى عقبه من بعده وهذه خلاصة وافية له :

١ – اذا خلا مركز السدة المصرية يختار له السلطان من يشاء من اولاد محمد على الذكور او اولاد اولادهم الذكور فاذا انقرض نسل الذكور كان للباب العالى ان يختار من يشاء للولاية دون ان يكون لاولاد الاناث حق فيها

٢ – يلزم من يختار للولاية خلفا لمحمد على بالذهاب الى الاستانة لتلقى فرمان التقليد

٣ – تكون مرتبة ولاة مصر مماثلة لمرتبة وزراء الدولة فى المخاطبات والمقابلات السلطانية مع وجود حقهم الوراثى

٤ – تنفذ فى مصر المعاهدات التى ابرمها او يبرمها الباب العالى وكذلك الخط الهمايونى الشريف المعروف بخط كلخانه والقوانين الاساسية للدولة العثمانية

٥ – تجبى الضرائب والاموال الاميرية باسم جلالة السلطان ويتبع فى ذلك النظام المعمول به فى تركيا

٦ – يرسل ربع ايرادات الحكومة المصرية الحاصل من دخل الجمارك والخراج

والضرائب الى خزانة الباب العالى وتخصص الارباع الثلاثة الباقية الاخرى لشؤون مصر من نفقات الجباية والادارة العسكرية والمدنية وحاجات الحكومة والغلال التى ترسل سنويا الى مكة والمدينة وطريقة اداء نصيب الباب العالى من ايراد الحكومة المصرية يعمل بها لمدة خمس سنوات ابتداء من اول سنة ١٢٥٧ هـ (سنة ١٨٤١) ويجوز استئناف نظرها بالتعديل تبعا للظروف والاحوال فى مصر

٧ — تعيين لجنة لمراقبة دخل الحكومة المصرية تؤلف طبقا للاوضاع التى يقررها السلطان فيما بعد بارادة سنية وذلك بقصد تحقق الباب العالى من دخل الحكومة المصرية ومعرفة مقداره

٨ — تسك النقود فى مصر باسم السلطان ولا تختلف النقود الذهبية والفضية التى تضرب فى مصر عن نقد تركيا فى القيمة والنوع والعيار

٩ — لايزيد عدد الجيش المصرى فى زمن السلم عن ١٨٠٠٠ جندى وللباب العالى ان يرفعه الى ماشاء فى زمن الحرب ، ويتبع فى مصر نظام التجنيد المتبع فى تركيا ويقضى بجعل مدة الخدمة العسكرية خمس سنوات . وبناء على ذلك يكتفى من مقترعى الخدمة الموجودين الآن بعشرين الفا يبقى منهم ١٨ الفا فى مصر ويرسل الالفان الباقيان الى الاستانة ثم يسرح خمس عدد الجيش فى كل سنة بطريق القرعة ويقترع بدلهم اربعة آلاف مستجدين يبقى من هؤلاء بالقطر المصرى ٣٦٠٠ ويرسل ٤٠٠ الى الاستانة والذين يتممون مدة الخدمة العسكرية يرسلون الى بلادهم

١٠ — لاتختلف ملابس الجنود والضباط المصريين واعلامهم واوسمتهم وانظمتهم عن مثلها فى الجيش التركى وكذلك ملابس البحارة والجنود والضباط فى الاسطول المصرى واعلام السفن الحربية المصرية

١١ — لوالى مصر حق منح الرتب العسكرية لضباط البر والبحر حتى رتبة قول اغاسى اما الرتب العليا فينعم بها السلطان

١٢ — ليس لمصر ان تبنى سفنا حربية الا باذن صريح من الباب العالى

١٣ـ لما كان امتياز حكم مصر الوراثى المخول لمحمد على وأسرته مقرونا بالشروط السابقة فالاخلال بأى منها يؤدى الى سقوط حقهم فى هذا الامتياز

ولاية السودان

وصدر فى اليوم نفسه فرمان بتولية محمد على ادارة اقاليم السودان وهى النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع ملحقاتها

الجلاء عن الشام وادنة

وعملا بالاوامر التى صدرت الى ابراهيم باشا بالجلاء عن الشام فى اواخر شهر نوفمبر عقد اجتماعا فى دمشق يوم ٩ ديسمبر من اعيان المدينة ودعاهم الى انتخاب حاكم يسلمه مدينتهم فاختاروا حسن بك الكحالة فاقر اختيارهم وخطب فيهم داعيا الى صيانة الامن والنظام والامان ومحذرا اياهم من ان يمدوا ايديهم بسوء الى النصارى واليهود

وفى يوم ٢٩ ديسمبر جلا ابراهيم باشا عن دمشق بقواته المؤلفة من ٥٥ الف جندى ومعها ١٥٠ مدفعا عدا سبعة آلاف نفس من العائلات والاتباع فوصل الى مصر فى اواخر شهر فبراير

مصير الامير بشير الشهابى

اما الامير بشير الشهابى حليف محمد على باشا فقد اعتقله الحلفاء بعد انتصارهم وارسلوه منفيا الى مالطة مع اسرته

و بعد ابرام الاتفاق ارسل السلطان عبد المجيد فرمانا الى الامير بشير يخيره فيه بالاقامة فى الجهة التى يختارها ففضل الاستانة وقدم اليها ومات فيها

الجلاء عن بلاد العرب

و بعـد تنفيذ معاهدة لندن اصدر محمد على امره الى قواته القليلة الباقية فى جزيرة العرب وكان قد استرد جانبا منها بعد معركة نصيبين بالجلاء ، فجلت وعاد الترك الى حكم تلك البلاد كما عادوا الى حكم بلاد الشام وكيليكية

١٦

تلخيص وتعليق

سردنا فى هـذه الصفحات تاريخ ثلاث حوادث جسام حدثت فى بلاد العرب بعد سقوط الخلافة العباسية وهى :

١ ـ استيلاء الترك على البلاد العربية وقضاؤهم على حكم ملوك الطوائف

٢ ـ النهضـة النجدية بقيادة آل سـعود لانشاء حكومة عربيـة تضم بلاد العرب

٣ ـ النهضة المصرية بقيـادة محمد على وابنه ابراهيم وسعيهما لانشاء حكومة عربية تمتد حدودها من جبال طوروس شمالا حتى اواسط افريقية جنوبا ومن اقصى حدود الجزائر غربا حتى ديار بكر وخليج فارس شرقا وتضم جميع الاقطار العربية الواقعة فى داخل دائرة هذا التحديد وهى الحجاز واليمن ونجد والعراق والشام ومصر وبرقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر فلا يبقى خارجها سوى المغرب الاقصى وما خضع لتركيا

لقـد كان آل سعود فى نجـد اول من حمل السيف وقاتل الترك فى سبيل الاستقلال العربى وفى سبيل احياء « الدولة العربية » وتجديدها . ففازوا فى ابتداء الامر ، وتغلبوا على القوات التى ساقها الترك لقتالهم من العراق وهزموها ، كما هزموا قواتهم فى الحجاز و بسطوا نفوذهم على شرقى الجزيرة وعلى جانب من جنوبها وشمالها واستولوا على الحجاز وعسير وتهامة والحسا وجنوبى العراق ووصلوا حتى حوران فى سورية

وكانت الدولة العثمانية ابان اشتداد الحركة السعودية فى شغل شاغل عنها بمشاكلها الداخليـة الكثيرة و بالاحتلال الفرنسوى لمصر ، وكان اشد خطرا عليها من الغارة السعودية

وجرد الباب العالى حملات عسكرية لمحاربة الفرنسويين واخراجهم من مصر فنكلوا بها شر تنكيل . وانضم الانـكليز الى الترك حينما ثبت عجز هؤلاء عن التغلب على الحملة الفرنسوية وارسلوا الجند والاسطول الى مصر لتأييدهم ففازوا المتحالفون ولولا ذلك لبقى الفرنسويون بمصر ولما استطاعت قوى الباب العالى اخراجهم ، فقد كان الجيش العثمانى يتألف فى تلك الفترة من شراذم لاتعرف معنى للنظام والانتظام ولم تمرن المران الكافى ، ولم تدرب على الاساليب العسكرية الحديثة وكانت قد انتشرت فى اوربا وراجت فى جيوشها

ولقد هز الاحتلال الفرنسوى لمصر وما اقترن به من كفاح ونضال الشعب المصرى هزا عنيفا وفتح عينيه للحياة ، ونفخ فيه روحا جديدة ، وعلمه معنى العزة القومية . ولولا هذه العوامل لما استطاع ان يقف فى وجه الترك والمماليك الذين حاولوا ان يعودوا الى ظلمه واضطهاده ، فقد تمرد على المماليك وقاومهم ثم قاتلهم واضطرهم الى الجلاء عن العاصمة والفرار الى الصعيد وحاول الوالى التركى خسرو باشا ان يسير سيرة اسلافه فثار عليه وقاتله واقام محمد على باشا مقامه ، فكان اول وال لمصر يعينه المصريون منذ سقوط دولة المماليك وتسلط الترك العثمانيين على هذا القطر المبارك

فمحمد على باشا كان اذن كلمة الشعب المصرى الناهض المستيقظ وموضع ثقته واعتماده ، فهو الذى اختاره واصطفاه ، وهو الذى اقامه واجتباه

وعرف محمد على وهو الذكى الالمعى ، كيف يستغل الروح الجديدة وكيف يوجهها فى الاتجاه النافع ، وكان قد جاء مصر فى اواخر عهد الاحتلال الفرنسوى ، وشاهد عن كثب الانظمة العسكرية المتبعة فى الجيشين الانكليزى والفرنسوى ، واحاط علما بالاساليب الجديدة التى يسير عليها الاوربيون فى تصريف الامور وفى ادارة البلاد

وجباية الاموال فاخذ يدخلها تدريجا ، وينفذها وئيدا ، فى حكومته الجديدة فبدرت بوادر الانتعاش والتحسن وتحولت البلاد تحولا اجتماعيا وسياسيا وعسكريا خطيرا ، وتم لمحمد على فى خلال مدة قصيرة ، انشاء نظام حكم ثابت موطد ، فنكل بالمماليك واجلاهم عن مصر الوسطى فاوغلوا فى الصعيد ، وقاتل الانكليز الذين انزلوا قوة عسكرية الى الاسكندرية فى سنة ١٨٠٧ لاحتلال الوادى مهتبلين فرصة وقوع الحرب بينهم و بين تركيا فقاتلهم وحملهم على طلب الصلح فغادرت حملتهم وادى النيل فكانت المرة الثانية التى يجلو فيها الانكليز عنه فى خلال خمس سنوات وما نزلوا فى المرتين وفى نيتهم الجلاء او الرجوع

ووجه محمد على عنايته بعد جلاء الانكليز الى الجنوب فقاد القوى لاستئصال المماليك فتغلب عليهم وشردهم ، فازعج ذلك الباب العالى واقلقه ، وما كان ينظر بارتياح الى اتساع نفوذ محمد على وثبات النظام الذى انشأه ، وهو لم يوافق على تعيينه الا مرغما مكرها ، فلم ير وسيلة للتخلص منه سوى ان يوجهه لحرب السعوديين فيضرب بعض العرب ببعض ويقضى على النهضتين الجديدتين فى بلادهم : نهضة الجزيرة ويحمل لواءها آل سعود ، ونهضة مصر ويحمل لواءها محمد على ابن ابراهيم فشرع من سنة ١٨٠٧ اى بعد توليته بسنتين ، يلح عليه بحرب السعوديين ولم تخف اغراضه على محمد على وادرك انه يحاول التخلص منه والقضاء على القوة الجديدة التى انشأها فلا تكون مصدر خطر عليه فى المستقبل ، فاعتذر وماطل وسوف ولكن الباب العالى الح والح فاستقر قرار محمد على سنة ١٨١٠ اى بعد تسويف استمر ثلاث سنوات على القبول وتوجيه حملة الى الحجاز لاعتبارات شتى منها رغبته فى ارضاء الباب العالى استبقاء لحسن الصلات بينهما، وميله الى التخلص من العناصر القديمة التى كان الجيش المصرى يتألف منها حتى ذلك الوقت وكانت مصدر قلق لحكومته ، فينفذ خطته الجديدة القائمة على تأليف جيش نظامى على احدث الاساليب العسكرية التى كانت متبعة يومئذ فى اوربا و بمعرفة ضباط اوربيين . ومنها

اعتقاده بان استيلاءه على بلاد العرب ولا سيما على الحجاز بعد خطوة اولى فى سبيل انشاء الحكومة العربية التى يطمع فى تأسيسها و بعبارة اخرى فى سبيل احياء الامبراطورية المصرية العربية التى قضى عليها السلطان سليم حين غارته على مصر ، وكانت تضم الشام والحجاز وساحل اليمن ، ويرفع مقام مصر ويزيدها مكانة عند المسلمين

وهنالك اعتبار ادبى آخر اورده مؤرخو محمد على فقد ذكروا ان رجاله فسروا طلب السلطان منه النهوض لقتال السعوديين بعجز الدولة عن قتالهم وقالوا لمحمد على حسبك شرفا ان السلطان صار يلجأ اليك و يطلب منك المساعدة والعون

و يتفطر فؤاد كاتب تاريخ العرب القومى اسى وجزعا حينما يشرع فى تدوين حوادث تلك الحرب الضروس التى دارت فى جزيرة العرب واستمرت نحو تسع سنوات (١٨١٠ – ١٨١٨) بين قوتين عربيتين كبيرتين كانت الاولى منهما وهى (القوة النجدية) تعمل لحساب القومية العربية ولانشاء « الدولة العربية » فى مهد العروبة ، والثانية تعمل لحساب الترك الذين كانوا يحاربون بكل قواهم تلك الحركة العربية المباركة ، لاعادة سلطانهم على بلاد العرب ولاستعباد العرب

ومع ان جيش محمد على كان يمتاز على الجيوش السعودية بميزات شتى اذ كان مؤلفا ولا سيما حملاته الاخيرة طبقا للاساليب الحديثة ومسلحا بالمدافع الكثيرة وعلى رأسه ضباط اكفاء مجربون بينهم بعض الاوربيين فقد ضايقه النجديون على قلة عددهم وندرة سلاحهم وما كان سوى بنادق من الطراز القديم وازعجوه ولولا اعتبارات خاصة ساعدت ابراهيم لما استطاع التغلب عليهم ولامتدت الحرب سنوات اخرى

اما تلك الاعتبارات فيمكن تلخيصها فيما يأتى :

١ – اعتماد قيادة الجيش المصرى على المال فى استمالة قبائل الحجاز ونجد و بذلها له بكثرة وتوزيعها الهدايا والعطايا على كبار الشيوخ والزعماء ، فايدوها وكانوا عونا لها على قتال النجديين

٢ ـ وفاة الامير سعود الكبير فى اثناء القتال ، وانتقال الامارة الى ابنه عبدالله وكان اضعف من ابيه همة ، ودونه شجاعة واقداما

٣ ـ فقر البلاد النجدية وقلة مواردها المالية وغنى مصر وكثرة مواردها والمال عصب الحرب

٤ ـ تشدد النجديين وقسوتهم فى تنفيذ دعوتهم

فهذه الاعتبارات مكنت الجيش المصرى فى النهاية و بعد عناء عظيم من التغلب على النجديين والاستيلاء على الدرعية ومع ان ابراهيم باشا صالح السعوديين على شروط معتدلة تصون كرامتهم وتتفق مع ماابدوه من شجاعة وثبات فى ميدان القتال الا ان والده نقض الاتفاق وامر بتدمير الدرعية وقد نص فى الاتفاق على ابقائها . ثم قبضوا على عبد الله بن سعود امير النجديين وارسلوه الى الاستانة ، وعاملوه معاملة ثائر عادى او قاطع طريق ، مع انه رئيس حكومة مستقلة عاشت ٢٥ سنة . وحكومة مثل هذه لا يصح ان يعامل رئيسها بمثل تلك المعاملة القاسية . وهكذا كان عبد الله بن سعود اول ضحية من ضحايا الاستقلال العربى وكان اول امير عربى ارسل الى الاستانة واعدم فيها باسم تحرير العرب

واتسع نفوذ محمد على باشا بعد فوزه فى جزيرة العرب ، وضمه الاقطار العربية الى حكومته الجديدة ، وارتفع شأنه فخفف ذلك من وقع النكبة على احرار العرب ومفكريهم الذين كانوا يعلقون آمالا عظيمة على الدولة العربية الجديدة الناهضة على ضفاف النيل

وضم محمد على باشا بعد انتهاء الحرب السعودية السودان الى مملكته الجديدة فاتسعت حدودها فى الشرق وفى الجنوب وعكف على تعزيز جيشه وتحسين اسطوله ، واصلاح مرافق بلاده ، واستغلال خيراتها وكنوزها مسترشدا بافضل المبادىء ومستعينا باهل الخبرة والاختصاص من اكفاء الاوربيين ، فجنى من ذلك افضل الثمرات واطيبها وتسنى له فى خلال مدة قصيرة ان يملك جيشا لا يعادله جيش فى الشرق نظاما وتدريبا وان يملك قوة بحرية كانت تعد من اكبر القوات فى شرق البحر المتوسط

وثار اليونانيون فى خلال ذلك على الباب العالى يرجون التخلص من نيره الثقيل ، وكان العرب قد سبقوهم فى نجد ومصر ، فجرد عليهم قواه فهزموها وتغلبوا عليها كما هزموا اسطوله وحاصروا موانيه وقطعوا خطوط المواصلات البحرية بين جيوشه وثغوره ، وظهر عجزه هنا كما ظهر فى اثناء الحملة على مصر وفى أثناء الحملة على بلاد العرب فلجأ الى محمد على باشا يطلب اليه ان يساعده فى قتال الثوار ، مقابل ولاية المورة وجزيرة كريت

و يذهب بعض المؤرخين الانكليز الى ان محمد على باشا طلب من الباب العالى ان يتنازل له عن سورية مقابل مساعدته له فى القضاء على الثورة اليونانية و يعفيه من دفع الضريبة السنوية على مصر مقابل نفقات الحملة التى يجهزها فتردد ولم يقر الجزء الاول

على أن الثقات من مؤرخى محمد على باشا وفى مقدمتهم المسيو مانجان يؤكدون ان السلطان محمود كتب اليه فى سنة ١٨٢١ يطلب منه ان يجرد اسطوله لتطهير البحر المتوسط من السفن اليونانية بعد مااستفحل شرها فلبى الدعوة وسير اسطوله من الاسكندرية يوم ١٠ يوليو سنة ١٨٢١ وعدده ١٦ سفينة فاتجه الى رودس ثم انضم الى الاسطول العثمانى وعاد الى الاسكندرية فى شهر مارس سنة ١٨٢٢ لينقل الحملة البرية فاقلع بها فى شهر يوليو سنة ١٨٢٤ الى المورة ، بعد ماصدر السلطان فرمانا دعاه بموجبه الى مساعدته ومنحه مقابل ذلك ولاية المورة كما منحه بلاد العرب من قبل و بديهى ان السلطان كان يرمى من ذلك الى غرضين الاول : اضعاف قوة محمد على التى تتزايد وتنمو يوما بعد يوم واشغاله بحرب طويلة الامد ، بعد ماظهر انه يطمع فى الاستيلاء على بلاد الشام وضمها الى حكومته الجديدة ، اما الغرض الثانى فهو التخلص من الثورة اليونانية وضرب اليونانيين بالعرب فيضعف القوتين و يتخلص منهما وفى ذلك غنم كبير له

و يذهب بعض المؤرخين الفرنسويين الى ان محمد على باشا تردد بادئ بدء

فى تلبية طلب السلطان لانه ادرك مايرمى اليـه فجمع اعضاء بيته وكبار رجال حكومته واستشارهم فى الخطة التى يسير عليها وهل يلبى النداء و يرسل قواته الى اليونان و يشتبك فى حرب لاناقة له فيها ولا جمـل ، ام يعتذر و يرفض فاشاروا عليه بالقبول لان دعوة السلطان له ترفع شأنه ، وتزيده مكانة ، وتوطد مركزه ، وتساعده فى تحقيق امانيه ، فأخذ بهذا الرأى ونفذه

ولقى ابراهيم باشا فى حملته على اليونان مالقيه فى حملاته كلها من نجاح وتوفيق فضرب اليونانيـين وهزمهم وطاردهـم فى داخـل ثغورهم و بلادهـم وقضى عـلى حركتهم او كاد فوجلوا وانصارهم من هول الصدمة ، كما وجل خصوم النهضة المصرية وادهشهم ظهورها بما ظهرت به من القوة والنشاط

وكان الانـكليز وهم الاعداء الطبيعيون لحركة محمـد على باشا ونهضته ، لانها حالت بينهم و بين الاستيلاء على وادى النيـل ، اول من تحرك لمقاومته فمدوا ايدهم الى الروس احلاف اليونانيين وانصارهم متناسين فى سبيل القضاء على الحركة الجديدة كل ضغن

وكاتب الانـكليز الفرنسويين ايضا واستمالوهـم الى جانبهم واقنعوهم بالانضمام اليهم فانضموا ووضعوا اسطولهم تحت تصرفهم ، وتلك تقاليد السياسـة الانـكليزية من القديم فهى لاتقدم على القيام بعمل سياسى خطير منفردة بل لابد لها من دول تتكىء عليها ، وتسـتعين بهـا فى بلوغ اغراضـها بل تستخدمها فى تنفيـذ خططها وهكذا كانت الدولتان الفرنسوية والروسية مطية للسياسة البريطانية فى هذه المرحلة وقد انتهت بتحطيم الاسطول المصرى الجديد ، وكان امره يقلق بال الدولة البريطانيـة الحريصة على سيادة البحارية ، و باخراج الجيش المصرى من اليونان بعد مادوخها وقضى على حركتها ، و بانالة الشعب اليونانى استقلاله التام ، رغم انتصار المصريين عليه وقمعهم حركته ، فعاد ابراهيم باشـا الى بلاده بعـد ما خسر اسطوله القوى فـكانت نـكبة جديدة شحذت عزائم محمد على باشا ونشطتها كما كانت الحرب اليونانية فى جملتها وسيلة

للاعتراف بالحكومة المصرية سياسيا فقد اتصل محمد على باشا بالدول المتحالفة واتفق معها مباشرة على سحب قواه من اليونان فكان ذلك اول اعتراف عملى به و بدولته الجديدة

وعكف محمد على باشا بعد ذلك و بعد ماضم كريت الى دولته وقد كانت غنيمته من حرب اليونان على احياء اسطوله واعادته الى ما كان عليه واستعان على ذلك ببعض الخبراء الاجانب وخطا خطوات واسعة فى اصلاح جيشه وتنسيقه حتى صار فى طليعة جيوش دول الشرق كفاءة فزاد ذلك فى قلق الباب العالى وهواجسه وكان يرقب سير الحوادث فى مصر باهتمام عظيم

وتذرع محمد على باشا برفض عبد الله باشا والى عكا تسليم المهاجرين المصريين فسير قواه فى سنة ١٨٣١ الى بلاد الشام لاحتلالها بعد مامهد لذلك بالاتصال برجالها وانشأ معهم روابط ود وثيقة و بعد ماأعد المعدات العسكرية التى تضمن له الفوز ، وكانت الغاية التى يرمى اليها ضم بعض بلاد العرب الى بعض وانشاء امبراطورية عربية تكون القاهرة عاصمة لها

فحركة محمد على باشا كانت قومية فى روحها وفى مظهرها ، وكانت الغاية الحقيقية منها تحرير العنصر العربى كله من سيطرة الترك ، وانعاشه ، ورفع مستواه العلمى والادبى والاجتماعى ، واعداده الاعداد اللائق للمساهمة فى انشاء الحضارة الجديدة وكانت فى ابتداء تكوينها

واذا قيل لنا ان محمد على باشا وابنه لم يكونا من ارومة عربية نجيب بما اجاب به ابراهيم باشا نفسه حينما وجه اليه هذا الاعتراض فقال : انه يعد نفسه عربيا مصريا لانه قدم مصر وهو صبى فنشأ فى ارضها ، وتأدب بأدبها ، وتخلق باخلاقها ، وصار بهذا الحق من ابنائها

وعرف امراء الشام وشيوخه وابناؤه هذه النزعة فى محمد على وابنه وادركوا انهما يعملان لخير العرب فانضموا الى جيش مصر حينما اقبل وكانوا خير معوان له فى

حربه ونضاله ، ولم يلق ابراهيم باشا اقل مقاومة في فتح بلاد الشام كلها - فقد سلمت اليه تسليما من غزة حتى ابواب حمص - ما عدا عكا - وكان اهل المدن يخرجون لاستقباله ويرحبون به ويعدونه محررا ومنقذا وما ذلك الا لانه كان يضرب لهم على الوتر القومى الحساس

ومن تحصيل الحاصل القول بانه لولا انضمام الشاميين اليه وتأييدهم له وتطوعهم فى جيشه لما استطاع التغلب على الترك بمثل تلك السهولة والسرعة ولما فتح تلك الاقاليم العظيمة الواسعة ، وما على من يشك فى صحة هذه الدعوى الا ان يرجع لتاريخ ابراهيم باشا ويقرأ وصف مالاقاه من عناء ومشقة فى خلال انسحابه وكان معظم اهل البلاد قد انقلبوا عليه ، وانفضوا من حوله - لاسباب معروفة - مع ان الانسحاب اسهل بكثير من الحرب وملاقاة الاعداء

لقد نازل ابراهيم باشا الترك فى ثلاث معارك داخل بلاد الشام فقط : معركة الزراعة ومعركة حمص ومعركة بيلان كما نازلهم فى معركتين بعد ذلك : معركة قونية ومعركة نصيبين فانتصر عليهم فيها كلها وهزمهم وغنم اسلحتهم ومعداتهم وذخائرهم . فزاد ما اظهره الجيش المصرى العربى فى هذه المعارك من كفاءة ومقدرة ، فى مخاوف الانكليز اعداء النهضة العربية وخصومها ، وضاعف فى هواجسهم ، فاخذوا يعدون العدد سرا وجهرا لمقاومتها ولكنهم كعادتهم لم يستعجلوا الحوادث بل عكفوا على توجيهها الى الناحية التى توافق مصالحهم تمهيدا للعمل عند مايأتى اوانه

ووقع فى خلال الفترة الاولى خلاف بين محمد على باشا وابنه فكان هذا يميل الى التريث والتأنى وعدم تجاوز جبال طوروس ، وهى الحد الطبيعى الفاصل بين بلاد العرب وبلاد الترك او بين الشام والاناضول، لئلا يثير التقدم الى ماوراءها شكوك الدول فتتألب عليه وتحرمه من انتصاره - كما حدث فى حرب اليونان - وما كان يجهل مطامع الدول فى الاراضى التركية وحرص كل واحدة منها على الفوز بجزء منها

وكان ابراهيم باشا يرى غير هذا الرأى وكان يلح على والده بان يسمح له بمواصلة الزحف الى الاستانة فيدخلها ، وما كانت هنالك قوة تستطيع صده او

الوقوف فى وجهه لو حاول ، وهنالك يملى ارادته ، و ينفـذ مايراه لازما من التدابير . وابى محمـد على ان يقر هذه الخطة ، خوفا من تدخـل الدول فتحرمه ثمرة انتصاره وهو ما حدث بعد عشر سنوات بالضبط فقد تدخلت فعلا وحاربته واضطرته لقبول ماارتأته ، وعندنا انه لو اتبع محمد على رأى ابراهيم ، وسمح له بتنفيذ خطته لـكان ذلك اقرب الى تحقيق امنيته والفوز بآماله ، ولوفر على نفسه جهود عشر سـنوات كاملة ذهبت ضياعا، وتسنى للدول فى خلالها ان تتحد وتقف فى وجهه ، وتعامله المعاملة التى كان يخافها و يخشاها . ولو اقـدم من الاول لـكان هنالك شـك فى اتحادها واتفاقها، بل لولا المـدة الطويلة التى انقضت بين معركة بيلان ، وكان الحزم يقضى على الجيش المصرى بان لايقف الا على البسفور ، و بين معركة قونية ، لما اتحدت وحلت القضية على غير المنوال الذى حلت به ، ويرى الباحث فى سياسة محمـد على باشا ازاء الباب العالى انه ما كان يطمع فى الانفصال عن السـلطنة انفصالا نهائيا ، ولو اراد ذلك لجهر به غداة استيلائه على بلاد الشام او انتصاره فى قونية ، وكان كل ما يطمع فيه هو ان يفوز بالبلاد العربية يتنازل السلطان له عنها ، مقابل جعل سنوى يدفعه اليه ، مع الاعـتراف بسيادته الاسمية ، رجاء ان يتخلص من هذا الجعل ومن هذه السيادة عند ما يأتى الاوان ، يضاف الى هذا انه كان كما تدل الدلائل ، يرغب رغبة صادقة فى حل المشكلة مع الباب مباشرة ، اجتنابا لتدخـل الدول ـ ولا تتدخل اذا تدخلت لمصلحة الباب العالى او لمصلحته بل خدمة لمصالحها ـ ولئن لم يوفق من هـذه الناحية التوفيق الذى كان يرجوه و يطمع فيه ، فالتبعة لاحقة بالباب العالى فما كان يشاطره هذه النية ولو اخلص لحلت المشكلة على اهون سبيل .

ونرى من الواجب ان نشـير بهذه المناسـبة الى الاخفاق العظيم الذى منيت به السياسة الفرنسوية فى خلال هذه المرحلة ، فقد فاجأ الانـكليز فرنسا بمعاهـدة لندن سنة ١٨٤٠ مفاجأة غريبة وجعلوها امام امر واقع ، فلم يسعها الا التقهقر والتخلى عن محمـد على فى وسط المعمعة وتركه وحيـدا امام اعـدائه وخصومـه الاقوياء مع انه لولا

تشجيعها له . ووعد رجالها الرسميين اياه بان لايتخلوا عنه و يشدوا ازره ، و يمدوه بالرجال والمال لتردد كثيرا قبل رفضه معاهدة لندن حينما عرضتها الدول عليه قبل نزولها لمحاربته

والباحث فى صلات محمد على بفرنسا يسلم بانه اظهر منذ نزوله الى ميدان السياسة ميلا اليها لانه رأى فى الفرنسويين حلفاء طبيعيين يستعين بهم فى مقاومة السياسة الانكليزية التى كانت ترمى الى الاستيلاء على وادى النيل وامتلاكه والقضاء على الحكومة التى انشأها

و بادل الفرنسويون محمد على ودا بود وتقربوا منه وارسلوا اليه المعلمين والمدربين وفتحوا ابواب مدارسهم ومعاهدهم فى وجه بعثاته العلمية ، ووفوده الفنية ، لانهم رأوا فيه الرجل الكفوء المقدام القادر على مقاومة السياسة البريطانية فضلا عن انهم كانوا يرجون ان يتخذوا هذه الصلة وسيلة لبسط نفوذهم الادبى والسياسى والاقتصادى على بلاد العرب ، ولمقاومة السياسة البريطانية

ولم تبعث هذه الاعتبارات الفرنسويين على عدم الاشتراك فى معركة نافارين ومهاجمة الاسطول المصرى ومقاتلته مع الانكليز والتجند فى صفوفهم ، ومما يستحق الذكر من اخبار هذه المعركة ان قائد الاسطول الفرنسوى ارسل قبل حدوثها يطلب من الضباط الفرنسويين فى الاسطول المصرى ان يغادروه لانهم سيضربونه ، فلبوا طلبه بدون تردد او معارضة وخذلوا زملاءهم المصريين فى ساعة الضيق والشدة ، فضربوا الاسطول المصرى وقضوا على البحرية المصرية خدمة للسياستين الروسية والانكليزية

وعاد الفرنسويون الى التودد لمحمد على بعد معركة نافارين واخذوا يتقربون منه كانهم لم يسيئوا اليه فمد يده اليهم مضطرا لانه كان فى حاجة الى دولة اوربية كبيرة يصطفيها و يستند الى ذراعها للظهور فى ميدان السياسة الدولية ولانه كان يرى

فى الفرنسويين حلفاء طبيعيين كما قلنا لما كان بينهم و بين الانكليز من منافسة والواقع انه كان مسوقا بحكم الاضطرار الى التعاون معهم والاعتماد عليهم بعد ما اعرض عنه الانكليز وابوا ان يمدوا اليه يدهم و يصافحوه ، و بعد ماتظاهرت روسيا بمقاومته ، اما النمسا فكانت تواد الباب العالى وتتظاهر بتأييده املا بالحصول على مغانم فى البلقان وفى اوربا الشرقية ، فضلا عن انه لم تكن هنالك علاقات مباشرة بينها و بين مصر فى ذاك العهد لصعوبة المواصلات

ولم تكن بروسيا فى ذاك العهد من الدول التى يحسب حسابها او يقام لها وزن فى السياسة الدولية فضلا عن ان موقعها الجغرافى فى قلب اوربا وانقطاع كل صلة بينها و بين مصر ، من طبيعته ان يجعل كل تعاون بينهما فى حكم المستحيل . وجملة القول ان طبيعة الاشياء هى التى منحت فرنسا وانكلترا هذا المركز الممتاز فى البحر المتوسط وجعلت من فرنسا حليفة وصديقة لمحمد على باشا وجعلته يعتمد الى حد كبير فى السياسة الخارجية على تأييدها

وتبين الانكليز انه ليس فى امكانهم الاعتماد على فرنسا فى تنفيذ سياستهم القائمة على اخضاع محمد على باشا وحرمانه من ثمرة انتصاره ، كما اعتمدوا عليها فى اثناء الثورة اليونانية ، فولوا وجههم شطر روسيا والنمسا و بروسيا ، والفوا سرا من هذه الدول حلفا تولوا رئاسته وعملوا باسمه ، فبروسيا وروسيا لم تشتركا فى الاعمال العسكرية التى عملت ضد محمد على باشا وكان اشتراك النمسا صوريا فلم يزد عدد الجند الذى ارسلته فى الحملة البرية عن المائة وارسلت ثلاث بوارج مع الاسطول الانكليزى لم تباشر عملا حربيا بل كان العمل وحده للانكليز . ومعنى ذلك ان اشتراك الدول الثلاث كان صوريا فقط وان العاملين هم الانكليز وحدهم فهم الذين دفعوا السلطان الى نقض اتفاقه مع محمد على باشا وهم الذين حملوه على حشد قواه وهم الذين استمالوا الدول الثلاث الى جانبهم وعملوا باسمها جريا على قاعدتهم فى الاحداث الدولية الخطيرة فهم يأبون الانفراد و يفضلون ان يصلوا الى غايتهم من طريق الاجماع الدولى وهو ماوقع

حديثا فى الحرب الحبشية ـ الايطالية فقد سخروا العالم واستخدموه باسم الدفاع عن جامعة الامم وتأييد ميثاقها

ولا ريب ان تخلى فرنسا عن محمد على باشا فى المرحلة الاخيرة كان من جملة العوامل التى بعثته على قبول الاقتراحات التى عرضها عليه الكومندان نابيار وموافقته عليها ، وهى وان كانت لاتحقق مطامعه الا انها فى حد ذاتها تعد نقضا لمعاهدة لندن وتقضى احكامها بحرمان محمد على من مصر واعادتها الى الباب العالى كما كانت ، ويمكن القول ان اتفاق اسكندرية كان حلا وسطا صان لمحمد على باشا كرامته ، وارضى الباب العالى وحقق للانكليز مطامعهم السياسية والاستعمارية فقد حرموا بواسطته محمد على باشا من اسطوله ومن جيشه واعادوه الى حظيرة السيادة العثمانية وانتزعوا منه الاقطار العربية . ثم جاءوا بعد احدى واربعين سنة فنزلوا وادى النيل واستولوا عليه

***

هذا ما يمكن قوله عن هذا الحادث من الناحية الايجابية وقد كان فوزا باهرا للسياستين الانكليزية والتركية فى الشرق الادنى ونكبة نزلت بالعرب لا تعادلها فى فداحتها وعظيم نتائجها سوى النكبة التى نزلت بهم يوم سقوط الخلافة العباسية وضياع استقلالهم السياسى فى القرن الرابع عشر وقد وقعت تلك على يد التتر وهذه على يد ابناء عمهم الترك بالتعاون مع الانكليز

ولقد كان من النتائج المباشرة لاتفاق الاسكندرية جلاء الجيش المصرى عن الاقطار العربية التى كان يحتلها فاعيدت الى الترك فعادت اليها بعودتهم الفوضى والرشوة وسوء الادارة والتخريب والتدمير وهى من اخص مزايا الحكم التركى ومسلتزماته ، وقضى على النهضة التجارية والصناعية والزراعية والعلمية التى ادخلها الجيش المصرى

الى البلاد التى استولى عليها وتعطلت المرافق و بارت التجارة ، ولعل افضل مايستشهد به على التقدم الذى ادركته البلاد السورية فى خلال الحكم المصرى العربى القصير ماأورده الاستاذ داود بركات فى كتابه البطل الفاتح ابراهيم باشا فقد جاء فيه مانصه :

« ان حاصلات سورية وادنه (كيليكية) تضاعفت فى خلال السنوات الثمانى التى خضعت فيها للادارة العربية اربعة اضعاف عما كانت عليه زمن الحكم التركى ، ومثل ذلك جرى فى بلاد العرب الاخرى فقد وطدت الادارة المصرية الجديدة وقد استمرت ٢٥ سنة الامن من سواحل اليمن حتى ساحل الخليج الفارسى فزادت مواردها ونمت احوالها الاقتصادية . وكان القناصل ينادون ان اعادة هذه البلاد الى تركيا معناه اعادتها الى الخراب »

و يقول سليمان ابو عز الدين فى كتابه « ابراهيم باشا فى سورية » ماموجزه :

« لقد احدث ابراهيم انقلابا عظيما فى الحكم فى بلاد الشام فادخل انظمة جديدة فى الادارة والقضاء والمالية والجندية كما ادخل تغييرا خطيرا فى النظام الاجتماعى فاطلق الحرية الدينية ونشر روح الدمقراطية وضرب على ايدى الزعماء والمتغلبين ونزع السلطة من ايديهم وانشأ صلات مباشرة بين الشعب وحكامه بتأليفه مجالس للشورى تمثل الشعب بعض تمثيل ولها حق النظر فى الشؤون المحلية بعد ما كان النظر فى هذه الشؤون منوطا بحكام مستبدين

« وكان ابراهيم باشا ميالا بفطرته الى بساطة المظهر والتخشن فى المعيشة ، بعكس حكام الترك القدماء

«وفى عهد ابراهيم باشا طرح الامير بشير واولاده العمائم واستبدلوها بالطربوش المغربى اقتداء بمحمد على باشا ورجاله فجاراهم فى ذلك كبار رجال البلاد وغيرهم

« واظهر ماقامت به حكومة محمد على باشا من التغييرات الاجتماعية المساواة بين رعاياها مع اختلاف الاديان والمذاهب . فقبل دخول ابراهيم باشا لم يكن مباحا

للمسيحيين ان يتعمموا بالعمائم البيضاء او الخضراء او الحمراء وكانت محظورة عليهم بعض امور غير هذه وكانت تولية المسيحيين المناصب الادارية فى حكم النادر وقد ازالت حكومة محمد على باشا هذه الفوارق واباحت للمسيحيين كل ماهو مباح للمسلمين من لباس وركوب خيل وحقوق اجتماعية ووطنية وقلدت كثيرين من المسيحيين الوطنيين والافرنج الوظائف فى الجيش والحكومة ومنحتهم الرتب والالقاب الخ

ولما تكلم عن تأثيره من الناحية العلمية قال « انه وان كانت حكومة محمد على باشا لم تقم فى سورية باعمال علمية او ادبية ذات شان الا ان قيامها مهد السبيل لنهضة علمية وادبية لان تنظيماتها استوجبت اختيار المتفوقين لادارة الاحكام والقيام بالاعمال القضائية والمالية والكتابية وسهلت قدوم الافرنج من مرسلين دينيين وتجار وغيرهم فانشئت بواسطتهم المدارس كما ان ارسال بعض الشبان لدرس الطب فى مصر واستخدام السوريين فى حكومة محمد على باشا انشأ صلة ادبية دائمة بين مصر وسورية

« وكذلك ادخلت الحكومة روحا علمية الى البلاد وانشأت محجرا صحيا فى بيروت و بذلت اهتماما يذكر فى العناية بالشؤون الصحية وكانت تسير حسب مشورة الاطباء كما فعلت فى دمشق بانشاء مصارف للماء الراكد واستعانت فى ذلك بمهندسين فنيين »

وتكلم عن تأثيرها فى الحياة الاقتصادية فقال : « لو قدر لحكومة محمد على البقاء فى سورية لأثرت فى الحياة الاقتصادية افضل تاثير ، فقد كان محمد على عمرانيا ، طامحا الى توطيد دعائم ملكه ، عالما ان العمران دعامة الملك الكبرى

« ومما قامت به حكومته من الاعمال الاقتصادية انها نشطت زراعة الكرمة والتوت والزيتون ، واستخرجت المعادن ، واشهرها معدن الفحم الحجرى فى قرنايل ، وقيل فى قرية بزيدين (جبل لبنان) فى مكان يدعى عين بوقه ، كما استخرجت الحديد من قاطع المتن من لبنان

« وقد كان لعمل الحكومة تأثير خاص فى نهضة بيروت الاقتصادية فان انشاء

محجر صحى فيها حمل البواخر القادمة الى الساحل السورى على الرسو فيه

« واجرت تجارب فى زراعة السكر والنيلة وشجر البن وتربيـة دود القز ، ولم تتوسع فيها لان البلاد كانت فى حالة حرب والحرب والتعمير لايجتمعان »

وتـكلم عن تأثيرها فى النظامين الادارى والسياسى فقال :

« من حسنات حكومة محمد على انها كانت تميل الى التنظيم وتوزيع الاعمال توزيعا قضى على الحـكم المطلق الذى كان يحصر السلطة بيد الحاكم وحاشيته . وتم فى خلال تلك الفترة تقليد عدد كبير من اهالى البلاد المناصب الحـكومية فمرنوا عـلى اساليب الحـكم الجديد ، كما مرنوا عليها فى مجالس الشورى

« واكبر نجاح نالته حكومة محمـد على فى سورية اقرارها الامن والنظام وضربها على ايدى المجرمين ، و بعد ان كان الاشقياء فى زمن الحـكم العثمانى يعيثون فى الارض فسادا حتى فى البلاد الساحلية وعلى ابواب المدن ، و بعد ما كان المسافرون يضطرون للسير جماعات وهم شاكو السلاح للدفاع عن انفسهم ، استقرت الحالة ومد الامن رواقه بفضل سهر الحـكومة الجديدة و يقظتها و بفضل العقوبات الصارمة التى كانت تعاقب بهـا فقد كان القاتل يقتل بدون تردد ولا امهال ، وحافظت على طرق المواصلات محافظة دقيقة ، والقت على عاتق رؤساء القبائل وشيوخ القرى تبعة مايقع فى دوائر نفوذهم من جنايات وجرائم لايعرف مكتشفوها الخ »

وكتب المستر برانت قنصل بريطانيا فى دمشق سنة ١٨٥٨ الى سفير دولته فى الاستانة يقول :

« لما كانت بلاد الشام تحت حكم محمد على عاد كثيرون الى سكنى المدن والقرى المهجورة والى حراثة الاراضى المهملة ، وهـذا ماحدث خاصة فى حوران وفى الارجاء الواقعة حول حمص وفى كل الجهات الواقعة على حدود البادية ، وحمل فى هذه الاماكن العرب (البـدو) على احترام سلطة الحـكومة وجعـل السكان بمأمن من اعتـدائهم . وكان الشام باسره تحت ادارة شريف باشا ، وقيادة الجيش الذى يبلغ عدده زهاء ٤٠

الف جندى من منظم وغير منظم بامرة ابراهيم باشا

« وقد تضاعف نجاح الاهلين بفضل حسن ادارة الاول وحسنت الحالة المالية فى جميع النواحى ، كما ان نشاط ابراهيم وحزمه وطد الامن ، ومد رواق الثقة

« ومع ان بعضهم عد الحكومة ظالمة فما كان فى امكانها ان تفعل غير ذلك ، وكان عليها ان تصلح عدة امور مختلة وان تبدل الفوضى والغصب والقلاقل التى كانت سائدة بالعدل

« ولقد امتعض اصحاب المقامات العالية ورؤساء الجند مما جرى لانهم كانوا يثرون من ابتزاز اموال التجار وسائر الطبقات العاملة . وسر هؤلاء كثيرا لخلاصهم من الظلم الذى رزحوا تحت عبئه طويلا واغتبط المسيحيون خاصة وفرحوا لنجاتهم من الاضطهاد الذى اوصلهم الى درجة من الذل لاتطاق، ولم يكن الفلاحون اقل سرورا منهم لانه وان كانت الضرائب المقررة تستوفى بكل شدة فلم تكن تستوفى منهم بارة زيادة ولا تضبط حاصلاتهم وغلالهم ، ولا يؤخذ منهم شىء دون دفع ثمنه ، ولم يجبروا على تقديم خدمة دون بدل ، وقد فرضت الخدمة العسكرية على المسلمين، وهذا الامر الجديد كان ينبوع استياء عظيم ، اما المسيحيون الذين كانوا يدفعون الخراج فاعفوا من الخدمة العسكرية . والفلاحون الذين قطنوا القرى المهجورة اسلفوا مالا لاصلاح بيوتهم وتموينها واعفوا من الضرائب مدة ثلاث سنين

« ولقد عنيت الحكومة عناية زائدة بتحسين الانتاج وكم من مرة ذهبت الجنود بامر ابراهيم باشا لاتلاف الجراد . وبفضل هذا الحكم العادل المحترم من الجميع اخذت البلاد ترتقى فى مدارج النجاح والنمو ، ولو امتد هذا الحكم لاستعادت الشام قسما عظيما من وفرة سكانها القدماء واصابت شطرا كبيرا من الثروة التى كانت فى الماضى وآثارها لم تزل ظاهرة للعيان فى القرى والمدن العديدة وفى جهات حوران حيث ترى الطرق التى اختطها الرومان

« ولم يكد المصريون يخرجون من البلاد ويتقلص ظل سطوتهم ـ وكانوا قد اخضعوا الجميع لحكمهم الشديد ـ حتى عاد القوم الى نبذ الطاعة ، وحلت الرشوة

والتبذير فى ادارة المالية، محل النزاهة والاقتصاد ، ومنيت الحاصلات بالنقص واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان ، نخلت القرى والمزارع المأهولة جديدا بالتدريج ، حتى امكن القول انه لايوجد ثم ظل للامن على الحياة والمال وكل شئ يدل على عودة حالة الفوضى الى هذه البلاد بعد ماجلا عنها المصريون »

وقال الدكتور مخائيل مشاقة مؤلف كتاب « مشهد العيان بحوادث سورية ولبنان » وقد عاصر تلك الحوادث وشهدها بنفسه وعليه اعتمد معظم الذين كتبوا فى تاريخ تلك الحقبة « ان من مآثر الحكومة المصرية فى الشام تجفيفها المستنقعات وانشاءها «المجارى» لتصريف الاقذار، وتحديد اسعار اللحوم والعدل بين الرعايا على اختلاف اديانهم وطبقاتهم ، لاتكلف صاحب الحق نفقة لتحصيل حقوقه ، وتنفق كل مال فى وجهه المخصص له »

و بعد فهذا ما اخترنا تلخيصه واثباته من أقوال ثقات شهد بعضهم حوادث تلك الايام بنفسه او ادرك من عاصرها وساهم فيها فنقل عنه وروى بالاسناد اليه ، و بينهم من لايتهم بالميل الى تلك الحكومة ولا بالعطف عليها كالمستر برانت قنصل انكلترا فى دمشق ، فهو قد عاش فى عصرها وجاء الى بلاد الشام عقب انقضاء عهدها وقابل بين اعمالها و بين اعمال الادارة التركية التى حلت محلها ، وقد اعادها الانكليز بسلاحهم الى بلاد العرب فعاد الباشاوات الترك يحكمونها طبقا للاساليب التى شبوا وشابوا عليها ، نعم ان السلطان عبد المجيد اصدر فى تلك الايام الخط (المرسوم) المسمى خط كلخانه وقد اعلن فيه شروع حكومته بالاخذ فى اسباب الاصلاح ومساواتها بين الرعية ، وقد ظل هذا الخط حبرا على ورق ، شأنه شأن الاوامر والتعليمات الاخرى التى كانت تصدر من الباب العالى فتهمل وتنبذ ، ولا تجد من يقيم لها وزنا ، او يسهر على تنفيذها

وهكذا كانت النكبة مزدوجة على العرب فانه لم يكفهم القضاء على نهضتهم القومية والوقوف فى سبيل نهضتهم السياسية بل اعيدوا الى حكم جل همه محو ماتركته الادارة المصرية من اثر ، والقضاء على الروح القومية الجديدة فعادت البلاد

تتردى فى هوة الاضمحلال الاجتماعى والاقتصادى

وجنى الانكليز بعد اربعين سنة ثمار ما غرسوه فاحتلوا القطر المصرى فى سنة ١٨٨٢ ثم بسطوا حمايتهم على خليج فارس تدريجيا ثم استولوا على فلسطين والعراق فى سنة ١٩١٨ كما استولوا على شرق الاردن (اى انهم اقتطعوا من بلاد الشام نصفها الجنوبى) كما بسطوا نفوذهم السياسى على البحر الاحمر وهو بحيرة عربية من القديم واستولت فرنسا بالاتفاق معهم على تونس والمغرب الاقصى والقسم الشمالى من بلاد الشام كما غزت ايطاليا طرابلس الغرب وبرقة فى سنة ١٩١١ بالاتفاق معهم ايضا ، ومعنى ذلك ان الانكليز الذين وقفوا سنة ١٨٤٠ فى وجه النهضة العربية وقاوموها بسطوا نفوذهم بعد ذلك على بلاد العرب فاختصوا انفسهم بجزء كبير منها وقايضوا على الاجزاء الاخرى وقبضوا ثمنها مقدما من فرنسا وايطاليا

ولولا اعادتهم الحكم التركى الى بلاد العرب ومحاربة الحكومة التى انشأها العرب لنمت نهضتهم ولأثمرت ثمراتها الطيبة الشهية ولكان العرب اليوم فى مقدمة شعوب الشرق رقيا وثقافة وثروة وغنى بدلا من ان يكونوا فى مؤخرتهم ، ولما كانت بلادهم نهبا مقسما بين المحتلين الذين استولوا بعد ذلك على اقطارهم قطرا بعد آخر مما سنفصله فى هذا الكتاب

خريطة دولة محمد على سنة

٤٠ ٥٠ ٦٠

نصيبين
اورفة
نهر دجلة
نهر الفرات
خليج فارس
خليج عمان
المدينة
بلاد العرب
عمان
مكة
عسير
صنعاء
حضرموت
يمن
عدن
خليج عدن

٣٠
٢٠
١٠

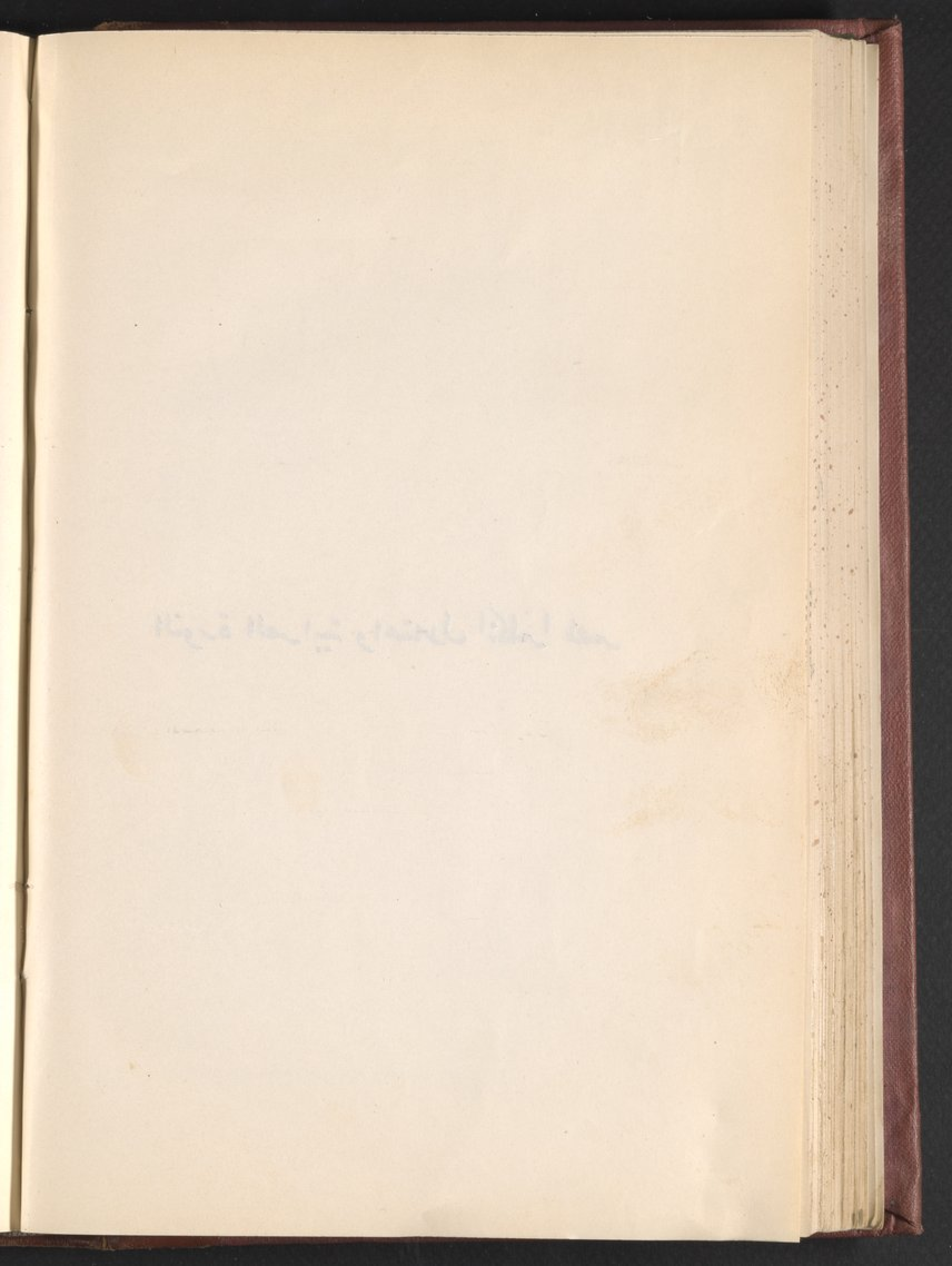
٤٠ ٥٠

...سنة ١٨٠٥-١٨٤٨

البحر الابيض المتوسط
جبال طوروس
اورفة
الشام
القدس
رفح
بورسعيد
الاسكندرية
القاهرة
العقبة
سيوه
مصر
اسيوط
قنا
الواحات الداخلة
الواحات الخارجة
اسوان
نهر النيل
دنقله
الدامر
وادي الملح
الخرطوم
أمدرمان
السودان
وادمدني
القضارف
الفاشر
الأبيض
النهود
دارفور
كردفان
بحر الغزال
ملكال
واو
بحر الزراف
منجلا
بحيرة رودلف

٢٠ ٣٠ ٤٠
٣٠ ٢٠ ١٠

الثورة العرابية واحتلال انكلترا لمصر



١

حملات الانكليز الثلاث على مصر

جهز الانكليز ثلاث حملات عسكرية لاحتلال مصر فى خلال القرن التاسع عشر ، فارسلوا الاولى سنة ١٨٠١ لاخراج الحملة الفرنسوية وارسلوا الثانية سنة ١٨٠٧ زمن حروبهم مع الترك وارسلوا الثالثة فى صيف ١٨٨٢ فكان الاحتلال على يدها . ونذكر اخبار هذه الحملات الثلاث مجملة مبتدئين بالاولى :

الحملة الاولى

١٨٠١ — ١٨٠٢

سبق الاسطول البريطانى الاسطول الفرنسوى الذى جاء مع حملة نابليون (١) فبلغ قبله الاسكندرية بثمانية واربعين ساعة وارسل قائده الاميرال نلسون ضابطا قابل ولاة الامور المحليين واخبرهم ان فرنسا ارسلت حملة عسكرية كبيرة بقيادة نابليون وطلب منهم السماح لاسطوله بدخول الميناء لمنازلتها عند وصولها ، فأبوا عليه ذلك خوفا من ان تكون خدعة حربية يريد الانكليز ان يخدعوا بها مصر فاقلع بعد توقف قليل . ووصل الاسطول الفرنسوى عقب سفره فضرب المدينة وعجل فى انزال الحملة الى البر خوفا من رجوعه ، ولو اراد الله وسمح حاكم الاسكندرية لاسطول الانكليز بالرسو فى الميناء لما استطاع الفرنسويون النزول الى البر ولما وقعت تلك الحوادث العظمى التى غيرت مجرى تاريخ الشرق الادنى تغييرا كبيرا

---

(١) تجد اخبار هذه الحملة مفصلة فى المجلد الثانى من هذا الكتاب مع تاريخ الاستعمارين الفرنسوى والطليانى فى بلاد العرب

ولم يفلت الاسطول الفرنسوى الذى جاء الى ساحـل مصر من مخالب الانكليز فقد عاد اسطولهم بعد اسابيع ونازله فى ابو قير يوم ١٨ اغسطس سنة ١٧٩٩ وحطمه فانقطعت بذلك المواصـلات البحرية بين فرنسا ومصر وانحصرت الحملة بمصر فكان ذلك اول نذير بفشلها

وضرب الانكليز الحصار البحرى على شواطئ مصر ، وقطعوا كل صلة بينها وبين الخارج فأثر ذلك فى تجارتها وزاد فى نفور المصريين من الحكم الفرنسوى . ولم يقف الانكليز عنـد هذا الحد بل عقـدوا اتفاقا مع الباب العـالى لمحاربة فرنسا واخراجها من مصر وجهزوا حملتـين جاءت الاولى من انكلترا والثانيـة من الهنـد واشتركتا فى المعارك التى دارت لطرد الفرنسويين فجلوا فى النهاية وتركوا القطر بين يدى الترك والانكليز

ونحن فى غنى عن القول ان الانكليز لم يفعلوا مافعلوه ، ولم يبذلوا مابذلوه حبا فى سواد عيون الترك واكراما لهم ، بل فعلوا ذلك رغبـة فى امتلاك وادى النيل الواقع على طريق الهند . ولما كان الفرنسويون قد سـبقوهم الى احتـلاله ، ولما كان وجود دولة اوربية قوية على ضفافه يحول بينهم وبين امتلاكه ويهدد طريق الهند كما يهدد امبراطوريتهـم الهندية فقد اتفقوا مع الحكومة صاحبة البلاد على مقاومة الفرنسويين واستعانوا بها فى اخراجهم املا ان يحلوا محلهم

وسعى الانكليز بعـد خروج الفرنسويين ، مغتنمين فرصة استيلائهـم على المراكز الحربية الكبرى ، ووجود قوات عسكرية لهم فى القاهرة نفسها ، وقيام صلات حسنة بينهم وبين المماليك وكانوا قد انقذوهـم من يد الترك وحموهم فمالوا اليهم ورأوا فيهم حلفاء امناء يستعينون بهم على اسـترداد نفوذهم . ولم يخف على الترك مايدبره الانكليز ولم يجهـلوا مايحيكونه لهـم فى الخفاء ، فاسرعوا الى التقرب من فرنسا ، عدوة انكلترا يومئذ ، وكانت موتورة من الانكليز الذين حطموا اسطولهـا وطردوا حملتها وحلوا محلها ، وانتزعوا منها اللقمة بعد ماوصلت الى الجوف لا الفم ، واسرعت فرنسا من جانبها فى التقرب اليهم فتصافى الفريقان (الترك والفرنسويون) وتعاهدوا

على مقاومة انكلترا وهكذا تبدل الموقف وانعكس فبعد ان كان الانكليز يعملون مع الباب العالى لاقصاء الفرنسويين صار هؤلاء يعملون معه لاخراج الانكليز وتلك هى السياسة بعينها فهى تقرب بين الاعداء وتباعد بين الاصدقاء هدفها المصلحة تدور معها حيثما دارت

ولم يجد الانكليز بدا من الجلاء بعد ماعقدوا مع فرنسا فى سنة ١٨٠٢ معاهدة اميان وقد نصت على وجوب جلائهم عن مصر باقصى ما يكون من السرعة ، وبذلك ضمن الفرنسويون اجلاء الانكليز عن مصر ، كما اجلوهم عنها قبل سنة واحدة ، ويلوح لنا انه لولا اخراج الانكليز بهذه الطريقة لما تسنى للباب العالى اخراجهم بسهولة ، فقد دلت الحملات التى وجهها الى مصر فى ابان الاحتلال الفرنسوى على ضعف الروح الحربية وانحطاطها فى الجيش العثمانى وعلى بلوغ هذا الجيش منتهى العجز ، ودلت على ذلك ايضا مواقفه ازاء الثوار اليونانيين فى سنة ١٨٢١–١٨٢٧ فقد هزموه فى اكثر المعارك

ومن يدرس تاريخ الدولة العثمانية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يدرك بداهة انها عاشت سحابة هذين القرنين على حساب التوازن الاوربى وحده وبفضله فهو الذى صانها وحفظها . ولما انهار هذا التوازن فى ختام الحرب العظمى سنة ١٩١٨ وسيطر الانكليز وانصارهم على العالم انهارت الامبراطورية العثمانية معه ، ولولا النهضة القومية التى نهضها الترك فى الاناضول لما بقيت لهم دولة ولكانوا فى عداد الشعوب المستعمرة اليوم

٢

الحملة الثانية

تذرع الانكليز بالحرب التى اعلنت بينهم وبين الحكومة العثمانية فجردوا حملة عسكرية كبيرة وصلت الى الاسكندرية فى شهر مارس سنة ١٨٠٧ لاحتلالها

ودخلت احدى سفن الاسطول البريطانى يوم ١٦ منه الى الميناء الغربية ونزل منهـا ضابطان فقابلا المحافظ (امـين اغا التركى) ، ويقال انه كان على اتفاق معهـم بواسطة قنصلهم وانه تعهد لهم بتسليمهم المدينـة بدون قتال مقابل مبلغ كبير من المال تسلمه مقدما

وجاء الاسطول البريطانى يوم ١٧ منه وسد مدخل الميناء الغربيـة ونزل جنود الحمـلة مساء ذاك اليوم فى ساحل العجمى ، وتقدموا الى الاسكندرية وعسكروا تحت اسوارها وارسلوا قوة استولت على ابو قير ودارت مفاوضات صورية بينهم و بين المحافظ امتدت يومين وانتهت بان سلم نفسه اليهم اسير حرب ومعه حامية المدينـة المؤلفة من ٣٠٠ جنـدى ، وتسلم الانـكليز الاسكندرية يوم ٢١ منه رسميا ولم يطلقوا فى سبيل الاستيلاء عليها رصاصة واحدة

وفى يوم ٢٩ منه زحفت قوة بريطانية تتألف من ٢٠٠٠ مقاتل بقيادة الجنرال ويكهوب لاحتلال رشيد فبلغتها فى الغداة فقاتلها حاكمها وهزمها وقتل قائدها وكثيرا من ضباطها وجنودها واسر منها ١٢٠ اسيرا

واعد الجنرال فريز قائد الحملة العام حملة اخرى بقيادة الجنرال ستوارت لاحتلال رشيد تألفت من ٤ آلاف مقاتل فغادرت الاسكندرية يوم ٣ ابريل واحتلت فى طريقها الحماد و بحيرة ادكو وآ كام ابى مندور وتقدمت حتى جنوبى رشيد وغربيها وشرعت يوم ٧ منه فى ضربها بالمدافع .

ووصلت والانـكليز يحاصرون رشيدا النجدات التى ارسلها محمـد على باشا من القاهرة ودارت مناوشات بسيطة يوم ٢٠ منه بين المصريين والانـكليز فاز فيها الاولون ونشبت المعركة الفاصلة فى الساعة السابعـة من صباح ٢١ منه واستمرت ثلاث ساعات وانتهت بانـكسار الانـكليز وخسارتهم ٤١٦ قتيلا وتركهم ٤٠٠ اسـير فانسحبوا مسرعين الى ابو قير ومنها ركبوا السفن الى الاسكندرية وانضموا الى قوى الجنرال فريز وتحصنوا معه وراء اسوارها

وبينما كان محمد على باشا يعد المعدات للزحف على الاسكندرية تلقى رسالة من الجنرال فريز يقترح عليه الدخول فى مفاوضات لعقد الصلح على قاعدة الجلاء عن الاسكندرية فدهش لهذه المفاجأة وسار الى دمنهور يقود جيشا عدته اربعة آلاف مقاتل فالتقى فيها بالجنرال شربروك ودارت بينهما مفاوضات انتهت بعقد معاهدة يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧ نص فى مادتها الاولى على وقف الاعمال العدائية فورا وجلاء القوات البريطانية عن الاسكندرية فى خلال ١٠ ايام من التوقيع على المعاهدة وعلى ان تترك المنشآت والاستحكامات بالحالة التى هى عليها . ويسلم محمد على باشا صهره مصطفى بك وعمه اسحق بك ومهرداره سليمان افندى بصفة رهائن يبقون على احدى البوارج البريطانية ريثما يتم تنفيذ المعاهدة

وجاء فى المادة الثانية ان اسرى الحرب الانكليز يرسلون بطريق النيل الى رشيد ويسلمون لسفينة تبحر بهم الى انكلترا . وجاء فى المادة الثالثة انه يصدر عفو عام عن اهل الاسكندرية

ونفذت احكام هذه المعاهدة بدقة وجلا الانكليز عن الاسكندرية بعد ما اقاموا فيها ستة اشهر فانتهى بذلك اجل احتلالهم الثانى ويعود الفضل فى فشلهم هذه المرة الى المقاومة العنيفة التى لقوها من قبل الحكومة الجديدة واهل البلاد . وبديهى انهم لم يجلوا الا مضطرين ومكرهين

٣

الحملة الثالثة

وظهر الانكليز فى الميدان السياسى ثانية وعادوا الى التدخل فى الشؤون المصرية لحساب الباب العالى فارسلوا اسطولهم الى ساحل مصر سنة ١٨٤٠ وعقدوا مع محمد على باشا اتفاق الاسكندرية المعروف، ثم ظهروا للمرة الرابعة فى سنة ١٨٨٢ وارسلوا اسطولهم

فاحتل الاسكندرية ، وانزل حملة برية زحفت الى القاهرة فاستولت عليها باسم الدفاع عن عرش الخديوى وتوطيد النظام

وسندرس فى هذه الصفحات حوادث هذا الاحتلال وما تخلله من اخبار الحركة العرابية باعتبارها احدى الحركات القومية التى تحركها العرب للتخلص من النفوذ الاجنبى مقدمين لذلك بكلمة موجزة عن عصر الخديوى اسماعيل



الخديوى اسماعيل باشا

٢

عصر الخديوى اسماعيل

لعصر الخديوى اسماعيل طبيعتين مختلفتين فهو عصر اصلاح وتقدم سارت فيه مصر شوطا الى الامام مما حمل الخديوى اسماعيل نفسه على القول بان بلاده لم تعد قطعة من افريقية بل صارت قطعة من اوربا

وهو ايضا عصر اسراف وتبذير فقد تولى اسماعيل العرش فى سنة ١٨٦٣ وليس على مصر دين خارجى وانزل عنه فى سنة ١٨٧٩ وديونها نحو مائة مليون جنيه انفق جانبا منها فى مشروعاته الاصلاحية كما انفق الجانب الآخر على مشروعاته الشخصية ونال المرابون منها الجزء الاكبر

ولم يكن للاجانب يوم تولى الخديوى اسماعيل اقل تدخل فى شؤون البلاد ولا اثر لنفوذهم فى ارجائها فهيأت لهم طبيعة النظام الذى سار عليه اسباب التدخل فتدخلوا باسم المحافظة على ديونهم وصيانة اموالهم والدفاع عن حقوقهم وتحول هذا التدخل الى سيطرة شملت جميع المرافق والمصالح وكان الخديوى نفسه احد ضحاياها فقد سعى الانكليز والفرنسيون عند السلطان عبد الحميد فاصدر مرسوما باقالته وتولية نجله توفيق باشا بدلا عنه

وجرح تدخل الاجانب فى شؤون البلاد وسيطرتهم على مرافقها وعلى حكومتها الكرامة القومية وساء العقلاء والمفكرين كما آلم الشعب فكانت الحركة العرابية مظهرا من مظاهر الاستياء القومى ووسيلة توسل بها الشعب المصرى لبلوغ حقوقه السياسية

وانشاء حكومة قوميــة تصون مصالحه وحقوقه وتقضى على النفوذ الاجنبى فى بلاده ، فخاف الانـكليز ان يقضى فوزها على آمالهــم فى الوادى فحاربوهــا وقاوموها وقضوا عليهــا بالاتفاق مع الخـديوى ومع السلطان عبـد الحميد باسم الدفاع عن النظام والسكينة

٣

عوامل الثورة العرابية

لقى الخديوى اسماعيل تشجيعا من اوربا فى سياسة الاقتراض التى جرى عليها فكانت البيوت المالية تتنافس فى تقديم الاموال له فبلغت ديونه فى خلال السنوات الخمس الاولى ١٨٦٣ - ١٨٦٨ نحو ٢٠ مليونا من الجنيهات اى بمعدل اربعة ملايين فى كل سنة، وتراكمت عليه الديون السائرة الصغيرة فكان يجددها فى كل مرة بفوائد كبيرة حتى زادت اضعافا مضاعفة على رأس المال الاصلى

وانفق الخديوى جانبا كبيرا من هذه الاموال فى رحلاته العديدة الى الاستانة للحصول على امتيازات بتوسيع نطاق استقلاله وتعديل نظام الارث فنال ثلاث فرمانات : سنة ١٨٦٦ و ١٨٦٧ و ١٨٧٣ وتنطوى على القواعد الآتية :

١ - تنظيم وراثة العرش فى بيت محمد على باشا من الاب للابن مباشرة ، بعد ما كانت تنتقل للارشد من ابناء العائلة

٢ - منح والى مصر لقب خديوى

٣ - اطلاق يد الخديوى فى عقد القروض والمعاهدات مع الدول بدون قيد ولا شرط

٤ - اطلاق يده فى زيادة الجيش المصرى

ويقال ان ما انفقه فى مقابل الحصول على هذه الفرمانات لايقل عن ٢٠ مليونا من الجنيهات ذهبت الى جيوب رجال الدولة العثمانية واقطابها ويدخل فى ذلك الهدايا الثمينة التى اهداها الى السلطان نفسه (السلطان عبد العزيز)

وتعهد فوق ذلك بزيادة الضريبة التى تدفعها مصر للباب العالى ٤٠٠ الف جنيه فى السنة

ويقول عرابى باشا فى مذكراته ان مشروع المحاكم المختلطة كلف مصر نحو ١٢ مليونا من الجنيهات انفقها الخديوى اسماعيل . واضطرب مركز الحكومة المالى على اثر ذلك فاخذت تتوقف عن دفع مرتبات الموظفين باوقاتها فاصدر الباب العالى فى سنة ١٨٦٨ فرمانا يحرم عقد قرض مالى لمصر بدون تصريح خاص تصدره الحكومة العثمانية صاحبة السيادة على البلاد فعقد الخديوى سلفة جديدة بسبعة ملايين من الجنيهات فى سنة ١٨٧٠ رهن فى مقابلها املاكه الخاصة ثم عقد فى سنة ١٨٧٢ سلفة اخرى باربعة ملايين جنيه . وعقد فى سنة ١٨٧٣ سلفة ثالثة بقيمة ٣٢ مليونا من الجنيهات بفائدة ٨ فى المئة ويقال انه لم يدخل الى صندوق الحكومة منها سوى ١١ مليونا ونصف مليون، واقتسم الباقى الدائنون واصدقاؤهم، وفى سنة ١٨٧٦ باع للحكومة الانكليزية بقيمة اربعة ملايين من الجنيهات ما كانت الحكومة المصرية تملكه من سندات قناة السويس وهى ١٧٦٬٦٠٢ سندا من اصل ٤٠٠ الف سند وتعهد بدفع ٥ بالمئة فوائد سنوية لهذا المبلغ لغاية اول يوليو سنة ١٨٩٤ فاستردت الحكومة الانكليزية مقسطا المبلغ الذى دفعته بالجملة

والفت الحكومة البريطانية فى سنة ١٨٧٦ لجنة برئاسة المستر كيف لدرس حالة مصر المالية مستندة الى الاتفاق الذى عقدته لشراء اسهم قنال السويس فكان ذلك فاتحة التدخل الفعلى فى شؤون مصر الداخلية وهو التدخل الذى انتهى بالاحتلال فى سنة ١٨٨٢

انشاء صندوق الدين

وبعد مادرس المستر كيف الحالة المالية وضع تقريرا مفصلا اقترح فيه الاقتراحات الآتية :

١ - توحيد الديون المصرية كلها على اساس فائدة معتدلة تتفق مع حالة البلاد

٢ ـ تأجيل الاستحقاقات نظرا لخطورة الحال

٣ ـ وضع المالية تحت رقابة المستر ريفرس ويلسون (مالى انكليزى)

وابى اسماعيل تنفيذ هذه الاقتراحات واسرع فاتفق مع الدائنين الفرنسويين وانشأ فى سنة ١٨٧٦ صندوق الدين العمومى ، ولا يزال باقيا حتى الآن وحول جميع الديون السائرة والثابتة الى دين موحد بفائدة ٧ بالمائة . وكانت الديون حينئذ قد بلغت نحو ٩٠ مليون جنيه

ودخلت الحكومات الفرنسوية والنمسوية والايطالية فى صندوق الدين الجديد وابت الحكومة البريطانية الاشتراك وعارضت فيه زمنا طويلا . ثم اتفقت مع فرنسا على ارسال مندوبين الى مصر احدهما يمثل الدائنين الانكليز ويمثل الآخر الدائنين الفرنسويين لاجراء تصفية عامة للديون

ويقول المسيو فريسينيه رئيس الوزارة الفرنسوية التى احتل الانكليز مصر فى عهدها فى كتاب اصدره عن المسالة المصرية « ان انشاء صندوق الدين يعد اول افتئات على سلطة الخديوى فقد حرمه جزءا كبيرا من سلطانه رغم كونه صيغ صياغة معتدلة ، فاصبح الدائنون الاجانب من ذلك الوقت يكونون حكومة داخل حكومة ، وحيث ان اسماعيل قد قبل هذه الوصاية فقد صار فرضا على الدائنين لا الحكومات التابعين لها ان يعينوا الاوصياء ، ولكن تدخل الحكومة كان من شأنه تورطا نحو رعاياها فى تعهدات لا حد لها ، فصارت لا تملك وضع حد لتدخلها ، ومن هذه الغلطة الكبرى نجمت معظم اسباب سنة ١٨٨٢ »

ووضع المندوبان الفرنسوى والانكليزى فى صندوق الدين تقريرا مطولا عن نتيجة دراستهما اقترحا فيه ايجاد دين ممتاز قدره ١٧ مليون جنيه بفائدة ٥ بالمائة ، وانقاص الدين الثابت الى ٥٩ مليونا بفائدة ٧ بالمائة فأصبح مجموع فوائد الديون التى يجب على مصر ان تدفعها سنويا ٦٫٥٦٥٫٠٠٠ جنيه اى نحو ثلثى دخلها وبالطبع فان الثلث الباقى لا يكفى لادارة البلاد

النظام الثنائى

وانتدبت انكلترا وفرنسا فى سنة ١٨٧٦ لجنة سياسية قوامها اللورد فيفيان والبارون دى ميشيل لتمثيلهما فى مصر ودرس الحالة السياسية ، فاقترحا وضع نظام دعى « نظام المراقبة الثنائى » ويقوم على القواعد الآتية : —

١ — تعيين مراقبين عامين للمالية المصرية : انكليزى وفرنسوى

٢ — تعيين مندوبين للدين العام من الاجانب تعرض حكوماتهم اسماءهم على الحكومة المصرية ، وتنحصر مهمتهم فى تسلم دخل الجهات المرهونة ضمانة لسداد اقساط الدين السنوى من يدى مراقب الايرادات العام وتسليمها لبنكى انكلترا وفرنسا والعمل لاستهلاك الدين

٣ — تعيين مندوبين مصريين وفرنسويين وانكليز لادارة سكك الحديد وميناء الاسكندرية على ان يكونوا برئاسة عضو المراقبة الانكليزى وتكون مهمتهم تسليم الدخل الى مندوبى الدين العام

وفى يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٨٧٦ اصدر الخديوى مرسوما بتطبيق هذا النظام

ولم يحقق هذا النظام الاصلاح التى كانت تنشده مصر بل كان وسيلة لازدياد عدد الموظفين الاجانب فارتفعت الاصوات بالشكوى منه و بالمطالبة بالغائه فاصدر الخديوى يوم ٣٠ مارس سنة ١٨٧٨ مرسوما بتعيين لجنة تحقيق برئاسة المسيو دى لسبس لفحص حالة المالية المصرية فحصا دقيقا وخولها سلطة مطلقة فى اتخاذ كل ما تراه من التدابير لتحقيق الغرض الذى انشئت لاجله

وتألفت هذه اللجنة من ستة اعضاء : السير ريفرس ولسن ورياض باشا وكيلين لرئاستها واعضاء مندوبى الدول الأربع فى صندوق الدين فوافقت على الغاء النظام

الثنائى وعلى انشاء وزارة مسؤلة وعلى الاستيلاء على املاك الخديوى الواسعة واقترحت ان تدفع لموظفى الحكومة رواتبهم فى اوقاتها

وفى يوم ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨ اصدر الخديوى مرسوما بتأليف وزارة مسؤلة ، فالفت برئاسة نوبار باشا وتولى السر ريفرس ولسن وزارة المالية والمسيو دى بلينير وزارة الاشغال واطلقوا عليها اسم الوزارة الاوربية

ولما كان نوبار ضالعا مع الانكليز فقد رجحت كفتهم وصاروا يتمتعون بنفوذ كبير فى الحكومة

وفى يوم ١٥ ابريل سنة ١٨٧٩ عزل الخديوى الوزارة الاوربية وعهد الى شريف باشا بتأليف الوزارة فألف اول وزارة وطنية

ووضعت هذه الوزارة بالاشتراك مع نواب الامة نظاما جديدا لوفاء الدين فلم يرق ذلك لانكلترا وفرنسا فسعتا عند الباب العالى فاستصدرتا يوم ٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩ فرمانا سلطانيا بعزل الخديوى اسماعيل ، وتولية نجله توفيق العرش ، وهذا نص البرقية التى ابرقها الصدر الاعظم بهذا الشأن يوم ٧ رجب سنة ١٢٩٦ :

«لما كانت الخطة المصرية من الاجزاء المتممة لجسم ممالك السلطنة القانونية ولما كانت غاية حضرة صاحب الجلالة والشوكة ضمان اسباب الترقى وصيانة الامن ونشر العمران فى ممالكه ولما كانت الامتيازات الممنوحة للخديوية المصرية مبنية على ما للحضرة الشاهانية من المقاصد الخيرية المذكورة ، و بناء على تزايد اهمية ماحصل فى القطر المصرى ناشئا عما وقع فيه من المشكلات الداخلية والخارجية الخطيرة فقد وجب تنازل والد جنابكم العالى اسماعيل باشا

« ثم انه بناء على ما اتصفت به ذاتكم السامية من الرشد وحسن الروية وعلى ما ثبت لدى ملجأ الخلافة العظمى من انكم ستوفقون الى توفير اسباب الامن والرفاه لجميع طبقات الاهالى والى ادارة البلاد وفق ارادة الحضرة الشاهانية الملوكانية توجهت

الارادة العالية بتوجيه مقام الخديوية الجليلة الى عهدتكم ، و بناء على الفرمان العالى الشأن الذى سيصدر حسب العادة بمقتضى الارادة السنية الصادرة و بناء على البرقية التى ابرقت الى اسماعيل باشا بتخليه عن النظر فى شؤون الحكومة فقد ابرقت بهذا اليكم مهنئا وادى النيل بدوام توفيقك ايها الخديوى المعظم ـ اه

٤

عهد الخديوى توفيق

لئن نمت الحركة الوطنية واشتدت فى عهد توفيق فهى وليدة عصر اسماعيل ورد فعل له ففيه تكونت عناصرها ، وتلاحمت اجزاؤها ، ولقد كان بعض المتفائلين يعتقد ان تولى نجله الاكبر لعرش مصر يساعد على الاستقرار وعلى هدوء الخواطر ولكنه خيب الآمال

ويلوح لنا ان ضعف ارادة الخديوى الجديد وانقياده الى حاشيته كان فى مقدمة العوامل التى مكنت لعرابى باشا وجعلت الناس ينقادون اليه ويلتفون حوله . ويمكن اجمال هذه العوامل فيما يأتى :

١ — ميل الخديوى للاجانب وفى مقدمتهم الانكليز واتباعه نصائحهم ومشورتهم لأنهم سهلوا له اسباب الجلوس على العرش

٢ — عدم انجازه الوعد الذى قطعه للامة عند جلوسه بانشاء حكومة برلمانية دستورية

٣ — رجوعه الى الباب العالى فى معظم الشؤون وموافقته على تدخله فى بعض مما لايتفق والحقوق التى نالتها مصر بموجب الفرمانات السلطانية

٤ — اضطراب سياسته وعدم انسجامها

٥ — مسايرته لأبناء العناصر غير المصرية وموافقته على بقائها فى المناصب الكبرى

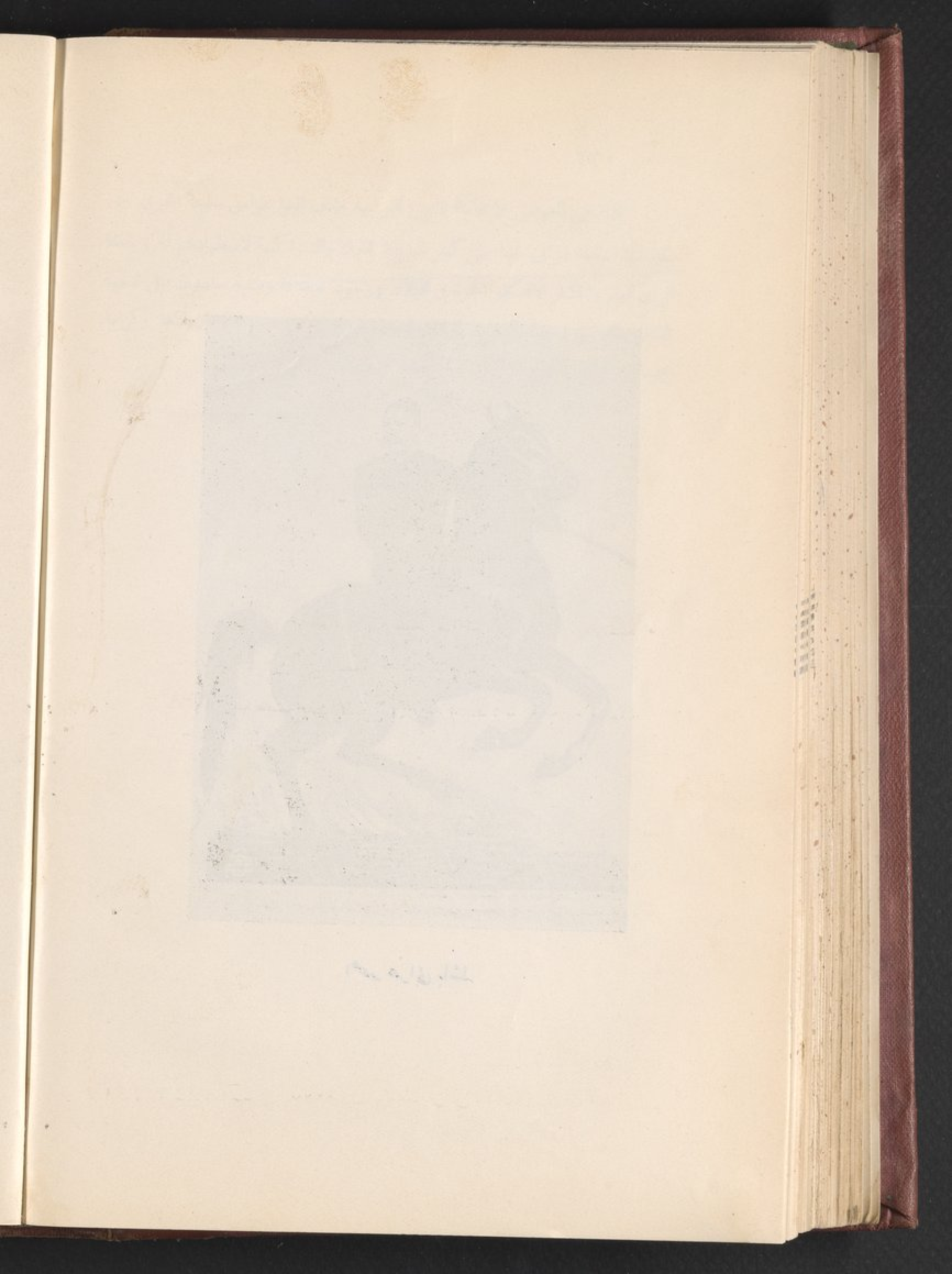
٦ — زيادة الاضطراب فى مصالح الدولة ومرافقها

٧ — اطراد زيادة الموظفين الأجانب

تلك هى العوامل الايجابية للثورة العرابية يضاف اليها عوامل سلبية اخرى وفى مقدمتها استياء عرابى باشا من كبار الضباط الترك والشراكسة لاضطهادهم له ويقظة الراى العام وانتشار الافكار الحرة فى البلاد ووجود صحافة وطنية ساعدت على تنمية الشعور القومى ونبهت الشعب الى ان له حقوقا يجب ان يسعى لاستردادها وكرامة يجب ان يدافع عنها وانه ليس عبد حكامه ورؤسائه



احمد عرابي باشا



٥

احمد عرابى باشا

هو السيد احمد عرابى باشا بن السيد محمد عرابى بن السيد محمد وافى بن السيد محمد غنيم بن السيد ابراهيم بن السيد عبد الله بن السيد حسن بن السيد على بن السيد سليم بن السيد ابراهيم بن السيد سليمان بن السيد حسن بن السيد على بن السيد حسن بن السيد ابراهيم مقلد بن السيد محمود بن السيد احمد بن السيد محمود بن السيد حسن السجاعى بن السيد صالح بن السيد على البلاسى نسبة الى بلاس وهى قرية صغيرة ببطائح العراق ، وهو اول من هاجر من اجداده الى مصر واستقر فيها ويتصل نسبه بالامام الحسين سبط الرسول عليه السلام

ووالدته السيدة فاطمة بنت السيد سليمان بن السيد زيد ويجتمع نسبها بنسب والده عند السيد ابراهيم مقلد فهو بذلك شريف عربى هاشمى كريم الارومة والنجار

ولد يوم ٧ صفر سنة ١٢٥٧ فى قرية رزنه من قرى مديرية الشرقية ، وتعلم القرآن و بعض العلوم الدينية فى مدرسة القرية التى انشأها والده ، وكان كبير القرية وزعيمها ، ومات وهو لايزال فى الثامنة فكفله اخوه السيد محمد محمد عرابى وعنى بتربيته وارسله الى الازهر لتلقى العلوم وكان ارقى المعاهد فى ذلك العهد واعظمها شأنا

وعملا بالامر الذى اصدره الخديوى سعيد باشا بتجنيد ابناء العمد والاعيان دخل السيد احمد عرابى الجيش فى يوم ١٥ ربيع الاول سنة ١٢٧١ جنديا بسيطا وفى يوم ١٥ ربيع الاول سنة ١٢٧٥ رقى بالامتحان الى رتبة ملازم ثانى ثم رقى يوم

١٧ جمادى الآخرة من السنة نفسها الى رتبة الملازم الاول ، ورقى ايضا الى رتبة اليوزباشي يوم ١٧ شعبان من السنة نفسها ورقى يوم ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٢٧٦ الى رتبة البكباشى والى رتبة القائمقام يوم ٢٤ صفر سنة ١٢٧٧ فصار بذلك احمد عرابى بك

ويقول عن نفسه فى سيرته التى كتبها بخط يده ـ انه اول مصرى عربى نال رتبة القائمقام فى الجيش المصرى ـ فقد كانت المناصب العليا فيه وقفا على الترك والشراكسة والالبانيين وابناء العناصر الاخرى غير العربية ، ويعزو الفضل فى ترقيته الى الخديوى سعيد باشا ويقول انه كان يشجع المصريين على التقدم فى المراتب العسكرية ويعطف عليهم

وزار السيد احمد عرابى بك المدينة المنورة مع الخديوى سعيد باشا وانتدب لاداء كثير من المهام العسكرية فى شتى الانحاء فأداها على الوجه الاكمل

وامر الخديوى اسماعيل فى اوائل عهده باعادة تنسيق الجيش وتنظيمه فعين احمد عرابى بك قائدا للالاى المشاة السادس وكان العربى الوحيد بين قواد الالايات وكانوا جميعا من الترك والشركس . وكان هذا الالاى بقيادة امير اللواء خسرو باشا الشركسى الذى عكف مع زملائه على اضطهاد عرابى بك لاقصائه عن حظيرة الجيش

ويقول ان اول ما فعلوه معه انهم حرموه من تسلم ١٥٠ فدانا امر الخديوى الجديد فى حفلة عرض اقيمت فى طره بان توزع على كل قائمقام واختص كل اميرالاى بمئتين وكل امير لواء بخمسماية من زيادة المساحة فى مديريتى الغربية والمنوفية

واشترك فى الحملة التى ارسلت الى الحبشة سنة ١٢٩٥ - ١٢٩٦ ثم عاد معها الى مصر فلم يلبث طويلا حتى اتهم مع محمد بك النادى وعلى بك الروبى من ضباط الجيش بتدبير المظاهرة التى قام بها طلاب المدرسة الحربية وبعض الضباط فى اوائل سنة ١٢٩٦ طلبا لاقالة الوزارة الاجنبية اى وزارة نوبار باشا ، ويقول عرابى

ان الخديوى هو الذى دبر هذه المظاهرة بواسطة احد صنائعه للتخلص من الوزارة وكانت تعارضه ، فحوكم وبرئ

وكان عرابى بك فى مقدمة الذين رحبوا بالخديوى توفيق وهتفوا له لانه كان يعد نفسه من ضحايا العهد الاسماعيلى ويقول انه ظلم واضطهد وحرم من الترقية والتقدم لان الخديوى كان يعده من رجال سعيد باشا وان امراء الشراكسة والترك قاوموه واضطهدوه لانه عربى

وحقق العهد الجديد آماله فأناله الخديوى رتبة الاميرالاى وعينه بين حجابه ثم عين اميرا للالاى المشاة الرابع فى العباسية وذلك فى شهر رجب سنة ١٢٩٦ اى فى نفس الشهر الذى تربع فيه الخديوى على العرش

وفى يوم ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ اجتمع ضباط الجيش الوطنيون والفوا جمعية منهم -كانت نواة الحركة العرابية- للدفاع عن حقوقهم ولمقاومة طغيان عثمان رفقى باشا وزير الحربية الشركسى ولوا عرابى رئاستها واعترفوا به زعيما لهم وعاهدوه على ان يفدوه بانفسهم واموالهم فكان ذلك بدأ اشتهاره وسطوع نجمه

وتتابعت الحوادث بعد ذلك فزادت فى نفوذه ومكانته ورفعته الى مرتبة الزعامة فصار قائد الامة الاعلى ورمز امانيها

ولما استقالت وزارة شريف باشا فى شهر ربيع الاول سنة ١٢٩٩ و ٤ فبراير سنة ١٨٨٢ لخلافها مع مجلس النواب تقلد عرابى باشا وزارة الحربية فى الوزارة الجديدة التى الفها صديقه محمود سامى باشا البارودى ثم عين وزيرا للحربية فى وزارة راغب باشا . وعزله الخديوى توفيق من وزارة الحربية يوم ١٩ يوليو سنة ١٨٨٢ فثبته الشعب ومنحه لقب حامى حمى الديار المصرية

وشهد معركة التل الكبير يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وعاد بعد انهزام الجيش الى القاهرة وفى يوم ١٤ منه سلم نفسه الى الانكليز فحوكم امام محكمة عسكرية وحكم عليه بالاعدام يوم ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ثم ابدل الحكم بالنفى المؤبد الى خارج القطر

(بتوسط الانكليز) وحكم عليه بمصادرة امواله واملاكه وتجريده من الرتب والالقاب وعلامات الشرف

وفي يوم ٢٨ منه غادر القاهرة الى السويس مع اهل بيته ومنها ركب باخرة الى جزيرة سيلان حيث تقرر ان ينفى وظل فيها حتى شهر سبتمبر سنة ١٩٠١ اى نحو ١٩ سنة فعفى عنه وعاد الى مصر فبلغ القاهرة يوم اول اكتوبر وقضى فيها بقية ايامه وتوفى ليلة ٢٧ رمضان سنة ١٣٢٩ و٢٠ سبتمبر سنة ١٩١١ عن ٧٢ سنة هـ

٦

مظاهرة عابدين الكبرى

قدمت وزارة شريف باشا استقالتها الى الخديوى الجديد يوم توليته عملا بالاصول فقبلها ودعى رئيسها الى تأليف وزارة جديدة فقبل مشترطا انشاء نظام نيابى فاصدر الخديوى يوم ٣ يوليو سنة ١٨٧٩ مرسوما وافق فيه على انشاء هذا النظام ووعد بتأييده وبان لا يحيد عنه

وتولى شريف باشا الحكم على هذا الاساس وعملا بالمرسوم الصادر اليه وضع مشروع دستور عرضه على الخديوى لتوقيعه واقراره فاتفق مندوب فرنسا ومندوب انكلترا على مقاومة المشروع الجديد لانه يحول دون تدخلهما فى شؤون البلاد واقنعا الخديوى بوجوب رفضه وانضم اليهم الترك والشراكسة من رجال السراى فابلغ الخديوى رئيس وزرائه انه يرفض مشروعه فاستقال يوم ١٨ اغسطس سنة ١٨٧٩ فقبل الاستقالة وطلب من رياض باشا ان يؤلف الوزارة فالفها يوم ٢٩ سبتمبر على اساس مرسوم ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨ مع تخويل الخديوى الحق فى رئاسة جلسات مجلس الوزراء والاشتراك فى اعمال الحكومة (١)

واعيدت المراقبة الاجنبية على الاثر ولكن فى شكل جديد فصدر يوم ١٥ نوفمبر مرسوم بتنظيمها وجاء فيه ان المراقبين يكون لهما من الوجهة المالية اوسع السلطات فى التفتيش على جميع المصالح والادارات العامة . ويحق لهما شهود جلسات مجلس الوزراء على ان يكون رأيهما استشاريا . ولا يقالا الا بموافقة حكومتيهما

---

(١) يقضى هذا المرسوم بتأليف وزارة مسئولة وقد صدر بمناسبة تأليف وزارة نوبار الاوربية

وزادت هـذه الاختصاصات الواسـعة فى نفوذ المراقبـين ونفوذ الاجانب من ورائهما واضعفت السلطة الوطنية فزاد ذلك فى نقمة العنصر الوطنى واستيائه

واقترن هـذا التدبير بتدبير آخر هو تحزب عثمان رفقى باشا وزير الحربيـة الشركسى لابناء جلدته تحزبا ظاهرا واضطهاده العنصر الوطنى فى الجيش واغلاقه باب الترقى فى وجهه مما حمل احمد عرابى بك على تقديم عريضة يوم ٢٠ مايو سنة ١٨٨٠ الى رئيس الوزراء وقعها مع زملائه الضباط يطلبون فيها اجراء تحقيق عام عن تصرفات عثمان رفقى وتصرفات زملائه ، وايد قنصل فرنسا مطالب عرابى وجماعته عند رياض باشا فوعد بالاهتمام بها

واصدر وزير الحربية امرا الى الفرق التى اشترك ضباطها فى الشكوى من اعماله بان تشتغل فى حفر الترع وابى عرابى ان ينفـذ الامر لانه شم فيـه رائحة الانتقام فتجدد النزاع بينه وبين وزير الحربية واشتد

وعاد عرابى فقدم يوم ١٥ يناير سنة ١٨٨١ عريضة الى رياض باشا بالشكوى من اعمال وزير الحربيـة الشركسى وقعها امير الآلاى على فهمى بك رئيس الفرقة الاولى من حرس السراى واميرالالاى عبد العال حلمى والحوا فيها باجراء تحقيق مع الوزير فتقررت محاكمتهم امام مجلس عسكرى ، وذلك بضغط الحزب الشركسى

ودعى الضباط الثلاثة للذهاب الى دار وزارة الحربية يوم اول فبراير لمحاكمتهم امام المجلس المؤلف لهذه الغاية ، وحسب هؤلاء حساب العواقب فنبهوا اخوانهم الى ما يراد بهم فاسرع هؤلاء واخرجوهم من السجن الذى وضعوا فيـه بامر الوزير حينما دخلوا الثكنة

واصدر الخديوى على الاثر امرا بعزل عثمان رفقى باشا من وزارة الحربية ارضاء للضباط واستمالة لهم وعين محمود سامى باشا البارودى مكانه وهو مصرى فكان ذلك اول فوز للعنصر الوطنى ، وزاد هذا الفوز فى نفوذ احمد عرابى بك ورفع مكانته ، ومقامه

فرمقته الانظار ، وكثر التحدث عنه فى المجالس ، واتفقت الكلمة على تأييده فحصل بواسطة محمد باشا سلطان رئيس مجلس النواب على توكيل امضاه النواب والاعيان بأن يطلب ما يأتى :

١ - اسقاط حكومة رياض باشا

٢ - أنشاء نظام دستورى

ولم يستمر محمود سامى باشا طويلا فى وزارة الحربية لان الخديوى اقاله اذ ابى ان يوافق على الدسائس التى كانت تدس لمقاومة الحركة الوطنية وعين داود باشا يكن بدلا منه ، وكان اول ما عمله هذا انه اصدر الاوامر الى آلاى القلعة بالسفر الى الاسكندرية على ان يحل آلاى الاسكندرية محله فادرك عرابى ان الغاية من هذا التدبير تشتيت شمل انصاره واضعافهم ، فقرر التعجيل بالحركة لانه خاف أن يكون مصير مصر مصير تونس وكان الفرنسويون قد وثبوا عليها فى تلك الايام ، وكتب الى وزير الحربية يقول « ان جميع الآلايات ستحضر الى ميدان عابدين فى الساعة ١٠ عربى من يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ لعرض طلباتنا العادلة »

وسعت الحكومة لحمل العرابيين على العدول عن مظاهرتهم فلم توفق وجاءت الآلايات فى الوقت المعين فامتلأت بها الساحة وكثر تزاحم المتفرجين من وطنيين واجانب ، وجاء بعد ذلك الخديوى ماشيا على قدميه وحوله المستر كوكسن قنصل انكلترا فى الاسكندرية والجنرال جولدسميث مراقب ادارة الدائرة السنية وهو انكليزى وبعض الحاشية فلما توسط الميدان نادى عرابى بك فتقدم وهو على جواده وسيفه مسلول بيده وحوله نحو ٣٠ ضابطا بسيوفهم المسلولة فلما اقترب منه صاح به ان يترجل ويغمد سيفه ففعل واسرع اليه ثم امر الضباط الذين كانوا معه ان يغمدوا سيوفهم ويعودوا الى الصفوف فوقفوا خلفه ثم التفت الى عرابى وقال له :

ـ لماذا جئت بالجيش الى هنا ؟

ـ جئنا يامولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والامة وكلها طلبات عادلة

ـ وما هى هذه الطلبات ؟

ـ هى اسقاط الوزارة المستبدة وتأليف مجلس نواب على النسق الاوربى وابلاغ الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية والتصديق على القوانين العسكرية التى امرتم بوضعها

ـ كل هذه الطلبات لاحق لكم فيها ، وانا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى واجدادى وما انتم الا عبيد احساناتنا

ـ لقد خلقنا الله احرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا فوالله الذى لا اله الا هو انا لانورث ولا نستعبد بعد هذا اليوم

وهنا اشار المستر كوكسن على الخديوى بالرجوع الى القصر خوفا عليه فرجع ثم عاد القنصل ومعه المستر كلفن المراقب المالى الانكليزى وخاطب عرابى بالنيابة عن الخديوى قائلا :

ان طلب اسقاط الوزارة وتأليف مجلس نواب هو من حقوق الامة لامن حقوق الجند كما انه لاحاجة الى زيادة الجيش لان حالة المالية غير مساعدة

عرابى ـ اعلم ياحضرة القنصل انى لم اطلب ما طلبته باسم الاهالى الا لانهم اقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بواسطة هؤلاء الجنود الذين هم اخوانهم واولادهم . فهم القوة التى ينفذ بها كل مايعود على الوطن بالخير والمنفعة . ونحن لانتنازل عن طلباتنا ولا نبرح هذا المكان حتى تنفذ

ـ يؤخذ من كلامك انك تحاول تنفيذ اقتراحاتك بالقوة وهذا امر ينشأ عنه ضياع بلادكم

ـ كيف يكون ذلك ومن يعارضنا فى اصلاح داخليتنا ، يجب ان تعلم اننا نقاوم

من يحاول معارضتنا اشد مقاومة الى ان نفنى عن آخرنا

– واين هى القوة التى تدافع بها ؟

– يمكن عند الحاجة حشد مليون جندى يدافعون عن بلادهم و يلبون اشارتى

اجابة المطالب

و بعد مداولات استمرت ساعة فى داخل قصر عابدين تقرر اجابة المطالب وتنفيذها تدريجا فقصد عرابى الى قصر عابدين بعد ابلاغه قرار الموافقة فقابل الخديوى وشكره على اجابته طلبات الامة فاقسم له انه وافق عليها عن حسن نية وصفاء طوية

واقيلت وزارة رياض باشا واقترح الخديوى ان تؤلف الوزارة الجديدة برئاسة حيدر باشا يكن فعارض عرابى وطلب ان يؤلفها شريف باشا فاجيب وتألفت يوم ١٤ منه برئاسته وتولى محمود سامى باشا البارودى وزارة الحربية

واستقبلت البلاد الوزارة الجديدة بالارتياح الزائد وجاءت الوفود لتهنئتها واستبشر الناس بحلول عهد اصلاح وتقدم جديد

الخديوى يطلب تدخل تركيا

لما وقع ما وقع من عرابى ابرق الخديوى توفيق الى الباب العالى يوم ٩ سبتمبر اى فى يوم المظاهرة الكبرى يقول انه ارتاب فى سلوك الجنود المصريين بالقاهرة فامر احدى الفرق بالانتقال الى الاسكندرية فرفع اميرالاى احمد عرابى بك عريضة الى وزير الحربية قال فيها نحن نعلم ان غايتكم من تفريق الفرق هى تشتيت شملنا وتبديد قوانا للتنكيل بنا ، ولهذا لايسعنا وضع ارواحنا بسهولة فى ايديكم. اننا نطلب استبدال الامر القاضى بانتقال احدى الفرق الى الاسكندرية بامر آخر يقضى ببقائها وستجتمع اليوم الجمعة (١٥ شوال و ٩ سبتمبر) فى الساعة التاسعة فرق الجيش

فى ساحة عابدين لتستأمن على ارواحها . ولقد ابلغنا ممثلى الدول عن حركتنا وفضلا عن هذا فقد بعث من طلب شفويا اعلان الحكم الدستورى وافتتاح مجلس النواب واقالة هيئة النظار . وختم الخديوى برقيته قائلا بانه سيواصل اطلاع الحكومة على تطور الحالة

وارسل الخديوى فى اليوم نفسه برقية ثانية جاء فيها انه لم يعد فى استطاعته اخماد فتنة الجنود التابعين لعرابى بك ولهذا يطلب ارسال ٢٠ اورطة من الجند الشاهانى بسرعة الى مصر على ان توضع تحت تصرفه

ثم ارسل فى اليوم نفسه برقية ثالثة جاء فيها ان الجنود الذين حاصروا قصر عابدين وطالبوا فى اول الامر بمطالب كثيرة اكتفوا اخيرا بتبديل هيئة النظار واعلنوا خضوعهم بتفرقهم وعودتهم الى ثكناتهم

وارسل فى الغداة برقية رابعة قال فيها ان الضباط اعلنوا خضوعهم وان هيئة النظار اقيلت واستبدلت بغيرها وان الامن يسود جميع انحاء القطر المصرى وان السكان من وطنيين واجانب هم فى اطمئنان ولهذا لم تبق حاجة لارسال قوة عسكرية »

لجنة تحقيق تركية

وتألفت على الاثر لجنة فى المابين برئاسة سعيد باشا الصدر الاعظم قوامها محمود نديم باشا وجودت باشا وصبحى باشا لدرس الحالة والنظر فى مايجب عمله

فنظرت فى الاقتراح الذى قيل ان السلطان لمح بوجوب تنفيذه وهو اقالة الخديوى توفيق فقررت ان تنفيذه يثير مشكلات كثيرة وانه مادام خلفه سيختار من نفس العائلة فلا فائدة ترتجى من تغييره

ثم نظرت فى ارسال حملة عسكرية « لتأديب الضباط المتمردين » فقالت ان

ارسالها من دون طلب الخديوى يمس حقوق السلطة المحلية كما انه قد يكون ذريعة تتذرع بها فرنسا وانكلترا للتدخل

كتاب المابين الى الخديوى

ثم قررت اللجنة ارسال بعثة الى الاسكندرية لدرس الحالة عن كثب فوقع الاختيار على على نظامى باشا ياور السلطان ، وعلى فؤاد بك من اعضاء شورى الدولة فغادرا الاستانة بالباخرة طلعت يوم ٢ اكتوبر سنة ١٨٨١ يحملان كتابا من الصدر الاعظم الى الخديوى جاء فيه « ان الغاية من ايفاد هذه البعثة هى مضاعفة الجهود فى العمل لضمان المستقبل ومساعدة الخديوى فى توطيد الامن عملا باحكام الفرمانات التى تنص على صيانة نفوذ الخديوية وتعزيز مركزها »

ويقول عرابى باشا فى مذكراته ان إرسال هذه البعثة قوبل بالاستغراب عند الدول الاوربية لانه تم من دون اطلاعها ولانه لم تسبقه مقدمات ولا تمهيدات وان قنصل فرنسا العام وقنصل انكلترا العام ذهبا الى الخديوى واخبراه انهما لا يعرفان شيئا عن اسباب قدومها واكدا له انه ليس فى استطاعتها ان تعبث بشىء من حقوقه

ويقول الصدر الاعظم سعيد باشا فى مذكراته ان الحكومتين الفرنسوية والبريطانية احتجتا على اعمال البعثة لانها تجاوزت دائرة اختصاصها وطافت الثكنات وفتشت و بحثت مما اثار شيئا من الاستياء، فاقترح الصدر الاعظم على السلطان دعوتها فورا وتأخر صدور الارادة السنية فتلقت بارجة من الاسطول البريطانى الامر بالسفر الى مصر فأوقع ذلك شيئا من الارتباك فى دوائر الحكومة العثمانية فأمر السلطان كبير وزرائه ان يتخذ من التدابير ما يراه مناسبا لتلافى الحالة فاتصل فورا بسفير انكلترا فى الاستانة اللورد دوفرين وطلب توسطه فقال له ان طول اقامة البعثة وتدخلها فى

الشؤون الداخليـة من شأنه ان يعرض الوضـع الراهن فى مصر للخطر كما انه مخالف لنصوص الفرمانات واخـيرا تم الاتفاق على ان تسـتدعى الحكومة بعثتها وان تسترد انكلترا بارجتها وكذلك تفعل فرنسا والظاهر انها ارسلت احدى بوارجها وفى يوم ١٨ اكتوبر غادرت البعثة مصر عائدة بالباخرة التى حملتها

٧

شريف باشا يستقيل

لقيت الدعوة التى بثها العرابيون لانشاء نظام حكم دستورى ارتياحا وتأييدا من الجمهور فرفع عدد كبير من الاعيان والسراة عريضة عليها ١٦٠٠ توقيع الى الخديوى يلتمسون فيها انشاء نظام دستورى ، يضاف الى ذلك ان انشاء النظام كان من جملة الاغراض التى تألفت وزارة شريف باشا لتحقيقها طبقا لوعد الخديوى يوم ٩ سبتمبر

وفى يوم ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ رفع شريف باشا مذكرة الى الخديوى مقترحا اصدار مرسوم بالموافقة على تأليف مجلس نيابى قال فى مقدمتها :

« لقد اظهرت التجارب فى عدة مرار خلل الحالة الموجودة عليها البلاد ولهذا فالاصلاحات التى سنشرع فيها فى ظل الساحة العلية ستكون متعلقة بأهم مصالح البلاد المصرية لانه يترتب على اجراءاتها تغيير الحالة المذكورة واصلاحها شيئا فشيئا وتوطيد الادارة العمومية على اساسات قوية وثابتة »

وبعد ما اسهب فى الكلام قال « وسيكون مجلس النواب عضد الحكومة فى اجراء الاصلاحات المشروع فيها وعونا على تأمين المصريين تأمينا كافيا على النفس والعرض والمال ، ولهذا اتشرف بان اقدم للاعتاب السنية مشروع امر عال بانتخاب النواب وافتتاح المجلس يوم ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨١ وغرة صفر سنة ١٢٩٩ »

فاصدر الخديوى فى اليوم نفسه امرا عاليا بانتخاب مجلس النواب ودعوته الى الاجتماع فى الموعد المحدد بمذكرة الحكومة

وفى يوم ٢٦ ديسمبر اجتمع مجلس النواب الجديد برئاسة محمد سلطان باشا نخطب الخديوى خطبة العرش ومما قاله « انه عزم منذ ما تسلم الحكم بنية خالصة

على فتح مجلس النواب ولكنه تأخر للآن بسبب المشكلات التى كانت محيطة بالحكومة وقد ذللت ولله الحمد »

ثم اوصى المجلس بان يسلك مسلك الاعتدال والمنهج القويم « الذى هو اهم شيء فى هذا الوقت الذى هو عصر الترقى والتمدن فالواجب علينا الاعتدال والتأنى والتبصر وان نكون يدا واحدة فى اتمام الاعمال النافعة »

وفى يوم ٢ يناير سنة ١٨٨٢ قدم شريف باشا الى المجلس اللائحة الاساسية (الدستور) للمناقشة فيها واقرارها فألف النواب لجنة لدرسها ولم يلبث الخلاف ان نشب بينهم و بين الوزارة على المادة الخاصة ببحث الميزانية فقد ذهبت الوزارة بتأثير قنصلى فرنسا وانكلترا الى انه لاحق للمجلس فى تقرير الميزانية واصر النواب فى اجتماع خاص عقدوه فى منزل رئيسهم على انه من حقهم ثم الفوا لجنة منهم لمعالجة الخلاف فاقترحت اقتراحات لم ترض الوزارة فاستقالت . وفى يوم ١٢ ربيع الاول سنة ١٢٩٩ تألفت الوزارة الجديدة برئاسة محمود سامى باشا البارودى وتقلد عرابى باشا وزارة الحربية والبحرية فيها

٨

انكلترا وفرنسا والنظام البرلمانى

لم تقابل الحكومتان الانكليزية والفرنسوية بالارتياح الخطوة الجديدة التى خطتها مصر فى تنظيم شؤونها الداخلية وفى انشاء نظامها البرلمانى ، وكذلك كان شأن الباب العالى ايضا فقد خاف على سيادته من نجاح الحركة الوطنية فعمد الى وضع العراقيل فى سبيلها وتشجيع الخارجين عليها

وننشر هنا نص المذكرة التى ارسلتها الحكومة البريطانية الى وزارة الخارجية المصرية بواسطة قنصلها ثم نتبعها بالمذكرة المشتركة المبلغة الى الخديوى مع مذكرة الباب العالى لما فى ذلك من الفائدة للتاريخ فنقول :

فى يوم ١١ نوفمبر سنة ١٨٨١ اى قبل اجتماع البرلمان المصرى ارسل اللورد غرانفيل وزير الخارجية البريطانية الكتاب الآتى الى السر ادوار مالت قنصل انكلترا العام وممثلها السياسى فى مصر :

« استخرجت من رسائلكم بعد رجوعكم الى القطر المصرى ان فريقا كبيرا من المصريين يرى السياسة البريطانية على غير وجهها الحقيقى فاردت ان ابدد هذه الاوهام ببيان جلى لآرائنا ومقاصدنا دفعا لما يمكن ان ينشأ عنها من اخطار . ان سياسة الحكومة الانكليزية فى مصر لاترمى الا الى نجاح ذلك القطر وتمتعه بالحرية التى نالها بمقتضى الفرمانات السلطانية المتتابعة حتى فرمان سنة ١٨٧٩

«ومن راينا ان نجاح مصر ونجاح غيرها من الاقطار الاخرى يتوقف على حسن حال شعبها ونمو ثروته وقد انتهزنا كل فرصة للسعى عند حكومة الجناب العالى الخديوى لتأخذ بالوسائل التى ترفع الامة المصرية من مهاوى الذل والحيف الى مرتبة الطمأنينة

وحسن الحال ، من نشر المعارف والغاء الضرائب الفادحة وتقرير المال الاميرى على اصول منظمة عادلة وتقليل السخرة ، كل هذه الاعمال لاقت قبولا من جانبنا وتمت بموافقة المراقبين الانكليزى والفرنسوى

« وبقى من وجوه الاصلاح ماراه اوجب من كل ماتقدم الا وهو اصلاح الادارة وقضاء الاهلين ، على ان التعليمات الصادرة اليكم من حكومة جلالة الملكة تقف بكم عند حد الاجتهاد فى بيان لزوم هذا الاصلاح لحكومة الجناب العالى الخديوى ، فوزارة جنابه هى القادرة وحدها على التوفيق بين التنظيمات الاوربية والشريعة الاسلامية التى يمكن ان تحصل الثقة بها وتتحقق آمال ابناء الوطن المصرى . ومن اجل هذا كنا على الدوام نعارض فى الاخذ بالرأى القائل بوجوب تعميم المحاكم المختلطة ومنحها حق النظر فى قضايا الوطنيين وكذلك فاننا نعارض اشد المعارضة فى كل مايراد به اكراه الشعب المصرى على قبول احكام مناقضة للشرع الذى ورثه عن آبائه ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع الاغضاء عن عدم انتظام ادارة القضاء بمصر لانه مفتاح باب النجاح لجميع الامم ، ونحن على يقين من انه لايتسنى لاية وزارة كانت ان تنال تمام الثقة والتأييد باعتبارها الحامية الحقيقية لمصر ما لم يتم هذا التنظيم وقد سرنا ما اتصل بنا وهو ان شريف باشا تقدم الى وزير الحقانية فى الاهتمام بتنظيم المحاكم الوطنية حالما انتهت اليه الوزارة ونحن نترقب اتمام هذا المشروع العظيم باهتمام كبير

« وجاء فى رسائلكم بانه سرى الى الرأى العام المصرى بان انكلترا كانت تؤيد رياض باشا وان الجناب الخديوى استبقاه فى الوزارة لئلا يسىء الى حكومة جلالة الملك فيجب ان تعلم علم اليقين ان انكلترا لاتلتمس فى مصر وزارة خاصة وعندها ان الوزارة القائمة على تأييد دولة اجنبية او على نفوذ ممثل احدى الدول الاجنبية لاتفيد البلاد التى تسوسها ولا الذين يعتقدون ان بقاءها فى مصلحتهم بل وتبعد الامة عن الطاعة الواجبة عليها لحكومتها وتساعد على ايجاد منافسة فى الدسائس المضرة بمصلحة البلاد

« ويسرنى ان اذكر بانكم لم تتجاوزوا هذا الحد فى اعمالكم فقد بذلتم لرياض باشا النصيحة الخالصة الواجب بذلها لوزارة قد اختارها الجناب الخديوى ، ولو تجاوزتم هذا الحد لكان ذلك خروجا منكم عن التعليمات الصادرة اليكم من حكومة جلالة الملكة على ان مضمون تقاريركم وسير الحوادث قد اثبتا انكم لم تخرجوا البتة عن ذلك الحد

« ولا اكاد ارى من حاجة لبيان رغبتنا فى بقاء مصر متمتعة بما لها من الاستقلال الادارى المؤيد بالفرمانات السلطانية والحكومة البريطانية تخالف تقاليدها وتاريخها القومى اذا حاولت اضعاف ذلك الاستقلال او تقويض الادارة المنبعثة منه

« وفى امكاننا ان نثبت ـ عند الحاجة ـ بحوادث قريبة العهد حسن نيتنا وانه لاينبغى ان نكون عرضة لسوء الظن الذى اشرتم اليه فى رسائلكم فان الصلة التى تصل الباب العالى بمصر هى الحاجز لكل تدخل اجنبى فاذا انفصمت هذه الصلة فقد تستهدف مصر فى العاجل او الآجل لاخطار المطامع والمنافسات ولذلك اردنا حفظ هذه الصلة والابقاء عليها ، ولا يخرج بنا عن هذه الدائرة سوى وقوع الفوضى اى عدم وجود حكومة فى مصر ، بيد اننا نعتمد على الجناب الخديوى ودولة شريف باشا وذكاء الامة المصرية فى اجتناب هذه النازلة ، وليكونوا على يقين بانه ما دامت مصر مستمرة على السير فى طريق النجاح بسلام واعتدال فحكومة جلالة الملكة تساعدها على ادراك غايتها

« وقد اذنا لكم فى اعطاء صورة من كتابنا هذا الى ناظر الخارجية المصرية وابلاغه بانه كتب لازالة جميع الشبهات التى يمكن ان تحوم حول مقاصد الحكومة البريطانية ولدينا من كل وجه ما يبعث على الاعتقاد بان الحكومة الفرنسوية لاتخرج عن هذه الخطة فقد تيسر لهاتين الحكومتين بواسطة اتحادهما فى العمل واتفاقهما فى الرأى ومن غير استمساك بحب الذات ان تساعدا مساعدة حسنة فى اصلاح الامور المالية والسياسية فى مصر ، وما دامت منفعة هذه البلاد هى الغاية فلا يمكن ان تعرض صعوبة فى الاستمرار بالسير على هذه السياسة واذا حاولت هاتان الحكومتان العمل

على زيادة نفوذها فى القطر المصرى فان ذلك يكون كافيا لنقض هذا الاتفاق النافع

« فيمكن للجناب الخديوى ووزرائه ان يوقنوا بأن حكومة جلالة الملكة لايخطر ببالها العدول عن هذه الخطة التى وضعتها لنفسها بنفسها »

وقبل ان يجف مداد هذه المذكرة زار يوم ٧ يناير سنة ١٨٨٢ قنصلا انكلترا وفرنسا قصر عابدين وقدما الى الخديوى المذكرة الآتية وقد وردت الى كل منهما بشكل خطاب من وزير خارجية دولته وهى :

حضرة القنصل :

« عهدنا اليكم غير مرة بأن تبلغوا الجناب الخديوى وحكومته رغبة الحكومتين الفرنسوية والانكليزية فى مساعدته ومساعدة حكومته فى التغلب على المصاعب المختلفة التى تزيد الارتباك والقلق فى القطر المصرى ، وهما على اتفاق واتحاد فيما يتعلق بمصر ولا سيما بعد الحوادث الاخيرة واخصها صدور الامر الخديوى بجمع مجلس شورى النواب مما بعث الدولتين على فتح باب المحادثات واعادة النظر فى اتفاقهما المذكور

« و بناء على ما تقدم نرجوكم ان تعرضوا من الآن للجناب الخديوى بأن الحكومتين الفرنسوية والانكليزية تريان وجوب تثبيته على الاريكة الخديوية وفقا للاحكام المقررة فى الفرمانات السلطانية التى قبلتها الدولتان ، وهما على تمام الاتفاق على منع كل ما من شأنه احداث ارتباكات داخلية او خارجية تهدد النظام القائم فى مصر . وعندهما ان هذا التصريح العانى يمنع حدوث ماعساه قد يطرأ من الاخطار على حكومة الجناب الخديوى ، وان حدث فالحكومتان لاتترددان فى دفعه ، ولا يخالجهما شك فى ان الخديوى ينال فى هذا التصريح الثقة والقوة اللتين يحتاج اليهما فى ادارة شؤون مصر وشعبها »

احتجاج الباب العالى

وقابل الرأى العام المصرى هذه المذكرة بالاستياء الشديد لانها توقع جهارا

بين الخديوى والبرلمان وتحض الاول على محاربة النظام الجديد ومقاومته وزار وفد من الضباط برئاسة وزير الحربية الخديوى و بسطوا الامر على مسامعه وابلغوه استنكارهم للمذكرة فاستقر القرار على السعى عند الباب العالى فابرق اليه الخديوى بما جرى فارسل وزير الخارجية العثمانية المذكرة الآتية الى سفيرى انكلترا وفرنسا فى الاستانة لابلاغها الى حكومتهما وهى :

« تعلمون ان قنصلى انكلترا وفرنسا بمصر قدما للجناب الخديوى مذكرة باسم دولتيهما فدل عملهما بالنظر الى الفرمان الذى اصدره الباب العالى بشأن ولاية مصر و بالنظر الى اجراءات الوفد العثمانى الملكى الذى ارسل الى مصر من عهد قريب ، ان التأكيدات التى كررت حكومة الباب العالى اصدارها لم ينظر اليها بالعين التى تستحق ان تنظر اليها ، ولذلك لانستطيع تجاهل الاثر السىء الذى ينتج عن هذا العمل ونرى من الضرورى ان نصرح للحكومة التى تمثلونها عندنا بملاحظاتنا على المذكرة المذكورة لتنظر فيها بعين العدل والانصاف

« ان عناية الحكومة السلطانية موجهة دائما الى المحافظة على الامتيازات الممنوحة لمصر حرصا على المصلحة العامة وضمانا لسعادة سكانها وهو كل ما نرغب فيه ونرى فيه مصلحتها ، وفى ظننا انه يستحيل ايراد اتفه الادلة على ماينافى ذلك او الاستشهاد باى حادث داخلى يتعلق بمصر و يدعو الى ارسال تلك المذكرة

« وبناء على ذلك لانرى هنالك مسوغا يسوغ ارسال هذه المذكرة الى الخديوى توفيق باشا وفضلا عن ذلك فمصر جزء متمم من املاك الحضرة السلطانية ، والسلطة للخديوى لحفظ الامن وللمحافظة على رخاء البلاد ، وتسيير الحكومة فى احسن اتجاه هو من حقوق الباب العالى وحده ومن اختصاصاته دون سواه ، وقد كان الواجب يقضى بان يؤخذ بادىء بدء رأى الدولة المتبوعة فى هذه الاجراءات قبل القيام بها وارسال المذكرة بواسطتها وحدها ، وانتظار الحصول على التأكيدات المطلوبة بواسطتها ايضا

« ومما تقدم يتبين انه يحق لنا ان نعتبر اتصال الدولتين بالخديوى غير مشروع والباب العالى يرى نفسه مضطرا للوقوف على الاسباب التى بعثت حكومة فرنسا الى

الاشتراك مع الحكومة البريطانية فى مسألة مجحفة بحقوق سلطانه على مصر . وقد صدرت التعليمات اللازمة بهذا الخصوص الى سفيريه فى باريس ولندن

« وافوض لسعادتكم ياحضرة السفير فى الختام ابلاغ وزير خارجيتكم ما تقدم و بسط الحالة بالصيغة المناسبة لكى تظهروا له شدة اضطرارنا الى الحصول على البيانات الشافية التى تخرج الحكومة السلطانية من المركز الحرج الذى سببه لها ما حدث بمصر »

ولقد كان من نتائج هذه المذكرة ان اتحدت جميع هذه العناصر والهيئات الوطنية فى مصر على مقاومة تدخل الانكليز والفرنسويين فى الشؤون الداخلية وتعاهدت على عدم السماح لهم باعادة السيطرة القديمة

احتجاج الدول الاخرى

ولا بد لنا من القول ان بروسيا والنمسا والمانيا احتجت على هذه المذكرة وعدتها تدخلا فى شؤون مصر

٩

مؤامرة الضباط الشراكسة

كانت اول مسالة خطيرة واجهت وزارة محمود سامى باشا البارودى الوطنية بعد مشكلة الدستور ، وقد حلتها بما يرضى البلاد والعباد ـ مشكلة الضباط الشراكسة الذين اتهموا بالتآمر على عرابى باشا وكبار الضباط الوطنيين واعداد العدة لقلب نظام الحكم وارجاع الخديوى اسماعيل باشا الى العرش.

ولقد تبين القراء مما جاء فى سيرة عرابى باشا انه كان من اشد خصوم السيطرة الشركسية التركية على الجيش المصرى وانه نقم على الشراكسة والترك احتكارهم المناصب العليا وجعلها وقفا على ابناء جلدتهم وان مقاومة نفوذهم والقضاء على عصبيتهم واحلال الضباط الوطنيين محلهم كان فى مقدمة الاغراض التى ارادها من حركته فاصاب نجاحا كبيرا فى خلال زمن وجيز فتقلد وزارة الحربية كما تقلد زميله محمود سامى باشا البارودى رئاسة مجلس الوزراء وكانت هذه المناصب العليا من قبل خاصة بالترك ، واحل كثيرين من الضباط الوطنيين فى المناصب الرفيعة.

وكبر على هؤلاء ان يصيروا الى الحالة التى صاروا اليها وان يجردوا من كل نفوذ بعد ما كانوا اصحاب الشأن ، و بعد ما كان الجيش رهن ايديهم فاجتمع بعضهم الى بعض وحاكوا شباك مؤامرة واسعة النطاق ترمى الى اغتيال عرابى باشا وكبار الضباط الوطنيين والنظار وغيرهم، وقيل ان لانصار الخديوى اسماعيل باشا يدا فى هذه المؤامرة فقد كانوا يرجون ان يتم لهم بواسطتهااعادته الى العرش.

وافضى احد المتآمرين الى عرابى باشا بامرها قبل اتمامها فاطلع النظار عليه والفت الوزارة مجلسا عسكريا لمحاكمة المتهمين برئاسة الفريق راشد باشا حسنى

وهو شركسى ويقول عرابى باشا فى مذكراته انه اختاره لاعتداله ونزاهته وصلاحه وتقواه ، ولانه لايمكن ان يتهم بالتآمر على ابناء جنسه ، وكان عدد اعضاء المجلس ٢٠ عضوا معظمهم من الترك والشراكسة اللاحزبيين

وبلغ عدد الذين حوكموا امام هذا المجلس ٤٠ ضابطا من مختلف الرتب حكم عليهم يوم ٢٠ ابريل سنة ١٨٨٢ بالنفى المؤبد الى اقاصى السودان مع التجريد من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين وان يقيموا متفرقين فى الجهات التى ينفون اليها. وبين الذين حكم عليهم بالنفى عثمان رفقى باشا وزير الحربية السابق وراتب باشا القائد العام للجيش المصرى (سردار) وقد اعتبره المجلس مؤسسا للمؤامرة ، وقرر منعه من الرجوع الى مصر وكان فى خارجها

وقرر المجلس العسكرى ان يكون للخديوى ولمجلس النظار النظر فى امر قطع المرتبات التى يتناولها الخديوى اسماعيل باشا من خزينة الدولة او تخفيضها لما تبين من انه ينفقها فى تدبير المؤامرات

ويقول عرابى باشا انه سعى عند الخديوى - رغبة فى تقريب القلوب - لتخفيف الاحكام الصادرة عليهم ، وان تكون الاستانة منفاهم بدلا من السودان ، فلا يموتون من شدة الحر ، على ان يصدر بعد مدة وجيزة عفو عنهم

واصدر الخديوى امرا ساميا عقب ذلك يقضى بان يكتفى باخراج هؤلاء من القطر المصرى وان يكون لهم الحق فى السفر انى شاءوا مع احتفاظهم برتبهم ونياشينهم فقصدوا الاستانة جميعا ، فانزلوا فى احد القصور السلطانية بامر السلطان ، الذى امر بتخصيص رواتب لهم ظلوا يتقاضونها حتى رجوعهم الى مصر بعد تغلب الانكليز

ويقول الشيخ محمد عبده فى رسالة كتبها الى المستر بلنت عن هذه المؤامرة « ان الذين دبروها هم من صنائع الخديوى اسماعيل الذى كان يومئذ فى نابولى يضع الالغام لنسف حكومة مصر اعتقادا منه ان ذلك يفتح امامه ثغرة يدخل منها الى مصر ويعود الى العرش » ويقول ايضا « ان المؤامرة كانت ترمى الى قتل عرابى ونفر من اصدقائه ثم اعلان عودة الحكم المطلق ، ولما كشف امرها حوكم المتآمرون امام

محكمة عسكرية وحكم عليهم بالنفى الى البحر الابيض فرفض الخديوى التوقيع على الحكم بايعاز من الانكليز الذين كانوا يعطفون على المتآمرين ويغذون حركتهم لتوطيد اقدامهم فى مصر »

ويقول الصدر الاعظم سعيد باشا فى مذكراته : « ان هؤلاء الضباط ارسلوا عرائض الى السلطان يطلبون النظر فى امرهم فاصدر ارادته الى الباب العالى بان يكتب الى الخديوى بطلب ارسال ملفات قضاياهم للنظر فيها على ان لا يبت فى شأنهم قبل صدور ارادة سنية »

وهذا نص البرقية المرسلة الى الخديوى وهى بتوقيع عبد الرحمن باشا خلف سعيد باشا فى الصدارة :

« اطلع جلالة السلطان على برقيتكم المؤرخة ٧ مايو سنة ١٨٨٢ فأمرنى ان ابلغكم وجوب ارسال ملفات قضايا الضباط والامراء العسكريين المراد نفيهم لتعرض عليه لاستصدار ارادة سنية صائبة تنطبق على مقتضيات الاحوال بعد درس الاحكام الصادرة عليهم درسا وافيا والاطلاع الوافى على حيثياتها . هذا مع الايعاز الى النظار بمراجعة الباب العالى وانتظار اوامره فى هذا الشأن »

ولما احال الخديوى البرقية الى مجلس النظار عد طلب الباب العالى خرقا لامتيازات مصر واعتبر توفيق باشا مسؤولا عن هذا التدخل لتغاضيه وتساهله فتوترت العلاقات بينه وبين نظاره ، واتفق هؤلاء على مقاومة كل تدخل يقع من جانب الاستانة ولو بالقوة اذا دعت الحاجة . وابلغ الخديوى الباب العالى ماتم فاتصل هذا بمجلس النظار مباشرة ، وكتب الى الخديوى يقول انه اضطر ان يخاطب مجلس النظار مباشرة بسبب انقطاع العلاقات بينك وبينه ، فاطلع قنصلى انكلترا وفرنسا على ماحدث ، وكان يعتمد عليهما ، وطلب تأييدهما

١٠

فى طريق الاحتلال

هنالك شبه اجماع بين الذين كتبوا عن المؤامرة الشركسية على ان قنصل انكلترا مثل فى اثنائها دورا خطيرا فهو الذى اشار على الخديوى بعدم اقرار الحكم الصادر على المتآمرين ، وهو الذى اغراه بمعاكسة الحكومة ، ودفعه الى مقاومة العرابيين

واضطرب مركز الخديوى وتزلزل لاشتداد الجفاء بينه و بين حكومته من جهة و بينه و بين الباب العالى من جهة اخرى ، وطارت الاشاعات بان العرابيين يعملون لعزله و يتآمرون لاقصائه فراى ان مصلحته تقضى بالميل الى الانكليز فابلغ قنصل انكلترا العام – كما يقول عرابى باشا فى مذكراته – انه يطلب منهم ان يعيدوا له سلطته

واتصل اللورد غرانفيل وزير خارجية انكلترا بالمسيو غمبتا وزير الخارجية الفرنسوية وتم الاتفاق بينهما على ان ترسل انكلترا اسطولا الى مصر يشترك مع الاسطول الفرنسوى

ورد المسيو فريسينيه رئيس الوزراء الفرنسويين يومئذ على سؤال القى عليه فى مجلس النواب فقال ان فرنسا تعمل على حفظ استقلال مصر على المنوال المرسوم فى الفرمانات فلا يطرأ عليه تغيير وان فى اتحاد انكلترا وفرنسا فى العمل ضمانا لهذا الاستقلال . ثم قال ان الحوادث قد تستلزم اتفاق جميع الدول الاوربية لتسوية المسألة المصرية وحيث ان الدول تعترف لفرنسا وانكلترا بحق التقدم والارجحية فمن الواجب عليهما ان يديرا سياستهما بحزم وثبات

وفى يوم ١٥ مايو زار قنصلا انكلترا وفرنسا الخديوى وابلغاه رسميا ان الاسطولين الانكليزى والفرنسوى قادمين الى مصر وفى يوم ١٩ منه وصلت اول مدرعة انكليزية الى الاسكندرية وفى ٢٠ منه وصلت اثنتان وفى يوم ٢١ منه وصلت اثنتان ايضا وتتابع وصول البوارج بعد ذلك . وارسلت كل دولة من الدول الاوربية الكبرى بارجة للمحافظة على رعاياها

منشور قنصل انكلترا

واذاع قنصل انكلترا منشورا على قناصل حكومته فى القطر المصرى يقول فيه ان وصول الاسطول ليس فيه مايوجب تكدير العلائق

الباب العالى يحتج

ولما وصل الى علم الباب العالى ان الحكومتين الفرنسوية والانكليزية اصدرتا الامر الى اسطوليهما بالسفر الى مصر ارسل بلاغا الى الدول وقال فيه ان الحالة هنالك لا تستوجب مثل هذا التدبير فضلا عن ان مثل هذا العمل من اختصاص الباب العالى فهو يتولاه اذا رأى ان هنالك مايستوجبه و يبعث عليه

مطالب الانكليز والفرنسويين

وزار قنصل فرنسا العام يوم ٢٢ مايو رئيس مجلس النواب فى منزله وابلغه شفاها مطالب الحكومتين وهى :

١ – استقالة الوزارة

٢ – اخراج عرابى باشا من القطر المصرى على ان تضمن له فرنسا وانكلترا حفظ رتبه ومرتباته ونياشينه

٣ – اقامة على باشا فهمى ، وعبد العال باشا حلمى فى الارياف فى مكان لايغادرانه على ان تضمن الدولتان رتبهما ومرتباتهما

٤ ـ تسريح الجيش المصرى فلا يبقى منه سوى عدد قليل للمحافظة على الحدود الجنوبية

وعقد النظار اجتماعا وتشاوروا فى الامر ثم اتفقوا على استشارة الخديوى قبل البت فى امر من الامور فذهب رئيس النظار مع ناظر الخارجية (مصطفى فهمى باشا) فقابلاه و بسطا له ماجرى فقال انه ينتظر ورود تعليمات تصل اليه بعد يوم او يومين وانه لذلك يؤجل ابداء رأيه

ودارت بعد ذلك مفاوضات بين الحكومة والقنصلين بغية الوصول الى حل سلمى فلم تسفر عن نتيجة بسبب تشددهما . وفى يوم ٢٥ مايو زار القنصلان رئيس النظار وسلماه رسميا مذكرة بمطالبهما الواردة آنفا والحا بوجوب قبولها

واجتمع النظار على الاثر فى منزل رئيسهم فقرروا بالاتفاق رفضها لانها تعتبر تدخلا فى شؤون مصر الداخلية واعتداء محضا على كرامتها واستقلالها

الخديوى يقبل المذكرة

وزار رئيس النظار وناظر الخارجية الخديوى وعرضا عليه قرار النظار برفض المذكرة وطلبا منه ان يرفضها ، فقال انه تقدمت اليه نسخة منها وانه ابلغ الدولتين انه قبلها فأدى ذلك الى كثير من الاضطراب والهياج و بث الدعاية لخلع الخديوى

استقالة الوزارة

واقترح رئيس الوزارة على الخديوى دعوة مجلس النواب للنظر فى الامر وللفصل فى الخلاف القائم بين الخديوى والحكومة فرفض فأصدرت الحكومة قرارا بدعوته الى الاجتماع ثم قدمت استقالتها فى الغداة (٢٦ مايو) احتجاجا على تدخل الانكليز والفرنسويين فى شؤون مصر فقبل الخديوى استقالتها فورا وتولى بالذات شؤون الحكومة واذاع المنشور الآتى على حكام البلاد وهذا نصه :



الخديوي محمد توفيق باشا

« بما ان هيئة النظار استعفت وصار قبول استعفائها فليكن ذلك معلوما لديكم لتصرفوا جهدكم واقتداركم فى المحافظة التامة منكم ومن مأمورى المديرية الموكلة لادارتهم ، بالدقة والانتباه لحسن سير الاشغال ، والمصالح المتعلقة بكم كما انه من حيث ان المراكب الحربية الاجنبية التى حضرت الى الاسكندرية لم يكن حضورها ، الا بوجه سامى فقط ، ولم يكن هنالك شيء آخر خلاف ذلك فليس هنالك لزوم لارسال احد من عساكر الامدادية الذين صار طلبهم اخيرا بمعرفة الجهادية ، بل ان الموجود منهم تحت الحضور من البلاد نبه بصرف النظر عن حضوره ، واعلان المراكز والاقسام بالتنبيه على مشايخ وعمد البلاد بهذا المضمون للعلم بعدم الاقتضاء لجمع العساكر وانتباه كل لاشغاله وزراعته بدون اشتغال فى غير ذلك

« هذا وان الامور المهمة التى كان قد جرى العرض عنها لنظارة الداخلية يجب ان يعرض عنها من الآن الى جانبنا الى ان تتشكل نظارة جديدة كما هو مطلوبنا »

وصرح الخديوى فى اجتماع كبير عقد يوم ٢٧ مايو « ان السياسة اقتضت استعفاء الوزارة وقبول مذكرة فرنسا وانكلترا وانه احتفظ لنفسه بادارة الجهادية وادارة المصالح الادارية ريثما تؤلف هيئة النظار الجديدة »

وزارة راغب باشا

واضطر الخديوى ازاء ضغط الشعب الى تأليف وزارة وطنية بدلا من الوزارة المستقيلة فالفها راغب باشا وهو من المعتدلين يوم ١٩ يونيو وتولى عرابى باشا فيها وزارة الحربية والبحرية

١١

مذبحة الاسكندرية ومؤتمر الاستانة

حدثت هذه المذبحة يوم ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ فكان حدوثها من جملة العوامل التى عجلت فى الاحتلال البريطانى ومهدت للانكليز سبل التدخل ولذلك ذهب بعض المؤرخين الى القول بانه كان لموظفى انكلترا السياسيين الذين كانوا يعملون يومئذ فى القطر المصرى ويمهدون لاحتلاله يد فى نسج خيوطها ويستدلون على ذلك بأن احد المالطيين من الرعايا الانكليز هو الذى اشعل نارها وبان الاجانب الذين اشتركوا فيها كانوا مسلحين بعكس الوطنيين

ولقد ذهب ضحية هذه المذبحة ١٤٠ وطنيا و ٥٧ اجنبيا ونهبت جملة اماكن والفت الحكومة لجنة للتحقيق عنها برئاسة عبد الرحمن رشدى بك وزير المالية فى وزارة راغب باشا الجديدة ، تضم ١٨ عضوا نصفهم من موظفيها المدنيين والعسكريين والنصف الآخر من مندوبى قناصل الدول وقبل ان تنجز مهمتها وقع الاحتلال البريطانى

مندوب السلطان

وعلى أثر اضطراب الحالة فى مصر اوفد السلطان درويش باشا مشير المابين ليشرف على الحالة ومنحه سلطة واسعة فجاء الى الاسكندرية واستقر فيها واتصل بالخديوى توفيق باشا وبولاة الامور فى الحكومة المصريه وبزعماء الحركة الوطنية واخذ يعمل على تهدئة الحالة

مسألة التحصينات

وكتب اللورد غرانفيل وزير الخارجية البريطانية الى اللورد دوفرين سفيره في الاستانة طالبا منه ان يلفت نظر الباب العالى الى التحصينات الجديدة التى شرع فيها العرابيون فكتب الى الخديوى فجاءه الجواب بان الحصون لم تزل على حالها وان كل ماجد عليها هو ترميم عادى لا يسمى تحصينا فأمر السلطان بوقف هذا الترميم ، وكتب الباب العالى الى الحكومة البريطانية يقول انه لا تحصين هنالك ، وانه امر المصريين الذين شرعوا فى اعمال الترميم العادية بالكف عنه حتى لا يثيروا مخاوف الاسطول البريطانى وكان قد وصل الى الاسكندرية بقيادة الاميرال سيمور ورسا امامها

مؤتمر الاستانة

وفى اواخر شهر مايو سنة ١٨٨٢ اقترحت الوزارة الفرنسوية على الدول عقد مؤتمر دولى لحل المشكلة المصرية ، فوافقت انكلترا على هذا الاقتراح وتم الاتفاق بين الدولتين على ان تدور ابحاث المؤتمر حول الاسس الآتية :

١ ـ المحافظة على حقوق السلطان والخديوى والتزامات مصر الدولية

٢ ـ احترام الحقوق التى نالتها مصر بموجب الفرمانات السلطانية

٣ ـ المساعدة على تقدم الانظمة المصرية بحذر وروية

وضرب يوم ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٢ موعدا لعقد هذا المؤتمر واجتمع فى الوقت المعين فى دار السفارة الايطالية فى الاستانة واشترك فيه سفراء انكلترا وفرنسا وروسيا وايطاليا والنمسا وبروسيا ورأسه سفير ايطاليا باعتباره الاكبر سنا وابى الباب العالى ان يشترك فيه بحجة ان الحالة فى مصر مستقرة وانه لاحاجة الى عقده وقرر المؤتمر فى جلسته الاولى دعوة الباب العالى الى الاشتراك فيه وارسال ممثل يمثله ، فاصر على الرفض ، وقرر المؤتمر فى جلسته الثانية المعقودة يوم ٢٥ يونيو القرار الآتى وهو :

« ان الحكومات الممثلة فى هذا المؤتمر تتعهد بانهـا لا تريد ان تستأثر لهـا ولرعاياها باى امتياز ارضى او تجـارى فى مصر لا يكون للدول الاخـرى الحق فى الحصول على مثله »

وعقد المؤتمر جلسته الثالثة يوم ٢٦ يونيو فخطب اللورد دوفرين خطبة طويلة قال فيها ان هنـالك امرين يجب ان يعنى بهما : الاول الاسراع فى انشاء حكومة منظمة فى مصر تكون عادلة ومستقيمة ونافذة الكلمة ، تعترف بسلطة الخديوى وتكون قادرة على الوفاء بالالتزامات الدولية

والثانى : اتخاذ التدابير اللازمة لضمان استمرار الراحة والسلم فى المستقبل وعدم وقوع حوادث محزنة كتلك التى وقعت اخيرا

وطالت المناقشات فى هذا المؤتمر بين سفراء الدول واخيرا وافقوا يوم ٦ يوليو على قرار بوجوب الاسراع فى معالجـة الحالة الطارئة فى مصر ، وان يلجأ الى جـلالة السلطان ويسأل ان يتدخل فى امرها وان يساعـد الخديوى بارسال قوة كافية من الجند لاعادة الامن والنظام الى البـلاد وانقاذها من الفوضى التى تمكنت فيها ونشأ عنها هدر الدماء وخراب الالوف من بيوت الاجانب والمسلمين وتضرر كثير من مصالح الوطنيـين والاجانب على ان تكون مهـمة الجنود العثمانيين بمصر تأييـد حقوق السلطان عليهـا ، واعادة سلطة الخديوى وتوطيدها ، والشروع فى اصلاح الجيش المصرى طبقا لاصول يتفق عليها فيما بعد بشرط ان لا يمس ذلك الاصلاحات النافعـة التى نفذت فى نظام مصر المدنى والادارى والقضائى و بشرط عدم مخالفة ما تقتضى به الفرمانات

« والدول الاور بيـة واثقة كل الثقة انها بالتجائها الى الجناب السلطانى تضمن بقاء ما هو مقرر لمصر على حاله مدة وجود الجنود العثمانية ، ومعتقدة ان حقوق مصر والامتيازات الممنوحة لها بموجب الفرمانات القديمة لا تمس مطلقا ولا يمس ايضا شىء من الاصول المقررة لادارة الاحكام فيها ، ولا من العهود والمواثيق الدوليـة ولا من اعمال التسوية التى نجمت عنها وتقررت بشأنها »

«و يظل الجيش العثمانى فى مصر مدة ثلاثة اشهر و يمكن ان تمد هذه المدة بطلب الخديوى الى اجل يتفق عليه بين الدولة العثمانية والدول الاور بية وحكومة مصر ، و يعين قائد هذا الجيش بالاتفاق مع الخديوى . اما نفقاته فتكون على حساب مصر وتحدد باتفاق يعقد بين الدولة العلية والدول الاور بية والحكومة المصرية

«واذا لبت الدولة العثمانيـة دعوة الدول - كما هو المأمول - فيعقد اتفاق بينها و بين الدول على طريقة التنفيذ »

وارسل كل من سفراء الدول نص هذا القرار الى دولته للموافقة عليه قبـل ارساله الى الباب العالى ، ورای الانكليز ان تحول القضية هذا التحول - وما كانوا يرغبون فى ارسال الحملة العثمانية الى مصر لئلا تعرقل سياستهم - يستوجب التعجيل فاقدموا على العمل منفردين دون ان يقيموا وزنا لآراء الدول الاخرى

١٢

ضرب الاسكندرية

في اواخر شهر يونيو اجتمع في الاسكندرية اسطول بريطاني بقيادة الاميرال بوشامب سيمور يتألف من ثماني مدرعات كبيرة ، كانت اضخم مدرعات الاسطول البريطاني في عصرها وهي : الكسندرا وانفلكسيبل وسلطان وسوبرب وتمرير وانفنسيبل ومونارك وبنلوب ومن خمس مدفعيات وهي بترن ، وكندور ، وبيكن وسينت ، ودكوي ، فرابط امامها ، وكانت مهمته في الظاهر المحافظة على ارواح الاجانب ومصالحهم ومهمته المضمرة احتلال مصر ، فاقلق وصوله بال المصريين فقرر مجلس النظار المصري في جلسة يوم اول يوليو ان يلتمس من السلطان السماح له بترميم الحصون التي اوقف ترميمها كما قرر المباشرة بحشد الجند

وفي يوم ٣ يوليو ابرق مجلس الاميرالية الانكليزية الى الاميرال سيمور يقول : « امنعوا كل محاولة يراد بها غلق ميناء الاسكندرية . واذا بوشر اعادة العمل بالحصون او نصبت فيها مدافع جديدة فاخبروا قائدها العسكري ان لديكم اوامر بالحيلولة دون ذلك واذا لم يوقف العمل في الحال فدمروا الحصون واسكتوا مدافعها ، اذا اطلقت النيران بعد ماتعطوا الاهالي والسفن التجارية الاجنبية المهلة الكافية »

وفي يوم ٤ منه ارسل الاميرال الى مجلس الاميرالية برقية قال فيها : نصب مدفعان جديدان في حصن فاروس (قايتباي) في الليلة الماضية وقوى الحائط المواجه للبحر ، ويفضل القنصل ان اؤجل توجيه الانذار الى صباح الخميس لكي يجد الاوربيون فرصة للهجرة من القاهرة

ولم يحدث اى تغيير فى الوجهات المشرفة على البحر

وفى يوم ٥ منه ارسل المستر كارترايت قنصل انكلترا الى وزير خارجية انكلترا يقول : ان وكيل نظارة البحرية المصرية توجه امس بعد الظهر فقابل الاميرال سيمور وقدم له تقريرا مطمئنا من جهة وضع العوائق فى مدخل ميناء الاسكندرية و بعد ذلك بقليل تلقى الاميرال كتابا من قائد الحامية هذا نصه : تلقى الخديوى صباح اليوم برقية من السلطان يقول فيها انه يعتبره ووزراءه مسؤلين اذا لم توقف الاعمال فى الحصون لان اعمالا كهذه تحمل الاسطول البريطانى على ضرب الاسكندرية ، وسيجتمع مجلس الوزراء فى هذا الصباح لابلاغه هذا الامر العالى للعمل بمقتضاه

وفى ٦ منه ابرق الاميرال سيمور الى الاميرالية قائلا : « لقد اكد لى القائد العسكرى ردا على مذكرتى المؤرخة بتاريخ اليوم بانه لم يوضع اى مدفع جديد فى الحصون ولم ينجز عمل ما ، وصادق درويش باشا على صحة هذا التصريح ولم يحدث مايدل على القيام باعمال جديدة ، ويجوز ان ذلك انما كان امتثالا لامر السلطان ، ولا اتردد فى الضرب اذا واصلوا هذه الاعمال ، وقد تلقى الاميرال الفرنسوى الاوامر بالتراجع هو وبوارجه اذا بدىء بالعدوان [1] »

---

(١) فى يوم ٥ منه كتب اللورد ليونس (سفير انكلترا فى باريس) الى وزير خارجية انكلترا يقول ان المسيو فرنسينيه رئيس الوزارة الفرنسوية ابلغه بانه تلقى فى صباح ذاك اليوم برقية من الاميرال كونراد قائد الاسطول الفرنسوى بالاسكندرية تكلم فيها عن التعليمات التى تلقاها الاميرال سيمور عن النيات التى نسبت للحكومة المصرية وقيل انها موجهة ضد الاسطولين الفرنسوى والانكليزى ثم قال الوزير للسفير انه جمع مجلس الوزراء لبحث المسألة فقرر المجلس ان الحكومة الفرنسوية لاتستطيع ان تصدر تعليمات للاميرال كونراد بان يكون مع الاميرال سيمور وان يمنع بالقوة بناء الحصون او نصب المدافع فى ميناء الاسكندرية

واستطرد المسيو فريسينيه فقال ان الحكومة الفرنسوية تعد التصرف على

وفى يوم ٧ منه وجه قناصل الدول فى الاسكندرية وهم دى فورجس والبارون سورما ودى مارتينو ودى لكس والبارون كسك المذكرة الاجتماعية الآتية الى الاميرال سيمور وهى :

« ان وفرة مصالح رعايانا الكثيرى العدد بالاسكندرية الآن والذين لهم املاك جسيمة جدا تضطرنا ان نستعلم من جنابكم عما اذا كنتم تعتبرون اجابة الحكومة المصرية الخاصة بالتحصينات مرضية

« ونحن نرى انه فى مقدورنا ان نحصل على تأكيدات منها ترضيكم الرضاء التام اذا كنتم ترون ان الاجابة غير وافية ، وتصيرونا شاكرين غاية الشكر اذا ابلغتمونا ان هذه المسألة قد سويت وانتهت ، اما اذا كان الامر على عكس ذلك فافيدونا عمن نعتمد عليه فى ترحيل رعايانا ، وعلى اى حال لايمكن ان يتم ضرب الاسكندرية بدون ان يجر اخطارا جمة على المسيحيين والاهالى معا ، ولا بدون تدمير ما لا يحصى من املاك الاوربيين ، وسنتقبل بمزيد السرور تكرمكم برفع هذه الملاحظة الى حكومتكم قبل ان تنفذوا اوامرها الصادرة فى هذا الشأن »

ورد عليهم الاميرال فى اليوم نفسه بالمذكرة الآتية :

سادتى :

« اتشرف باخباركم بوصول مذكرتكم التى بعثتم بها الى اليوم تسألوننى عما اذا كنت مرتاحا من اجابة القائد العسكرى على خطابى الذى ارسلته اليه أمس ، وانى اشكركم كثيرا على ماعرضتموه على من الحصول على اجابة من القائد العسكرى

هذا المنوال عملا عدائيا هجوميا ، ضد مصر ولا يمكن الاشتراك فيه من دون الاخلال بنص الدستور وهو يحظر الدخول فى حرب بدون موافقة البرلمان و بناء على ذلك فقد ارسل الى الاميرال كونراد تعليمات بان لاينضم الى الاميرال سيمور اذا وجه هذا انذارا نهائيا للمصريين يختص بتحصيناتهم وان يتراجع اذا صمم على اطلاق المدافع »

مرضية واذا كنت ارغب فى تأكيدات منه اوفى من الاولى كما ارجو ان تتقبلوا وافر شكرى على الاقتراح الذى تفضلتم بتقديمه الى

« فاذا كان نفوذكم عند القائد العسكرى يمكن ان يحمله على التصرف باخلاص ويحول دون استمراره فى اعمال التحصين فانكم بذلك تصيبون الهدف المقصود ، لان التأكيدات المكتوبة مهما تكن عبارتها ، تكون قليلة القيمة بالنسبة للمصالح التى اؤتمنت عليها

« وعلى ان ابين لكم انى لا انوى ولا قلت مطلقا انى اقصد ضرب مدينة الاسكندرية فان الاعمال الحربية اذا امست ضرورية فستتوجه الى الحصون ولا ارى سببا للخوف من وقوع تلف يصيب الاملاك الخاصة التى انتم من اجلها فى وجل ، وسأبلغ حكومة جلالة الملكة الملاحظة التى لفتم نظرى اليها فى الفقرة الاخيرة من خطابكم ويجب على ان احرص مع التدقيق على نص بلاغى الذى ارسلته الى القائد الحربى حينما تحدث ادنى محاولة يقصد بها العودة الى اعمال دفاعية وعلى اى حال فلا بد من اعطاء انذار نهائى »

وارسل الاميرال سيمور فى اليوم نفسه الى قائد الاسكندرية يقول :

« اتشرف باخباركم بانى علمت من طريق رسمى ان مدفعين جديدين نصبا امس فى خطوط الدفاع المشرفة على البحر ، وان بعض استعدادات حربية على وشك التمام فى واجهة الاسكندرية الشمالية والمقصود منها تهديد الاسطول الذى بقيادتى فيجب على والحالة هذه ان اعلنكم بانكم ان لم تأمروا بالاقلاع عن هذه الاعمال او تكونوا قد امرتم بالاقلاع عنها فان من واجبى ضرب الحصون التى يجرى فيها البناء »

فرد عليه قائد الاسكندرية فى اليوم نفسه بالكتاب الآتى :

عزيزى الاميرال :

« اتشرف بان ابلغكم وصول كتابكم المؤرخ ٧ يوليو الذى تذكرون فيه انه اتصل بكم تركيب مدفعين وان اعمالا اخرى توشك ان تتم على شاطئ البحر فردا على ذلك اريد ان اؤكد لكم ان الاخبار المذكورة عارية عن الصحة وانها مثل خبر

التهديد بسد مدخل ميناء الاسكندرية الذى اتصل بكم وتحققتم كذبه

« هـذا وانى لواثق من شريف عواطفكم المتشبعة بروح الانسانية ، وارجو ختاما قبول احتراماتى

وفى يوم ٧ منه ارسل الخديوى توفيق الى الباب العالى التلغراف الآتى :

« من اليوم الذى انقطعت فيه الاعمال حسب امر جلالة السلطان لم نقم باى عمل حتى الآن. وقد اذيعت اشاعة مضمونها ان الحكومة تنوى سد مدخل ميناء الاسكندرية وانها تتخذ غير ذلك من التدابير الحربيـة . وقد توجه قنصلا انكلترا وفرنسا الى راغب باشا للوقوف على الحالة منه فأكد لهما ان هـذه اشاعات ليس لها نصيب من الصحة وان فكرة هـذه التدابير لم تخطر ببال . و بما ان ميناء الاسكندرية مزدحمـة بالبوارج الحربية فهذه الحالة تخول لكل بارجة منها حجز كل سفينة تحمل مدافع ـ وقد نبه رئيس النظار ناظر الحربية الى ذلك فخرج القنصلان راضيين من هذا البيان وكتب الاميرال الى قائد الاسكندرية كتابا صرح فيه بانه مادامت النية معقودة على سد الميناء فيلزمه هو ايضا ان يتخذ احتياطات لوقاية نفسه فاجاب القائد بان هذا الخبر ليس له صحـة . وذهب بعد ذلك ناظر الحربيـة واكد للاميرال الانكليزى هـذه التأكيدات فشكره وودعه ليخبر بذلك حكومته »

وفى يوم ٩ منه ابرق الاميرال سيمور الى الاميرالية البريطانية يقول :

« اقول بالاشارة الى برقيتى يوم ٤ يوليو انه ليس هنالك ادنى ريب فيما يتعلق بالتسليح . وسأنذر قناصل الدول غدا عند شروق الشمس واشرع فى الضرب بعـد ٢٤ ساعة ان لم تسلم الى الحصون القائمة على مدخـل الميناء والتى تشرف على مدخـل الميناء »

وفى اليوم نفسه ارسـل المستر كارترايت قنصل انكلترا الى وزير الخارجيـة الانكليزية البرقية الآتية :

« سيدى اللورد

« اتشرف باخباركم انه اتصل بالاميرال سيمور ان مدفعين جديدين نصبا صباح اليوم على حصن السلسلة القائم تجاه الميناء الجديد

« وحيث ان الاميرال لايستطيع ان يلزم الصمت ازاء هذا العمل قرر ان يطلق النار عند شروق شمس يوم الثلاثاء ١١ الجارى

« ولقد انذرت فى هذا المساء القناصل والخديوى ودرويش باشا وسأعمل الترتيبات اللازمة لانزال جميع الرعايا البريطانيين الى البواخر فى هذا المساء او غدا صباحا »

وفى يوم ٩ منه ارسل المستر كارترايت الى قناصل الدول الكتاب الآتى :

« سيدى

« اتشرف باخباركم ان من المرغوب فيه اعلان التابعين لحكومتكم كافة ان يكونوا فى البواخر الراسية فى الميناء فى خلال ٢٤ ساعة من تاريخ هذا الاعلان »

وكتب هذا يوم ١٠ منه الى درويش باشا قائلا :

ياصاحب السعادة

« بناء على بلاغ الاميرال سيمور الذى وجهه الى قائد الاسكندرية فى صباح هذا اليوم ارانى بصفتى وكيل قنصل حكومة صاحبة الجلالة بالنيابة مضطرا الى ان اخلى وكالتها بالاسكندرية وان اقطع مؤقتا العلاقات التى كانت الى الآن بينى وبين نظارة الخارجية المصرية

« ثم اخبركم بانى مكلف بان اعلن سعادتكم بالضرورة الماسة بكفالة سلامة سمو الخديوى فى كل الظروف وان حكومة جلالة الملكة تأمل من سعادتكم ان تشملوا وقاية سموه بكل انواع الاحتياطات التى تستدعيها الاحوال باستعمال نفوذكم المستمد من نيابتكم عن جلالة السلطان ، وانكم تعلمون ان سموه لاينكص امام الاخطار الجسيمة التى يعرضه لها موقفه الحالى بسبب تحمله اوفر نصيب بما تفرضه عليه الواجبات فحكومة صاحبة الجلالة البريطانية كلفتنى ان اعلم سعادتكم بان عليكم بحسب رأيها مسؤولية وقاية سموه من كل خطر ودرء الاخطار التى يمكن ان تحيط بسموه فى اثناء هذه الحوادث »

فرد عليه يوم ١٠ منه بالكتاب الآتى :

عزيزى نائب القنصل العام

« تسلمت خطابك المؤرخ ١٠ الجارى الذى شرفتمونى بارساله الى و يمكننى ان اؤكد لكم انى بذلت كل جهدى فى القيام بالمهمة التى تفضل جلالة السلطان فعهد بها الى

« ولقد عز علي ان ادرك السبب الذى انساق بسببه الاسطول الانكليزى فجأة من امس الى ابداء هذه النيات العدائية بعد ما لبث مدة مديدة ملقيا مراسيه فى ميناء الاسكندرية كان فى خلالها يظهر ميولا سلمية

« ان الصلات الودية بين السلطنة العثمانية وانكلترا لاتزال على حالها وحيث ان مصر هى احدى ولايات السلطنة العثمانية فكان فى استطاعة الاميرال ان يعرض اولا وجوه شكايته التى استوجبت اتخاذ التدابير التى اتخذها بطريقة ودية ، وكان فى الامكان مراجعتها والنظر فى وسيلة لتلافى الشر ، ومتى ظهر مرتكبو الاعمال التى اوجبت الشكوى ينزل بهم العقاب الصارم

« ويبدو لى اننا لو تصرفنا بهذه الطريقة لكان الامر قد آل الى توطيد العلاقات الودية بين المملكتين بدلا من الاندفاع فى تيار العداء

« ولقد اتيحت الفرصة لسعادة راغب باشا ولوكيل نظارة البحرية ان يؤكدا لكم وللاميرال انه لم يخطر ببال الحكومة المصرية ان تعمل اى عمل يكدر صفو هذه العلاقات الحسنة

« ومن المهم البحث عمن تقع عليه المسؤولية اذا كان جواب تصريحات حكومة متشبعة بروح المحبة وحسن النية قد قدمت كل الوعود والتأكيدات الضرورية ، هو القيام باعمال عدائية لاتستند الى المبادىء التى تسود علاقات دولتين صديقتين

« واما الانذار الذى وجهتموه الى لأضمن بكل مالدى من الوسائل سلامة سمو الخديوى ، فيجب علي ان الفت نظركم الى انه ليس من الصواب ايجاد تمييز بين شخص سمو الخديوى السامى وحكومته ، وانه لمن الطبيعى جدا ان سموه ما زال يعنى بسلامة وهناء البلاد التى يحكمها اكثر مما يعنى بسلامة شخصه »

وفى يوم ١٠ منه ارسل الاميرال سيمور الى قائد الاسكندرية الكتاب الآتى :

ياصاحب السعادة

اتشرف باخبار سعادتكم انه نظرا لحدوث استعدادات حربية آخذة فى الازدياد منذ امس فى حصون السلسلة وفاروس وصالح وحيث ان هذه الاستعدادات موجهة بالطبع الى الاسطول الذى هو تحت قيادتى فقد عقدت العزم على ان انفذ غدا (١١ الجارى) عند شروق الشمس العمل الذى اعربت لكم عنه فى خطابى المؤرخ ٦ يوليو الجارى ان لم تسلموا الى قبل هذه الساعة البطاريات المنصوبة على برزخ رأس التين وعلى ساحل ميناء الاسكندرية الجنوبى لمنع التسلح بها »

وارسل المسيو كارترايت قنصل انكلترا فى اليوم نفسه الى راغب باشا الكتاب الآتى :

سيدى الوزير

« بناء على البلاغ الذى قدمه الاميرال سيمور فى هذا الصباح الى قائد الاسكندرية اراني مضطرا الى اخلاء قنصلية صاحبة الجلالة الملكة والى ان اقطع العلاقات التى كانت بين سعادتكم و بين شخصى بصفتى وكيل وقنصل جنرال بالنيابة عن جلالتها فى مصر»

وفى يوم ١٠ منه ارسل رئيس النظار الى الاميرال سيمور الاحتجاج الآتى :

« لم تعمل مصر عملا يقضى بارسال هذه الاساطيل المتجمعة ، ولم تعمل السلطة العسكرية اى عمل يسوغ مطالب الاميرال الا بعض اصلاحات ضرورية فى ابنية قديمة والحصون الآن على الحالة التى كانت عليها عند وصول الاساطيل ، ونحن هنا فى وطننا وبيتنا فمن حقنا بل من الواجب علينا ان نتخذ عدتنا لمقاومة كل عدو مباغت يقدم على قطع اسباب الصلات السلمية التى تقول الحكومة البريطانية انها باقية بيننا

« ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها لاتستطيع ان تسلم اى مدفع ولا اى حصن دون ان تكره على ذلك بحكم السلاح

« فهى لذلك تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم وتضع مسؤوليات جميع

النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم اما عن هجوم الاساطيل واما عن اطلاق المدافع على الامة التى تقذف فى وسط السلام القنبلة الاولى على الاسكندرية المدينة الهادئة مخالفة بذلك لاحكام حقوق الانسان ولقوانين الحرب »

وعاد فارسل اليه فى اليوم نفسه الكتاب الآتى :

ياحضرة الاميرال

لما سبق ان وعدتكم به فى اثناء المحادثة التى دارت بينى و بينكم فى هذا الصباح رفعت لسمو الخديوى فى اجتماع حافل بالنظار وكبار موظفى الحكومة الشروط المدونة فى الخطاب الذى تكرمتم بارساله الى قائد الاسكندرية فى بكرة هذا النهار وذكرتم فيه انكم نويتم تنفيذ اغراضكم المبينة بخطابكم اليه يوم ٦ الجارى فى فجر الغد (١١ الجارى) وذلك اذا لم تسلم لكم مؤقتا البطاريات القائمة على برزخ رأس التين وساحل ميناء الاسكندرية الجنوبى لتجريدها من السلاح قبل انقضاء هذه المهلة

وانى آسف ياحضرة الاميرال ان اعلمكم بان حكومة سموه تعتبر هذا الطلب غير مقبول وانها لاترغب مطلقا فى تكدير صفو العلاقات بينها و بين انكلترا ولكنها لاتستطيع ان تعترف بانها اتخذت اى تدبير يمكن ان يعتبر تهديدا للاسطول الانكليزى سواء اكان ذلك من جهة اقامة اعمال فى الحصون ام من ناحية تركيب مدافع بها او استعدادات حربية

ومع ذلك فنحن مستعدون ان ننزل ثلاثة مدافع من البطاريات التى اشرتم اليها فنبرهن لكم على ميولنا السلمية ورغبتنا فى تلبية طلبكم على قدر الامكان

واذا كنتم تصرون رغم هذه التقدمة على اطلاق النار فالحكومة المصرية تحفظ لنفسها الحق وتلقى مسؤولية هذا العمل العدائى على عاتقكم ــ اه

وحمل هذا الكتاب الى الاميرال ياور درويش باشا وضابطان مصريان

فسلموه اياه فى الساعة السادسة من صباح ١١ منه فى المدرعتين انفنسيبل و بعد ان قرأه ارسل الرد الآتى :

ظهر البارحة انفنسيبل بالاسكندرية فى ١١ يوليوسنة ١٨٨٢

ياصاحب السعادة

اتشرف باخباركم بوصول بلاغكم المؤرخ بتاريخ امس وانى آسف ان اخبركم انه ليس فى استطاعتى ان اقبل ماعرضتموه على فى هذا البلاغ

وماكاد هؤلاء الضباط يصلون الى البر حتى اصدر الاميرال امره باطلاق النار

وارسل اللورد غرانفيل وزير الخارجية البريطانية يوم ١٠ منه الى سفراء انكلترا فى باريس و برلين وفينا وروما و بطرسبرج والاستانة البرقية الآتية :

« بناء على برقيتى التى ارسلتها امس مساء بينوا للحكومة التى انتم معتمدون لديها ان الخطة التى انبأنا اميرالنا انه سيسير عليها ليست اكثر من عمل دفاعى بسيط ومشروع ، واما قتاله — اذا كانت الضرورة لسوء الحظ تدعو الى قتال — فسيباشره لهذه الغاية و بدون اية فكرة اخرى

« ويتضح من تقريره ان اولى الامر والنهى بالاسكندرية على وشك ان يقوموا باستعدادات عدوانية و يضربوا باوامر السلطان ورغبات الخديوى عرض الحائط رغما عن تأكيداتهم الايجابية »

وارسل فى اليوم نفسه الى اللورد دوفرين سفيره فى الاستانة البرقية الآتية : —

« يلوح لى ان ما نقوم به من الاعمال لم يكن الا فى صالح السلطان الذى يستخفون به »

كيف حصل الضرب

فى الساعة السابعة من صباح يوم الاربعاء ١١ يوليوسنة ١٨٨٢ اعطى الاميرال

سيمور اشارة الضرب فارسلت البارجة الكسندرا وكانت اقرب البوارج من حصن الاسبتالية اول قنبلة الى هذا الحصن وتلتها البوارج الاخرى فلم تجاوبها بعض الحصون الا بعد الطلقة العاشرة وجاوب بعضها بعد الطلقة الخامسة عشرة

وصبت البوارج البريطانية نيرانها فى ابتداء القتال على حصون الفنار ورأس التين والاسبتالية ولم تقاتل الحصون الاخرى .

وقاومت الحصون مقاومة فاقت ما كان يظنه الانكليز وابدى مدفعيوها براعة فى تسديد الرمى لم يتوقعها احد ، فالقت البوارج سلطان وسوبرب والكسندرا وكانت تقاتل من الصباح متنقلة ، بمراسيها عند منتصف الساعة الحادية عشرة وواصلت الضرب باحكام

وانضمت البارجتان انفلسيبل وتمرير الى البوارج الثلاث فى اطلاق القنابل بعد الظهر فاسكتت حصون راس التين والفنار والاسبتالية فى منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر ، الا ان مدفعا واحدا من حصن الاسبتالية واصل الضرب حتى الساعة الخامسة مساء

وعقب سكوت مدافع الحصون الثلاثة وجهت البوارج نيرانها الى حصن الاطه وانضم اليها فى ضربه البارجتان الاخريان فقاوم مقاومة عنيفة نيران البوارج الخمسة وفى الساعة الثالثة والنصف انفجر مستودع البارود فى داخله بقنبلة مدفع فنسفه فقتل كثيرون من الجنود الذين كانوا يدافعون عنه مع قائده

واتجهت البوارج الخمس بعد تدمير هذا الحصن الى حصن فاروس (قايتباى) وواصلت ضربه بمدافعها حتى الساعة الخامسة اى حتى صدور امر الاميرال بوقف الضرب

وكان هنالك اسطول انكليزى آخر اطلقوا عليه اسم الاسطول الداخلى يتألف من المدرعات مونارك وفيها الاميرال ، و بنلوب وانفسيبل . وكان على بوارح هذا الاسطول ان تقف شمالى المكس الغربى وتقاتل حصون ام قبيبة والمكس والدخيلة تعاونها فى ذلك البارجة انفلكسيبل

و واصلت هذه البوارج ضرب هذه الحصون من الساعة السابعة صباحا حتى الظهر فسكتت الحصون واوقفت الضرب فاوقفته البوارج

واقتربت البارجة كندور من حصن المرابط وكان يطلق مدافعه على البوارج الكبيرة باحكام وهاجمته واصدر الاميرال امرا الى السفن الاربع الصغيرة بان تشد ازر كندور فلبت الامر واسكتت الحصن

وفى الساعة الثانية بعد الظهر اصدر الاميرال امرا بارسال ٢٠ جنديا الى البر لنسف مدافع حصن المكس بالديناميت ففعلوا ذلك ورجعوا الى الاسطول سالمين ، وابلغت البارجة بنلوب الاميرال فى الساعة الثالثة والنصف ان مدفعي حصن القمرية يستعدون للضرب كما ابلغته البارجة مونارك بان الجنود المصريين عادوا الى حصن المكس فامرهما بأن تضرباهم فاستمرتا على ذلك حتى الساعة السادسة مساء

تقارير الاميرال سيمور عن ضرب الاسكندرية

وضع الاميرال سيمور ثلاثة تقارير عن ضرب الاسكندرية ارسلها الى سكرتارية الاميرالية الانكليزية ونحن نثبتها بحسب تاريخ ارسالها :

التقرير الاول

ظهر البارجة انفنسيبل فى ١٤ يوليو سنة ١٨٨٢

سيدى

لى الشرف بان التمس منكم ان تتفضلوا وتخبروا اللوردات مندوبى الاميرالية اننى لم اتمكن حتى هذا الوقت من ارسال تقرير مفصل عن الهجوم على حصون الاسكندرية بسبب انشغالى بهذه المهمة الشاقة

انه بسبب اخفاق فى طلب الترضية عن المسائل التى كلفت بطلبها من حكومة مصر ، هاجمت فى ١١ الجارى البطاريات المنصوبة على واجهة الاسكندرية الشمالية والاستحكامات المقامة فى الشمال الغربى ، ونجحت فى اسكات الحصون فى منتصف الساعة السادسة مساء وهو الوقت الذى اعطيت فيه الاشارة بالكف عن الضرب

وفى صباح يوم ١٢ منه ثانى يوم الضرب امرت تمرير وانفلكسيبل بان تهاجما حصن فاروس وبعد اطلاق مدفعين او ثلاثة رفع علم الهدنة على حصن رأس التين فارسلت عندئذ ضابط اركان الحرب الانورابل هدورث لامبتن وكلفته باستجلاء السبب ، ويؤخذ من تقريره ان فى الامر خديعة تافهة عملت لاكتساب الوقت بلا مراء ، وبما ان المفاوضات قد فشلت لان طلبى هو تسليم البطاريات الحاكمة على ممر الميناء اطلق مدفع على سطح بطاريات ثكنات المكس وعندئذ رفع علم الهدنة مرة اخرى ، فارسلت ضابط الاركان الحرب المذكور ، ومعه القائد مورسن الى الميناء على ظهر السفينة هلكن ، ولما ذهب الى يخت الخديوى المحروسة وجد ان بحارته تركته وقال عند رجوعه بعد دخول الليل انه يعتقد ان المدينة اخليت من السكان

وامس صباحا توغلت فى الميناء على ظهر البارجة انفنسيبل ومعى المدرعتان بنلوب ومونارك وانزلت الى البر فرقة لتضع يدها على رأس التين

وانى آسف لاخباركم ان مدينة الاسكندرية اصيبت باضرار بالغة من الحرق والنهب

ووصل سمو الخديوى فى الساعة الرابعة والدقيقة ٤٥ الى سراى رأس التين نخصصت لحمايته ولاحتلال شبه الجزيرة ٧٠٠ بحار

ونزلت فرقة من جنود البحرية فى المساء الى البر ومعها مدفع فطهرت بعض الشوارع من العرب الذين كانوا يحرقون بيوتها وينهبونها

ويجب على ان انوه بالسلوك الحسن الذى سلكه الضباط ورجال الاسطول فى اداء مختلف مهامهم وان اظهر اعجابى بهم واثنى عليهم افضل ثناء واخص بالذكر

الكابتن ولتر هنت جرب قائد المدرعة سلطان اقدم الضباط وقائد الاسطول الخارجى

وسأرسل عن قريب تقريرا مفصلا واصحبه بصور المراسلات التى دارت

ولقد قاتل المصريون قتال الابطال بأقدام ثابتة وكانوا يجاوبون النيران الشديدة التى تصبها على حصونهم مدافعنا الضخمة الى ان قتل عدد كبير منهم

وتجدون طيه بيانا بعدد القتلى والجرحى ولى الشرف بان اكون الخادم المطيع

القتلى		الجرحى	
١	انفلكسيبل	٢	انفلكسيبل
١	الكسندرا	٣	الكسندرا
١	سوبرب	١	سوبرب
٢	سلطان	٨	سلطان
		٦	انفنسيبل
		٨	بنلوب
٥	المجموع	٢٨	المجموع

التقرير الثانى

ظهر السفينة هلكن فى ١٩ يوليو سنة ١٨٨٢

سيدى

انه عندما ورد لى بيان من الملازم سمث دورين ، بأن مدفعين سينصبان فى حصن السلسلة ارسلت بلاغا الى قائد الاسكندرية الحربى اعلنته فيه بانى سأضرب الحصون عند شروق شمس ١١ يوليو ان لم تسلم لى قبل هذا الوقت البطاريات المقامة على برزخ رأس التين وساحل الاسكندرية الجنوبى لاعطلها ، وبذلك اكون قد

نفذت تعليمات اللوردات التى وردت الى فى ١٠ الجارى

وشوهدت فى الصباح البـاكر من يوم ١١ منه الباخرة هلـكن متجهة نحو البارجة انفنسيبل التى كانت راسية فى ممر الميناء يخفق عليهـا علمى ، وفى منتصف الساعة السابعة والنصف اخبرت « هلـكن » بالاشارات ان على ظهرها ضباطا مصريين يرغبون الاتصال بى ، ووصـل هؤلاء الى بارجتى وهم ياور درويش باشـا وضابطان مصريان وسلمونى كتابا من سعادة راغب باشا رئيس مجلس النظار وناظر الخارجية صورته طيه (انظر ص ٢٧٠) يقول فيـه انه مسـتعد لانزال ثلاثة مـدافع فاخبرتهم انه من المستحيل قبول مثل هذا الاقتراح وارسلت الى سعادته ردا بهذا المعنى (تجدون صورته طيه) (انظر نصه ص٢٧٢)

ولمـا تيقنت ان الضباط وصلوا الى البر سالمين امرت باطلاق النار على الحصون فجـاء الرد حالا و بشدة من خطوط المـكس ومن البطاريات المنصوبة على الطوابى التى وراء الشعوب بجانبى الميناء ومن حصنى الاطه وفاروس

ولمـا ظفرت باسكات الحصون فى منتصف الساعة السادسة مساء اعطيت الاشارة بالـكف عن اطلاق النار

وصوبت فى بكور ١٢ منه طلقتين او ثلاثا على حصن فاروس فرفع عليـه علم الهـدنة فارسلت ضابط اركان الحرب هدورث لمبـتن الى الاسكندرية لمعرفة سبب رفع العلم وزودته بتعليمات تقضى بان يطلب تسلم البطاريات المطلة على ممر الميناء ، وتجدون طيه جوابه الذى لا يدع شكا فى ان الغرض الوحيـد من رفع العلم لم يكن سوى حيلة لا كتساب الوقت ، وعقب ذلك انزلت الراية

وصوبت طلقة اخرى على المرتفعات القائمة عليها بطاريات المـكس فارتفع العلم مرة اخرى فارسلت الضابط هدورث لمبتن والقائد مورسن من ضباط السفينة هلـكن الى يخت المحروسة فلم يعثرا على احد فيه ، واعطيت اشارة بان المدينة اخليت ، وكان الليل قد اقبل حينما اقبلت « هلـكن » ودخلت الميناء عنـد ما اشرقت شمس يوم (١٢ منـه) وتحرك الاسطول ، فتبينت ان النـار كانت مشتعلة فى مواضع شتى من

المدينة ومن جملتها قصر الحريم فى رأس التين وان الجنود اخلت الحصون

وعلمت من مصدر يوثق به كل الوثوق ان جنود عرابى لم تخل المدينة بل انسحبت الى قرب عمود السوارى لانتظارنا هنالك فرايت من واجبى استعمال الحكمة فانزلت فصيلة من المدرعة انفنسيپل واخرى من مونارك بقيادة الكبتن فيرفاكس بقصد نسف المدافع المنصوبة بين القبارى وصالح وهى المدافع التى كانت تصوب طلقاتها على الميناء وكان هذا العمل من الاحتياطات الاولية

وارسلت سفن المدفعية فى خلال القيام بهذه الاحتياطات ، الى المدرعات الراسية خارج الشعوب المجاورة لجانبى الميناء لاستحضار الجنود البحارة ، فاحتلت قصر رأس التين نفسه وصادرت عددا كبيرا من المدافع التى كانت تسدد كراتها على بوارجنا

وقبيل هذا الوقت زارنى احمد توفيق افندى ياور سعادة درويش باشا واميرالاى زهران بك ياور سمو الخديوى وكان قادما من سراى الرمل الواقعة على اربعة اميال تقريبا من الاسكندرية ليسالنى اذا كنت مستعدا لان آخذ على عاتقى قبول الخديوى لان الحالة تدعو الى الخوف على سلامته بسبب الالايات الثائرة التى تحيط به فاظهرت فى الحال استعدادى لبذل ما يفيد سموه . وقبيل الساعة الرابعة مساء تشرفت باستقبال سموه عند باب القصر الذى لم يصب لحسن الحظ من نار البوارج الا بضرر طفيف يوم ١١ منه

يوشامب سيمور
اميرال ورئيس المدرعة

التقرير الثالث

ظهر المدرعة انفنسيپل بالاسكندرية يوم ٢٠ يوليو سنة ١٨٩٢

سيدى :

الحاقا ببيانى المفصل والمؤرخ يوم ١٩ الجارى اتشرف بان ارفع اليكم تقريرا

آخر اكثر تفصيلا من البيان المذكور الذى تيسر لى ارساله عن القتال الذى دار بين الاسطول الذى تحت قيادتى والحصون المدافعة عند الاسكندرية

لقد سبق ان ذكرت كما تبين من بيان ترتيب القتال المصحوب بهذا والذى سلمت منه نسخة الى كل ربان ان اقسم الهجوم الى قسمين : قسم تقوم به البوارج سلطان وسوبرب والكسندرا على جانب رأس التين الشمالى تعاونها فى اداء هذه المهمة البارجة انفنسيبل التى كانت راسية فى مدخل ممر الميناء الصغير باطلاق مدافع برجها الخلفى لاسكات بطاريات حصن الفنار من الجانب ، والقسم الآخر تقوم به البوارج انفنسيبل ومونارك و بنلوب من داخل الشعوب وتعاونها فى ذلك انفلكسيبل باطلاق مدافع برجها الامامى وكذلك البارجة تمرير التى استقرت بجوار الشمندورة التى يستدل بها على مدخل الميناء

وانفصلت السفينتان هلكن وكندور لانهما كانتا من سفن الاعادة ، اما السفن بيكن و بيترن وسينت ودكون فقد استخدمت حسب الاوامر التى كانت قد اصدرت اليها للاشارات طول الضرب

ففى الساعة السابعة من صباح ١١ يوليه امرت من ظهر البارجة انفنسيبل بالاشارة البارجة الكسندرا بان ترسل كرة الى الستائر الحديثة التى اصلحت وسميت بطارية الاسبتالية واردفت ذلك باشارة عامة الى الاسطول قلت فيها « هاجموا بطاريات الاعداء » فتبودل الضرب فى الحال بين البوارج وكانت واقفة فى الاماكن التى عينت لها وجميع الحصون المشرفة على مدخل ميناء الاسكندرية واستمر اطلاق النار بشدة من الجانبين ومن كل صوب وناحية حتى منتصف الساعة الحادية عشرة صباحا ، وكانت المدرعات سلطان وسوبرب والكسندرا حتى تلك الساعة رافعة مراسيها فالقتها ازاء حصن النظار . ونجحت بفضل قذائفها المحكمة وانضمام المدرعة انفلكسيبل اليها بعد ما رفعت مرساتها باسكات معظم مدافع حصون رأس التين الى الساعة الثانية عشرة والنصف بعد الظهر ، ولكن بقيت مدافع حصن الاطه الضخمة تضرب ضربا غير متواصل ، وقبيل منتصف الساعة الثانية بعد الظهر قذفت المدرعة سوبرب — وكانت

حركاتها بعد الظهر موفقة جدا ـ فنبلة على هذا الحصن فنسفت مستودع باروده فاضطرت بقية حاميته الى الانسحاب منه فورا ، فوجهت هذه المدرعات نيرانها الى حصن فاروس فاسكتته بعد ما انضمت اليها فى الساعة الثانية والنصف تمرير ، وكان ذلك عند ما قذفته المدرعة انفلكسيبل بقذيفة اوقعت مدفعا من مدافعه الضخمة

وكانت حركات بطاريات حصن الاسبتالية من البداية الى النهاية تقاس بطريقة موفقة جدا ومع ان هذا الحصن اسكت زمنا قصيرا على اثر ضربه من المدرعة انفلكسيبل الا ان جنوده لم يتخلوا عن مدافعهم الا بعد ان اكرهتهم نيران مدافع هذه المدرعة والاسطول الخارجى على التخلى عنها

ولقد نجحت المدرعة انفنسيبل التى يخفق عليها علمى بمساعدة المدرعة بنلوب وكانت الاثنتان قد القتا مراسيهما وقد اضطرت الاخيرة الى تغيير مرساها ، والمدرعة مونارك الطليقة فى داخل منطقة الشعوب ، والمدرعتان انفلكسيبل و تمرير الطليقتان فى الميناء ومدخل الفنار الصغير ـ لقد نجحت هذه المدرعات كلها فى اسكات بطاريات خط المكس وتخريب جزء منها بعد قتال دام بضع ساعات

ودمر حصن مرسى الفنار على اثر انفجار مستودع باروده و بعد قتال مع البارجة مونارك دام نصف ساعة

وفى الساعة الثانية بعد الظهر شاهدت ان مدفعي البطارية المتحصنة التى فى الجهة الغربية من المكس تركوا مواقعهم وانه يحتمل ان يكون المساعدون انسحبوا الى القلعة فاعددت السفن والمدفعيات وانزلت الى البر تحت حماية مدافعها فصيلة مؤلفة من ١٢ جنديا بقيادة الملازم برادفور من ضباط المدرعة انفنسيبل ومعه الملازم رتشار بور من ضباطها والملازم هدورث لمبتن ضابط اركان الحرب والماجور تلك من الاى ولش وكان فى هيئة اركان حربى والعريف هاردى فنزلوا جميعا فى زوارق سارت بهم فى وسط الامواج واتلفوا مدفعين من عيار ١٠ بوصات بالديناميت وسمروا ستة مدافع من الطراز القديم كانت فى الجهة اليمنى من المكس ، ثم عادوا ولم يخسروا سوى زورق واحد من زوارق السفينة بترن تحطم على الصخور ، و يعد هذا العمل ضربا من المخاطرة ولكنه تم بمهارة فائقة

ولما اضحى القتال عاما رأى القائد تشارلس برسفورد من ضباط السفينة كندور القائمة بوظيفة الاعادة ، ان مدفعين من مدافع حصن المرابط من عيار ١٠ بوصات يصوبان كراتهما الى السفن المحاربة امام المكس فاقترب بسفينته الى المسافة التى يتمكن منها مدفعها وعياره ٧ بوصات من اصابة المرمى ، وحول حالا وجهة ضرب المدفعين المذكورين فامرته ان يطلب معونة السفن بيكن و بترن وسينت وكانت هذه قد اشتبكت بعد الظهر بقليل مع حصون رأس التين

و يسرنى ان اخبركم ان هذه السفن لم تصب باى ضرر وذلك بفضل ما ابدته من المهارة فى مناوراتها . وقد اتاح لها قصر غاطسها ان تتخذ لها موقفا امام اضعف نقط بطاريات الحصون

وانتهت الحرب بالفوز فى منتصف الساعة السادسة مساء وهو الوقت الذى القت فيه السفن مراسيها لقضاء ليلتها

ولو استعمل مدفع من المدافع المنصوبة على خط التحصينات لكانت القوة التى صادفتنا اشد هولا واكثر رغبة ، ولكن بطاريات رأس التين استخدمت قليلا من المدافع من الطراز القديم ، واقل منها من المدافع الفرنسوية عيار ٢٦ وهذه المدافع مشتراة من عهد محمد على لان المصريين يؤثرون استعمال المدافع الانكليزية من عيار ٨ و ٩ و ١٠ والمدافع الصغيرة ، وهذه المدافع هى نفس المدافع المسلحة بها سفن جلالة الملكة ولا يمكن العثور على افضل منها بين المدافع التى تبدو من فوهاتها. واستخدمت ذخيرتها بكثرة تقرب من الاسراف وكان تصويب المدافع يدعوا الى الاعجاب، و يمكن ان يقال ذلك ايضا عن مدافع خطوط المكس لولا ان اكثر المدافع التى استخدمتها من عيار ٣٦ مع مدفع او اثنين من عيار ١٥ فضلا عن المدافع من عيار ٩ و ١٠ بوصات والمدافع الصغيرة

واستعمل حصن المرابط مدفعين من المدافع الحديثة ذات المرمى البعيد عيار ١٠ وكان كل واحد منهما يرمى قذائفه تلو الآخر فى اتجاه الاسطول الراسى قريبا من

الشاطىء والواقف فى صف واحد على منوال يدعو الى الاعجاب فتخطىء المرمى بمسافة تتفاوت بين ١٠ و ٣٠ يارد

ولم تنفجر ولا قنبلة من القنابل التى قذفتها بطاريات الجنوب على سفن صاحبة الجلالة الملكة فى ذلك اليوم ، وتجدون مع هذا تقريرا رسميا من الكبتن هنت جرب قائد البارجة سلطان لعرضه على الاميرالية . وقد تولى قيادة الاسطول الخارجى فقام بهذا العبء بكفاءة وجدارة تستحقان الاعجاب فقد صبت على هذا الاسطول ويلات الحرب يؤيد ذلك البيان المرفق بهذا عن الخسارة التى لحقت بالمدرعات سلطان وسوبرب والكسندرا ، وليس لدى ما اقوله عن الاضرار التى لحقت بالبارجة بنلوب فقد انفصلت عن الاسطول بعد ابتداء القتال بزمن قليل، والجزء العلوى من بناء المدرعتين انفنسيبل وانفلكسيبل اصابه اكثر من قذيفة غير انه لم يترتب على ذلك ضرر جسيم

وانى عاجز عن ان اوفى جميع الضباط الذين قادوا السفن مايستحقونه من المدح والثناء على ما اولونى من المعونة فى هذه الظروف (ثم اورد هنا اسماء هؤلاء الضباط مما لايهمنا ذكره) ثم قال :

ويستحيل على ان افصل الاضرار الطفيفة التى حلت بسفن جلالة الملكة فى خلال هذا الكفاح من القذائف التى اصابتها ، او افصل كذلك العطب الذى منى به جسم البوارج سوبرب ، وسلطان ، والكسندرا ولا عطب المدرعات انفنسيپل وبنلوب وانفلكسيپل الذى هو اقل اثرا من عطب الثلاث الاولى ولكنى استطيع ان اعرب عن شديد اسفى لوفاة الملازم فرنسيس جاكش ومستر وليم شفن نجار المدرعة انفلكسيبل ويؤخذ من الاخبار الاخيرة عن الجرحى ان حالتهم آخذة فى التحسن وقد ارسلوا الى مالطة بالباخرة همبر

مقابلة بين القوتين

ويجدر بنا ان ننشر بيانا مجملا عن قوات الاسطول الانكليزى التى نازلت الاسكندرية ، مع بيان عن الحصون ومدافعها والجنود التى كانت تدافع عنها

١ - الاسطول

كان الاسطول يتألف من ثمانى مدرعات كبيرة ورد اسمها مع اسماء المدفعيات
وكان مجموع مدافع هـذا الاسطول ٧٧ مدفعا مختلفة العيار من طراز
ارمستر ونغ

٢ - الحصون

كانت حصون الاسكندرية حين مهاجمة الاسطول البريطانى لها هى نفس الحصون التى كانت فى عهد محمد على مع تعديل فى سلاحها وذلك ان الخديوى اسماعيل سلحها فى سنة ١٨٧٣ بمدافع من طراز ارمسترونغ بدلا من المدافع القديمة ، ورفعت ستائرها حين تبديلها وزيد فى سمكها وفتحت فيها كوات جديدة، وكانت هذه المدافع منصوبة فى العراء ليس حولها مابقى المدفعيين الذين يقومون عليها ، ولا يستثنى من ذلك سوى حصن قايتباى (فاروس) فقد كان فى طبقته السفلى ، مدفعية مستورة بطبقته العليا

وهذه هى اسماء الحصون :

السلسلة ، قايتباى ، الهلالية ، الاطة ، الاسبتالية ، راس التين ، الفنار ، صالح اغا ، برج رقم ١٥ ، ام قبيبة ، القمرية ، المكس ، الدخيلة ، العجمى ، المرابط

وكان مجموع مدافعها ٣١٨ مدفعا مختلفة الحجم والعيار . ويجب ان نذكر بان بينها عددا غير قليل من الطراز القديم لا يصلح للاستعمال

١٣

الخديوى والانكليز والعرابيون

غادر الخديوى توفيق القاهرة يوم ١٣ يونيو الى الاسكندرية ليكون بعيدا عن عاصمته وقريبا من الاساطيل البريطانيــة ، فلا تزعجه مضايقات الوطنيين ولا ترهبه صيحاتهم

وفى الاسكندرية الف وزارة راغب باشا يوم ١٩ منه وقد اقتعد فيها عرابى باشا وزارتى الحربية والبحرية وكانت مصطبغة بالصبغة الوطنية

وقبل ان يضرب الاسطول البريطانى الاسكندرية بثلاثة ايام وقبل ان ينجلى الموقف تماما و يعرف اتجاه الازمة النهائى ارسل يوم ٧ يوليو فدعى السر اوكلاند كلفن واطلعه على خطته وطلب منه ابلاغها الى حكومته وهذا نص البرقية التى ارسلها المستر كارترايت قنصل انكلترا العام فى مصر فى اليوم نفســه الى وزارة الخارجية عن هــذه الزيارة قال :

« اتشرف باخبار سعادتكم ان سمو الخديوى ارسل فى طلب السر اوكلاند كلفن فى ضحوة هذا النهار ليعرض عليه خطة السير التى يسير عليها فى هذه الظروف

« فقد نوى سموه فى الحالة التى يستقر فيها الرأى على الضرب ان يبقى فى الديار المصرية ، وهو يقول فى تعليل ذلك انه لايستطيع ان يترك جميع اولئك الذين ظلوا فى معيته ، واولوه فى غضون هذه الفتنة اخلاصهم ، كما انه من جهة اخرى لايستطيع ان يهجر مصر اذا اغارت عليها دولة اجنبية اذ يقال حينئذ انه برحها لينجو بنفسه ، اما اذا احتل الترك مصر وصادف هذا الاحتلال مقاومة فسموه ودرويش باشا يعلمان الجيش بانهما بصفتهما من رعايا السلطان المخلصين لجلالته لايكونان قد اديا واجبهما

اذا عضدا هذه المقاومة . وفى هـذه الحالة ينطلقان باحسن الوسائل الممكنة الى يخت درويش باشا

« واعرب سموه عن نيته فى الانصراف هو ودرويش باشا الى احـد القصور القائمة على شاطىء المحمودية اذا كان الضرب من جانب الاسطول البريطانى وانه بقدر الاسراع فى انجاز الضرب يقل الخطر الذى يحدق بشخصه

« وكان سموه فى خلال هـذه المقابلة رابط الجأش يتكلم بصوت هادىء ، واختتم الحـديث بتوجيه الرجاء الى السر اوكلاند كلفن ان يبلغ قراره هـذا الى سعادتـكم

« ولقد عقدت العزم على ان اخبر درويش باشا فى انه فى حالة حدوث ضرب تلقى حكومة صاحبة الجلالة البريطانية عليه مسؤلية سلامة الخديوى وشخصه وامنه »

ورد وزير الخارجيـة على هذه البرقية بمثلها يوم ٨ منه وهذا نصها : « تصادق حكومة صاحبة الجلالة على البلاغ الذى اخبرتمونا عنه امس ببرقيتكم التى ذكرتم فيها انكم تنوون عنـد ما تدعو الحالة لضرب الحصون ان تلقوا على عاتق درويش باشا مسؤلية امن الخديوى وسلامته »

وقرن الخديوى القول بالفعل فذهب فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم ١١ يوليو وهو يوم الضرب من قصر الرمل الى قصر رأس التـين الواقع على شاطىء البحر فاستقبله الانـكليز بالحفاوة وانزل الاسطول ٧٠٠ بحار الى القصر للمحافظة على حياته (انظر ص٢٧٧) وبذلك وضع شخصه فعلا تحت حماية الاسطول البريطانى

وفى يوم ١٣ يوليو اى بعد كارثة الاسكندرية بيومين ارسل عرابى باشا يبلغ الخـديوى انه وضع تحت تصرفـه قطارا خاصا يحمله وحاشيته ورجال الوزارة الى القاهرة ليشـترك مع شعبه فى الدفاع عن الحوزة ويقود امتـه فى المرحلة الجديدة فاعيـد القطار وابى الخـديوى الرجوع وانضم اليـه رئيس الوزراء والوزراء كافة ، ما عـدا عرابى باشا وبعض الضـباط الذين غادروا الاسكندرية الى الداخـل لاعداد معدات الدفاع

تدابير العرابيين العسكرية

كانت حامية الاسكندرية العسكرية تتألف قبل مذبحة ١١ يونيو من اللواء الثالث المشاة وقوامه الالاى الخامس والالاى السادس والاى المدفعية الاول ويقودها الفريق اسماعيل باشا كامل

وعززت الحكومة هذه الحامية بعد المذبحة و بعد وصول بوارج الانكليز بلواء المشاة الثانى ولواء المشاة الرابع بقيادة طلبه باشا عصمت ، وكان من كبار العرابيين فانتقلت اليه القيادة العامة

وارسل عرابى باشا يوم الاربعاء ـ غداة ضرب الاسكندرية ـ محمود فهمى باشا رئيس هيئة اركان الحرب وكبير المهندسين فى الجيش المصرى مع بعض المدفعيين الى كفر الدوار وهى على الطريق بين القاهرة والاسكندرية لانشاء خط دفاع يقاوم الانكليز اذا ارادوا الزحف الى القاهرة

ثم وافاهم يوم الجمعة ١٤ منه مع بقية الضباط وحامية الاسكندرية فشرعوا فى انشاء خط دفاع كبير وتولى هو بالذات قيادة الجيش

مجلس الدفاع الوطنى

و بينما كان عرابى باشا وانصاره وابناء البلاد يتنافسون فى اعداد معدات الدفاع و يتبارون فى تقديم الاعانات والمساعدات ارسل الخديوى توفيق يوم ١٧ يوليو برقية الى عرابى باشا بكفر الدوار هذا نصها :

« اعلموا ان ما حصل من ضرب المدافع من الاسطول البريطانى على حصون الاسكندرية وتخريبها انما كان السبب فيه استمرار الاعمال التى كانت جارية فى الحصون وتركيب المدافع التى كلما كان يصير الاستفهام عنها كنتم تخفونها ، وتنكرونها ، والآن دار البحث مع الأميرال سيمور فاكد بانه ليس للحكومة البريطانية مع الحكومة

الخديوية ادنى عـداء ولا خصومة ، وان ما حصل سببه ما كان الاسطول يقابل به من التهديد والتحقير ، وانه لو كان عند الحكومة الخديوية جيش منظم ، ومؤتمن لسلمه مدينة الاسكندرية ، واكد ايضا ان الحكومة البريطانية مستعدة لتسليم المدينة الى العساكر الشاهانية اذا حضرت وهى تحترمهم

« ولقد تحقق من هذا ان الحكومة الانكليزية غير محاربة للحكومة الخديوية كما تقرر من جميع الدول فى المؤتمر (مؤتمر الاستانة) عدم مس امتيازات الحكومة المصرية ولا حريتها ولا مس حقوق الدولة العليـة بل تظـل كما كانت وان ترسل عساكر شاهانية لاجل توطيد الامن فى مصر

« لذلك يجب ان تصرفوا النظر عن جمع الجند وجميـع التجهيزات الجديدة التى تجرونهـا بوصول امرنا هـذا اليكم ، وتحضروا حالا الى رأس التين لاعطاء التنبيهات اللازمة ، على حسب امرنا هذا وما استقر عليه رأى مجلس النظار »

ورد عرابى باشا على الخديوى ببرقية هذا نصها :

مولاى :

« فى شريف علم مولاى المعظم ، ان المحاربة التى وقعت بيننا وبين الانكليز انما نشأت عن طلبات الاميرال الانكليزى ، وبلغت مسامع عظمتكم وعرضت على مجلس نظاركم المنعقد برئاسة سموكم بحضور كثير من ذوات البلاد المجربين ودرويش باشا نائب الحضرة السلطانية ولما تحقق عندهم جميعا ان هـذه الطلبات مضرة بالحكومة الخديوية ومخلة بشأن البـلاد قر رأيهم على معارضة طلب الاميرال ولو ادى ذلك الى الحرب ، وبناء على ذلك قرر المجلس المذكور لزوم زيادة ٢٥ الف عسكرى وصدرت الاوامر الى المديريات بطلبهم وقرر المجلس ايضا ان لا تطلق المدافع الا بعـد اطلاق خمس طلقات من السفن الانكليزية . ولما بدأت السفن ضربها لم نقابلهـا الا بعد عشرين طلقة ولم يكن عندنا قبـل وقت الضرب ادنى استعداد لاستمرار الاوامر بعدم الاستعداد

« ثم بعد ذلك اعلن حضرة رئيس مجلس النظار(١) وناظر خارجية حكومتكم الى جميع جهات الادارة بان البلاد اشتبكت فى حرب مع الانكليز وانها صارت تحت الاحكام العسكرية كما هو حكم القانون فى زمن الحرب

« فلهذه الاسباب يامولاى تكون حكومتكم الخديوية المصرية محاربة للانكليز بوجه الحق والشرع ، ولم يحصل من الحكومة ولا من عساكرها ادنى تحقير ولا ازدراء بالاسطول البريطانى كما هو معلوم لدى عظمتكم وانما كانت الحرب عدوانا من الانكليز على الحكومة التى لم يصدر منها ادنى شىء يستوجب الحرب . فان كان الاميرال اظهر فى احاديثه مع سموكم انه عدل عن المحاربة الى المسالمة فذلك بعد وقوع الحرب يعد طلبا للصلح ، وسعيا وراء تجديد العلاقات ولا يجوز ان يكون انكارا للحرب ، وتبرؤا من العدوان بعد وقوعهما . ولا شك انى اوافق على افكار سموكم فى الميل الى الصلح مع حفظ شرف البلاد والحكومة ، وان كان الاميرال يريد تسليم المدينة لجيش حكومتكم المنظم بعد ان تخربت بمدافع السفن الانكليزية هدما وحرقا فهاهو جيشنا المنظم الذى لم يقع منه ادنى امر يخل بنظامه ، مستعد لان يتسلمها بعد ان تبرح المراكب الاسكندرية ، ولو انها خربت المدينة بمدافع سفنها ، وللمحافظة على شرف حكومتكم الوطنية ، ينبغى الاستمرار فى الاستعدادات العسكرية كما وافق ذلك رأى سموكم اولا حتى تغادر المراكب الانكليزية الموانى المصرية خوفا مما عساه يحدث من قبيل ما سبق فقد صارت الحادثة الماضية برهانا جليا على ان المسالمة بالوعد

---

(١) هذا نص البرقية التى ارسلها راغب باشا رئيس النظار الى مديرى المديريات يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ :

« حيث ابتدأت الحرب بيننا و بين الانكليز فبمقتضى القانون تكون الادارة تحت الاحكام العسكرية والخيول والبغال الموجودين بالمديريات والمحافظات ترسل الى الجهادية بأثمان موافقة على الجهادية و يسرع بالمبادرة فى ارسالهم »

من الانكليز لا يمكن كمال الثقة بها ، وانما هى لاجل اشغالنا عن الاستعدادات واقتراح مطالب مضرة بمصالح البلاد

« ولقد كنت اتمنى ان اتمثل بين يدى عظمتكم ، لابداء هذه الملاحظات لو كنتم فى عاصمة بلادكم ، ولكن من الاسف تحقق عندنا تحيز سموكم للعدو المحارب لبلادكم بدليل رفضكم العودة الى العاصمة وقت ارسال القطار الخديوى لسموكم واختياركم الذهاب الى رأس التين ومعكم النظار وغيرهم من الذوات مع علمكم ان المدينة مشغولة بعساكر الانكليز ، وذلك اجابة للمستر كولفن

« فان كنت يامولاى حرا فيجب حضوركم الى عاصمة البلاد وان كنت اسيرا لدى الانكليز او متحيزا اليهم فلا يمكن التسليم بقبول ما يكتبه العدو عن سموكم او عن رئيس النظار وزملائه » اهـ

عرابى يقرر مواصلة الحرب

وارسل عرابى باشا فى اليوم نفسه الكتاب الآتى الى يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الحربية بالقاهرة :

« لا يخفى على سعادتكم ما حل بالديار المصرية من البلاء الذى كان نتيجة الدسائس التى كانت عاقبتها استحضار المراكب من البلاد الانكليزية بقصد العدوان على بلادنا الاسلامية ، وعند حضورهم الى ثغر الاسكندرية اخذوا فى اقتراح اقتراحات باهظة مثل امرهم لنا بتنزيل المدافع والاستحكامات واعطائهم ما وراء حصن المكس من الاراضى ليتخذوها معسكرا لهم وغير ذلك . ولذا اجتمع مجلس فوق العادة بامر الخديوى مؤلف من حضرات النظار وعدد غفير من الذوات المجربين تحت رئاسة الخديوى وبعد النظر فى الاقتراحات الانكليزية قرر حفظ شرف الامة وكرامتها والمدافعة عن العرض والوطن وكان ذلك بحضور درويش باشا مندوب الحضرة السلطانية

« وبعد ان تم ذلك فاجأتنا مراكب الانكليز واخذتنا على غرة وضربت مدينة الاسكندرية بمدافعها ولما تم عدد الطلقات ٢٠ طلقة وكانت المدافعة واجبة شرعا

قابلناهم ايضا بالضرب واستمرت الحرب بين الفريقين نحو ١٠ ساعات دمروا فى غضونها اغلب حصون الثغر المذكور واحرقوا مساكنه ففر جميع الاهالى من المدينة

« ولما دارت المحادثات مع الاميرال المذكور لعقد صلح وللاكتفاء بما حصل ابى وتجبر وتوعدنا بحرق المدينة وتدميرها بعد ساعة ونصف ساعة اذا لم نسلم اليه جميع الحصون

« وحصل الخذلان ودب الفشل فى قلوب العساكر فتركوا مراكزهم وفروا الى داخل البلاد فتوجهنا مع من امكننا جمعه من الجند الى كفر الدوار واتخذناه مركزا للدفاع عن البلاد وامرنا بسرعة جمع العساكر الفارين فحضروا عاجلا بواسطة سكة الحديد . ثم ارسلنا القطارات الخديوية لنقل الخديوى ومن معه الى عاصمة البلاد فابى والتجأ بمن معه من الحرم والذوات وعساكر الحرس الى الاسكندرية وعند وصولهم الى رأس التين استقبلهم الانكليز بالترحاب وفى الحال جردوا عساكرنا الذين كانوا حرسا للخديوى من السلاح واخذوا خيولهم واستخدموهم خدما لهم ومرشدين فى انحاء المدينة التى خربوها ، وكانوا يقتلون كل من يقابلونه من الوطنيين ثم صدر امر الخديوى الى رئيس مخبز الاسكندرية بارسال الخبز الى الجنود البريطانية ومنعه عن الجند المصرى

« وقد تلقينا الآن التلغراف المرسل من الخديوى وهو مرسل طيه ومعه صورة الرد الذى ارسل منا اليه لكى تعقدوا مجلسا من الذوات والعلماء ومجلس النواب والاعيان وتطرحوا هذه الاحوال امامهم للمذاكرة فيه والبت فى السير على خطة تقررونها لصالح البلاد وعما اذا كان يجوز شرعا وقوع ما حصل من الخديوى من التحيز الى العدو المحارب للبلاد ام لا ؟ و بعد امضائه افيدونا للعمل بموجبه وداوموا على اهتمامكم بالتجهيزات العسكرية »

تأليف المجلس الوطنى وقراره

وفى ليلة اول رمضان سنة ١٢٩٩ (١٨ يوليو) اجتمع فى دار وزارة الحربية (الجهادية) نحو ٧٠ من الاعيان ورجال الدين وكبار موظفى الحكومة بدعوة من وكيل الحربية فنظروا فى البرقيات الواردة واصدروا البيان الآتى :

« فى بداية الحرب بيننا و بين الانكليز كتب رئيس النظار وناظر الخارجية الى جهات الادارة بان الحرب انتشبت بيننا و بين الانكليز وصارت الاحكام عرفية وانه من اللازم الاستعداد للمقاومة . ثم وردت برقية بعد ذلك بايام مقتضاها حصول الصلح والتنبيه على المصالح بان تسير سيرا مدنيا وانها خرجت من الاحكام العرفية ، و بعد ذلك صدرت افادة من ناظر الحربية الى جهات الحكومة تصرح ببقاء البلاد تحت الاحكام العرفية وان الحرب لم تزل قائمة بيننا و بين الانكليز و يوجب الاستمرار فى التجهيزات والاستعدادات الحربية ما دامت عساكر الانكليز فى مدينة الاسكندرية ومراكبهم فى مياهها

« وصدرت ارادة سنية من الجناب الخديوى لناظر الجهادية بانه لا حرب بيننا و بين الانكليز وان سبب الحرب هو مداومة الاستعدادات فى الحصون الذى يعد تحقيرا لمراكب الانكليز فضرب المراكب لاستحكاماتنا ولمدينة الاسكندرية ليس حربا ضد الحكومة وانما هو من قبيل رد الشرف وليس هنالك حرب حقيقية الى آخر ما جاء فى الارادة ، فاجاب الناظر بان الحرب كانت من مجلس عام عقد تحت رئاسة الحضرة الخديوية وايد ذلك اعلان مجلس النظار الى آخر ما ذكره فى رده ، ثم وصل كتاب من صاحب مخبز القبارى بالاسكندرية لسعادة ناظر الجهادية يشكو من اعطاء الخبز للجند الانكليزى ومنعه عن الجند المصرى بامر الخديوى ، ووردت على الناظر المومأ اليه معلومات عن اعمال عساكر الانكليز فى الاسكندرية تدل على معاداتهم للمصريين وانهم محاربون لهم كما يؤخذ من رسالاته ، ثم ان ناظر الجهادية المشار اليه طلب فى احدى رسالاته من وكيل الجهادية بان يشكل مجلسا عاما من

علماء البلاد وامرائها واعيانها ونوابها للنظر فى هذه الامور المهمة ، و بناء على ذلك انعقد مجلس ليلة غرة رمضان سنة ١٢٩٩ فى نظارة الجهادية مؤلف من سعادة وكيل الجهادية وسعادة وكيل الداخلية حسين باشا الدرمللى ووكيل الحقانية بطرس باشا غالى وسعادة على باشا فهمى ، وناظر الدائرة السنية سعادة احمد نشأت باشا وكل من سعادة دانش باشا ومحمود سامى باشا ومحمد باشا رضا وحضرات باشكاتب المالية واحمد بك رفعت رئيس المطبوعات وابراهيم بك فوزى مامور ضبطية مصر وعلى بك يوسف واحمد بك فرج وحسن بك جاد و بعد البحث قرروا عقد مجلس عام يشكل من اكابر العلماء والرؤساء الروحانيين من الطوائف المختلفة ومأمورى الحكومة الحائزين على الرتبة الثانية فما فوقها وامراء العائلة الخديوية وا كابر الذوات المتقاعدين واعيان التجار وان يكون انعقاده يوم الاثنين غرة رمضان فى وزارة الداخلية

« وعقد هذا المجلس فى الوقت المضروب برئاسة وكيل الداخلية وحضره عدد كبير من كل طبقة من الطبقات المذكورة فقرروا بعد المداولة ما يأتى :

١ — طلب حضور الخديوى والنظار الى العاصمة ، ان كانوا احرارا ، ولزوم الاستمرار على التجهيزات الحربية مادامت عساكر الانكليز فى مدينة الاسكندرية ومراكبهم فى مياهها

٢ — تأليف وفد من ستة مندوبين من طرف المجلس العام ، للسفر الى الاسكندرية وابلاغ سمو الخديوى وحضرات النظار قرار المجلس ودعوتهم الى الرجوع اليها فورا اذا كانوا احرارا »

سفر الوفد

وتألف وفد المجلس الوطنى من على باشا مبارك رئيسا ومن رؤوف باشا حاكم السودان السابق واحمد بك السيوفى من الاعيان والشيخ سعيد الشماخى وكيل دولة مراكش بمصر ، والشيخ على نايل والشيخ احمد كبوه من كبار العلماء وغادر القاهرة بسكة الحديد الى معسكر كفر الدوار ومنها سافر الى الاسكندرية وفى صباح

٢٣ يوليو قابل الخديوى والنظار واطلعهم على مهمته فأمر الخديوى باستبقاء على باشا مبارك واحمد بك السيوفى والسماح للباقين فعادوا الى كفر الدوار دون ان يعملوا عملا

بلاغ الخديوى بعزل عرابى

وفى يوم ٢٠ يوليو عزل الخديوى عرابى باشا من وزارة الحربية واصدر اليه الامر الآتى :

« ان سفرك الى كفر الدوار مصحوبا بالجند وخروجك من الاسكندرية بعد القتال ، وتعطيلك للخطوط الحديدية والبريد ، ومنعك لمهاجرى الاسكندرية من العودة الى اوطانهم واستمرارك فى اعداد التجهيزات الحربية ، وعدم امتثالك لامرنا والقدوم الى الاسكندرية كل ذلك الجأنا الى عزلك من وظيفتك فانت بمقتضى هذا الامر المرسل اليك معزول من الآن من نظارة البحرية والجهادية »

واذيع هذا البلاغ الخديوى فى الاسكندرية وعلق فى شوارعها وارسلت نسخ منه الى اطراف البلاد

عرابى حامى الوطن

وفى يوم ٢٢ يوليو اجتمع المجلس الوطنى فى القاهرة للنظر فى قرار العزل الصادر من الخديوى فقرر وجوب بقاء عرابى باشا فى نظارة البحرية والجهادية مداوما على قيادة الجند . وقرر ايضا وجوب توقيف اوامر الخديوى وما يصدر عن نظاره الموجودين فى الاسكندرية كيفما كانت ولاى جهة من الجهات وعدم تنفيذها لانه خرج على القانون وعرض هذا القرار على جلالة السلطان

ولقب المجلس الوطنى عرابى باشا بلقب حامى حمى البلاد المصرية وعينه قائدا عاما والزمه الدفاع

لجنة للتوفيق

وفى يوم ٢٨ يوليو ارسل على باشا مبارك وهو رئيس الوفد الذى ذهب الى الاسكندرية و بقى فيها بأمر الخديوى برقية الى عرابى باشا فى كفر الدوار قال فيها : انه تقرر تأليف لجنة منه ومن بعض الاعيان تجتمع مع لجنة يؤلفها عرابى باشا من الذين يثق بهم من رجال الجيش للبحث فى الاحوال الحاضرة رجاء الوصول الى اتفاق وانه يرجو ان تدور المباحثة بشأن تأليف هذه اللجنة بالتلغراف فرد عليه بانه لايوجد هنالك ضرورة لتأليف مثل هذه اللجنة بعد ماقرر المجلس الوطنى مواصلة الدفاع وهو على كل حال غير مستقل بعمل ما بل هو مطيع ومنقاد لما تأمر به الامة و يعتذر عن عدم امكانه قبول الاقتراح

منشور جديد ضد عرابى

وفى يوم ٨ اغسطس اصدر الخديوى المنشور الآتى الى جميع المصريين ضد عرابى باشا وهذا نصه :

« نحن خديوى مصر نعلن لجميع المصريين ان عرابى باشا قد ارتكب آثاما فظيعة جلبت خسارة لاوصف لها على مصر واهلها ، وجعلت الدول الاوروبية ناقمة عليها وقد باتت الآن تعتبر جميع المصريين امة غير متمدنة

« فهذه الجرائم والآثام منحصرة فى عصيان عرابى المذكور وتحريضه للقوم على السير تحت لواء العصيان وفى الدسائس التى نشأت عنها مذبحة طنطا وغيرها من البلاد فاوقفت فيها حركة التجارة وعطلت اعمال الزراعة ثم فى عصيانه لاوامر جلالة السلطان الاعظم ، وهى الاوامر التى صدرت اليه بالانقطاع عن التظاهر بالعدوان فى الاستحكامات والحصون مما بات معلوم النتيجة من هلاك نفوس ، وتدمير قلاع ، وخراب ابنية

« و بعد ان يدد عرابى فى اقل من ساعة شمل سكان الاسكندرية الذين نهبهم

اضرم فيها النار وخرج منها بجيشه قاصدا كفر الدوار حيث عسكر بقوى من غير علمنا و بغير ارادة منا فبعث ذلك على نزول الانكليز الى المدينة لاطفاء النار المضطرمة فيها ومنع النهب والمحافظة على الراحة

« وفوق ذلك منع المهاجرين من العودة الى اوطانهم وقطع مابينهم و بين اهلهم من وسائل الصلة والعلاقة وقطع الماء عن الاسكندرية واعلن جهرا عصيانه باكاذيبه الظاهرة فلذلك عد عاصيا ومستحقا لاشد العقوبات بمقتضى الشرع الشريف ، ولا يزال مع ذلك عاملا على تعميم الخراب بمساعدة جنده والاهالى المتحزبين معه المنقادين لآرائه الوخيمة ، وقد تجاوز الحدود بعصيانه بما يفوق الوصف فقد استولى على اموال الضرائب وعزل كثيرا من موظفى الحكومة واستبدلهم بغيرهم مع انه معزول من وظيفته معد لأشد العقاب الصارم

« ولقد رأينا ان قلوب كثيرين من رعيتنا لاتزال قاسية مائلة الى عرابى بالرغم من اوامرنا السابقة فلذلك اصدرنا هذا المنشور الآخر معلنين فيه ان كل شخص يعرف ذا ضلع مع عرابى وميل اليه عددناه عاصيا مستحقا لجزاء العصيان

« فرحمة بمصر واهلها نستأنف الآن اعلاننا للمصريين عموما والجند خصوصا ان كل من اصر على عصيانه وانقياده الى عرابى كان مذنبا امام الله وغير مقبول العذر لدينا فنجرده وذويه من جميع الرتب والرواتب و بقيات التقاعد وسائر الامتيازات التى كان متمتعا بها

« وليعلم المصريون اننا نحن اميرهم ومولاهم وان لايرتكبوا عصيانا علينا وليعلم كل منهم ايضا انه اذا ادى للعاصى عرابى او لاتباعه اموال الضرائب كانت تأديته للمال غير محسوبة لدينا بل اننا نطالبه بها يوم تنقشع عن مصر غيوم النكبات العرابية »

رد عرابى على الخديوى

ورد عرابى باشا يوم ١٣ منه على الخديوى بمنشور اذاعه على مديرى المديريات هذا نصه :

« قد اوجب الله علينا اعداد مانستطيعه من قوة لقتال الامة الانكليزية التي اعتدت على البلاد طمعا وشرها و بادأتنا بالحرب بغيا وعدوانا ، وقد قام به احسن قيام على قدر شأنه حر مخلص شهم عالى الهمة شريف الذمة ، من رجال البلاد عموما ونظراء سعادتكم من حضرات المديرين خصوصا ، حتى بعناية الله واتحاد الجميع ، ذلك الاتحاد الذى هو اثر الغيرة الوطنية ، والحمية الانسانية ، قد ادركت البلاد فى زمن يسير من عظيم القوة وجليل الاستعداد ما لم يخطر بالبال قبل الآن امكان الحصول عليه فى زمن مديد . ولا يخفى انه من اجل ما يجب حسن القيام به هو الحرص الزائد على الدقيقة الواحدة بل اللحظة الواحدة من زمن المحاربة فلا تفوت الا وتكون قد صرفت من حسن التدبير واصالة الرأى فى النكاية بالعدو ورده على عقبيه خاسئا خاسرا

« وانه مما اوجب اعداده لذلك هو زيادة الجند خمسة وعشرين الفا، بناء على ذلك وما تراءى من ان هذا العدد اذا شرع فى جمعه بحسب القرعة العسكرية فقد يجمع من شبان يلزم لتدريبهم وتمرينهم على حمل السلاح وحركات الدفاع وقت لايحسن تفويته الا باعظم مايمكن من الفائدة لما مر ، وحيث ان خفراء البلاد الرتبيين من الاهالى هم بالطبع اكثر من غيرهم تعودا وتمرنا على حمل السلاح والحركات الدفاعية واشد قوة و بأسا واثبت جأشا لدى المقاومات العدائية وقد يتيسر جدا جمع هذا العدد من هؤلاء الخفراء وحشده مع الجيش فى زمن و بحالة اقرب واسهل مما لو جمع من غيرهم بالقرعة العسكرية فلذلك ارجو الاسراع فى جمعهم وارسالهم وافهامهم بانه فى مقابل تلبيتهم لدعوة هذه الخدمة الوطنية الشريفة مع السرعة شأن الحريص على شرف قومه يعفون بعد انتهاء الحرب بنصرنا وظفرنا من الخدمة العسكرية »

منشور الحكومة المصرية بعصيان عرابي

واذاع مجلس النظار على الامة البيان الآتى :

« انه بناء على مخالفات احمد عرابى باشا استصوب مجلس النظار تبيين بعض

وقوعات وما يتأتى من الاستمرار على ماهو عليـه مع اعطاء النصائح اللازمـة لجميع اخواننا بالاعلانات المقتضية فنقول :

« انه غير خاف على علم العموم جميع مخالفات احمد عرابى باشا وما حصل من تلطيفه مرة وتوبيخه اخرى من طرف الجناب الخديوى الافخم لاجتنابه ذلك حتى لازالة خوفه استحصل عطوفتلو راغب باشا على العفو العمومى من لدى الجناب العالى عن كل ماعليه من مسؤولية اوله اشتراك فى الحوادث الصادرة لغاية تاريخ التقرير المتقدم منه للحضرة الخديوية ، ولم يثمر كل ذلك ولـكن حصل منه بعد هذا التاريخ حوادث كمثل ذهابه الى كفر الدوار مستصحبا العساكر واخـلاء ثغر الاسكندرية وحصونهـا من غير امر يصـدر اليه وتوقيف حركة السكة الحديدية وقطع جميع المخابرات التلغرافية ومنع ورود البوستة وحجز ماء ترعة المحمودية عن اسكندرية بقصـد حصول الضرر للجناب الخديوى الاعظم وهيئة النظار وسائر سكانها

« وكذلك منع جميع المهاجرين وغيرهم من الحضور الى الاسكندرية وعـدم اجابته الى الامر العالى الصادر بطلبه الى الاسكندرية وتشبثه بالاعلان افتراء على الجناب العالى الخديوى بانه سـلم الاسكندرية للانـكليز وحبس هيئة النظار فضلا عن تجاسره على عزل ونصب المديرين وغيرهم ، وجميع ذلك يعـد عصيانا للخديوى الاعظم النائب عن امير المؤمنين ولذلك صدر امر عال بعزله

« وحيث ان دولتلو درويش باشا اخبر بحضور الجناب الخديوى وهيئة النظار ان الاميرال سيمور اخبره بانه ليس للدولة الانـكليزية عداوة لا مع الدولة العلية ولا مع الحـكومة المصرية بل ان ماحصل من ضرب المدافع والتخريب انما هو مقابلة التهديد والتحقير الذى حصل باجراء عمليات الطوابى بامر احمد عرابى باشا بعد صـدور الامر السلطانى بمنع ذلك وقد اكتفى بما وقع . وانه لو كان للحكومة الخديوية جند مطيعون فهو يسلمهم الاسكندرية وحصونها و بالفعل سـلم بعض جهات منها لمن حضروا طائعين من الجند . كما وانه سيحضر عساكر من سائر جهات السلطنة السنية وتتسلم الاسكندرية موقتا ، وعلى الخصوص فانه بتاريخ ٢٦ يوليو عرض الاميرال المومى اليـه للجناب

الخديوى الافخم بان الحكومة الانكليزية لم يكن من قصدها التغلب على القطر المصرى لنفسها ولا المداخلة فى حرية المصريين ولا فى دياناتهم بل ان مقصدها فقط حماية الجناب الخديوى مع اهل القطر المصرى من العصاة وازالة العصيان واعادة النظام فى القطر المصرى

« وليعلم العموم من هذا التوضيح ان الجناب الخديوى الاعظم ماسلم الاسكندرية للانكليز ولم يخطر ببال سموه اصالة ولا فى نياته الجليلة ابدا ولا من غرض الدولة المشار اليها الاستيلاء عليها ولا على قطعة منها . وكذلك لم يصدر امر الخديوى الجليل لجيشنا معاذ الله ولا نوى ذلك بل ان نياته الجليلة مصروفة ابدا الى راحة ورفاهية العباد مع عمار البلاد . وان تشبثات احمد عرابى باشا فى تجهيز اللوازم الحربية فى النقط التى صمم على اتخاذها مركزا للحرب تعتبر تهديدا لجميع الدول وهذا التهديد ينتج منه مضرات جسيمة ومثلها واقعة الاسكندرية لانه بناء على ماعلم من الحوادث انه استقر الرأى بالمؤتمر (مؤتمر الاستانة) ابقاء حقوق الدولة العلية مع سائر الامتيازات المصرية على اصلها ولزوم ازالة العصيان الواقع بالقطر المصرى . وقد قبلت الدولة العلية ارسال عساكر لذلك علاوة على عساكر انكلترا وفرنسا وايطاليا كما قيل. فتشبث احمد عرابى باشا مع المساعدين له على تدارك تجهيزات حربية لمقاومة جميع الدول العظام هو لاغراضه الشخصية وغاياته النفسانية ، الموجبة لخراب البلاد وسفك الدماء

« وحيث ان كل من عصى الله ورسوله واولى الامر وسعى فى الارض فسادا اعنى كل من اراد ويريد الفساد او يساعد عليه مالا وبدنا يدخل تحت حكم الآية الشريفة والحديث المبين فننصح كل من فى قلبه ذرة من الايمان من اخواننا ان يتقى الله فى الوطن وفى نفسه والله المستعان »

الحكومة تتبرأ من عرابى

وارسل راغب باشا رئيس مجلس النظار الكتاب الآتى الى الاميرال سيمور :

« لى الشرف ان اعلن لحضرتكم ان عرابى باشا يشتغل الآن باعداد وسائل للدفاع وذلك مخالفة لاوامر الجناب الخديوى وقد صدر له الامر بالكف عن هذه التجهيزات فكونوا اذا على علم بان الجناب الخديوى عزله من وظيفته فهو وحده المسؤول عما يحدث فارجوكم ان تعلنوا هذه الرسالة الى حكومة جلالة الملكة »

بيان انكليزى

وفى يوم ١٩ اغسطس اذاع الجنرال ولسلى القائد العام للجيش البريطانى المنشور الآتى الى عموم المصريين بامر الحضرة الخديوية ونصه :

« يعلن الجنرال ولسلى قائد الجيوش الانكليزية ان الدولة البريطانية لم تقصد بارسال التجريدة العسكرية الى القطر المصرى الا تأييد سلطة الجناب الخديوى ، فجنودنا لذلك لاتقاتل الا من كان شاكى السلاح خالعا لطاعة الخديوى ، اما سائر الاهالى الذين يكونون فى هدوء وسكينة فيعاملون بالتؤدة و بمقتضى شعائر الانسانية فلا يمسهم اذى بل يحترم دينهم وتصان مساجدهم وعائلاتهم . وما يلزم للجيش من زاد وميرة يؤدى ثمنه ولذلك ندعو الاهالى الى تقديم ما لديهم مما يحتاج اليه الجيش

« ثم ان الجنرال قائد الجيوش يسر كثيرا و ينشرح صدرا من زيارة مشايخ البلاد وغيرهم ممن يود المساعدة فى قمع العصيان والقاء القبض على العصاة الذين عقوا الخديوى امير البلاد وواليها الشرعى ، المعين من لدن الحضرة السلطانية »

منشور خديوى ثالث

وفى يوم ٢٤ اغسطس اذاع الخديوى المنشور الآتى الى جميع اهالى وسكان القطر المصرى :

ليس خافيا ما اقدم عليه احمد عرابى وشيعته الضالة من الافعال المغايرة ، والتشبثات الفوضوية التى اخلت بنظام القطر واضعفت الثقة به بل اورثته الخسارة

والاضرار الجسيمة ولا سيما بانضمام الجيش المصرى اليه واتحاده معه فى البغى والمجاهرة فى العصيان لحكومتنا الخديوية حتى ارتبكت الاحوال وخيفت العاقبة فبادرت الدول الى عقد المؤتمر الدولى بالاستانة للنظر فى المسألة وتقرير ما به حلها . و بالبحث والمذاكرة فى ذلك استقر رأيهم على اتخاذ الطرق التى يترتب عليها عودة سلطتنا الخديوية وتأديب هؤلاء الخارجين لتستتب الراحة وتزول اسباب المفاسد حرصا على عمران القطر واحترازا مما عسى ان يلم به من الدمار

« ولما كانت الدولة الانكليزية لها فيه المنافع الكبرى ولا سيما بالنظر الى ترعة السويس التى هى طريقها الوحيد الى الخطة الهندية المهمة ، فقد اخذت على عهدتها وتحت مسؤليتها التدخل الفعلى لقمع هؤلاء المفسدين ومحو آثار الفتن دون ان تمس حقوق السلطنة السنية او الامتيازات المصرية . ولتحقق ان نيتها سليمة ومساعيها فى الظاهر والباطن ليس الا الاصلاح ولا غاية لها فى الاستيلاء على البلاد او الفتك باهلها لعداوة دينية ولا غير ذلك مما يذيعه العصاة تنفيرا منهم للعامة ، وتبغيضا لهم فى الامة الانكليزية على حسن مقاصدها المذكورة . ولا يزال العاصون على حالهم من المقاومة وتجسيم الحال المؤدى الى زيادة الخراب حتى اعتبرتهم السلطنة السنية عصاة مخالفين للاحكام الشرعية ، فاستداركا للامر ومراعاة للمصلحة العمومية قد رخصنا لحضرة القائد العام للجيش الانكليزى بالتحول نحو جموع العصاة واستعمال الوسائط القاهرة لتبديد شملهم وسرعة القبض على رؤسائهم ولمحاكمتهم بما يستحقونه من اشد العقاب

« و بما ان العساكر الانكليزية يعدون فى هذه الحالة نائبين عنا فى قطع دابر المفسدين وتطهير البلاد منهم ليعود الامن والراحة و يزول الشقاء عن العباد، ومن كانت هذه صفتهم فانهم جديرون بالمعاونة والمساعدة ولا ريب من جهتهم بوجه من الوجوه فينبغى ان لايرهب منهم احد ولا يظن فيهم سوءا او مكرا وان لايعاملوا بما يستوجب المنافرة بل على كل مصرى يحب وطنه و يخشى خرابه ان يعاملهم لقاء حسن نياتهم ، بالاكرام اللائق بهم ولا يتأخر احد عن مساعدتهم فى تقديم ماقد يحتاجون اليه من

المؤونه والعلوفة بأثمانها السائرة التى هم مستعدون لادائها فورا فمن فعل ذلك فقد وفى مايجب عليه من الحقوق الوطنية الصادقة واستوجب رضاء الله ورضانا عنه فضلا عما يراه منهم من المكرمة . ومن ابى وخالف وقابلهم بالمكابرة الوحشية التى لاتجديه نفعا فقد عرض نفسه للتهلكة التى نهى الله عنها ، وتحققنا انه من العصبة الباغية فامره كامرهم

« هذا واننا نحذر الناس جميعا من سكان البنادر والبلدان و بالاخص المحروسة (القاهرة) من المهاجرة من بلادهم وانحيازهم الى العصاة طوعا او كرها منهم فيوهمونهم بما اوهموا به اهل الاسكندرية عند ماخدعوهم على اخلائها فى اقل برهة و بخروجهم تمكن الباغون المنافقون من نهب المدينة واحراق اهم جزء فيها فليعتبر العاقل بغيره

« فعلى علماء وذوات وعمد ومشايخ البلاد ووجهائها وتجارها الذين نتوسم فيهم الخشية والسكينة والاخلاص الحقيقى لجانب الحكومة و يعز عليهم وطنهم ولهم الخبرة بالعواقب ان يذعنوا و يمتثلوا لاوامرنا هذه وينظروها بعين النصيحة المحضة لمصلحتهم ومصلحة القطر ويلزموا العامة باتباعها ، كيلا يتزعزعوا ويكونوا آمنين مطمئنين على انفسهم واعراضهم واموالهم من قبل العساكر الانكليزية فلا يمسهم ضرر ، ولا يلحقهم كدر ماداموا مجتنبين العصاة . هذا ما اقتضته ارادتنا »

منشور الحكومة العثمانية ضد الحركة العرابية

ووضع الصدر الاعظم بطلب اللورد دوفرين سفير انكلترا فى الاستانة منشورا اعلن فيه عصيان عرابى باشا والذين معه وقد طبع هذا المنشور واذيع بين طبقات الشعب المصرى ، لمقاومة الحركة العرابية وهذه خلاصته :

١ ـ تعلن الدولة العلية العثمانية ان ممثلها الشرعى بمصر هو حضرة صاحب الفخامة والدولة محمد توفيق باشا

٢ ـ ان اعمال عرابى باشا كانت مخالفة لارادة الدولة العلية ثم التمس من الجناب

الخديوى العفو فعفا عنه ونال ايضا من الحضرة السلطانية العفو العام

٣ ـ ان الشرف الذى ناله اخيرا من الحضرة العلية السلطانية انما كان من تصريحه بالطاعة لاوامر مولانا السلطان المعظم الخليفة الاعظم

٤ ـ قد تحقق الآن رسميا ان عرابى باشا رجع الى زلاته السابقة واستبد برئاسة الجند بدون حق فيكون قد عرض نفسه لمسؤلية عظيمة ولا سيما انه تهدد اساطيل دولة حليفة للدولة العلية السلطانية

٥ ـ من اجل ماتقدم يعلن ان عرابى باشا واعوانه عصاة ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية

٦ ـ تنظر الدولة العلية السلطانية الى عرابى باشا واعوانه بنظر عصاة

٧ ـ يجب على سكان القطر المصرى بصفتهم رعايا مولانا وسيدنا الخليفة الاعظم ان يطيعوا اوامر الخديوى المعظم الذى هو فى مصر وكيل الخليفة وكل من خالف هذه الامر يعرض نفسه لمسؤلية عظيمة

٨ ـ ان معاملة عرابى باشا وحركاته وتصرفاته مع حضرة السادة الاشراف هى مخالفة للشريعة الاسلامية ومغايرة لها

١٤

مصر بين تركيا وانكلترا

قلنا فى الفصل السادس ان مؤتمر السفراء بالاستانة قرر فى جلسة ٦ يوليو ان يقترح على الباب العالى ارسال تجريدة عسكرية الى مصر لاعادة الامن والنظام طبقا للشروط التى اوردنا نصها هنالك وان انكلترا عارضت سرا فى تنفيذ هذا الاقتراح لانه يحول دون تحقيق اغراضها فى امتلاك وادى النيل

وايد سعيد باشا الصدر الاعظم هذه الرواية فى مذكراته فقال : ان الدول كلها ماعدا انكلترا ايدت فكرة ارسال تجريدة عثمانية الى مصر على ان تدفع الخزينة المصرية نفقاتها ، وابلغت الباب العالى تأييدها لها بمذكرات متشابهة المعنى والصيغة ارسلتها يوم ١٥ يوليو اى بعد ضرب الاسكندرية ثم اورد نص المذكرة الفرنسوية وهو :

« الموقع ادناه سفير فرنسا لدى صاحب الجلالة امبراطور العثمانيين يتشرف بامر من حكومته باطلاع معالى وزير خارجية الحكومة العثمانية على مايأتى :

« نظرا لاقتناع الدول العظمى بوجوب معالجة حالة مصر المضطربة بسرعة لاقرار الطمأنينة فقد قررت هذه الدول مجتمعة بهيئة مؤتمر ان توجه الى حكومة صاحب الجلالة الامبراطورية السلطانية دعوة الى التدخل فى القضية المصرية ومساعدة الخديوى بارسال قوة كافية من الجنود العثمانية تعمل على اعادة الامن الى نصابه وتنكل بالحزب العاصى ، وتضع حدا للفوضى الاليمة المنتشرة فى القطر المصرى التى سببت اهراق دماء كثيرة وهجرة وخراب الوف من العائلات والبيوت الاوربية والاسلامية وما زالت تعرض المصالح الوطنية والاجنبية للخطر

« وهذه القوى من جنود السلطان فضلا عن ان وجودها يضمن احترام حقوق السلطان و يعيـد تثبيت سلطة الخديوى ستساعد فى الوقت ذاته على الشروع فى اجراء اصلاحات مفيدة فى تشكيلات الجيش المصرى ـ بنظام يحدد فيما بعد باتفاق عام ـ على ان لا تمس التطورات الرشـيدة للنظم المصرية فيما يتعلق بالقوانين والانظمة الادارية والمدنية والقضائية التى تتعارض واحكام الفرمانات السلطانية

« والدول بمراجعتها جلالة السلطان مقتنعة كل الاقتناع بان الجنود العثمانية فى اثناء مكوثها فى مصر ستحافظ على الوضع الراهن للبـلاد فلا تتعرض للامتيازات والضمانات المصرية التى كفلتها الفرمانات السابقة ولا مصير الامور الادارية او التعهدات الدولية او التدابير التى نشأت عنها

« وستكون مدة بقاء جنود السلطان الذى سيعمل قوادها بالاتفاق مع الخديوى ثلاثة اشهر ما لم يسأل الخديوى اطالة هذه المدة ، فاذا فعل تحدد المدة الجديدة بالاتفاق مع تركيا والدول العظمى ، أما نفقات الاحتلال فستتحملها الخزينة المصرية بعد ان يحدد مقدارها باتفاق تعقده الدول مع تركيا ومصر

« فاذا تفضل جـلالة الساطان وحقق امل الدول العظمى بموافقته على هـذا النداء فان تنفيذ الشروط الواردة آنفا سيكون موضع اتفاق جـديد يعقد بين الدول الست وتركيا »

ويقول سعيد باشا ان اقتراح ارسال جنود الى مصر لم يلق تأييدا لا من جانب السلطان ولا من جانب معظم الوزراء حتى ان سعيد باشا وزير الخارجية (هو غير سعيد باشا الصدر الاعظم) كان يعارض فيه ، وانه وحـده (اى سعيد باشا الصدر الاعظم) كان من القائلين بارسالها . ويقول انه لمـا تقرر ان تشترك الدولة فى المؤتمر ـ وقد حضر مندوبوها لاول مرة ـ فى جلسة يوم ٢٤ يوليو وكانوا برئاسة سعيد باشا وزير الخارجية ، ابلغوا المؤتمر رسميا موافقتها على ارسال الجنود الى مصر . وفى يوم ٢٦ منه اعلنوا ان الجنود على اهبة الرحيل

ثم يقول ايضا « وفى تلك الاثناء ذهب سعيد باشا وزير الخارجية ورشيد بك

الكاتب الخاص للسلطان الى سفارة انكلترا وابلغا السفير - وذلك من دون اطلاع الصدر الاعظم وموافقته - ان تدابير تركيا العسكرية فى مصر ستكون محدودة ، وانه لن يتجاوز عدد الجنود التى سترسل الالف حتى الالفين

واسرع السفير فابلغ هذه التصريحات الى الباب العالى ليكسبها صفة رسمية ، لانه كان يشترط فى القضايا العامة ولا سيما السياسية منها - الا يبت فيها قبل اخذ موافقة الصدر الاعظم - فبادر هذا الى كتابة احتجاج رفعه الى السلطان فرد عليه بانه لم يفوض وزير الخارجية فى القاء تصريح كهذا وامر بعقد مجلس استثنائى مؤلف من الوزراء والامراء العسكريين للتحقيق مع وزير الخارجية فجاء هذا الى المجلس وافضى ببيانات قال انه لايرى فائدة من اثباتها

واعد سعيد باشا الصدر الاعظم - عملا باقتراح المؤتمر - مشروع اتفاق يعقد بين تركيا وانكلترا بشأن الحملة ، ويقول انه سعى كثيرا لعقده حرصا على مصلحة الدولة وان زملاءه شاطروه هذا الرأى وعضدوه بكل قواهم ، ولكنهم لم يتوصلوا الى اقراره

واورد احمد عرابى باشا فى مذكراته نص هذا المشروع ولم يثبته سعيد باشا وقال (اى عرابى) ان انكلترا رفضت اقراره بعد ما استصدرت منشورا من السلطان باعلان عصيانه وهو :

١ - تؤلف الحملة العثمانية من ستة آلاف جندى ولا يزيد الباب العالى عليها شيئا الا بعد مفاوضة انكلترا والاتفاق معها على الزيادة

٢ - يجب ان يكون حلول الجنود العثمانية فى رشيد او دمياط او ابو قير وان يكون خروجهم الى الاماكن التى يدعون اليها من احدى هذه الموانىء

٣ - يجلو الجيشان العثمانى والانكليزى عن وادى النيل فى زمن واحد عند زوال العوامل ويمد اجل اقامة الجنود العثمانية اذا دعت الضرورة باتفاق يعقد بين الفريقين

٤ ـ لايقوم الجيشان بالاعمال الحربية الا باجتماع القائدين العامين على ما يجب ان يكون موضوع العمل

٥ ـ ينضم الى الجيش العثمانى ضباط من اركان حرب الجيش الانكليزى ، والى الجيش الانكليزى ضابط من اركان حرب العثمانيين

ويقول سعيد باشا الصدر فى مذكراته ان المناقشات اشتدت بينه وبين السفير الانكليزى حول المادة الخاصة بجلاء الجيش فقد اقترح الباب العالى ان تكون صيغتها كما يأتى : « لدى زوال الاسباب التى دعت الى اتخاذ تدابير عسكرية فى مصر، تجلو الجنود الانكليزية . اما الجنود العثمانية فيحق لها ان تطيل مدة اقامتها اذا كانت هنالك ضرورة موجبة »

وابى اللورد دوفرين اقرار هذه الصيغة واقترح الصيغة الآتية : « عند انتهاء الحالة التى اوجبت ايفاد الجنود الانكليزية ـ العثمانية تجلو قوى الفريقين المتعاقدين عن البلاد ، ويكون جلاء الجنود الانكليزية والعثمانية فى وقت واحد »

وعارض الصدر فى قبول هذه الصيغة فتم الاتفاق على الصيغة المنشورة آنفا. وبعد مناقشات طويلة وقع الفريقان كما يقول الصدر ، يوم ٢ شوال سنة ١٢٩٩ الموافق ١٧ اغسطس سنة ١٨٨٢ على المشروع بالحروف الاولى من اسمائهم واتفقوا على أن يتم تبادل نسخه بعد تصديقه فى زمن قريب . ولكن حدث بعد ذلك ماحال دون التصديق والتنفيذ فقد دعى اللورد دوفرين الى المابين لمقابلة السلطان ، فجرت معه مباحثات فى جو مفعم بالتردد امتدت الى مابعد منتصف الليل

وفى يوم ١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ تلقت وزارة الخارجية العثمانية (وكان ذلك بعد دخول الجيش الانكليزى الى القاهرة باربعة ايام وانتهاء الحركة العرابية) تقريرا شفاهيا من السفارة البريطانية هذا نصه : « حيث انه لم يبق ما يوجب عقد الاتفاق

العسكرى فانه يسر الحكومة البريطانية زوال دواعى البحث فى المشكلات التى اثيرت ومن اجل ذلك اجيز للورد دوفرين قطع المفاوضات بهذا الشأن »

وهكذا قضى على هـذا المشروع نهائيا بسبب تردد السلطان عبد الحميد وعدم اتباعه خطة سياسية صريحة فى المسألة المصرية ، مما اطلق يد الحكومة الانكليزية اطلاقا تاما فى التصرف بحسب ما تقضى مصالحها

١٥

بين العرابيين والانكليز

شرع العرابيون منذ كشرت انكلترا عن نابها فى اعداد معدات الدفاع وتجهيز القوى لمقاومة غارتها وايدهم الشعب فى نضالهم وكفاحهم لانه كان واثقا بهم مطمئنا الى اخلاصهم ونبل غايتهم ، وقدم لهم الجند الذى طلبوه ، والمساعدات التى ارادوها واعلنوا بعد ضرب الاسكندرية حاجتهم الى خمسة وعشرين الف جندى لتعزيز الجيش فلم يحجم عن تقديمها رغم الجهود التى بذلت لتنفيره منهم ، وتشويه حركتهم

وانشأ العرابيون بعد جلائهم عن الاسكندرية ثلاثة جيوش للدفاع هذه اسماء مراكزها وقوادها :

١ – جيش كفر الدوار بقيادة طلبه باشا عصمت

٢ – جيش رأس الوادى بقيادة راشد باشا حسنى

٣ – جيش الصالحية بقيادة محمود سامى باشا البارودى (١)

وكانت هنالك ايضا قوات عسكرية فى السويس وفى بعض المراكز الاخرى فى مريوط

وكانت الرئاسة العليا لعرابى باشا

اعمال هذه الجيوش

ونتكلم عن اعمال هذه الجيوش وحركاتها العسكرية وما دار بينها و بين الانكليز من معارك فنقول :

---

(١) لم يقم هذا الجيش بعمل يذكر وانضم فى نهاية الحرب الى جيش رأس الوادى وتشتت معه

١ ـ جبهة كفر الدوار

يبدو للباحث فى تاريخ تلك الايام العسكرى ان زعماء الحركة العرابية العسكريين ما كانوا يحسبون حساب احتلال بريطانى عسكرى ، وما كانوا يظنون ان انكلترا سترسل جيشا لمحاربتهم فى البر ولعلهم كانوا يعتقدون بانها ستقف عند حد ضرب الاسكندرية واسكات حصونها ، يؤيد ذلك انهم لم يشرعوا فى انشاء خط كفر الدوار ، وتبعد عن الاسكندرية ٢١ كيلو مترا فقط وهى على طريق سكة حديد القاهرة الا بعد ضرب الاسكندرية ونزول الجيش البريطانى اليها

وكان خط كفر الدوار الذى انشأه العرابيون يمتد من عزبة خورشيد ـ احدى محطات سكة الحديد بين الاسكندرية وكفر الدوار والى الاولى اقرب . وانشأوا ايضا استحكامات اخرى من كفر الدوار الى ترعة المحمودية فى جوار الاسكندرية وهى الترعة التى تشرب منها الاسكندرية وجعلوا خط الدفاع[1] فى المقدمة عند عزبة خورشيد على طول الخط من المحمودية الى الملاحة وحصنوا ماوراء هذا الخط من التلال والمرتفعات بمدافع كروب كما حصنوا التلال الممتدة بين المحمودية وسد ابو قير ، وقد اشرف على انشاء هذه التحكيمات محمود فهمى باشا رئيس هيئة اركان حرب الجيش المصرى وتمت بمساعدة ٥٠٠٠ متطوع من مديريات البحيرة والغربية والمنوفية

وحشد العرابيون آلايا فى ابو قير لمقاومة الانكليز اذا ارادوا النزول بقيادة خورشيد باشا طاهر ، وقوات اخرى فى رشيد وفى دمياط

وتولى عرابى باشا بالذات القيادة العامة لهذه المنطقة فى اول الامر واشرف على اعمال التحصينات وحشد الجند

المعارك الاولى

واول معركة دارت بين العرابيين والانكليز وقعت يوم ٢٥ يوليو فى ابو قير فقد ارسل خورشيد باشا طاهر قائد ابو قير برقيــة الى عرابى باشا يوم ٢٦ منه قال فيها ان الانــكليز زحفوا من جهة الرمل (رمل الاســكندرية) باورطتين بيادة واورطة فرسان ومدفعــين حاولوا نصبهما على ربوة تبعد نحو ١٥٠٠ متر من المستحكم الطبيعى الموجود امام المعسكر المصرى فحمل عليهم البكباشى احمد افندى البيار واحمد افندى حسان باورطتين مشاة ومثلهما من الفرسان واصلوهم نارا حامية ثم انضم اليهما خورشيد باشا نفسه مع ثلاث فصائل من الفرسان وادار حركة القتال وانتهت المعركة ــ وقد اســتمرت ثــلاث ساعات ونصف ساعــة ــ بارتداد الانــكليز وتواريهم بين النخل

ودارت المعركة الثانية فى عزبة خورشيد (فى جوار الاسكندرية) وذلك ان قطارا من قطارات سكة الحــديد اقترب يوم ٢٧ يوليو من عزبة خورشيد قادما من القبارى (الاسكندرية) يقل قوة بريطانية فضربته المدفعية المصرية فعطلت القاطرة فنزل الانــكليز وكانوا بقيادة الجنرال اليزون وانقسموا الى اربعة اقسام ثم تقــدموا واشتبكوا مع المصريين ودارت معركة عنيفة امتدت ست ساعات تقــاتل الفريقان خــلالها بالسلاح الابيض وظلوا عــلى ذلك حتى الليــل فانفصلوا وتراجعوا وترك الانــكليز فى مــيدان القتال ١٧ جثة بينها جثــة الملازم ديز فدفنوا فى جوار جسر المحمودية وقتــل من المصريين ٢٩ منهم ملازم وجرح منهم ٦٥ بينهم بكباشى مات بسبب جراحه

ودارت بعــد ذلك بين المصريين والانــكليز ثلاث مناوشات فى ايام ٢٠ و ٢١ و ٢٢ اغسطس فى هذا الميدان انتهت بارتداد الآخرين فــكفوا عن الزحف هنا

٢ - ميدان القتال الكبير

شاعت اشاعات فى اواسط شهر يونيو اى فى ابتداء الازمة ان فى نية العرابيين ردم قناة السويس وتعطيل الملاحة ، فدارت مفاوضات بين عرابى ومدير شركة القناة من جهة و بين هذا والانكليز من جهة اخرى ، للاحتفاظ بحياد القناة وعدم اتخاذها ميدانا للحركات العسكرية

ويقول عرابى باشا فى مذكراته انه تلقى يوم ١٤ يوليو اى بعد ضرب الاسكندرية بثلاثة ايام برقية من المسيو دى لسيبس مدير الشركة يسأله فيها عن موقفه من القناة فرد عليه فى اليوم نفسه بانه يعتبرها حرة للمنافع العامة الدولية ، ولا يتعرض لها بضرر ، بشرط ان تمتنع البوارج البريطانية عن العبث بحيادها والا فهو يقابلها بالمثل ، فابرق اليه فى اليوم نفسه يقول انه يضمن الانكليز و يتعهد بأن لا يقع شىء من جانبهم فاطمأن عرابى الى قوله وعدل عن اتخاذ تدابير دفاعية لانه حسب ان فرنسا من وراء الشركة تؤيدها وتشد ازرها

وشرعت البوارج البريطانية من اواسط شهر اغسطس بارتياد القناة ثم انزلت قوات عسكرية فى الاسماعيلية يوم ٢٠ منه (وهى فى وسط القناة) ويلوح لنا انهم لم يقدموا على ذلك الا لما تبينوه من صعوبة التغلب على خط كفر الدوار واقتحامه ، ففضلوا النزول هنا والزحف على القاهرة حيث المسافة اقرب والطريق اسهل ولعدم وجود قوات وطنية ، وعبثا حاول مدير الشركة ورجاله اقناعهم بالمحافظة على حيادها فأبوا . واصدر الخديوى على الاثر مرسوما يبيح فيه لامير البحر الانكليزى ولقائد الجيوش البريطانية الحلول فى جميع النقط والاماكن التى يريان ضرورة للحلول فيها من الاراضى المصرية « لانهما يعملان لاعادة الراحة والنظام الى القطر المصرى وللقضاء على العصيان » وتذرع الانكليز بهذا المرسوم وتمسكوا به

واجتازت قوة بحرية انكليزية القناة يوم ١٩ اغسطس وسارت الى السويس

فاطلقت مدافعها على المدينة فلم يجاوبها احد فانزلت جندا احتلها

وشعر العرابيون بما هنالك وفهموا روح الخطة العسكرية الجديدة فارسلوا يوم ٢١ منه قوة من المشاة والفرسان والمدفعية بقيادة خالد باشا نديم ، واتخذوا « المسخوطة » قاعدة عسكرية لهم وعينوا الفريق راشد باشا حسنى قائدا عاما لهذه المنطقة واطلقوا عليها اسم الساحة الشرقية ثم حشدوا اورطة فى محطة فايد واخرى فى محطة نفيشة (من محطات سكة الحديد بين السويس والاسماعيلية) وارسلوا محمود باشا فهمى رئيس هيئة اركان الحرب الى المسخوطة لانشاء استحكامات وقطع الترعة الحلوة عن الاسماعيلية والسويس و بورسعيد

وفى يوم ٢٤ اغسطس قامت قوة انكليزية تتألف من اربع اورط مشاة مع قوة فرسان و بطارية مدافع جبلية من الاسماعيلية الى المسخوطة فدار قتال عنيف بينها و بين القوة المصرية انتهى بارتداد الانكليز ومطاردة المصريين لهم حتى جوار الاسماعيلية

وفى يوم ٢٥ منه اطلقت البوارج الانكليزية النار على مراكز المصريين فى المسخوطة فاوقعت قنابلها الذعر فى صفوف الفلاحين الذين كانوا يعملون فى حفر الخنادق وانشاء الاستحكامات ففروا فاوقع فرارهم الذعر والاضطراب فى صفوف الجند المرابط هنالك فتشتت فتقدم مشاة الانكليز من الاسماعيلية واحتلوا المسخوطة فارتد المصريون الى التل الكبير

ووصلت اخبار ماجرى الى كفر الدوار وكان عرابى باشا لايزال فيها يشرف على حركة القتال و ينظم خطوط الدفاع فسافر فورا الى رأس الوادى . وجاء ايضا من القاهرة على باشا فهمى ومعه الاى من المشاة وجاءت قوات اخرى من دمياط وغيرها

معركة القصاصين

وعقد الضباط المصريون اجتماعا فى رأس الوادى برئاسة عرابى باشا فقرروا الهجوم على العدو ، وكان قد تقدم الى القصاصين

وفى صباح الاثنين ٢٨ اغسطس شرع الجيش المصرى فى مهاجمة الانكليز طبقا للخطة المرسومة فدار قتال عنيف بين الفريقين امتد حتى الليل فانفصلا وتراجعا . وكانت قوة المصريين فى هذه المعركة تتألف من ثمانى فرق من المشاة و ١٢ مدفعا وكانوا يحاولون الاستيلاء على سدود الترعة عند القصاصين وكانت فى حوزة الجيش البريطانى

وفد الخديوى

وارسل الخديوى على اثر هذه المعركة وفدا من محمد باشا سلطان (رئيس مجلس النواب) وعمر باشا لطفى (وزير الحربية الجديد) وفريد باشا وزكى بك وعثمان بك رأفت الى الاسماعيلية ومعهم منشور السلطان الذى يعلن به عصيان عرابى ومنشورات الخديوى فانضموا الى زهران بك مندوب الخديوى فى الجيش الانكليزى وشرعوا فى توزيع المنشورات على الاهالى ودعوتهم الى الانتقاض على العرابيين كما اتصلوا سرا ببعض ضباط الجيش واغروهم بمالاتهم ، ووزعوا كثيرا من الاموال على العربان والمشايخ والعمد وطاف بعضهم البلاد لبث الدعوة ، فاثرت حركتهم فى القرى وانضم اليهم بعض الرؤساء

معركة التل الكبير

وظلت المناوشات دائرة بين المصريين والانكليز فى مختلف المناطق حتى يوم ٨ سبتمبر اذ عقد الضباط المصريون فى التل الكبير اجتماعا برئاسة عرابى باشا شهده راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى ومحمود سامى باشا البارودى و بقية قواد الالايات فقرروا الهجوم على مراكز الانكليز فى القصاصين فجر يوم الجمعة ٩ منه

وشرع المصريون فى الوقت المضروب فى الهجوم على مواقع الانكليز طبقا للخطة المرسومة ، فوجدوهم على اتم استعداد للقائهم والظاهر أن جواسيسهم ابلغوهم ما اتفق عليه المصريون

وحالت حوائل دون اشتراك محمود سامى باشا فى الهجوم ، واصلاه الانكليز ـ وكانوا على تمام الاهبة ـ نارا حامية حينما وصل فتشتت رجاله وتفرقوا فقصد بعضهم بلبيس وذهب الآخرون الى رأس الوادى

وقاتل الجيش المصرى قتالا عنيفا وثبت حتى المساء وجرح راشد باشا حسنى قائده فى رجله برصاصة وجرح على باشا فهمى فى ساقه وخسر الجيشان خسارة كبيرة فى هذه المعركة وكانت اعظم المعارك التى دارت فى تلك الحرب

وعين عرابى باشا على باشا الروبى قائد خط مريوط قائدا لهذا الميدان بدلا من قائده المجروح فوصل الى التل الكبير اصيل يوم الاثنين ١٢ منه وقصد المقدمة ، واشرف على حالة الجيش واصدر الامر باتخاد بعض التدابير العسكرية

وفى فجر يوم الثلاثاء ١٣ سبتمبر شرع الانكليز بهجومهم الكبير على مراكز المصريين فى التل الكبير فاخذوهم على غرة فتشتتوا واسرع عرابى باشا الى القنطرة على الترعة هنالك لاعادة الجند وناشدهم الوطنية والدين فلم يصغوا اليه فقصد بلبيس لجمع المنهزمين ولمنع العدو من الوصول الى القاهرة . وفى بلبيس اجتمع بعلى باشا الروبى فسأله عما دهاهم فأجاب انه خذلان

وجدت فرقة من خيالة الانكليز فى مطاردة المنهزمين حتى بلغت بلبيس ، وكان عرابى باشا لايزال فيها فسار الى انشاص ومنها ركب قطارا الى القاهرة

وهذا هو نص التقرير الذى ارسله الجنرال ولسلى الى الخديوى عن معركة التل الكبير :

التل الكبير الساعة ٣٠ : ١١ ق . ظ . ١٣ سبتمبر

امرت ليل امس جيشى بالاستقرار فى القصاصين تحت الخيام فاستقر حتى الساعة الواحدة والدقيقة ٣٠ بعد منتصف الليل ثم زحف لمهاجمة التل الكبير وكان يتألف من ١١ الفا من المشاة مسلحين بالحراب و ٢٠٠٠ فارس متقلدين الحراب و ٦٠ مدفعا

وكان عرابى متحصنا فى ذلك الموقع الحصين ومعه ٢٠ الف مقاتل من المشاة و ٢٥٠٠ من الفرسان وستة آلاف من العربان و ٧٠ مدفعا

وقطعت فى الليـل المسافة بينى و بين العصاة وهى ستة اميال بلا عناء . وكانت فى الميمنة بطاريتان وفى الميسرة فرسان بقيادة الجنرال جراهام وفى مقدمـة الجيش وساقته فرسان بامر الدوق اوف كنوت ، وكان الى يسار الفرسان سبع بطاريات على خط واحد ومعها آلايات العساكر الجبلية ، وكانت مهمة الفرسان فى الجناح الايمن ان يقطعوا خط رجعة العصاة عند طلوع النهار

وقد نظمنا جيشنا على نية ان نـكر كرة واحدة بجميع قواتنا على التل الـكبير وكان الامر كذلك فاندفعنا عليه بثبات و بأس وامتاز بالبسالة آلاى الملكة الارلندى

واستولينا على عـدة قطارات وكميات وافرة من المؤن والمهمات الحربيـة ولا اعرف عدد المدافع التى استولينا عليها ولـكنها كثيرة

ورأينا العصاة منهزمين فى ساعة الهجوم بين الفرسان وقد القوا اسلحتهم من ايديهم وشمروا للفرار بعد مااصيبوا بخسارة جسيمة

وجرح منا الجـنرال ولس جرحا بسيطا وجرح الـكولونيل ريتشردسون جرحا بالغا ، وقتل القائمقام ادورار وجرح الـكولونيل ستران والماجور كولفل واصيب الـكولونيل بلفور برصاصة فى رجله وجرح الطبيب كان جرحا بسيطا . وجرح اربعة غير هؤلاء من الضباط

وفر عرابى الى الزقازيق على جواد سريع العدو

وسار فرسانا الى الزقازيق وسيلحق بهم غيرهم فى مساء هذا اليوم

قطعت الترعة الحلوة من جهات مختلفة ولم تصب سكة الحديد بأذى ــ اه

وارسـل ايضا فى اليوم نفسه برقية اخرى يقول فيها : ان غنائمهم من المدافـع ٥٠ ــ ٦٠ مدفعـا وان جنودهم دخلت فى الساعة الرابعـة بعـد الظهر الى الزقازيق واستولى الجنرال ماكفرسون قائد الجيوش الهندية على خمسة قطارات مشحونة بالذخائر الحربية والمؤن وان عرابى فر الى القاهرة

« دخل فرساننا الى بلبيس وقد عزمت على ارسال المشاة اليها بقصد ان ادخلها غدا

« ارجو ان استولى غدا على بنها واذا لم الق صعوبة فاتقدم بالفرسان الى قليوب ومنها انطلق الى القاهرة »

وقدرت خسارة المصريين فى معركة التل الكبير بعشرة آلاف قتيل

الاستيلاء على القاهرة

بلغ عرابى باشا القاهرة ظهر يوم الاربعاء ١٤ منه فقصد ديوان الحربية ودعا المجلس الوطنى الى الاجتماع فاجتمع وحضره امراء العائلة الخديوية وكبار الضباط والاعيان فابلغهم نبأ الهزيمة واستشارهم فى الخطة التى يتبعها وهل يدافع ام يسلم فاقترح الامير ابراهيم احمد والامير كامل فاضل الاستمرار فى الدفاع حتى النهاية وقالا ان مصر مملوءة بالجند والذخائر والمهمات والاسلحة ووافق الجميع على هذا الرأى

وغادر عرابى باشا ديوان الحربية الى العباسية ومعه المرعشلى باشا رئيس مهندسى الاستحكامات ومحمد باشا رضا قائد الفرسان وحسن باشا مظهر مدير التموين فاتفقوا على انشأ خط دفاع امام المطرية شرقى عين شمس على ان يمتد جنوبا الى جبل المقطم ويسارا الى ترعة الاسماعيلية ثم ينعطف غربا على الترعة المذكورة الى النيل عند فم رياح الترعة قرب شبرا

وقصد الاقطاب الثلاثة بعد هذا القرار الى قشلاق المدفعية لاستعراض القوة الموجودة فلم يكن فيه سوى الف رجل من خفراء البلاد وبلا ضباط ووجدوا فى مركز الفرسان نحو ٤٠ فارسا فادركوا ان الدفاع لايجدى لعدم وجود قوة كافية وان التسليم اولى خوفا على العاصمة

وعاد عرابى باشا والذين معه الى المجلس الوطنى وابلغوه ما استقر عليه قرارهم وقال الاول ان فى استطاعة الخديوى وقف هذه الحرب وصيانة القاهرة من الدمار لان الانكليز يحاربوننا باسمه وليصنع بى بعد ذلك ماهو اهله

ووضع المجلس عريضة لرفعها الى الخديوى باسم عرابى باشا يطلب فيها وقف الحرب و يلتمس التوسط عند الانكليز لعدم دخولهم القاهرة صونا لها من الدمار

وحمل هذه العريضة الى الاسكندرية بطرس باشا غالى ورؤف باشا وعلى باشا الروبى و يعقوب باشا سامى رئيس المجلس العسكرى وسافروا بقطار خاص غادر القاهرة يوم الخميس ١٥ منه ولما وصلوا الى الاسكندرية تسلم الخديوى العريضة واجاب الالتماس وامر بالقبض على الروبى باشا و يعقوب باشا وسجنهما كما امر بالقبض على حسن باشا الشريعى وزير الاوقاف وعبد الله باشا فكرى وزير المعارف فى الحكومة الوطنية فسجنا

وفى مساء يوم الخميس وصلت خيالة الانكليز الى العباسية بقيادة الجنرال لوى وعسكرت فى مركز الخيالة المصريين

واصدر الخديوى فى ذلك اليوم امرا بسجن عرابى باشا وسجن جميع كبار الضباط والعلماء الرؤساء الذين اشتركوا فى الحركة الوطنية

وفى عصر يوم الجمعة دعا الجنرال لوى عرابى باشا وطلبه باشا الى مقابلته فى العباسية فلما قابلهما قال لهما هل تقبلان ان تكونا اسرى حرب عند جلالة الملكة ؟

— نعم نريد ذلك حقنا للدماء . ولو ان عندنا من القوى الحربية مايمكننا من اطالة المقاومة لما قبلنا ذلك ولقاتلنا حتى يقضى الله بيننا

وسلم عرابى باشا وزميله سيفيهما فاعتقلا ثم قدما الى المحاكمة مع جمع كبير من انصارهم واعوانهم من الضباط والعلماء وغيرهم

وفى يوم ٢٥ سبتمبر عاد الخديوى الى القاهرة فاستقبل بالحفاوة واطلقت المدافع ثم ركب مركبة والى يساره الدوق اوف كنوت وامامه الجنرال ولسلى والمستر مالت ووراءه الفرسان الانكليز وسار الى قصر الاسماعيلية

مصير زعماء الحركة

والفت الحكومة على الاثر لجنــة حققت مع المعتقلين ثم الفت محكمة عسكرية حكمت بالاعــدام على الزعماء العسكريين السـبعة وهم عرابى باشا ومحمود سامى باشا و يعقوب سامى باشـا ومحمود فهمى باشا رئيس هيئة اركان الحرب وعلى باشـا فهمى وعبد العال باشا حلمى وطلبه باشا عصمت وعلى باشا الروبى ، ثم ابدل الحكم بتوسط الانكليز بالنفى المؤبد الى خارج القطر المصرى و بمصادرة املاكهم وموجوداتهم منقولة و غير منقولة وعدم جواز تملكهم اى شىء فى الاقطار المصرية بطريق الارث او الهبة او البيع او بأى طريقة كانت على ان يرتب لهم راتب سنوى بقدر الضرورى لمعيشتهم و بتجريدهم من الرتب والالقاب وعلامات الشرف

وفى يوم ٢٧ ديسمبر سـنة ١٨٨٢ غادروا القاهرة الى السويس ومنها ركبوا باخرة اقلتهم الى جزيرة سيلان حيث تقرر ان ينفوا فمات هنالك بعضهم وعاد البعض الآخر الى الوطن بعد طول غياب

وحكم على كثيرين من اعيان القطر بالنفى والتغريب والسجن

و بلغ عــدد الضباط الذين طردوا من الخدمة وجردوا من رتبهم والقابهم بتهمة الاشتراك فى الثورة ٢٥٦ ضابطا . ودام حكم الارهاب قائما حتى يوم ٣ يناير سنة ١٨٨٣ ففيه اصدر الخديوى المرسوم الآتى :

بناء على ما جبلنا عليه من الرأفة والشفقة نحو اهالى القطر المصرى ورغبة فى ايجاد الراحة والاتفاق بين جميع الاهالى بطرح ما حصل فى زوايا النسيان والعفو عنه ، و بناء على كون الرؤساء الذين سببوا الاضطراب الذى اورث القطر الضرر الجسيم قد عوقبوا و بناء على ان سـلوك من تبعهم لم يكن الا بسبب ارهاب او اضلال فقد امرنا بما هو آت : ــ

قد عفونا عفوا تاما عن جميع اهالى القطر المصرى الذين اقترفوا جـريمة أو

جنحة سياسية فى الحوادث الثورية التى حصلت اخيرا فى القطر المصرى ما عدا اولئك الذين صدرت عليهم لغاية يومنا هذا احكام او اوامر بالعقوبة »

و بلغ عـدد الذين اتهموا وحوكموا بتهمة الاشـتراك فى الحركة العرابيـة نحو ٣٠ الفا

١٦
بعد ١٤ سبتمبر

انتهى فى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ الصراع العنيف الذى دار نحو ثلاث سنوات بين الوطنيين المصريين و بين الخديوى توفيق بالقضاء على الحركة الوطنية وانطفاء نورها على يد الانكليز الذين حاربوها وشتتوا شمل رجالها واقاموا سلطانهم على انقاضها

ولقد كان ما وقع فى ذلك اليوم نتيجة عوامل شتى تضافرت وتعاونت فسهلت للانكليز تحقيق امنية ظلوا مدة ٨٣ سنة يعملون لتحقيقها فقد استغلوا الظرف الذى تم فيه تعيين الخديوى بدلا من ابيه فاستمالوه الى جانبهم وكان لا يزال فى طراوة شبابه ، وغض اهابه ، واوهموه بانهم اصدقاؤه فاطمأن اليهم ووثق بهم ، ونفذ تعليماتهم وخططهم فازداد الهياج نخاف المغبة فلجأ اليهم والقى بنفسه فى احضانهم ، فهدأوا روعه ، و برزوا لمكافحة الحركة الوطنية ، وهم يكررون على مسمعه ومسمع العالم كله ، بانه لا مطمع لهم ولا غاية ، وانهم لا يريدون سوى توطيد سلطانه ، واعادة النظام الى بلاده ثم يتركونها وشأنها ، و يلقون حبلها على غاربها ، وهذه منشوراتهم ومنشورات الخديوى ورجاله فى تلك الفترة ، وقد اثبتناها بالنص فى متن الكتاب ، تؤيد ما نقوله

ولم يطل على دخول الانكليز الوقت حتى تبين الذين احسنوا الظن بهم وصدقوهم انهم كانوا فى ضلال مبين فقد عكفوا من الساعة الاولى على ترسيخ اقدامهم و بسط نفوذهم ثم قبضوا على عنق البلاد وتسلموا زمامها وسيطروا على الكبير والصغير من شؤونها واصبح عميدهم كل شيء فى الدولة لا يبت فى مشروع من المشروعات الا باشارته وطبق رغائبه

وعوض الانكليز فرنسا عن تساهلها معهم فى القضية المصرية وعن سكوتها

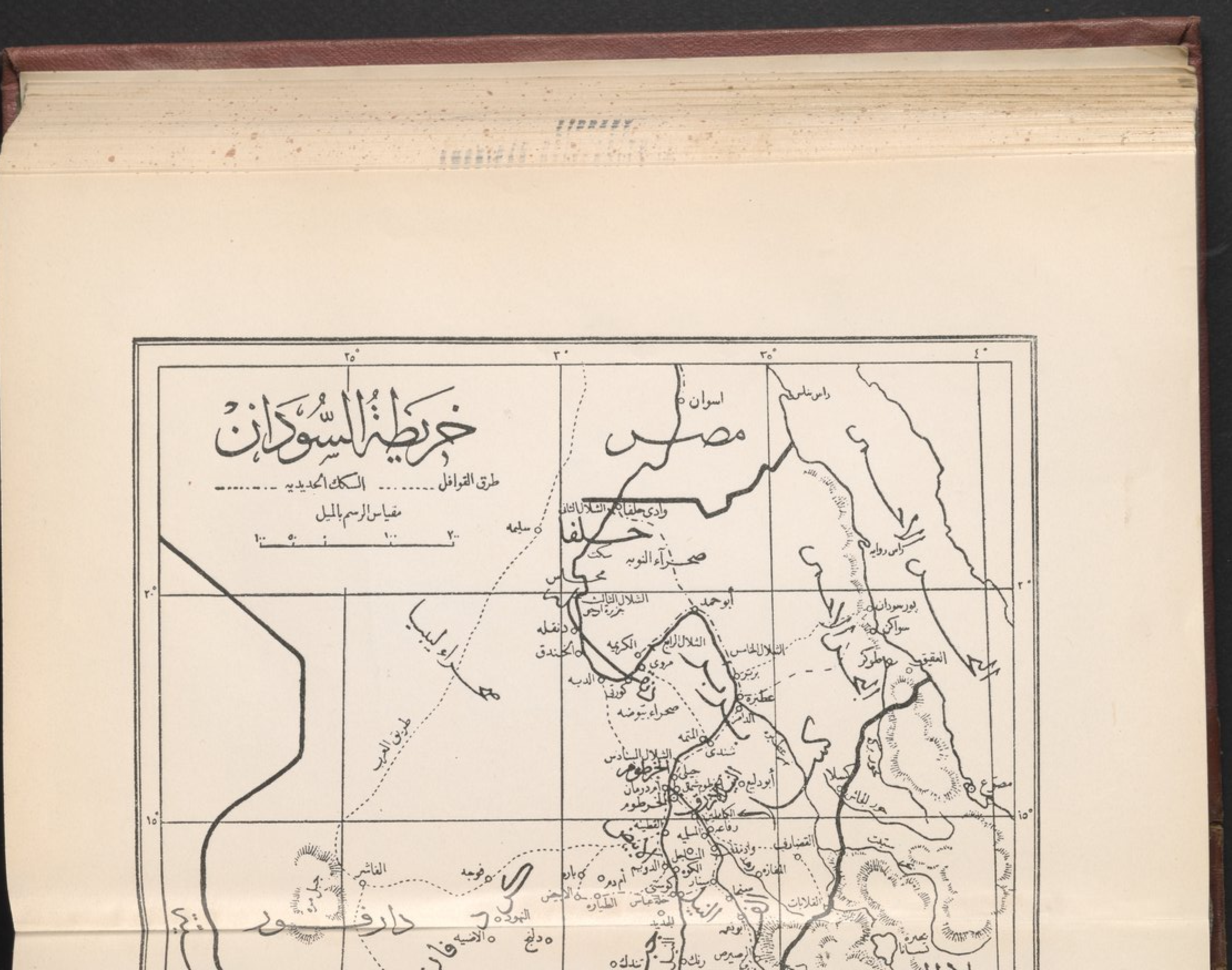
عن احتلالهم لمصر وكان نفوذها فى مصر يعادل نفوذهم ان لم نقل انه كان يفوقه ، باطلاق يدها اطلاقا تاما فى المغرب الاقصى تفعل ما تشاء للاستيلاء عليه وامتلاكه ، وكانوا فى سنة ١٨٨١ قد اباحوا لها الغارة على تونس والاستيلاء عليها وهكذا تكون الغارة على وادى النيل عجلت بالقضاء على استقلال قطرين من اعظم الاقطار العربية ثروة وعمرانا وتشبه الظروف التى استولى فيها الفرنسويون على تونس وعلى المغرب الاقصى ايضا الظروف التى استولى بها الانكليز على مصر فقد استعان كل منهما بامير البلاد واستخدمه فى تهدئة الاعصاب وفى التمهيد لاحتلاله

وكانت صفقة تركيا هى الخاسرة فقد قضى الانكليز على كل ما كان لها من نفوذ فى مصر وقطعوا ما كان هنالك من وشائج وروابط بين النيل والبسفور فادرك رب يلدز بعد فوات الوقت انه كان مخطئا فى سياسته ، واهما فى تصرفاته واعماله ويلوح لنا ان حكومة الاستانة لو تدخلت من الاول وعجلت فى ارسال القوى التى اقترح عليها ارسالها لما اتسع الخرق ذلك الاتساع ، ولكنها ليست الهفوة الاولى لحكومة المابين

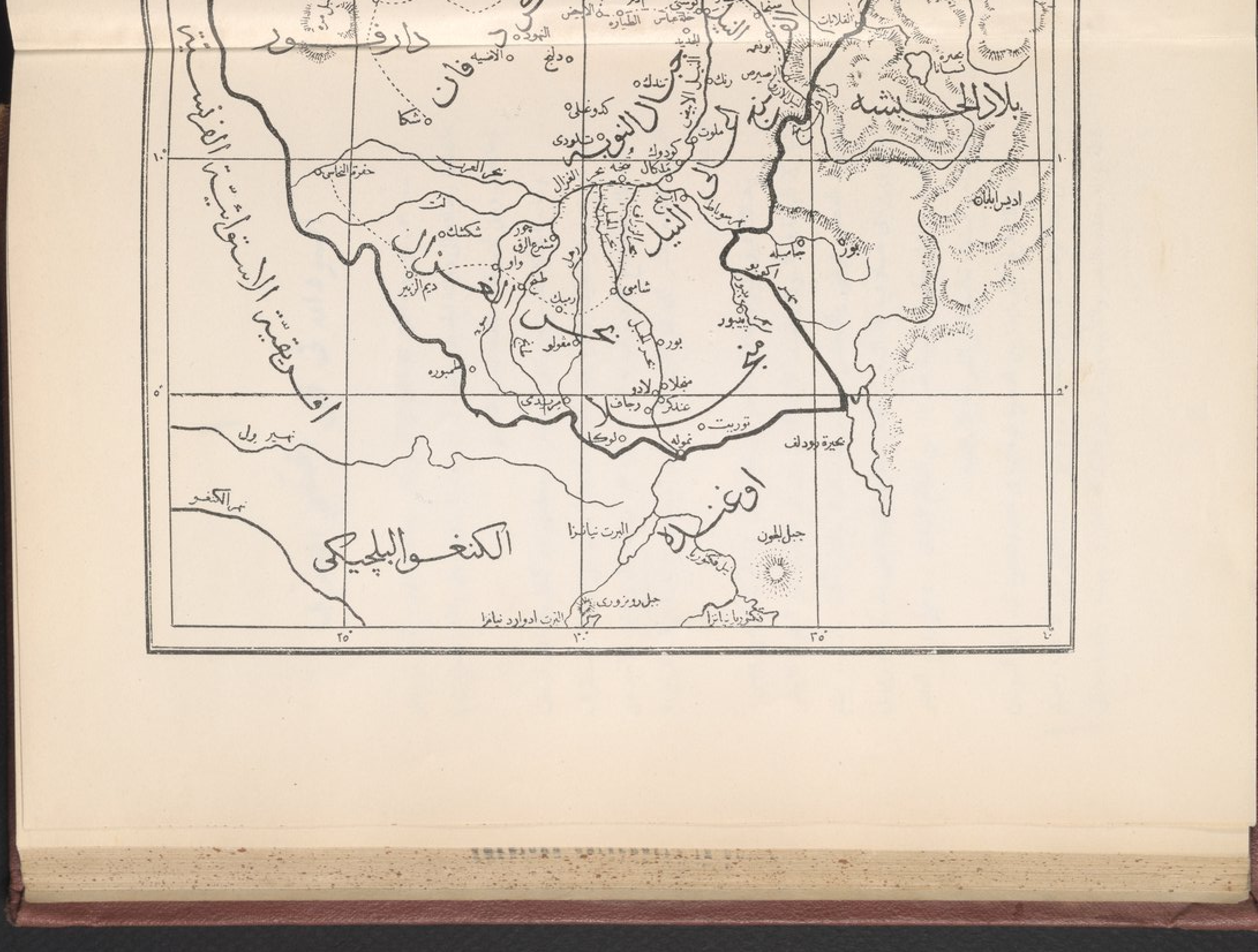
وجملة القول ان ظروف السياسة الدولية التى اضطرت الانكليز الى الجلاء عن وادى النيل فى سنة ١٨٠٢ هى التى سهلت لهم الاستيلاء عليه فى سنة ١٨٨٢ فقد ارضوا فرنسا وخدروا اعصاب حكومة الباب العالى كما استغلوا فرصة الخلاف بين الخديوى والزعماء الوطنيين فمدوا شباكهم فصادت وسعوا وراء بغيتهم فنالوها

ونتكلم فى الجزء الثالث عن الثورة المصرية فى سنة ١٩١٩ فهى ثمرة من ثمرات النهضة العرابية ونفحة من نفحاتها ونصف تحول القضية المصرية وادوارها

الاستيلاء على السودان



خريطة السودان
طرق القوافل
السكك الحديديه
مقياس الرسم بالميل
مصر
اسوان
وادي حلفا
حلفا
صحراء النوبه
صحراء ليبيا
طريق العرب
سليمه
أبو حمد
دنقله
الخندق
الدبه
الكريمه
مروي
عطبره
بربر
الدامر
المتمه
شندى
صحراء بيوضه
الخرطوم
أم درمان
أبو دليع
رفاعه
الكاملين
القطينه
المسليه
ودمدني
سنار
كوستي
الدويم
أم درم
بارا
الأبيض
الطياره
النهود
الأسيه
دلنج
فوجه
الفاشر
دارفور
جبل مره
القضارف
المفازه
القلابات
كسلا
طوكر
سواكن
بورسودان
العقيق
مصوع
ستيت
راس رواية
راس بناس



بلاد الحبشه
جبال النوبه
الكنغو البلجيكي
اوغنده
بحر الغزال
بحر العرب
حفرة النحاس
شكا
كدوغلي
تلودى
ملوت
كودوك
شامبي
بور
مفلاد
لادو
رجاف
غندكر
توريت
نموله
لوكا
ديم الزبير
شكشك
مقولو
تمبوره
بحيرة رودلف
جبل الجون
البرت نيانزا
البرت ادوارد نيانزا
جبل روزورى
فكتوريا نيانزا
اديس ابابا
نهر الكنغو
نهر ول
بحر الجبل
شرع الرق
واو
رمبك
بيبور
اكوبو
جامباله
دارفور
فان
دلنج
الابيض
١٠°
٥°
٢٥°
٣٠°
٣٥°
٤٠°

١

السودان فى ظل الحكم المصرى

سير محمد على باشا الحملة تلو الحملة الى السودان ، بعد ما استقام له الامر فى مصر فاخضعه واضافه الى دولته الجديدة ونص فى فرمان سنة ١٨٤١ على بقائه (السودان) تابعا لمصر وعلى ان يكون خاضعا لبيت محمد على

وتتابع الحكام المصريون على السودان . ومعظمهم غير كفؤ ولا اهل فساءت حالته تدريجيا وطرأ عليه ماطرأ على حكومة العاصمة نفسها من ضعف واضطراب فساعد ذلك على نجاح الدعوة المهدية التى دعا اليها محمد بن عبد الله فى الجزء الاخير من القرن التاسع عشر اى فى نفس الوقت الذى اشتدت فيه الحركة العرابية فى مصر

وهنالك فرق كبير واختلاف ظاهر بين الحركتين : الحركة العرابية بمصر ، والحركة المهدية فى السودان فقد كانت الاولى ترمى الى القضاء على النفوذ الاجنبى وتسويد العنصر الوطنى والتخلص من سيطرة الترك والشراكسة وانشاء نظام دستورى برلمانى تعلو فيه كلمة الامة اما الثانية فغايتها القضاء على الحكم المصرى فى السودان ، وانشاء حكومة دينية بعيدة عن النظام المدنى ، وعن روح العصر ومقتضياته ، تستمد تعاليمها من الشريعة الاسلامية

وهنالك فرق كبير ايضا بين الدعوة الوهابية فى نجد والدعوة المهدية فى السودان فمحمد بن عبد الوهاب لم يدع المهدوية ولم يزعم انه راى النبى صلى الله عليه وسلم يقظة وانه وعده بالنصر والتأييد ولم يقل ان الملائكة تقاتل فى جيشه ، وانما دعا الى

نبذ البدع والخرافات والرجوع الى الدين الصحيح ، والانتهاء عما نهى عنه الشرع اى انه نهج غير نهج المهدى واتبع غير طريقه

والعوامل التى ساعدت على نجاح الحركة الاولى هى نفس العوامل التى ساعدت على نجاح الحركة الثانية ، فقد نهض ابن عبد الوهاب فى نجد يدعو الى الاصلاح فى زمن كثرت فيه الفوضى وعم الفساد وتدهورت الاخلاق ، وكذلك فعل ابن عبد الله فى السودان ، فقد نهض يدعو الى مقاومة الفساد والالحاد فى زمن انحطت فيه الاخلاق وكثر البغى ، وفسدت نظم الحكم ، وانتشرت الموبقات واضطرب مركز الحكومة وضعف وساءت الحالة الاقتصادية بسبب الغاء الرقيق ، فاقبل عليه الشعب السودانى وايده والتف حوله



المهدى

كما تصوره احد الرسامين الانكليز

٢

المهدى محمد بن عبد الله

هو محمد بن عبد الله بن فحل بن عبد الولى بن عبد الله بن محمد بن الحاج شريف بن على بن احمد بن على بن حسب النبي بن بصر بن النصر بن عبد الكريم ابن حسين بن عون الله بن نجم الدين بن عثمان بن يعقوب بن عبد القادر بن الحسن العسكرى بن علوان بن عبد الباقى بن صخرة بن يعقوب بن الحسن السبط ابن الامام على بن ابى طالب

ولد سنة ١٢٥٨ ﻫ فى دنقلة من قبيلة عربية اسمها صبرنسى اى قبيلة الصبر ونشأ فيها وظهر عليه منذ حداثته ميل فطرى الى العلوم الدينية فحفظ القرآن وتفقه فى الدين ، وولع بالتقشف والزهد ، وكان يبلل الأرض بدموعه اذا وقف للصلاة كما كان يمتنع عن اكل زاد شيخه ، لانه كان يجرى عليه من الحكومة ، وكان اذا تأخر عليه طعامه ، الذى يحمله اليه اهله ، اصطاد من سمك النيل واقتات به

واخذ التصوف عن الشيخ محمد شريف نور الدين الدائم ، وسلك سبيل المخلصين ، وكان يحتطب لشيخه و يستقى ، و يطحن و يطبخ ، و يقوم على خدمته ولا يرفع رأسه بحضوره ، فمال اليه وقربه واعطاه رايته ، واذن له فى الذهاب انى شاء بعد ما اجازه ومنحه الحق بان يجيز فى الطريق

والبيت الذى نشأ فيه المهدى بيت تقوى وزهد ، وكان والده نجارا يصنع المراكب النيلية واخذ هو الصنعة عن والده وهو صغير واشتغل بها فى اول نشأته

وتزوج فى اول نشأته بابنة عمه ، ثم رحل مع زوجه واخويه الى جزيرة « ابا » فانصرف شقيقاه الى مزاولة صنعتهما ، وعكف هو على بث التعاليم الصوفية ، وعلى نشر العلم والارشاد ، وانشأ مسجدا للصلاة وخلوة للتدريس وغارا للعبادة فاقبل عليه سكان الجزيرة ، ومالوا اليه وتزاحموا على مسجده ، فذاع صيته ، وانتشر اسمه فجاءه الناس من كل حدب يتبركون به ، ويحملون اليه الهدايا فكان يوزعها على الفقراء والمحتاجين ، ولا يمد اليها يدا ، ولا يختص نفسه بشيء منها ، فزاد ذلك فى شهرته

وكثر انصاره واتباعه فصار يخرج بهم الى البلاد المجاورة لنشر الدعوة وللتعليم والارشاد . فزار دنقلة وسنار والنيل الازرق وكردفان فكان يستقبل بالحفاوة ويستبق الناس الى لثم انامله ، وطلب دعائه والتماس بركاته ، وظل هذا شأنه لا يدعو الى مهدية ولا يفكر فيها حتى وفد عليه عبد الله التعايشى البقارى فخر مغشيا عليه عند ما ابصره واطال النظر فى وجهه فلما افاق اقبل على يديه يقبلهما ويبكى ثم قال له :

« انا عبد الله بن محمد توريش من قبيلة التعايشة البقارة ، وقد سمعت بصلاحك الى دار الغرب فقصدتك لآخذ الطريق عنك

« ولقد قال لى والدى وكان عالما ومن اهل الكشف قبل وفاته ، انك ستقابل المهدى وتكون وزيره وقد اخبرنى بعلامات قال انها ستكون فى المهدى ووصفه لى وصفا كاملا ، فلما وقع نظرى عليك ورايت فيك تلك العلامات والأوصاف ادركت انك المهدى المنتظر فابتهج قلبى برؤية مهدى الله وخليفة رسوله وسقطت مغشيا من شدة الفرح الذى خامر فؤادى »

ووقعت كلمات التعايشى وقعا حسنا من نفس الشيخ محمد ، فصدق الرواية واعتقد انه المهدى المنتظر ، واخذ ينشر الدعوة الى المهدية سرا بين اتباعه ومريديه وشيوخ طريقته ، ولما لم يجد منهم معارضة ولا مقاومة انتقل من السر الى الجهر فصار يقول : رايت النبى (ص) بعينى رأسى يقظة فاجلسنى على كرسيه وقلدنى سيفه

وغسل قلبي بيده وملأه ايمـانا وحكمة ومعارف منيفة واخبرنى باننى الخليفة الاكبر والمهـدى المنتظر ، وان من شك فى مهديتى فقد كفر ، ومن حار بنى فقـد خذل فى الدارين »

وكان يبايع بالبيعة الآتية :

« بسم الله الرحمن الرحيم. والحمد لله الولى الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم

« اما بعد فقد بايعنا الله ورسوله و بايعناك على توحيد الله وان لانشرك به احدا ولا نسرق ولا نزنى ولا نأتى ببهتان ، ولا نعصيك فى معروف

« بايعناك على زهد الدنيا وتركها ، والرضا بمـا عند الله والدار الآخرة ، وعلى ان لا نفر من الجهاد »

وكانت البيعة تجرى على طريقتين فاما ان يضع المبايع يده بيد المهـدى جاعلا ابهامه على ابهامه ، وفى خلال ذلك يتلو هذا صيغة البيعة فيعيدها المبايع (بالكسر) واما ان تجرى باللسان فقط

واذا زاد عدد المبايعين على اثنين ، وضع الاول يده بيد المهدى ، والقى الباقون ايديهم فوق ايديهما . وكان يرقى احيانا منبرا او يركب جمـلا ، فيقف النـاس امامه و يبايعونه

وتزوج بعـد الدعوة بثـلاث زوجات غـير الاولى وقـد اطلقوا عليهن لقب امهات المؤمنين

وانجب عشرة من الذكور وهم الفاضل ومحمد والبشرى والصديق وعبد الرحمن والطاهر والطيب ونصر الدين الخ وعشر من الاناث وهن : زينب وام كلثوم ونور الشام ونفيسة وعائشة الخ

توفى فى ام درمان يوم الاثنين ٩ رمضان سنة ١٣٠٢ و ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥ عن ٦٤ سنة ودفن فى مقام لايزال قائما هنالك بعد ما اخضع السودان ونشر فيه تعاليمه ، واسس حكومة عاشت نحو ١٨ سنة

وكان طويل القامة ، كبير الرأس ، عريض الوجه ، اسمر اللون ، ادعج العينين ، ازج الحاجبين ، واسع الجبين ، اقنى الانف ، رحب الصدر ، واسع الفم ، عريض الشفتين ، عظيم المنكبين ، ضخم العظام ، واسع الكفين والقدمين ، سائل الاطراف ، مفلج اللسان ، مشرط الوجنتين ، على كل وجنة ثلاث شرائط افقية مستدير اللحية خفيف الشارب

وكان يحلق شعر رأسه ، و يرسل لحيته ، وكان يجلس على فروة من الضأن و يقعد القرفصاء ، و يجثو عند الطعام على احدى ركبتيه

وكان يلقب بابى فلجة لانه كان دائم الابتسام ووصفه احد اصحابه بانه لين الجانب ، سهل الخلق ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا فحاش ، ولا عياب ، واسع الصدر ، يواسى اصحابه ، و يفى لهم

٣

منشورات المهدى

يقول معظم الذين نشأوا فى عهد المهدى وعاشروه واتصلوا به عن كثب انه كان مخلصا فى عمـله ، صادقا فى حركـته ، وانه حارب الفسق والفجور الذى انتشر فى السودان وراج ، واعاد العمل بالاحكام الشرعية ونفذها وعمل ايضا للاصلاح الاجتماعى فحرم الاسراف فى الاعراس وخفض المهر فجعله ١٠ ريالات وثوبا للبـكر وخمسة ريالات وبدلتين للثيب وابطل الرقص والغناء وحرم خصى الرقيق ، كما منع البكاء وراء الميت وابطل السحر والتعزيم والتمائم وحرم شرب الدخان والحشيش والخمر ومنع القمار ، ورجم الزانى وجلد الزانية وقطع يد السارق وساوى بين الغنى والفقير ، وحرم الالقاب والاوسمة ، ومنع الحج تحت ستار التفرغ للجهاد

والباحث فى سيرة المهدى وفى الحـكومة التى انشأها بعد استيلائه على الخرطوم يرى انه كان يتشبه فى اعماله بصاحب الرسالة الاعظم ، ويحاول ان يسـير سيرته فى حكومته ، وفى بيته ، وفى جميع تصرفاته ، رغبـة فى التقرب من العامـة واكتساب مودتهـم ، وكان يقسم اصحابه الى مراتب ، فاصحاب المرتبـة الاولى « ابكار المهدى » وهم الذين صحبوه قبل اعلان الدعوة واصحاب المرتبة الثانية « انصار ابا » وهم الذين صحبوه فى جزيرة « ابا » واصحاب المرتبة الثالثة « انصار قدير » وهم الذين صحبوه فى جبل قدير واصحاب المرتبـة الرابعة « اصحاب كابا » ويطلق على المجموع اسم « الاصحاب والانصار والاحباب فى الله »

وكان يكثر من ارسال المنشورات والدعوات الى اهل الاقاليم للدخول فى دعوته وطاعته ، وهذا نص احدها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الوالى الكريم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله مع التسليم ، و بعد فمن العبد المفتقر الى الله محمد المهدى بن عبد الله ، الى احبابه فى الله المؤمنين بالله و بكتابه

اما بعد فلا يخفى تغير الزمن ، وترك السنن ، ولا يرضى بذلك ذوو الايمان والفطن بل احق ان يترك لذلك الاوطار والوطن ، لاقامة الدين والسنن ، ولا يتوانى عن ذلك عاقل ، لان غيرة الاسلام بالمؤمن تجبره

ثم احبابى كما اراد الله فى ازله وقضائه تفضل على عبده الذليل بالخلافة الكبرى عن الله ورسوله ، واخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بانى المهدى المنتظر ، وخلفنى عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مرارا بحضرة الخلفاء الاربعة والاقطاب ، والخضر عليه السلام ، وايدنى الله تعالى بالملائكة المقربين ، و بالاولياء الاحياء والميتين من لدن آدم الى زماننا هذا ، وكذلك المؤمنون من الجن وفى ساعة الحرب يحضر معهم امام جيشى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بذاته الكريمة ، وكذلك الخلفاء الاربعة ، والاقطاب والخضر عليه السلام ، واعطانى سيف النصر من حضرته صلى الله عليه وسلم واعلمت انه لاينصر على معه احد ولو كان الثقلين الانس والجن (كذا)

ثم اخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بان الله جعل لك على المهدية علامة ، وهى الخال على الخد الايمن ، وكذلك جعل لى علامة اخرى تخرج راية من نور وتكون معى فى حالة الحرب يحملها عزرائيل عليه السلام فيثبت الله بها اصحابى و ينزل الرعب فى قلوب اعدائى فلا يلقانى احد بعداوة الا خذله الله . ثم قال لى صلى الله عليه وسلم انك مخلوق من نور عنان قلبى ، فمن له سعادة صدق بانى المهدى المنتظر ، ولكن الله جعل فى قلوب الذين يحبون الجاه النفاق فلا يصدقون حرصا على جاههم . قال صلى الله عليه وسلم : حب المال والجاه ينبتان النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل ، وجاء فى الاثر اذا رأيتم العالم يحب الدنيا فاتهموه على دينكم ، وجاء فى

بعض كتبه القديمة ، لاتسأل عنى عالما اسكره حب الدنيا فيصدك عن طريق محبتى ، فاولئك قطاع الطريق على عبادى ، ولما حصل لى يا احبابى من الله ورسوله امر الخلافة الكبرى امرنى سيد الوجود بالهجرة الى ماسة بجبل قدير وامرنى ان اكاتب بها جميع المكلفين امرا عاما ، فكاتبنا بذلك الامراء ومشايخ الدين ، فانكر الاشقياء وصدق الصديقون الذين لايبالون فى ما لقوا فى الله من المكروه ، وما فاتهم من المحبوب المشتهى ، بل هم ناظرون الى وعده سبحانه وتعالى بقوله « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين »

وحيث ان الامر لله ، والمهدية ارادها الله لعبده الفقير ، الحقير ، الذليل محمد المهدى بن عبد الله فيجب التصديق لارادة الله وقد اجتمع الخلف والسلف ، فى تفويض العلم لله ، فعلمه سبحانه وتعالى لايتقيد بضبط القوانين ولا بعلوم المتقين بل « يمحو الله مايشاء و يثبت وعنده ام الكتاب »

قال تعالى « ولا يحيطون بشىء من علمه الا بما شاء ـ وعنده مفاتيح الغيب لايعلمها الا هو ـ لا يسأل عما يفعل ـ يخلق مايشاء و يختار ـ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم »

وقال الشيخ محي الدين العربى فى تفسيره على القرآن العظيم « علم المهدى كعلم الساعة ، والساعة لايعلم وقت مجيئها على الحقيقة الا الله »

وقال الشيخ احمد بن ادريس « كذبت فى المهدى اربع عشرة نسخة من نسخ اهل الله » ثم قال « يخرج من جهة لا يعرفونها وعلى حال ينكرونه » وهذا لايخفى علمكم ان التأليفات الواردة فى المهدى منها الآثار وكشف الاولياء وغير ذلك فيختلف كل منها كما علمت من انه يمحو الله مايشاء الآية ، ومنها الاحاديث فمنها الضعيف والمقطوع والمنسوخ والموضوع ، بل الحديث الضعيف ينسخه الصحيح والصحيح ينسخ بعضه بعضا ، كما ان الآيات تنسخها الآيات

وحقيقة ذلك على ماهى عليه لايعرفها الا اهل المشاهدة والبصائر وقد اخبرنى سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بان من شك فى مهديتك فقد كفر بالله ورسوله

كررها صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات . وجميع ما اخبرتكم به من خلافتى على المهدية الى آخره فقد اخبرنى به سيد الوجود صلى الله عليه وسلم يقظة فى حال الصحة وانا خال من الموانع الشرعية لا بنوم ولا هذى ولا سكر ولا جنون ، بل متصف بصفات العقل اقفو اثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالامر فيما امر به والنهى عما نهى عنه ، والهجرة المذكورة فى الدين واجبة كتابا وسنة ، قال تعالى « يا يها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحييكم » وقال صلى الله عليه وسلم « من فر بدينه من ارض الى ارض وان كان شبرا استوجب الجنة ، وكان رفيق ابيه خليل الله ابراهيم ونبيه محمد عليهما الصلاة والسلام » الى غير ذلك من الآيات والاحاديث واجابة داعى الله واجبة قال تعالى « واتبع سبيل من اناب الى » فاذا فهمتم ذلك فقد امرنا جميع المكلفين بالهجرة الينا لاجل الجهاد فى سبيل الله او الى اقرب بلاد منكم عملا بقوله تعالى « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » فمن تخلف عن ذلك دخل فى وعيد قوله « قل ان كان آباؤكم وابناؤكم » الى آخره وقوله تعالى « يا يها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الارض ارضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » الى آخر الآيتين ، فاذا فهمتم ذلك فهلموا الى الجهاد فى سبيله ولا تخافوا من احد غير الله لان خوف المخلوق من غير الله يعدم الايمان والعياذ بالله من ذلك ، قال تعالى « فلا تخشوا الناس واخشونى » وقال تعالى « والله احق ان تخشوه » لاسيما وقد وعد الله فى كتابه العزيز بنصر من ينصر دينه قال تعالى « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم » وقال تعالى « الا تنصروه فقد نصره الله » وحيث ان لم تجيبوا داعى الله وتبادروا باقامة دين الله تلزمكم العقوبة عند الله تعالى لانكم ادلة الخلق وازمتها فمن كان مهتما بايمانه ، شفيقا بدينه ، حريصا على امر ربه ، اجاب الدعوة ، واجتمع مع من ينصر دينه

وليكن معلومكم انى من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فابى حسنى من جهة ابيه وامه ، وامى كذلك من جهة امها وابوها عباسى ، والعالم لله ان لى نسبة

الى الحسين وهذه المعانى الحسان تكفى لمن ادركه الله بالايمان ، فلا عبرة لمن لم يراها ولم يصدق بها والسلام — اه

وللهدى ايضا منشورات ورسائل اخرى كثيرة غير هذه وكلها مكتوبة بهذا الاسلوب وقد جمعت فى جزأين الاول مخطوط والثانى مطبوع

٤

المهدى يخضع السودان

دعا المهدى اتباعه فى منشوراته و بياناته الى الهجرة اليه وحضهم على الجهاد فى سبيل الله لانه لاقيام لدعوة لا يؤيدها السيف ولم يجرد لنصرتها

واول معركة خاضها المهديون فى سبيل الدفاع عن عقيدتهم هى التى دارت بينهم و بين محمد ابى السعود بك ، فقد ارسله محمد رؤوف باشا حاكم السودان يومئذ الى المهدى حينما جاءه كتاب دعوته ، ليقنعه بالعدول عن هذا الامر ، والرجوع الى الطاعة فابى فعاد الى الخرطوم فجهز رؤوف باشا حملة صغيرة لايزيد عددها عن ٣٠٠ مقاتل ولاه قيادها وامره بان يقبض على المهدى و يأتيه به حيا او ميتا

معركة ابا

ونازل المهدى وانصاره هذه القوة فهزموها فكان ذلك اول انتصار نالوه ، فشجعهم وزادهم ايمانا على ايمانهم ورفع مقام شيخهم فى عيونهم

ورأى هذا بعد ان وقع بينه و بين حكومة السودان ما وقع و بعد ان انتصر على رجالها وهزمهم انه لابد لها من مطاردته طلبا بثأر قتلاها فغادر جزيرة ابا الى جبل ماسة المجاور لجبل قدير فلجأ اليه واشتبك وهو فى طريقه اليه بملك اسمه المختار حاول ان يقف فى طريقه فهزمه

معركة جبل قدير

وجهز راشد بك مدير فاشودة حملة هاجم بها يوم ٩ ديسمبر سنة ١٨٨١

المهدى وانصاره فى جبل قدير فدارت معركة انتهت بانتصار المهديين وقتل راشد بك وتشتت انصاره

الانتصار على الشلالى

وجهز حاكم السودان حملة ثالثة بقيادة اللواء جكار باشا وكيله فانتدب هذا يوسف باشا الشلالى فسار لقتال المهديين يقود قوة تتألف من ١٣ بلوكا و ١٥٠٠ متطوع فدارت معركة عنيفة بين الفريقين يوم ٣٠ مايو سنة ١٨٨٢ انتهت بهزيمة جيش الحكومة وقتل قائده ومعظم رجاله وغنم المهديون اسلحتهم وذخائرهم وجميع اسلابهم

الاستيلاء على الابيض

وشجع المهدى وانصاره ما لقوا من فوز ونجاح فغادر معتصمه فى جبل قدير فى اواخر شهر يوليو سنة ١٨٨٢ وتقدم الى الابيض لاخضاعها والاستيلاء عليها وكان له فيها انصار واعوان وكان محمد سعيد باشا مدير كردفان قد حصنها ، فسار حتى نزل على مَنهل كابا وهو على ١٠ كيلو مترات من جنوبى الابيض ، وارسل اثنين من رجاله اليها يدعون الناس الى التسليم والدخول فى المهدية فقبض عليهما الوالى وقتلهما فساء ذلك السكان فتسللوا فى الليل الى كابا وانضموا الى المهدى

وتقدم المهدى على الاثر الى الابيض فضرب نطاقا حولها ، وحاصر رجال سعيد باشا وعدتهم ستة آلاف واقام يطاولهم فثبتوا حتى يوم ١٩ يناير سنة ١٨٨٣ وفيه استسلموا جوعا بعد ماهلك معظمهم

وطلب المهدى من سعيد باشا ان يسلمه الاموال المدخرة لديه وهى سبعة آلاف جنيه فأنكرها فقتله وقتل ضباطه

معركة الدويم

واعدت حكومة السودان فى سنة ١٨٨٣ حملة اخرى لقتاله بقيادة سليمان نيازى باشا ومعه هكس باشا رئيس اركان حرب وسارت حتى الدويم ثم الى منهل الشيكان وهنالك صمد لها المهديون فدارت بين الفريقين معركة حامية يوم ٥ نوفمبر من تلك السنة فانتصروا عليها وقتلوا قائدها ورئيس اركان حربه وافنوا الجيش عن بكرة ابيه وكان يتألف من ١٢٩٠٠ مقاتل فكان اعظم انتصار ناله المهدى فى تاريخه العسكرى

وزاد هذا الانتصار فى نفوذ المهدى ورفع مقامه وهيبته ، فأقبل عليه الناس ، ودخل الداخلون فى شيعته وشرق اسمه وغرب

الاستيلاء على دارفور

وسرت روح الثورة الى بلاد دارفور وتظاهر السكان بالميل الى المهدية فحاول سلاطين باشا النمسوى مدير دارفور قمع الثورة فهزم جيشه واصيب برصاصة فى بنصر يده اليمنى ، وباخرى فى فخذه ، فلجأ الى منزل محمد خالد زقل مدير داره ومن اقارب المهدى ثم سلم يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٣ للمهدى وبايعه بعد ما اعلن اسلامه فسماه « عبد القادر » والزمه بابه

الاستيلاء على بحر الغزال

ووصل دعاة المهدية بقيادة الجانقى الى مديرية بحر الغزال وبثوا فيها تعاليمهم فمال اليهم الناس واتبعوهم فجرد عليهم ملتون بك حملة نازلها الجانقى وهزمها . وفى شهر اكتوبر سنة ١٨٨٤ استسلم ملتون مع جيشه واسلم فارسله الى ابى سعد وتقع جنوبى ام درمان

الاستيلاء على السودان الشرقي

وسار دعاة المهدية الى السودان الشرقي واستولوا بقيادة عثمان دقنة على سنكات يوم ١٥ اغسطس سنة ١٨٨٣ ثم حاصروا طوكر وسواكن فاستسلمتا وكان لعثمان هذا ثلاث معسكرات في تماي وتل هشيم وطوكر

وجهز الانكليز حملة بقيادة الجنرال جراهم سارت الى سواكن بحرا ونزلت فيها ثم تقدمت الى تماي وتل هشيم فلجأ عثمان دقنه برجاله الى الجبال وتحصن فيها

وتلقى الجنرال جراهم في سنة ١٨٨٥ امرا بان يعود برجاله الى مصر فجلا عن سواكن في شهر مايو من تلك السنة فعاد عثمان اليها

الاستيلاء على الخرطوم

وزحف المهدي على رأس جيش كبير من انصاره الى الخرطوم (عاصمة السودان) للاستيلاء عليها ، فبلغ ام درمان فسلمت اليه حاميتها بدون حرب وتقدم الى الخرطوم فضرب نطاقا حولها وكانت حاميتها بقيادة غوردون باشا وكانت الحكومة الانكليزية قد اختارته لهذا المنصب بعد مابسطت نفوذها على مصر

وقاومت الحامية حملات المهديين ، وكان غوردون يشجعها ويمنيها بقرب وصول النجدات من مصر ، ويقول بعض الرواة انه كان يقضي الجانب الاكبر من يومه على سطح دار الحكومة وبيده المنظار ينظر به الى الشمال ، وهو يرجو ان يشاهد وصول الحملة واصدر في تلك الايام بلاغا الى الجنود قال فيه : « سبقت فانعمت على جميع العساكر والموظفين بمرتب ثلاثة اشهر ثم بمرتب ستة اشهر ونصف ثم بمرتب شهرين والآن اثبت انعامي هذا ، وانا في انتظار الانكليز القادمين لنجدتنا كل يوم

بل كل ساعة ، وكلما تأخروا يوما حسبته لكم شهرا وجلالة ملكة الانكليز ضامنة لقولى هذا »

وطال على الحامية المطال ولم ترد النجدات الموعودة وفتكت بها الامراض ونفد ماعندها من طعام وميرة وعرف المهديون ذلك فزحفوا بقيادة النجومى ودخلوا من ثغرة فى خندق يمتد من النيل الازرق الى النيل الابيض ، كانوا يعرفون موضعها ففتكوا بالاورطة المصرية و بالاورطة الثانية والثالثة السودانيتين و بالمتطوعين وهاجم بعضهم دار الحكومة وقتلوا غوردون واحتزوا رأسه وحملوها الى المهدى فى ابى سعد فعلقها ثلاثة ايام

واستقر المهدى بعد فتح الخرطوم فى ام درمان واتخذها عاصمة له وانشأ فيها حكومته الجديدة على مثال حكومة الخلفاء الراشدين وسك النقود فى دار انشأها

الاستيلاء على دنقله

واستولى المهديون بعد الخرطوم على دنقله

الزحف على سنار

وسار المهديون الى سنار فلاقاهم حسين بك شكرى حاكمها وكان معه ١٥٠ جنديا ومدفع واحد فقاتلهم وهزمهم فحملوا على سنار مرة ثانية فدافعت عنها قبائل الشابقية فعجزوا عن الاستيلاء عليها

الاستيلاء على كسلا

واستولى المهديون بقيادة الامير حسين عبد الواحد على القضارف فخضعت لهم جميع القبائل التى تنزل بين العطبرة والنيل . وخافت الحاميات المصرية المرابطة على الحدود الحبشية ـ السودانية العاقبة فلجأت الى الحبشة وسلم الاميرالاى سعيد بك

رفعت سلاحه وذخائره الى الراس دهنشوم الحبشى ثم قصد مصوع ومنها سافر الى مصر بحرا

واستولى المهديون على القلابات فى شهر مارس سنة ١٨٨٥

وتسلم الايطاليون محافظة مصوع يوم ٦ فبراير سنة ١٨٨٥ من المصريين وسافرت حاميتها الى مصر واخلى المصريون فى السنة نفسها بربر وزيلع وهرر واستولى الاحباش على سنهيت فى ابريل سنة ١٨٨٥

وفى يوم ٢٩ يوليو سنة ١٨٨٥ سلمت كسلا للمهديين وذلك بعد موت المهدى بخمسة اسابيع

٥

الجلاء عن السودان

استولى الانكليز على مصر والحركة المهدية فى ابتداء امرها فلم يعيروها كبير عناية ، ولم يتفرغوا لمقاومتها بل ناطوا بحكومة السودان اخمادها وامدوها بنجدات عسكرية ظنوا انها تكفي وتغني ، فانتصر المهديون عليها ومزقوها الواحدة تلو الاخرى و بسطوا نفوذهم على معظم انحاء السودان الجنوبية والشرقية والغربية فجلا الانكليز عن السودان الشمالى ، وتراجعوا حتى حدود اسوان الجنوبية ، وانشأوا خط دفاع لصد المهديين

وابى شريف باشا الكبير رئيس الوزارة المصرية يومئذ قبول اقتراح الجلاء عن السودان ، حينما حمله اليه المعتمد البريطانى وقال انه لا ينفذه بوجه من الوجوه لانه مضر بمصلحة مصر وفاه فى هذه المناسبة بكلمته المأثورة : « لو تركنا السودان ما تركنا »

وشدد الانكليز على شريف باشا بقبول مقترحهم فرفض وقال ان فى استطاعة الحكومة المصرية ان تحافظ على السودان بقوة لاتزيد على ١٥ الف جندى ، وان الجلاء عن السودان يضر بمصلحة مصر سياسيا وتجاريا واقتصاديا فتقفل فى مصر بيوت تجارية عديدة تتجر مع السودان وتعلن افلاسها ، يضاف الى ذلك ان هنالك مدنا ومقاطعات لم تتسرب اليها المهدية ولا تزال معتصمة بحبل السلام والسكينة فلا يجوز التخلى عنها وتركها تحت رحمة الاقدار

ولم تقنع هذه الاعتبارات الانكليز والحوا على الخديوى توفيق بقبول مشروع الجلاء فوافق عليه فاستقال شريف باشا يوم ٧ يناير سنة ١٨٨٤ وهذا نص كتاب استقالته :



شريف باشا

ياصاحب السمو :

« تعلمون سموكم الاسباب التى من اجلها كان من رأى زملائى ورأيى ان نبذل جميع جهودنا للمحافظة على النيل الاعلى حتى الخرطوم وشاملة لها ، وقدعددنا هذه المحافظة لاغنى عنها لسلامة مصر وامنها ، ومما فكرنا فيه للوصول الى هذه النتيجة ان ننزل عند الحاجة عن السودان الشرقى مع شواطىء البحر الاحمر الى الباب العالى وان نخصص جميع القوات الموجودة للنيل

« ولم تقنع هذه الاسباب حكومة صاحبة الجلالة البريطانية فأصرت على وجوب اخلائنا لوادى النيل كله على ان لانحتفظ الا لغاية اسوان او وادى حلفا ، كاخر حد جنوبى ، وفضلا عن ذلك فانه كان لى شرف ابلاغ سموكم فى المجلس ان السر بارنج تلا على تلغرافا من اللورد غرانفيل كلفه بموجبه ابلاغى انه مادام احتلال الجنود البريطانية الوقتى لمصر قائما فانه يجب تنفيذ النصائح الصادرة من حكومة جلالة الملكة فى كل مسألة هامة ، وان على كل وزير لايعمل طبقا لهذه النصيحة ان يستقيل

« ولما كنا نرى ان مدلول هذه الرسالة يتعارض مع استقلال حكومتكم ، ومن شأنه ان يشل المسؤولية الوزارية امام سموكم ويعدل شروط الحكم كما قررها مرسوم ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨

« ولما كنا نعتقد اننا لا نستطيع ، والحالة هذه ، ان نحتفظ بمناصبنا التى ندين بها الى ثقة سموكم السامية ، فقد وضعنا استقالتنا جميعا بين يدى سموكم »

وقبل الخديوى الاستقالة وتألفت الوزارة الجديدة على الفور برئاسة نوبار باشا وهو ارمنى فكانت باكورة اعمالها اخلاء السودان ، طبقا لما اقترحه الانكليز

وعينت الوزارة الجديدة ـ بناء على طلب الانكليز واقتراحهم ـ غردون باشا وهو انكليزى حاكما عاما للسودان وكان قد سبق له ان عمل فيه على عهد الخديوى اسماعيل فجاء الى القاهرة واجتمع بولاة الامور وباحثهم فى مهمته ثم سافر فى شهر فبراير سنة ١٨٨٤ الى السودان ومعه بعض الضباط الذين اختارهم لمرافقته ،

وتدل الدلائل على انه كان ينوى ان يسير على خطة تختلف عن خطة حكومته وتقوم على ملاينة المهدى ومصادقته ، والاعتراف به حاكما على مقاطعة كردفان وتقديم الهدايا اليه بدلا من الجلاء عن السودان

ولما بلغ كورسكو فى طريقه الى الخرطوم ، ارسل الى المهدى هدايا وكتابا قال فيه انه يعترف به سلطانا على السودان الغربى وملكا على كردفان وانه سيعمل لاصلاح الحال وفتح طريق الحج ، وان جلالة الملكة فيكتوريا ، ملكة الانكليز عينته حاكما للسودان واقرت الحكومة الخديوية هذا التعيين وانه يرغب فى توثيق العلاقات بين سلطنة المهدى و بينه ووقف اراقة الدماء

منشور غوردون

وهذا نص المنشور الذى اذاعه غوردون بعد وصوله الى الخرطوم :

يا اهل السودان عموما : ان الجناب الخديوى يسلم عليكم صغيرا وكبيرا ، احرارا وعبيدا ، نساء وذكورا ، وكذلك جلالة الملكة فيكتوريا ، ملكة بريطانيا العظمى وامبراطورة الهند ، وانكم لاتجهلون شفقتى عليكم ، ومحبتى لكم ، وقد ساءنى ماسمعته عنكم ، حيث نشبت الحرب ، وتعطلت تجارتكم ، وسفكت دماؤكم ، ومنعتم من تأدية فريضة الحج التى هى من اركان الاسلام ، وزيارة قبر النبى عليه السلام ، وقد اساء هذا الحال كلا من جلالة الملكة وسمو الخديوى المعظم فانتدبت من قبل جلالة الملكة لاكون واليا على السودان ومرخصا فوق العادة ، وقد صار فصل السودان عن مصر فصلا تاما ، وفوض الى الحكم المطلق ، وخابرت السيد محمد احمد المهدى بفحوى مأموريتى ، واعترفت له بالسلطة المطلقة على السودان الغربى برمته على شرط ان لايمد يده الى غيره

« هذا وقد الغيت جميع الاوامر الصادرة بمنع تجارة الرقيق وتجاوزت عن جميع المتأخرات من الضرائب لغاية سنة ١٨٨٣ وقد تجاوزت ايضا عن ضرائب ثلاث سنوات من اول سنة ١٨٨٤ وامرت باحراق دفاتر المتأخرات وامرت باطلاق سراح جميع

المسجونين عـلى اختلاف جرائمهم ، وتنوع جناياتهم ، وعزمت من الآن ان لا يكون اعضاء حكومتى الا من الوطنيين ، حيث اننى اود تشكيل حكومة وطنية ، ليحكم السودان نفسه بنفسه ، وقد عينت عوض عبـد الكريم ابو سن مديرا للخرطوم ، واحسنت عليـه برتبـة الباشوية ولى الامل بان العلائق ستكون بينى و بين سلطان الغرب « المهدى » وثيقة العرى وقد امرت منذ اليوم بفتح ابواب الحصون واتلافها ، وسحبت الجنود لتلتفتوا الى عمران بلادكم ، وحرث اراضيكم ، وانماء تجارتكم ، ومنى عليكم السلام »

وقبل ان يباشر غوردون هدم الحصون وتدميرها جاءه وفد من العلماء والاعيان يرجونه العـدول عما اعتزم عليـه لان المهدى لايقبل اقتراحه بالصلح وانه لابد له من محاربته فانصاع اليهم

المهدى يرفض

وحققت الحوادث صحة فراسة هؤلاء فقد ارسـل المهدى رسولين الى الخرطوم حمـلا كتابا مطولا الى غوردون رد فيه على كتابه ورفض اقتراحاته وقال فيه انه دعا العباد الى اصلاحهم والى الايمان بانه المهـدى المنتظر خليفة رسول الله ﷺ فلا حاجة له بالسلطنة ولا بملك كردفان ولا غيرها ، ولا فى مال الدنيا وزخرفها ثم اعاد اليه الهدية التى ارسلها اليه ، مع نموذج من اللبس الذى اختاره لنفسه (وهو جبة مرقعة وسراويل وعمامة من قماش اسمه الدمور وهو نسيج من قطن ينسج فى السودان)

رد غوردون

وكبر على غوردون ان يرفض المهدى اقتراحاته و يعيد اليه هديته و يدعوه الى الدخول فى طاعته فـكتب اليه كتابا قال فيـه « ادعوك الى السلم وانت تدعونى الى الحرب ، وادعوك الى حقن الدماء وانت تميل الى سفـكها فأقول لك الآن انه لابد من قهرك وكبح جماح طغيانك ، ومهما يكن عندك من الاتباع فلا بد ان ترضخ صاغرا ، او تهلك حيال قوتى الحـكومة الخديوية والدولة الانـكليزية »

مقتل غوردون

وتشمر غوردون بعد ذلك للكفاح والح على المعتمد البريطاني بمصر ووزارة الخارجية بلندن بارسال حملة قوية الى السودان لتسهيل الجلاء عنه فدارت مفاوضات طويلة وقبل ان تقترن بنتيجة هاجم المهديون الخرطوم واستولوا عليها بالحراب وقتلوا غوردون وشتتوا شمل رجاله ، فكان ذلك نهاية امره كما تقدم

٦

الخليفة التعايشى

اطمع المهدى مانا له من انتصار باهر ، ومن نجاح عظيم بالاستيلاء على الخرطوم وقتل غوردون باشا واخضاع السودان فوجه نظره الى الاقطار المجاورة يرجو ان يفتحها ، و ينشر دعوته فى ر بوعها

وكانت مصر فى مقدمة الاقطار التى وضع نصب عينيه افتتاحها فقد ارسل كتابا الى الخديوى توفيق باشا استهله بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم و بعد فمن العبد المعتصم بالله محمد المهدى بن عبد الله الى والى مصر ...

و بعد ما اورد كثيرا من الاحاديث والآيات فى فضائل دعوته ووجوب اتباعها مما لايخرج فى جملته عما اثبتناه آنفا قال :

« وقد حررت اليك هذا الكتاب وانا بالخرطوم شفقة عليك وحرصا على هدايتك ، فارجو الله ان يشرح صدرك لقبوله ، و يدلك على صلاحك ورشادك فى الدارين . وها انا قادم على جهتك بجنود الله عن قرب ان شاء الله تعالى ، فان امر السودان قد انتهى ، فان بادرتنى بالتسليم لامر المهدية ، والانابة الى الله رب البرية ، فقد حزت السعادة الابدية ، وامنت على نفسك ، ومالك ، وارضك ، انت وكافة من يجيب دعوتنا معك ، وان ابيت بعد هذا الا الاعراض عن طريق الفلاح والرشاد ، فانما عليك اثمك ، واثم من معك ، ولابد من وقوعك فى قبضتنا ولو كنت فى بروج مشيدة ، وهذا انذار منى اليك ، وفيه الكفاية ، لمن ادركته العناية ، والسلام على من اتبع الهدى »

وارسل المهدى ايضا رسله الى السيد المهدى السنوسى شيخ الطريقة السنوسية فى الكفرة فردهم خائبين وارسلهم ايضا الى الشام والى المغرب الاقصى

موت المهدى

ومات المهدى فى السنة التى تم فيها فتح الخرطوم واخضاع السودان فقد توفى يوم الاثنين ٩ رمضان سنة ١٣٠٢ الموافق ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٥ بمرض التهاب السحايا الشوكى ، فحفر له خلفاؤه فى محل فراشه بمنزله وصلى عليه عبد الله التعايشى ، وهو الذى غشى عليه عند رؤيته و بشره بانه المهدى المنتظر ، و بايعه الناس خليفة له فحل فى زعامة الحركة محله

و بدأ التعايشى عمله فنظم الحكومة المهدية تنظيما جديدا فقسم السودان الى ثمانى ولايات وهى : الجزيرة ، وجبال ادريس ، وغرب البحر الابيض ، وشات ، والبادية الغربية ، والبادية الشرقية ، وشرق النيل الاكبر ، وغربى النيل الاكبر والشلك والدنكا (فاشودة)

ونظم جيشه ايضا وكان يتألف من ٥٠ الف مقاتل وقسمه الى ست فرق

وارسل الكتب الى ملوك البلاد المجاورة وامرائها يدعوهم الى الدخول فى المهدية و بين الذين كاتبهم خديوى مصر وامبراطور الحبشة

الانتصار على الاحباش

وفى ايام التعايشى انتصر المهديون على الاحباش وفازوا عليهم فى معركة كبيرة قتل فيها امبراطور الحبشة نفسه وهذه خلاصة ما وقع :

طلبت الحكومة الحبشية من محمد ارباب وهو الذى استولى على القلابات فى شهر مارس سنة ١٨٨٥ تسليمها الحاج على من زعماء العصابات ، وكان قد لجأ اليه فرفض فحمل الرأس عدار على القلابات وهاجمها على حين غرة وقتل محمد ارباب ومزق جيشه ثم عاد الى بلاده مثقلا بالغنائم

ووصلت الاخبار الى التعايشى بما حدث فعين يونس الدكيم على القلابات وعهد اليه بمحاربة الاحباش واخضاعهم وامده بقوات عسكرية بعدما ارسل كتابا الى يوحنا امبراطور الحبشة يدعوه الى الدخول فى طاعته

ودارت حروب طويلة بين المهديين والاحباش انتهت بان طلب النجاشى يوحنا الصلح فى سنة ١٨٨٨ ليتفرغ لحرب الطليان فرفض عامل التعايشى الطلب واغلظ للرسول بالقول فاعد الملك جيشا كثيفا قلوا انه بلغ ٢٥٠ الف مقاتل وسار الى القلابات لمقاتلة المهديين وكانوا بقيادة الزاكى طمل فدارت بينه وبينهم يوم ٩ مارس سنة ١٨٨٨ معركة حامية انكسر فيها الاحباش وولوا الادبار وجرح ملكهم جرحا مات على إثره فقطع رأسه وحمل الى الخرطوم

وكتب التعايشى الى الامبراطور منليك وهو الذى خلف يوحنا يقول :

« نعلمك انا كنا قبل هذا كاتبناك للدخول فى الملة الاسلامية والانتظام فى سلك اتباع المهدية ، رحمة بك ، وشفقة عليك ، وحبا لهدايتك وخوفا عليك الى ان قال :

« وقد مضت مدة وما اتانا منك رد عن المكاتبة التى حررناها اليك ، وما علمنا السبب فى ذلك ؟ افما وصلت اليك مكاتبتنا ؟ ام وصلت واخترت عدم مجاوبتنا ؟

« وها قد ضربنا صفحا عن جميع ما مضى منك ، ومن باب الشفقة عليك حررنا هذا ثانيا اليك بدعوتك الى الدخول فى ملة الاسلام والانتظام فى سلك اتباع المهدى والاذعان لحكمنا والعمل باشارتنا ، فان اجبت داعينا ، وشهدت ان لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله حسن اسلامك ، والتزمت العمل باشارتنا ، وصرت من ضمن اتباع المهدية ، القائمين باوامرها المرضية ، فاعلم باننا سنقبلك ونجعلك اميرا من طرفنا على بلادك ، وتكون مكرما لدينا ، والا فان اعرضت عن ذلك فذنبك عليك ، لكن يلزمك ان تكون واقفا على حدودك ، ولا تتعدى حدود الاسلام ، والا فان تعديت الحدود فلابد من مناجزتك الحرب ، ويكون عليك من الهلاك والدمار مثل ما كان على يوحنا لما طغى وبغى وتعدى الحدود . وهاقد انذرناكم بهذا ، وفيه الكفاية لك والسلام على من اتبع الهدى فى سنة ١٣٠٨ »

و بعد سنين ارسل النجاشى يوحنا رسولا الى التعايشى مع كتاب حمله الحاج احمد بشره فيه بانتصاره على الطليان فى عدوة وعودته الى مدينته المحروسة ، ثم قال « واما باقى الكلام الذى اريد ان ابلغكم اياه فالرسول الواصل صحبة الحاج احمد يخبركم به شفاها ودمتم »

وتاريخ هذا الكتاب ١٩ ذى الحجة سنة ١٣١٣ و ١١ يونيو سنة ١٨٩٦

وكتب التعايشى فى ٦ ربيع الاول سنة ١٣١٤ و ١٤ سبتمبر سنة ١٨٩٦ كتابا الى منليك حمله محمد عثمان ومما جاء فيه قوله :

« ان ما اردته من عقد الصلح بيننا و بينكم ، فليكن بعلمك اننا لانريد دخول احد من الاوربيين فى جهاتنا الاسلامية لابحرفة البيع والشراء ولا بصفة السياحة ، وليس بيننا و بينهم الا الحرب ، فان كنت انت كذلك ، ومنعت جميع الاوربيين من الدخول الى بلادك الا بالحرب ، بحيث لايكون بينك و بينهم الا الحرب وعلى هذا ينعقد الصلح بيننا و بينكم »

وتحسنت العلاقات عقب هذه المكاتبات بين النجاشى والتعايشى وعقدت بينهما معاهدة فى سنة ١٨٩٧ نصت على انشاء صلح دائم ونزلت بمقتضاها الحبشة على اراضى للمهدية فى الحدود

الزحف على مصر

كان الزحف على مصر والاستيلاء عليها فى مقدمة الاغراض الكبرى التى عمل المهدى وخليفته على تحقيقها بعد اخضاع السودان

وكتب المهدى ـ بعد ما ارسل كتابه الى الخديوى توفيق وقد اثبتنا خلاصته فيما تقدم ـ الى رؤساء القبائل فى الصعيد والى شيوخه يبشرهم بقرب وصوله ، ويقول لهم ان الله ارسله رحمة ، و يدعوهم الى المبادرة للجهاد والاجتهاد فى فتح مصر ونيل الاجر والثواب

ولم يقف المهدى عند حد ارسال الكتب بل شرع فى حشد جيش كبير فى دنقله يزحف به على مصر وادركته منيته فاكمل التعايشى مابدأ به وعهد الى عبد الرحمن النجومى عامل دنقله بقيادة هذا الجيش

وشرع المهديون فى شهر نوفمبر سنة ١٨٨٥ بالزحف شمالا بقيادة النجومى فدارت معارك بينهم و بين الجيش المصرى بقيادة الضباط الانكليز وهذا بيان ماجرى :

١ - معركة سرس

دارت هذه المعركة يوم ٢٨ ابريل سنة ١٨٨٧ وانتهت بانتصار الجيش المصرى وكان بقيادة شرمسيد باشا قائد حلفا فانسحب المهديون الى الجنوب

وارسل النجومى جيشا بقيادة عبد الحليم مساعد فاسترد سرس وطرد المصريين منها

واستقر المهديون فى سرس واتخذوها قاعدة لغاراتهم المتتابعة على مواقع المصريين فى التوفيقية وارمنة وطابية خور موسى ، ودبيرة وسرا الغرب

٢ - معركة توشكى

وسار النجومى فى اوائل صيف سنة ١٨٨٩ الى الشمال يقود جيشا عدده خمسة عشر الف مقاتل ومعه ١٤ مدفعا وسلاحا وذخائر فبلغ معتوقة يوم ٢٨ يونيو ثم تقدم حتى وصل قبالة البلينة جنوبى هيكل ابى سمبل، وكان فيها الجنرال غرانفيل باشا قائد الجيش المصرى العام فكتب الى النجومى يدعوه الى التسليم فابى

وحشد الجنرال غرانفيل قواته من اسوان الى توشكى وكانت بقيادة ضباط انكليز بينهم كتشنر ونجت

وفى توشكى دارت المعركة الفاصلة بين الجيشين وانتهت بانتصار الجيش المصرى على المهديين فارتدوا حتى سواردة واتخذوها قاعدة لهم فكانت منتهى حدودهم الشمالية وظلوا فيها حتى زحف الجيش المصرى على السودان

٧

سقوط المهدية

هنالك خلاف بين الباحثين فى البواعث التى بعثت الانكليز على الجلاء عن السودان ومنع الحكومة المصرية من ارسال الحملات اليه لقمع الحركة المهدية ، فمنهم من يقول انهم ارادوا ان يمهدوا لابتلاعه فقد ظنوا ان مصير الحركة الجديدة سيؤول الى الفشل والاخفاق فينقسم السودان على نفسه ويقاتل اهله بعضهم بعضا ، فيسهل عليهم احتلاله تحت ستار انقاذه من الفوضى والفتن ، وذهب آخرون الى انهم ارادوا التفرغ لمصر وكانوا قد دخلوها حديثا وانهم خافوا شر انكسارات جديدة تصيبهم فى السودان فتضعف نفوذهم فى مصر وتزلزله ، وهو ما كانوا يتجنبونه ، ففضلوا التريث انتظارا لحلول الوقت المناسب فيضربون ضربتهم الكبرى وينالون مآربهم على اهون سبيل

ولقد كان للدعايات الشديدة التى بثت ضد المهدية فى السودان نفسه تأثير كبير فى اضعافها وفى تفرق انصارها فقد انكرها فى الداخل فريق كبير من العلماء الاعلام ودعوا الى مقاومتها والتنكيل برجالها لانها بدعة ، وكان السلطان عبد الحميد الثانى بين الذين حاربوها فقد نشر منشورا سلطانيا حمل فيه عليها وكذبها وكذب القائم بها كما فعل مع الحركة العرابية ولعل ذلك كان بسعى الانكليز وارضاء لهم

واصدر علماء الازهر بسعى الحكومة الخديوية والسلطة البريطانية فتوى بتكذيب المهدى وتسفيه دعوته ارسلت الى السودان ونشرت بين ابنائه

ولقد كان انكسار النجومى فى معركة « توشكى » وارتداده الى سوارده ، خاتمة دور النمو والتقدم فى الحركة المهدية فلم تقم لها قائمة بعدها ولم يستطع رجالها ثباتا

فى وجه الحملة المصرية التى زحفت لاسترداد السودان ، ور بما كان منشأ ذلك نفور السودانيين من حكومة التعايشى الجديدة ونقمتهم على عمالها الذين ظلموهم واساءوا اليهم ولذلك لم يصدقوا فى الدفاع عنها ولم يتفانوا فى تأييدها فدارت عليها الدائرة

استرداد دنقلة

كانت حدود مصر الجنوبية تمتد بعد معركة توشكى حتى سرس وقد ظلت على ذلك حتى سنة ١٨٩٦ اى حتى زمن زحف الحملة المصرية

ففى يوم ١٢ مارس سنة ١٨٩٦ ورد امر من لندن الى المعتمد البريطانى بالقاهرة باسترداد السودان فابلغه هذا الى الحكومة المصرية فشرعت فى اعداد حملة عسكرية كبيرة تنهض بهذا العبء الثقيل قادها كتشنر باشا قائد الجيش المصرى العام و بلغ عدد رجالها ١٦٦٨٠ ضابطا وجنديا بين مشاة وفرسان وهجانة يضاف الى ذلك ١٥ باخرة نيلية اعدت لخدمتها

ووصل الى سواكن آلاى انكليزى من الهند فانضم الى حاميتها ، وكان الجنرال غولد سميث سبق فاحتلها من سنة ١٨٩٢ ثم انضم الى الحملة الكبرى وشرع يعمل فى منطقته حينما تقدمت

الاستيلاء على فركه

وفى اوائل يونيو زحفت الحملة من عكاشة ، وكانت قد اتخذتها قاعدة لاحتشادها وتقدمت حتى فركه فانتزعتها من السودانيين يوم ٧ يونيو سنة ١٨٩٦ وكان يدافع عنها حسن ازرق وحسن النجومى

وواصلت الحملة تقدمها فاستولت على الحفير يوم ١٩ سبتمبر من السنة نفسها ، فارتد المهديون الى الديم

وفى يوم ٢٣ سبتمبر احتلت دنقلة وسلم حسن النجومى ، وفى يوم ٢٤ منه احتلت الدبة ، وفى يوم ٢٦ منه احتلت مروى

منشور كتشنر

وهذا نص المنشور الذى اذاعه كتشنر قائد الجيش المصرى العام على اهل السودان

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، اما بعد : فغير خاف على الحكومة ان الذى حملكم على شق عصا طاعتها انما هو تصديقكم دعوى محمد احمد المتمهدى، وقد اتضح لكم ان تلك الدعوى لم تكن من المهدية فى شيء ، بل هى ثورة دموية ، افضت الى ملك جائر يتولاه الآن عبد الله التعايشى الذى عزل كل امير من غير اهله وولى اهله فاستبدوا بكم ، فلما رأت الحكومة سوء مصيركم ارسلت جنودها الجرارة لانتشالكم من وهدة الضلال التى اوقعكم فيها ذلك المتمهدى ، وانقاذكم من الظلم الذى تقاسونه فى عهد خليفته التعايشى

« وقد كان من مبتدعات المهدى وخليفته هذا منع الحج الشريف مع انه فرض واجب على كل من استطاع اليه سبيلا

« ثم ان كلا منهما فسر القرآن على رأيه واستنبط احكاما شرعية كما اراد ، ومنعكم من قراءة كتب الحديث والتفسير فضلا عما يأتيه التعايشى الآن من جمع المال ، وتفريق كلمة المسلمين من هتك الاعراض ، وظلم الفقراء ، وهدم بيوت الكبراء ، و بعد ان كان رجلا مسكينا لايملك شروى نقير ، استأثر باموال الرعية كلها ، وسكن القصور المشيدة واتخذ نساء المؤمنين سرارى له ، واستحل وطأهن بلا عقد ، ولا ملك يمين ، وهو مع ذلك يدعى الزهد والمسكنة ، ويتنعم سرا بكل ماتطيب به نفسه ، وتقر عينه ، وهو ظالم غشوم ماتكلم احد بالحق الا قتله ، او سجنه او نفاه

فقد سجن الخليفة شريفا واهان الخليفة ود حلو واولاد المهدى وقتل ابراهيم عدلان واقارب المهدى مثل عبد القادر ود ساتى على ، ومحمد عبد الكريم واخوانهم ، وسجن الزاكى طمل ، والقاضى احمد والحسين ود الزهرة ، واماتهم جوعا وخرب مساجد المسلمين كمساجد الحسن المرغنى ، واولاد نور الدايم والشيخ العبيد والشيخ حمد النبيل العركى ، ونفى امراء الجعليين مثل بدوى ود العريق وغيره ،

و بذلك اسخط العالم الاسلامى واصبحت مكة المشرفة ، وكرسى الخلافة العظمى ، تنظر الى اعماله بعين المقت والـكره

« ولما راى ولى النعم خديوينا المعظم، عباس حلمى الثانى ان جرائم هذا الطاغية تزداد يوما فيوما ، اخـذته الشفقة على المسلمين المظلومين وصمم على انقاذهم ، من الظلم ارسـل جيوشه المظفرة لـكى تهدم اركان دولة التعايشى وتقيم حكومة شرعيـة مؤسسة على العدل والاستقامة ، وتبنى المساجد ، وتعين على نشر الدين القويم . وقد اصـدر سموه عفوه التام عن جميع ذنوبكم ، وامر برد املاككم ، وهو يدعوكم الى اسـتقبال جيوشـه بالترحيب فاذا قبلتم الدعوة ، وعرفتم قيمة الانعام كنتم انتم الرابحين، الناجحين، والا فالويل لمن رفض نعمة ربه ، وكرم خديوينا المعظم، وباسمه لى الرجاء الوطيد ان اراكم قريبا ، طائعين ومعضدين للحكومة الخديوية والسلام »

٨

السودان بين مصر وانكلترا

واصلت الحملة المصرية اعمالها فاستولت على ابو حمد يوم ٧ اغسطس سنة ١٨٩٧ واحتلت بربر يوم ٦ سبتمبر وزحفت الى عطبرة فدارت بينها و بين المهديين معركة حامية يوم ٨ ابريل سنة ١٨٩٨ فكان النصر لها فدخلتها ومدت اليها سكة الحديد من ابو حمد ، وكان السودانيون يقابلونها بالحفاوة والترحاب فى كل مكان

وزحف بارسونز باشا قائد كسلا فاستولى على القضارف يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ واحتل هنتر باشا سنار والروصيرص فى الشهر نفسه

واحتل الميجر تالبوت واد مدنى فى ١٥ سبتمبر ايضا

وفى يوم الجمعة ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ دارت معركة ام درمان الكبرى بين التعايشى والجيش المصرى فقد خرج يقود نيفا وخمسين الفا استبسلوا فى القتال واقتحموا النيران وكانت تحصدهم حصدا ، فلم يغن ذلك عنهم شيئا بل كان الفوز للجيش فهزمهم وشتتهم وخسروا نحو ١٠ آلاف قتيل وجريح واسر مثل ذلك منهم

احتلال الخرطوم

وفى يوم ٤ منه عبر كتشنر النيل الى الخرطوم ورفع الرايتين المصرية والانكليزية على اطلال قصر الحاكم العام

مقتل التعايشى

ولجأ الخليفة عبد الله التعايشى بعد المعركة الى ابى ركبة فلحقت به قوة بقيادة كتشنر فاتجه جنوبا الى جبل قدير فلحقت به حملة اخرى وطاردته فسار شمالا الى جديد فطاردته حملة كبيرة ونازلته نفر قتيلا فى معركة دارت يوم الجمعة ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٩٩ وقتل معه كثيرون من اتباعه وسلم الباقون فانتهت بذلك حركة المهدية ووضع الانكليز يدهم على السودان عمليا فقد كان منهم قائد الحملة العام وكبار ضباطها كما كان منهم قواد الحملات الاخرى

اتفاق سنة ١٨٩٩

وحمل المعتمد البريطانى فى مصر الى الحكومة المصرية صيغة مشروع وضع فى لندن لتقرير مصير السودان واقترح على بطرس باشا غالى رئيس الوزارة المصرية يومئذ توقيعه فوقعه مع اللورد كرومر وهذا نصه :

« حيث ان بعض اقاليم السودان التى خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صار افتتاحها بالوسائل الحربية والمالية التى بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الانكليز والجناب العالى الخديوى ، وحيث قد اصبح من الضرورى وضع نظام خاص لأجل ادارة الاقاليم المفتتحة المذكورة ، وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ماهو عليه الجانب العظيم من تلك الاقاليم من التأخر وعدم الاستقرار على حال الى الآن ، وما تستلزمه حالة كل جهة من الاحتياطات المتنوعة ، وحيث انه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على مالها من حق الفتح ، وذلك ان تشترك فى وضع النظام الادارى والقانونى الآنف ذكره ، وفى اجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه فى المستقبل ، وحيث انه تراءى من جملة وجوه صواب الحاق وادى حلفا وسواكن اداريا بالاقاليم المفتتحة المجاورة لهما ، فقد تم الاتفاق والاقرار بين الموقعين على هذا بمالهما من التفويض اللازم بهذا الشأن على مايأتى :

المــادة الاولى ـ تطلق لفظة السودان فى هــذا الاتفاق ، على جميــع الاراضى الـكائنة الى جنوبى الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهى :

اولا ـ الاراضى التى لم تحتلها الجنود المصرية من سنة ١٨٨٢

ثانيــا ـ الاراضى التى كانت تحت ادارة الحـكومة المصرية قبل ثورة السودان الاخيرة وفقدت منها وقتيا ثم افتتحتها الآن حكومة جلالة الملـكة والحـكومة المصرية بالاتحاد

ثالثــا ـ الاراضى الـتى قــد تفتتحها بالاتحاد الحـكومتان المــذكورتان من الآن فصاعدا

المادة الثانية ـ يستعمل العلم البريطانى والعلم المصرى معا فى البر والبحر بجميع انحاء السودان ماعدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها سوى العلم المصرى فقط

المادة الثالثة ـ تفوض الرئاسة العليا العسكرية والمدنية فى السودان الى موظف واحد بلقب « حاكم عموم السودان » ويكون تعيينه بامر عال خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملـكة ، ولا يفصل من وظيفته الا بامر خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية

المادة الرابعــة ـ القوانين وكافة الاوامر واللوائح التى يكون لهـا قوة القانون المعمول به والتى من شأنها تحسين ادارة حكومة السودان او تقرير حقوق المـلـكية فيه بجميع انواعها ، وكيفية انتقالها والتصرف فيها يجوز سنها او تحويرها او نسخها من وقت الى آخر بمنشور من الحاكم العام . وهــذه القوانين والاوامر واللوائح يجوز ان يسرى مفعولها ، على جميع انحاء السودان او على جزء معلوم منه ، ويجوز ان يترتب عليها صراحة او ضمنا تحوير او نسخ اى قانون او اية لائحــة من القوانين او اللوائح الموجودة

المادة الخامسة ـ لا يسرى على السودان او على جزء منه شىء ما من القوانين او الاوامر العالية او القررات الوزارية المصرية التى تصدر من الآن فصاعدا الا ما يصدر باجرائه منها منشور من الحاكم العام بالطريقة السالفة الذكر

المادة السادسة ـ المنشور الذى يصدر من حاكم عموم السودان ببيان الشروط التى بموجبها يصرح للاوربيين من اية جنسية كانوا بحرية المتاجرة او السكنى بالسودان او تملك ملك كان ضمن حدوده لا يشمل امتيازات خصوصية لرعايا اية دولة او دول

المادة السابعة ـ لاتدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الاراضى المصرية حين دخولها الى السودان ، ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الاراضى المصرية ، الا انه فى حالة ما اذا كانت تلك البضائع آتية الى السودان عن طريق سواكن او اية ميناء آخر من موانى ساحل البحر الاحمر ، لايجوز ان تزيد الرسوم التى تحصل عليها عن القيمة الجارى تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة الى البلاد المصرية من الخارج ، ويجوز ان تقرر عوائد على البضائع التى تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم من وقت الى آخر بالمنشورات التى يصدرها بهذا الشأن

المادة الثامنة ـ فيما عدا مدينة سواكن لاتمتد سلطة المحاكم المختلطة على اية جهة من جهات السودان ، ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه

المادة التاسعة ـ يعتبر السودان بأجمعه ماعدا سواكن تحت الاحكام العرفية ، ويبقى كذلك الى ان يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام (١)

المادة العاشرة ـ لايجوز تعيين قناصل او مأمورى قنصليات بالسودان ، ولا يصرح لهم بالاقامة قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية

المادة الحادية عشرة ـ ممنوع منعا مطلقا ادخال الرقيق الى السودان او تصديره منه وسيصدر منشور بالاجراءات اللازم اتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن

المادة الثانية عشرة ـ قد حصل الاتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة

---

(١) لم يصدر هذا المنشور حتى الآن

منهما على تنفيذ مفعول معاهدة بروكسل المبرمة بتاريخ ٢ يوليو سنة ١٨٩٠ فيما يتعلق بادخال الاسلحة النارية والذخائر الحربية والاشربة المقطرة او الروحية و بيعها او تشغيلها

تحريرا بالقاهرة فى ١٩ يناير سنة ١٨٩١

كرومر — بطرس

حوادث سنتى ١٩٢٤ — ١٩٢٥

ونقض الانكليز هذا الاتفاق عقب اغتيال السرلى ستاك باشا حاكم السودان العام فى القاهرة يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٩٢٤ واخرجوا الجيش المصرى منه مع الموظفين المصريين واستقلوا استقلالا تاما بادارته فنهض فريق من الضباط والشبان السودانيين لمقاومتهم فنكلوا بهم وسنفصل اخبار هذه الحوادث فى مكانها من الجزء الثالث

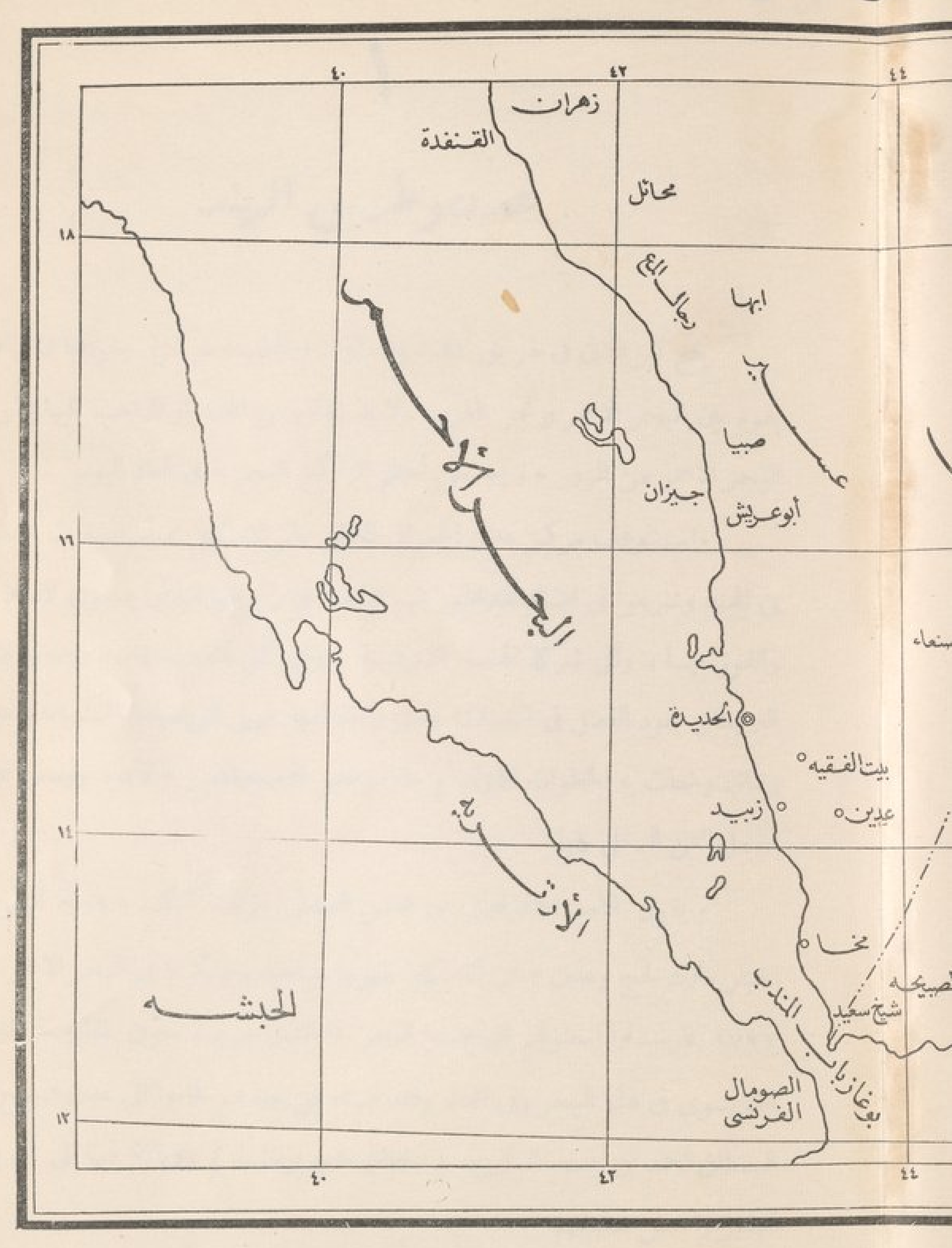
امتلاك عدن والسيطرة على جنوبي اليمن

اليمن الش



٤٤
٤٦
٤٨
١٨
١٦
١٤
١٢
صنعاء
حضرموت
النواحي التسع
الولخدى
نصاب
البيضا
الضالع
قطيب
عدين
العوالق
العواذل
شقرا
لحج
الصبيحه
عدن
شيخ سعيد
سيحوت
الشحر
المكلا
البحر العربي

اليمن السفلى



١

عدن وطريق الهند

يقع ثغر عدن فى طريق الهند وقد اولته الطبيعة مركزا جغرافيا ممتازا فهو يقوم بين البحر الاحمر وبحر العرب ولا بد للقادم من الهند او الذاهب اليها بطريق البحر الاحمر من المرور به ويعد من أعظم المراكز البحرية فى العالم اليوم

واستوقف مركز عدن الجغرافى العظيم نظر الانكليز منذ استقرت اقدامهم فى الهند وشرعوا فى انشاء امبراطوريتهم الواسعة فى ربوعها فبدأوا يسعون لامتلاكها والفوز بها ، والى شركة الهند الشرقية ، وهى التى فتحت الهند وقدمتها للتاج البريطانى يعود الفضل فى امتلاك عدن واخضاعها فهى التى مهدت اسبابه واعدت وسائله وخطت به الخطوات الاولى ثم جاء موظفو الامبراطورية فأتموه ووسعوا نطاقه فشمل اليمن السفلى كلها

ويقول الامير احمد فضل بن محسن العبدلى مؤلف كتاب « هدية الزمن فى اخبار ملوك لحج وعدن » ان الانكليز ظهروا سياسيا وعسكريا فى البحر الاحمر سنة ١٧٩٢ فارسلوا اسطولهم الى هذا البحر فاحتل جزيرة ميون لمقاومة النفوذ الفرنسوى فى هذا البحر وفى الهند وفقد الماء من عندهم فجاءوا الى عدن فسمح لهم السلطان احمد بن عبد الكريم (سلطان لحج يومئذ) بالاقامة فيها الى ان يهدأ البحر واحسن معاملتهم

ونشأت صلات مودة وصداقة على أثر هذا الحادث بين سلطان لحج والانكليز

انتهت بعقد معاهدة وقع عليها فى عدن يوم ٦ سبتمبر سنة ١٨٠٢ لتنظيم العلاقات التجاريه وهذا نصها :

« عقدت هـذه المكاتبة بناء على رغبة الماركيز ويلسلى احـد اعضاء مجلس شورى الدولة المنوط به اعمال ممالك بريطانيا فى الهند الشرقية بواسطة نائبه السر هوم بوفهام مع السلطان احمد عبـد الكريم سلطان لحج القائم من طرفه الامـير احمـد باصهى لربط علائق الوداد والمعاملة التجارية بين الطرفين

اتفق النائبان وتراضيا على وضع الشروط الآتية :

١ ـ تكون المواصلة التجارية بين الشركة الهندية الشرقية المحـترمة والرعايا البريطانيين المسموح لهم بالمعـاملة من حكمدار الهند العام و بين رعايا السلطان احمد عبد الكريم

٢ ـ يقبل السلطان ان يجعل ميناء عـدن مفتوحا لجميع البضائع الواردة على المراكب الانكليزية وان يأخـذ مكسا على البضائع والتجارة بنسبة ماهو مدون فى قوائم البضاعة اثنين فى المئة لازيادة لمدة عشر سنوات ، وليس للسلطان ولا لاحد من موظفيه ان يأخذ مكوسا اخرى بصورة رسم مرسى او جمرك او ميزان

٣ ـ بعد ان تنقضى السنوات العشر المذكورة يحق للسلطان ان يزيد رسومه الى ثلاثة فى المئة وليس لورثته او خلفائه ان يزيدوا على ذلك واذا حصلت منهم مخالفة لهـذا الشرط تبطل الصداقة والعلاقات التجارية مع الامة البريطانية ومن اجل هـذا يتعهد السلطان بان لايجعل مكسا آخر بصورة رسم جمرك او مرسى او ميزان

٤ ـ يدفع المكس المذكور اثنين فى المئة مدة السنوات العشر المذكورة ، ثم الثلاثة فى المئة تبعا بعـد انتهاء المدة المعينة على الدوام على جميع البضائع الصادرة من عدن من حاصلات بلاد السلطان او البلاد المحيطة بها

٥ ـ اذا اشترت الشركة المحترمة المذكورة او احـد رعايا بريطانيا بضائع من مدينة عدن او من مينائها وكانت البضائع المذكورة مجـلوبة من افريقية او الحبشة او اى بلاد اخرى ليست من املاك السـلطان فليس عليها رسوم باعتبار ان الرسوم

الواجبة عليها قد دفعت عند نزولها الى عدن فلذلك يقبل السلطان ان لايضرب عليها ضريبة اخرى

٦ – يكون رعايا بريطانيا الذين يستعملون ميناء عدن احرارا فى معاملاتهم ولا يجبرون على ان يباشروا اشغالهم بواسطة شخص او اشخاص او سمسار او ترجمان الا باختيارهم ولهم ان يشتغلوا بحريتهم دون ان يكونوا تحت ضغط السلطان

٧ – يجوز لرعايا الدولة البريطانية ان يسلموا اموالهم لمن يختارون من غير اكراه سواء كانوا اصحاء او مرضى ، واذا مات شخص او اشخاص من رعايا بريطانيا تسلم جميع مخلفاته بعد تسديد الديون الثابتة عليه لرعايا السلطان الى يد والى عدن لكى ترسل الى الحكومة العليا او الى اى متصرفية اخرى لانتفاع عائلة الهالك وورثته الشرعيين

٨ – يجب ان يجعل سجل يقيد به اسماء رعايا الانكليز القاطنين فى عدن وان يعطى لكل واحد منهم شهادة مقيدة فى ديوان القاضى ووالى عدن لكى لايحدث نزاع بعد الآن الا اذا ادعى شخص لنفسه الحماية البريطانية سواء كان اوربيا او وطنيا فلا ينال امتياز الشرط السابع ما لم يرد اسمه فى السجل المذكور

٩ – يجب ان تعتبر المنافع الناتجة من الشرط السابع شاملة للتجار والمسافرين والضباط المعهود اليهم نظارة احوال السفن بانهم رعايا الدولة الانكليزية ، وكذلك بحرية جميع المراكب التى تسافر تحت الراية الانكليزية اذا احضروا شهادة من رئيس السفينة التى هم فيها سواء اوصوا او مات احدهم بدون وصية

١٠ – يتعهد السلطان عن نفسه وورثائه وخلفائه ان يبذل المساعدة التى فى وسعه بذلها لاسترداد الديون التى لرعايا الانكليز عند رعاياه واذا لم يدفع الحق المطلوب بعد ثبوت طلبه و بعد تقديم رعية الانكليز دعواه الى القاضى للحصول على مساعدته ، و بعد مرور ثلاثة اشهر على تقديم الدعوى الى القاضى فللقاضى التصرف باعطاء الامر بحجز مال المدين و بيعه لمصلحة الدائن واذا كان المدين لرعايا الانكليز لامال له فيلزم على القاضى ان يسجنه حتى يتم بشأنه تدبير يرضى الحكومة الانكليزية

١١ – اذا وقع نزاع بين رعايا الانكليز المسجلين فيلزم رفع الدعوى الى والى عدن فيحكم بحسن نظره طبق الاصول المتبعة فى بلاده ويكون حكمه نافذا فى كل قضية لاتتجاوز الفى ريال ، واذا زاد المبلغ على ماذكر يرفع الاستئناف الى متصرفية اخرى فى الهند ، واذا لم يرض احد الفريقين بالحكم الصادر يحق للقاضى ان يسجنه بحسب طلب الوالى ، والقصد من هذا الشرط هو تأييد النظام التام والاتفاق بين الرعايا المسجلين من الانكليز ورعايا السلطان

١٢ – تفصل جميع المنازعات التى تقع بين رعايا بريطانيا ورعايا السلطان طبقا لقوانين البلد المقررة

١٣ – رضى السلطان ان يعطى الدولة البريطانية ارضا فى غربى المدينة طولها . . . ذراعا وعرضها . . . ذراعا بعوض قدره (. . . ريالا) لكى تستعمل الدولة البريطانية تلك الارض وللشركة ان تعمر فيها اى بناء او بيت وان تنظمها كما تشاء . والتزم السلطان ان يمنع البناء حوالى هذه القطعة الى مسافة ٢٠ ذراعا فى واجهة الدرب ، الى ١٥ ذراعا من اى جهة اخرى

١٤ – للبريطانيين ان يدخلوا المدينة من اى باب شاءوا وان يركبوا الخيل والبغال والحمير واى حيوان يستحسنون ركوبه بدون احتكار ولا معارضة ولا اهانة

١٥ – اذا فر شخص من عساكر الدولة او من رعاياها من غير المسلمين والتجأ الى القاضى او اى امير من طرف الحكومة وطلب اعتناق الاسلام فعلى القاضى ان يرسل افادة رسمية الى الوالى فلعله يطلبه بصفة رعية بريطانية وما لم يصل طلب من الوالى بعد مضى ثلاثة ايام من تاريخ الافادة فان للقاضى او الامير ان يعمل بمقتضى رايه فى معاملة الشارد

١٦ – يعطى السلطان قطعة ارض لتكون مقبرة عامة للرعايا البريطانيين الذين يموتون فى حدوده مجانا فلا يدفعون غير نفقات الدفن

١٧ – اى مادة خارجة عن هذه المعاهدة يقترحها احد الفريقين ويتم الاتفاق عليها يجوز اعتبارها ملحقة بهذه المعاهدة ومندوب الدولة البريطانية مستعد ان يقبل

اى رأى من السلطان ويرفعه الى سعادة والى الهند وان يدخل فى مقاولة مشترى اى مقدار من البن او تسليم اى بضائع بريطانية بالاسعار التى يكون عليها التراضى

تليت هذه الشروط السبعة عشر وصار عليها التراضى والقبول من الطرفين ، ووضع السلطان ختمه على النقل العربى الصحيح ، ووقع المندوب البريطانى على النقل الانكليزى الصحيح فى مركب جلالة الملك المسمى رالى فى طريق عدن يوم ٦ سبتمبر سنة ١٨٠٦

٣

الاستيلاء على عدن

على هذا المنوال بدأ الانكليز ينفذون الى عدن ولحج واليمن السفلى و يعملون على اخضاعها للتاج ، ولقد ادركوا نجاحا يذكر فى خلال هذه المرحلة فعقدوا مع سلطان لحج المعاهدة السابقة وقد نالوا بها كثيرا من الحقوق والمزايا

وحدثت حادثة عادية بعد ذلك بقليل فرأوا فيها فرصة مناسبة يحققون فيها مطامعهم و يصلون الى بغيتهم، وقد كان لهم ما ارادوه بفضل قوتهم ونظامهم وسوء الحالة الداخلية فى البلاد وضعف القادة والرؤساء

و بيان ماحدث ان سفينة هندية اسمها دريا دولت غرقت فى شهر رمضان سنة ١٢٥١ (١٨٣٥) فى مكان اسمه (غية سيلان) قرب عدن وكانت تقصد جدة وتحمل حجاجا و بضائع فنهب العربان اللحجيون البضاعة وسلبوا الركاب ما كان معهم ولم يرحموا كبيرا ولم يوقروا صغيرا

واوفدت حكومة الهند القبطان هنس الى عدن لاسترداد الاموال المنهوبة ، فزار السلطان محسن (سلطان لحج) وخاطبه بشأن الاموال المنهوبة فأنكر اشتراك رعيته او قبائله فى النهب وابى الانكليز قبول العذر لان البضائع المنهوبة كانت تباع علنا فى اسواق عدن وطلب من السلطان ان يدفع ١٢ الف ريال تعويضا او يعيد جميع الاموال ، واخيرا اعاد له جانبا من البضائع يبلغ ثمنه ٧٨٠٨ ريالات وكتب له سندا بالباقى وقدره ٤١٩٢ ريالا وتعهد ان يدفعه فى خلال ١٢ شهرا

وكانت للقبطان مهمة اخرى غير طلب التعويض وهى السعى عند السلطان للحصول على محطة للمراكب الانكليزية فى عدن بطريق الايجار او الشراء او اى

وسيلة اخرى فدارت بينهما مباحثات لم تؤد الى نتيجة بسبب تدخل الامير احمد نجل السلطان الذى عارض فى قبول المشروع معارضة شديدة فقطع هنس المفاوضات وعاد الى بمباى

ولم يطل القبطان الغياب فقد رجع فى السنة التالية سنة ١٢٢٤ و ١٨٣٧ يحمل تفويضا تاما من حكومته بالاستيلاء على عدن بالقوة ان لم يكن بالسلم و بدأ ففاوض السلطان وعرض عليه ان يتنازل عنها للانكليز مقابل ٨ آلاف ريال فى السنة فابى ، ومنع العرب الماء عن المركب « كوت » الذى كان يركبه ، وضربوه بالبنادق فأصابوا اثنين من بحارته ، فحاصر عدن يوم ٢٥ شوال واطلق قنابله على قلعة صيرة فقتل ٣٠ من رجال السلطان

وفى اوائل شهر ذى القعدة سنة ١٢٥٤ وصلت الى عدن السفن : ماهى ، وفوليج ، وكروزر من البحرية البريطانية ومعها ٣٠ مدفعا ونيف و ٣٠٠ مقاتل من الانكليز و ٤٠٠ من الهنود وهاجمت عدن ودارت بينها و بين جنود السلطان معركة قتل وجرح فيها ١٥٠ من هؤلاء ولم تزد خسارة الانكليز عن ١٥ وانسحب السلطان وعائلته الى النواهى واستولى الانكليز على عدن بقوة السلاح فكانت اول بلد عربى امتلكوه فى جزيرة العرب

٣

الانكليز فى لحج

ابتدأ امتلاك الانكليز لعدن بزيارة ودية وشرب ماء ثم تحول الى تجارة ثم الى سعى للحصول على محطة بطريق الايجار ثم الى احتلال واستيلاء وذلك كله فى خلال مدة لاتزيد عن ٣٥ سنة

وما كان امتلاك عدن وحدها ليكفى ويغنى ، ولذلك ما كادوا يستقرون فيها ويطيبون نفسا بامتلاكها حتى رموا بابصارهم الى المناطق المحيطة بها والمجاورة لها وبدأوا فعقدوا يوم ٦ ربيع الآخر سنة ١٢٥٥ (١٨٣٦) معاهدة جديدة مع سلطان لحج ، وصاحب عدن الشرعى نالوا منه اعترافا بامتلاكهم لها وهذا نصها :

« تعهد السلطان محسن فضل واولاده احمد وعلى وعبد الله وفضل بحماية الفقير والضعيف وسلامة قبائلهم ، وتأمين الطرق وانه مسؤول عن اى قبيح يرتكبه اصحابه فى الطريق وان لايحدثوا اى نوع من المقاومة ضد الدولة البريطانية وان تكون مصلحة الفريقين واحدة

« وعلى الدولة (انكلترا) ان تدفع المعاشات التى للفضلى واليافعى والحوشبى وقبائل الامير وان تعطى السلطان محسن واولاده ماتناسلوا معاشا قدره ٦٥٠٠ ريال سنويا ابتداء من شهر ذى القعدة الحرام سنة ١٢٥٤ وان الارض من المجرد الى لحج والى جميع حدود قبيلة العبادل المعروفة ، تحت سيطرة السلطان ، وعند حدوث اى هجوم على لحج ، او على قبائل العبادل ، او على عدن او على عساكر بريطانيا ، فالسلطان محسن والدولة البريطانية يكونوا يدا واحدة ، واذا دخل احد رعايا السلطان عدن فعليه اطاعة قوانين الدولة البريطانية وعلى رعايا الدولة البريطانية ان يطيعوا

احكام السلطان فى لحج وان السلطان واولاده معافون من العوائد والرسوم عند دخولهم عدن وعند خروجهم منها »

وحاول العبادل بعد ذلك نقض هـذا الاتفاق واسترداد عدن فجمعوا جموعهم وهاجموها ثلاث مرات فى خلال سـنة ١٢٥٦ فصـدهم الانـكليز وردوهم ثم قطعوا عنهم الرواتب المقررة فى الاتفاق السابق ، على ان السلطان محسن عاد فى سنة ١٢٥٩ الى صلح الانـكليز فاعادوا له الرواتب

معاهدة اخرى

وتدرج الانـكليز بعـد ذلك طبقا لخططهم واساليبهم الاستعمارية ، فسعوا بوسائلهم المعروفة فعقدوا يوم ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٢٦٥ و ٧ مارس سنة ١٨٤٩ معاهدة مع السلطان محسن نفسه توطىء لهم سبل التدخل فى بلاد لحج نفسها ، وتشبه من وجـوه كثيرة المعاهدة الاولى التى عقدها السر هوم بوفهام بشأن عدن وهـذا مجملها :

« يحمى السلطان على محسن املاك الرعايا الانـكليز واموالهم فى لحج ، ويسمح لهم بالدخول الى بلاده للتجارة ، او السياحة ، وان يقوموا بعوائدهم ماعـدا حرق جثث الموتى ، وتسليم المجرمين من رعايا الانـكليز ليسجنوا فى عدن

« يكون خور مكسر الحـد الفاصل بين حـدود السلطان وحدود الانـكليز ، ويحمى الطرق الموصلة الى عدن بقدر طاقته ، وكل مايمر للسلطان وعائلته من البضائع فى عـدن ، وما يمر من بلاد السلطان من بضائع الدولة الانـكليزية يعفى من الضرائب ولا يأخذ السلطان على التجارة المارة فى بلاده لرعايا الانـكليز رسما اكثر من اثنين فى المـائة

« وعلى السلطان ايضا ان يعمل لتشجيع زراعة البقول والخضروات فى لحج

وان يساعد الدولة البريطانيـة فى كل مايختص بخير عـدن ، و يصغى لمشورة المعتمد الانـكليزى فى عدن بقدر الامكان

« و يتعهد الانـكليز بان تدفع حـكومة الهند للسلطان وخلفائه وورثته مبلغا قدره ٥٤١ ريالا تساويا فى كل شهر »

احتلال الشيخ عثمان

تقع بلدة الشيخ عثمان بين عـدن والحوطة (عاصمة لحج) وتبعد عن الاولى كيلو مترا واحـدا وعن الثانية كيلو مترا وهى ايضا ذات مركز جغرافى اغرى الانـكليز بامتلاكها فسعوا عند امراء لحج و بذلوا كثيرا من الجهود والاموال ايضا فنجحت مساعيهم ووقع الفريقان يوم ١٧ ربيع الاول سـنة ١٢٩٩ على المعاهدة الآتيـة وهى تحقق آمال الانـكليز وهذا نصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

« شروط معاهدة واقعة ، بين السلطان فضل بن على محسن بن فضل العبدلى ، سلطان لحج ، ونواحيها من طرف نفسه ، واعمـامه ، وورثائه ، وورثائهم ، وخلفائه وخلفائهم من جهة ، و بين الميجر جنرال فرنسيس لاك والى عدن من طرف حكومة الهند من الجهة الاخرى

حيث جاء فى الشرط الخامس من المعاهدة المعقودة بتاريخ ٧ مارس سنة ١٨٤٩ بين استافرد بتسورث هينس من الرؤساء فى البحرية الهنـدية ، ووكيل بعـدن من طرف حـكومة الهند ، والساطان على محسن من طرف نفسه وورثائه وخلفائه انه حصل التراضى بينهما ان قنطرة خور مكسر والميدان الذى فى وسطه وجبال عدن وهى جبل حديد ملك الدولة البريطانية ، ولا زيادة الى الشمال

« وحيث ان مبلغ الخمسماية والواحـد والاربعين ريالا التى يجب ان تسلم شهريا بموجب المعاهدة الى السلطان على محسن فضل المذكور وورثائه وخلفائه مادامو يسيرون

بالاخلاص والصدق والمحبة نحو الدولة البريطانية ومتمسكين بكل تأييد بشروط العاهدة المذكورة

«وحيث ان السلطان فضل بن علي محسن لأجل نفسه واعمامه وورثائهم وخلفائه وخلفائهم رضوا ان يبيعوا للدولة البريطانية بمبلغ قدره ٢٥ الف ريال ، وبزيادة فوق المشاهرة الحالية التى هى ٥٤١ ريالا ١١٠٠ ريال شهريا من ذلك ٦٠٠ ريال مقابل محصول الماء و ٥٠٠ ريال لأجل محصول الملح ، ويكون جملة الجميع ١٦٤١ ريالا شهريا لجميع الاراضى ، المتمدة الى شمالى جزيرة عدن ، يحدها خط يبدأ من ساحل البحر ميلا واحدا وخمسة اقسام ميل من ستة عشر قسما الى جهة الشرق رأسا ، من شمال آخر جسر خور مكسر ويمتد من شمال شرق الشمال سبعة اميال وربع الى طرف خط الساحل فمن هذا المكان يمتد الحد من البحر الى جهة الغرب ثلاثة اميال وربع الى محل قريب العماد . ومن هذا المحل بعد مايمر الحد فى وسط الطرف الخيالى ، بميل واحد من جهة الشمال ، من ولى الشيخ عثمان ، يمتد الى العلامة التى على ساحل شاطئ وادى تبن ، الكائنة على بعد ميل من جهة البر ، ومن هذه العلامة يمتد الحد الى جنوبى غربى طرف الجنوب بحرا ، وهذا يثبت ان الساطان فضل بن على محسن فضل المذكور بموجب شروط هذه المعاهدة وبسبب الخمسة والعشرين الف ريال التى قد تسلمت وزيادة المشاهرة شهريا الف ومائة ريال التى رضيت الدولة البريطانية بتسليمها له ، وذلك لأجل نفسه واعمامه وورثائه وورثائهم وخلفائه وخلفائهم ، يعطى ويثبت التمليك الى يد الدولة البريطانية جميع قسم تلك البلدة التى ذكر وصفها اعلاه ، ان تبقى بيد الدولة البريطانية مؤبدا كقسم من بلدانها والمذكور السلطان فضل بن على محسن يربط نفسه واعمامه ، وورثاءه وورثاءهم وخلفاءه وخلفاءهم زيادة ان لايقيموا دعوى من الآن وصاعدا على الارض المذكورة واى محصول يحصل منها

٢ ـ والميجر جنرال فرنسيس لاك والى عدن المذكور مفوض تفويضا كليا بان يعلن باسم الله وباسم سعادة والى الهند ، ورأى المجلس العالى ان للسلطان فضل بن على محسن فضل المذكور وورثائه وخلفائه مبلغا قدره ١٦٤١ ريالا شهريا كما ذكر

٣ ـ والسلطان فضل بن على محسن فضل المذكور من جهة والميجر جنرال فرنسيس لاك والى عدن من الجهة الاخرى ، مفوضان تفويضا تاما بان يعلنا بان المعاهدة الموقعة والمصححة فى سابع يوم من شهر مارس سنة ١٨٦٧ والمتعلقة بالقسم الذى بين الشيخ عثمان وعدن من السلطان فضل محسن فضل من جهة واللفتننت كولونيل دبليو مريوذر والى عدن باطلة

٤ ـ لسلطان لحج ان يأخذ المكوس على الاموال الداخلة الى عدن من جهة البر ، حتى حدود الدولة البريطانية بالقدر المذكور فى معاهدة ١٨٤٩

٥ ـ اذا فر احد من عساكر لحج الى حدود الدولة البريطانية وطلبه السلطان فالوالى يسلمه فورا

واذا فر احد رعايا السلطان بعد ارتكابه جناية الى الشيخ عثمان او العماد فان والى عدن يصدر امره بتسليمه بعد الاطلاع على تفاصيل جريمته ، ويتعهد السلطان من طرفه بان يعيد عساكر الدولة البريطانية او رعاياها الذين ينهزمون من عدن ونواحيها اذا طلب رجوعهم

٦ ـ اذا احتاج والى عدن ادخال احد فى الخدمة من العبادل فيكون ذلك بمعرفة السلطان ، واذا العبدلى او العبادل استعفوا او رفتوا من الخدمة واريد ان يحل عبادل محلهم فيكون ذلك بطلب الوالى من السلطان

٧ ـ تكون حدود السلطان فضل بن على محسن فضل المذكور وورثائه وخلفائه من الآن فصاعدا محمية بحماية الدولة البريطانية كما هى الآن

حرر فى الشيخ عثمان يوم ٦ فبراير سنة ١٨٨٢ و ١٧ من شهر ربيع الاول سنة ١٢٩٩

٤

النواحي التسع تحت الحماية البريطانية

يراد بالنواحي التسع الاراضي الممتدة من حدود دولة اليمن الجنوبية حتى عدن ويسمونها ايضا اليمن السفلى او جنوبي اليمن وهذه اسماؤها :

١ ـ لحج	عاصمتها	الحوطة
٢ ـ الصبيحة	«	الصبيحة
٣ ـ الحواشب	«	المسيمير
٤ ـ الضالع	«	الضالع
٥ ـ يافع الاعلى	«	المحجبة
٦ ـ يافع الاسفل	«	الغارة
٧ ـ اهل فضل	«	شقره
٨ ـ العوالق العليان	«	نصاب
٩ ـ » السفلان	«	احور
١٠ ـ اهل عبد الواحد	«	بالحاف
١١ ـ العواذل	«	الكور
١٢ ـ حضرموت (١)		المكلا وتريم

ويبلغ عدد سكان هذه المقاطعات نحو مليون نسمة جميعهم من العرب

---

(١) تنقسم حضرموت الى قسمين : ساحلي وعاصمته المكلا وسلطانه من آل القعيطي وداخلي وعاصمته تريم وهو خاضع لآل كثير

القحطانيين وتعد حضرموت اعظم هذه المقاطعات شأنا ويقدر سكانها بنحو نصف مليون ثم يافع الاعلى وعدد سكانها ٧٠ الفا ثم لحج وعدد سكانها ٩٠ الفا

واتخذ الانكليز من مقامهم فى عدن وسيلة للتسلط على هذه المقاطعات العربية فعقدوا معها فى ظروف شتى معاهدات سياسية اعترفوا فيها باستقلالها واعترفت بنفوذهم وتعهدت بان لاتعقد معاهدة مع دولة من الدول الا بموافقتهم و بعد استشارتهم وفى مقابل ذلك خصصوا لشيوخها وسلاطينها رواتب تختلف بين القلة والكثرة بحسب درجة القبيلة ونحن ننشر جدولا بالرواتب التى يتقاضونها حتى الآن من خزينة حكومة عدن

روبية هندية	الاسم
٣٢٨٠	سلطان لحج
٣٦٠	اهل فضل
٧٠٠	العوالق العليا
١٦٠	العوالق السفلى
٤٠٠	الحواشب
٣٠٠	الضالع

وهنالك مشايخ آخرون يتناولون رواتب ايضا . ومن عادة الانكليز ان يطلقوا المدافع لتحية امراء النواحى التسع عند وصولهم الى عدن و يستقبلونهم استقبالا رسميا و ينعم عليهم الوالى بالهدايا ايضا . ولمدافع التحية ايضا عندهم نظام خاص فبعضهم يستقبل باحدى وعشرين طلقة و بعضهم بعشرة و بعضهم اقل واكثر

الترك والاستعمار البريطانى

وعقد الانكليز اتفاقا مع الباب العالى فى سنة ١٩٠٥ اعترف فيه بحمايتهم لهذه النواحى و بالحالة القائمة واصدر امره فحددت الحدود نهائيا بينها و بين اليمن . وابى الامام يحيى حينما نالت اليمن استقلالها بعد الحرب العظمى ، الاعتراف بالاتفاق التركى - الانكليزى وقال انه لايقيده بشىء ، لان الترك كانوا غاصبين لامالكين فتعاقدهم فضولى

وغير جائز ، وطلب من الانكليز ان يعيدوها اليه لانها فى الاصل من املاك اجداده وحمل اليمانيون على الاقطار المجاورة لهم وهى الضالع ويافع واستولوا عليها بالقوة ، فأخرجهم الانكليز منها بعد ذلك وانتهى هذا الدور بمعاهدة عقدت فى صنعاء بين الامام يحيى والانكليز يوم ٢٦ شوال سنة ١٣٥٢ و ١١ فبراير سنة ١٩٣٤ جاء فى المادة الثامنة منها ما نصه : « يؤجل البت فى مسئلة الحدود الجنوبية اليمانية الى ان تتم مفاوضات تجرى بين الفريقين المتعاقدين قبل انتهاء مدة هذه المعاهدة بما يتراضيان عليه بصورة ودية و باتفاق كامل بدون احداث اى منازعة او مخالفة . والى ان تتم هذه المفاوضات فالفريقان المتعاقدان يقبلان ان تبقى الحالة الحاضرة فيما يتعلق بالحدود فى تاريخ التوقيع على هذه المعاهدة . و يتعهدان بان يمنعا بكل ما لديهما من الوسائل اى تعد من قواتهما فى الحدود المذكورة واى تدخل من اتباعهما او من جانبهما فى تلك الحدود فى شؤون الاهالى القاطنين فى الجانب الآخر من الحدود المذكورة

وجاء فى المادة السابعة ان مدة هذه المعاهدة ٤٠ سنة

الامارة الادريسية

١٩٠٩ - ١٩٣٣

١

كيف نشأت هذه الامارة

في اواسط سنة ١٩٠٨ غادر القاهرة السيد محمد على بن السيد على الادريسى الى السودان فاقام مدة فى دنقلة ضيفا على آله وذويه وبعد ماتزوج هنالك سافر مع زوجه الى صبيا (تهامة) ونزل ضيفا فى جوار جده الاكبر السيد احمد بن ادريس المدفون فى ثراها

واقبل رجال القبائل والاطراف للسلام على القادم والترحيب به وطلب دعواته الصالحات ويتمتع الادارسة وسلائلهم بنفوذ كبير فى تلك الجهات ولهم منزلة خاصة فى نفوس سكانها توارثوها عن جدهم الاكبر

وعكف السيد القادم على الدعوة للاصلاح الدينى وعلى التبشير والتعليم ، وكان فصيح اللسان ، قوى الحجة ، واسع الاطلاع ، فاحبه الناس ومالوا اليه ، والتفوا حوله ، وصاروا يرجعون اليه فى الكبيرة والصغيرة من شؤونهم ، ويحكمونه فى قضاياهم

وكانت بلاد اليمن حين وصوله تعانى ازمة داخلية خطيرة ، فالفتن مشتدة فى الجبال بين الزيود والعثمانيين ، والحرب قائمة على قدم وساق . اما فى الساحل اى فى تهامة فكان نفوذ الدولة معدوما ، وكان الناس قد ملوا الحكم التركى وسئموه ، لما سامهم من المظالم والمغارم

ورأى الناس فى ابن ادريس الضالة التى ينشدونها فالحوا عليه بان يتولى امورهم وان يقيم احكام الشريعة بينهم ، فتردد وابى وقال انه جاء مرشدا ومعلما ، وكان فى عسير يومئذ متصرف تركى ، ضيق العطن ، نفر منه الناس واجتنبوه لما عرف به

من الاستهتار بامور الدين وعـدم التقيد بنواهيه ، فـكبر عليه ان ينال السيد هـذه الحظوة فى عيون قومه فحـارب به سرا وجهرا ونصب له المكائد والدسائس والاحابيل فتعصب لهـذا قومه وفدوه بالنفس والنفيس فدارت بينهـم و بين قوات الترك معارك انتهت بانهزام هؤلاء وتقهقرهم واعتصامهم بمدينة ابها (قاعـدة عسير) فطاردوهـم وضربوا الحصار حولهم فاستعان الباب العالى بشريف مكة حسين باشا (الملك حسين) واستنصره فجهز حملة عسكرية سار على رأسها من مـكة ومعه نجلاه عبد الله وفيصل وواصل تقدمه حتى ابها فدخلها فى اواسط سنة ١٩١٠ وشتت قوى الادريسى وفك عنها الحصار

الادريسى والطليان

واعلن الايطاليون ــ والفتنة قائمـة بين انصار الادريسى والترك ــ الحرب على الدولة العثمانية فى سنة ١٩١١ واسرعوا فاتصلوا بالادريسى جارهم فى صبيا وارسلوا اليه رسلهم من مصوع واسمره وامدوه بالسـلاح والمال فازداد قوة ونفوذا ووطد قواعـد الامارة الجديدة

٢

بين الادريسى والانكليز

اعلنت الحرب العظمى فى اواسط سنة ١٩١٤ والنضال على اشده بين الادريسى الذى كان يعمل لتوسيع نفوذه وحدوده و بين الترك الذين كانوا يحاربونه و يسعون للقضاء على امارته

وما كادت الدولة العثمانية تدخل الحرب فى جانب الالمان حتى ضرب الانكليز الحصار على سواحل البحر الاحمر وقطعوا كل صلة بين تركيا واليمن فضعف موقف الترك واضطرب فى جنوبى الجزيرة وجنوبيها الغربى فزاد ذلك فى نفوذ الادريسى ومكن له فى الارض فرأى الانكليز ان من مصلحتهم الاتصال به وادخاله فى دائرة الامبراطورية فارسلوا اليه رسلهم فدارت مفاوضات انتهت بتوقيع المعاهدة الآتية فى عدن وهذا نصها :

١ ـ ان هذه المعاهدة التى هى معاهدة صداقة وولاء قد وقع عليها الميجر جنرال شو المعتمد فى عدن باسم حكومة بريطانيا العظمى والسيد مصطفى بن السيد عبد العلى الادريسى باسم حضرة السيد محمد على بن محمد بن احمد بن ادريس (السيد الادريسى) امير صبيا واطرافها

٢ ـ المقصد من هذه المعاهدة هو اعلان الحرب على الترك وتوطيد عرى صداقة مابين حكومة بريطانيا والسيد الادريسى المذكور آنفا ورجال قبيلته

٣ ـ يتعهد الادريسى بقتال الترك و بان يجتهد لطردهم من مواقعهم فى اليمن وان يتعقبهم وله ان يوسع اراضيه على حساب الاتراك

٤ ـ يتجه عمل السيد الاساسى ضد الترك فقط و يمتنع عن كل حركة عدائية ضد الامام يحيي مادام هذا لايضع يده بيد الترك

٥ ـ تتعهد الحكومة البريطانية بالمحافظة على اراضى السيد الادريسى من كل اعتداء يقع من قبل اى عدو كان على السواحل و بضمان استقلاله فى اراضيه الخاصة وباستعمال كل الوسائط السياسية عند ختام الحرب فى سبيل تأليف مطالب السيد الادريسى مع الامام يحيي او اى خصم آخر

٦ ـ ان الحكومة البريطانية لاتقصد توسيع اراضيها فى غرب البلاد العربية ولكنها تتمنى بصورة صريحة ان ترى رؤساء العرب فى حالة سلمية واخوية كل منهم فى منطقته وكل موال للحكومة البريطانية

٧ ـ انه كدليل على تقدير الحكومة البريطانية للاعمال التى يقوم بها السيد الادريسى فهى ستعاونه بالمال والمؤن وتستمر على معاونته طول الحرب . وستكون هذه المعاونة متناسبة مع مايقوم به السيد الادريسى من الاعمال

٨ ـ تسمح الحكومة البريطانية للادريسى اثناء الحصار البحرى المضروب على سواحل تركيا فى البحر الاحمر ان يتاجر مع عدن وسواحلها وهى تضمن استمرار هذه الحالة مادامت العلاقات الحسنة موجودة بين الطرفين

٩ ـ تكون هـذه المعاهدة نافذة المفعول على أثر موافقة الحكومة الهندية عليها

يوم الجمعة ٣٠ ابريل سنة ١٩١٥ الموافق ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣٣٣

السيد مصطفى بن السيد عبد العلى B.G.L.Shaw

هاردنج

حاكم الهند العام

ملحق : تعطى جزيرة فرسان للادريسى منعا لمطالب ايطاليا

٣

سقوط الامارة

اتسعت حدود هذه الامارة فى ختام الحرب العظمى ، فضمت اليها معظم سواحل اليمن من البرك حتى الحديدة كما ضمت اليها ابها ومحايل و بنى شهر وغيرها من مدن الداخلية فازعج ذلك الامام يحيي صاحب اليمن كما اقلق الحسين بن على صاحب الحجاز وكان كل منهما يطمع فى الاستيلاء على بلادها واستصفائها

وادرك السيد محمد على الادريسى انه لاقبل له بمقاومة هذين الخصمين الشديدين فاتجه نحو ابن سعود صاحب الرياض وعقد معه معاهدة تحالف وصداقة (١) تنازل له بموجبها عن مقاطعة ابها كلها فاستولى عليها فى سنة ١٩٢١ واخمد الثورة التى كانت مضطرمة فى داخلها ، فهدأت الحالة نوعا ما وتوفى السيد محمد على فى سنة ١٩٢٣ وخلفه ابنه السيد على وكان دونه كفاءة ومزايا فكثرت الاضطرابات الداخلية واغتنم الزيود الفرصة فحملوا على هذه الامارة فى سنة ١٩٢٤ وانتزعوا منها الحديدة والمناطق المحيطة بها وتقدموا حتى ميدى ، فذهب الادارسة الى ابن سعود وعقدوا معه فى سنة ١٩٢٦ معاهدة جديدة دخلوا بموجبها تحت حمايته ، ثم عاد فى سنة ١٩٣٣ فضم هذه الامارة كلها الى دولته الجديدة و بذلك انتهى امرها

وكانت انكلترا تمثل فى هذه الامارة بقنصل مسلم هندى اسمه الدكتور محمد فضل الدين ، وقد استردته فى سنة ١٩٢٣ حينما اشتد الخلاف بين السيد الادريسى

---

(١) عقدت هذه المعاهدة فى صبيا يوم ١٦ ذى الحجة سنة ١٣٣٨ بين السيد الادريسى ومندوبى ابن سعود وسنثبتها فى مكانها من الجزء الثالث

والامام ولم تكن لها قوة عسكرية فى انحاء هذه الامارة ، ووقف الانكليز على الحياد فى جميع الحوادث التى حدثت وابوا ان يحركوا ساكنا مع ما بذل عندهم من جهود لان الجميع اصدقاؤهم كما قالوا فسيان عندهم انتصر هذا او فاز ذاك فسهمهم مضمون فى كل حال والفائدة لاتفوتهم

وسنفصل اخبار هذه الامارة فى الكتاب الثالث حين الكلام على الدولة السعودية الثانية

السيطرة البريطانية على خليج فارس

خليج فارس

نهر دجلة
نهر الفرات
البصرة
جزيرة بوبيان
مطليه
الكويت
رقيه
ابوالجيران
قصربلال
وفره
حما
راس تناجيب
وبره
أم كويسه
أبوعلى
الأحساء
رأس تنوره
القطيف
سيهات
البحرين
ابواب
قطر
شقيق
رماح
الهفوف
وفره
جرافه
سكاك
روضه البياضه
قصر بن عجلان
دكما
أبوظبى
رأس الخيمة
ام الجوين
الشارقة
دبى
ايران
خليج فارس
خليج عمان
مطرح
مسقط

٤٦ ٤٨ ٥٠ ٥٢ ٥٤ ٥٦ ٥٨
٣٢ ٣٠ ٢٨ ٢٦

١

خليج فارس

كان امتلاك الانكليز للهند فى اوائل القرن السابع عشر شؤما وبلاء على بلاد العرب الواقعة على الطريقين المؤديين اليها : طريق البحر الاحمر وقد وصفناه من قبل وطريق خليج فارس وهو الذى نصفه الآن

وتبلغ مساحة خليج فارس نحو ٩٧٠٠٠ ميل مربع وتكتنفه الجبال من الشرق والغرب . وهو اقرب طريق من بلاد العرب الى الهند ومنه سار محمد بن القاسم الثقفى الى السند فى العهد الاموى فافتتحها واكتسحها . وقد كان بحيرة عربية فى العهدين الاموى والعباسى لاسلطان عليه الا للعرب فلما دالت دولتهم تغلب الفرس والبرتغاليون والهولانديون على بعض اجزائه ثم جاء العثمانيون ثم الانكليز بعد استيلائهم على طريق الهند ، ولهم اليوم المقام الاول فى انحائه

ويتألف الخليج من قسمين : غربى وشرقى او الضفة الشرقية والضفة الغربية ، وسكان الاولى فرس يتبعون حكومة طهران مباشرة ولا سلطان ولا نفوذ لاجنبى عليها ، فقد قضى الايرانيون بعد نهضتهم الحديثة على كل ما كان للانكليز من نفوذ فى هذا المضيق المائى العظيم ، وانتزعوا منهم بعض الجزر التى كانوا يسيطرون عليها

اما سكان الضفة الغربية فهم من العرب وهم منقسمون الى شيع وامارات وحكومات بعكس حالة الضفة الاخرى ، وقد ساعد هذا الانقسام الانكليز على تنفيذ خططهم السياسية والاستعمارية فبسطوا نفوذهم على هذه الامارات الواحدة بعد الاخرى

وهذه اسماء الامارات العربية الواقعة على الضفة الغربية بحسب وضعها الجغرافى من الجنوب الى الشمال :

عمان (مسقط) ، الساحل العمانى ، قطر ، الحسا ، البحرين (جزر مناوحة للساحل العربى) الكويت ، وتقع هذه فى طرف الخليج الشمالى وتبعد عن البصرة ٩٠ ميلا فقط وحدودها مشتبكة بحدود العراق ونجد

واعظم هذه الحكومات شأنا حكومة عمان ولا يقل عدد رعاياها ساحلا وداخلا عن مليون ونصف وتتلوها البحرين وعدد سكانها نحو ٢٠٠ الف ثم الكويت وعدد سكانها ١٢٠ الفا ، ولا يقل سكان قطر والساحل العمانى عن ٣٠٠ الف ، فاذا اضفنا اليهم سكان مقاطعة الحسا ، وقد تحرروا حديثا من النفوذ البريطانى ولا يقلون عن ٢٠٠ الف لبلغ مجموع سكان المقاطعات العربية الواقعة على الضفة الغربية ٢٣٢٠٠٠٠ ٢٩ نسمة وهنالك من يقدرهم باكثر يشتغلون بصيد اللؤلؤ والتجارة والزراعة و بينهم عدد من الاغنياء ولهم ثروة لابأس بها

٢

الاستعمار البريطانى فى خليج فارس

كانت امارات الخليج العربية حتى اوائل القرن السابع عشر اى حتى ابتداء الاستعمار البريطانى فى الهند منقسمة من حيث الوضع السياسى الى قسمين : قسم يحتفظ بالاستقلال التام وهو سلطنة عمان وساحلها وقسم يخضع للنفوذ العثمانى وهو الحسا والكويت . اما البحرين فكانت بين اصحابها العرب و بين الفرس والترك وكان كل منهما يدعى ملكيتها

وكانت سلطنة عمان (مسقط) وهى اقرب الاقطار العربية الى الهند اول الامارات التى استهدفت للغارة البريطانية فى هذه المرحلة ، وغنى عن البيان ان فوز الاستعمار البريطانى بامتلاكها ساعده على التسلط على المناطق الاخرى تدريجا فنال ما اراده فى خلال نصف قرن ونيف وانتهى به الامر الى الاستيلاء على العراق نفسه وذلك فى ختام الحرب العظمى سنة ١٩١٨

ومما يستوقف النظر فى امر هذا الاستعمار ان الاساليب التى اتبعها فى امتلاك هذه الامارات واحدة تقريبا فقد جرى على اغتنام فرص وقوع خلافات عائلية بين البيوت المالكة فيها ، وما كان يتورع عن ايجادها اذا قضت الظروف للتدخل فيؤيد احد الفريقين المتنازعين ويكون الفوز دائما فى جانب الفريق الذى يؤيده لكثرة وسائطه وتعددها ، ثم يبسط ظله على البلاد من طريق الامير الجديد الذى يجلسه او يعضده ومعنى ذلك ان السيطرة على هذه البلاد الواسعة العظيمة لم تكلف الانكليز جهودا مادية تستحق الذكر بل سيطروا عليها بالطرق والاساليب الدبلوماسية و بالوسائل الاخرى التى يعرفونها مستعينين على ذلك بالزمن ، وقد انالهم مايريدونه ، ولا نظن ان استعمارا فى العالم تم على مثل هذ المنوال

وفضلا عن ذلك فان هذا الاستعمار يتمثل فى كل قطر من هذه الاقطار بشكل يختلف عن الشكل الذى يتمثل فيه بالقطر الآخر فهو فى الكويت غيره فى البحرين وهو فى مسقط غيره فى قطر ، وذلك لانه يتكيف طبقا لحاجة المحيط وهذا هو شأنه ايضا فى اليمن وفى ساحل البحر العربى وفى مصر والسودان وفلسطين وشرقى الاردن وفى جميع الاقطار العربية فهو يحاول ان يظهر فى كل مكان بالشكل الذى يلائمه ، غير ناظر الا الى الجوهر ، ولا شأن للانكليز بغيره فهم عمليون ماديون .

٣

السيطرة على مسقط

نالت سلطنة عمان مقاما رفيعا فى القرون الوسطى وعظم امرها فحاربت البرتغاليين فى القرن السادس عشر وطردتهم من الخليج واستولى اسطولها على بعض سواحل الهند وغزى سواحل افريقية الشرقية واستولى على بعض اجزائها و بلغ احد ملوكها الرياض كما استولى على البحرين و بعض المناطق المجاورة

وتسربت جرائيم الضعف والانحلال الى هذه الدولة بسبب كثرة حروبها مع النجديين فى القرن الثامن عشر وزاد الطين بلة انتقاض احد امرائها سلطان بن احمد على عمه الامام واستيلائه على مسقط وعلى الموانىء المجاورة لها وانشائه حكومة مستقلة ، فاغتنم عمال الانكليز اليقظون الساهرون الفرصة للتدخل فى شؤونها

وزاد اهتمام الانكليز بامر هذه البلاد على أثر ماعلموه وهو ان نابليون بونابرت ارسل من مقره فى القاهرة سنة ١٧٩٩ كتابا الى امام مسقط يقول فيه : « ان الجيش الفرنسوى وصل الى مصر وانه يستطيع ان يثق من رغبته فى حماية السفن التجارية العمانية التى يرسلها الى السويس » ثم طلب منه ايصال كتاب ارسله ضمن كتابه الى تبيو صاحب ، احد امراء الهند الناقمين على الانكليز، فارسلت حكومة الهند ميرزا محمد خان وكيلها فى بو شهر الى عمان فقابل الامام وعقد معه اتفاقا فى سبع مواد كان اول اتفاق سياسى عقد بين مسقط وانكلترا تعهد فيه السلطان ان يبعد الفرنسويين عن بلاده ، و يغلق مرافئه فى وجه سفنهم ، مدة الحرب بينهم و بين انكلترا ، وان يستعين بمشورة موظف بريطانى يقيم فى مسقط

وجدد الانكليز السعى عند الامام فنالوا حق انشاء وكالة سياسية انشؤها فعلا

وجعلت دأبها التدخل فى شؤون البلاد وتعزيز النفوذ البريطانى فى مسقط خاصة وفى الخليج عامة ، واستغلال مايقع بين الاسرة المالكة من خلاف وشقاق ، وعقد المعاهدات والاتفاقات توصلا لبسط السيطرة والنفوذ ، فعقدت فى سنة ١٨٦٤ اتفاقا مع الامام لمد الاسلاك البرقية ، ثم عززته باتفاق آخر فى سنة ١٨٦٥ وفى سنة ١٨٧٣ عقدت معاهدة لمكافحة تجارة الرقيق ، نالت بها حق اقامة جند فى دارها (الوكالة السياسية) مقابل جعل من المال يدفع سنويا للسلطان باسم تعويض له لالغائه هذه التجارة فى بلاده ، وكانت تدر على حكومته ارباحا طائلة ، ثم عقدت معاهدة اخرى سميت معاهدة « صداقة وتجارة » تعهد فيها الامام بان لايمنع اصدار او استيراد اى نوع كان من الاصناف التجارية وان لايضع رسما جمركيا الا بعد الاتفاق مع الانكليز

وهكذا تدرجت انكلترا فى عقد المعاهدات خلال القرن التاسع عشر مع امامة عمان وكان آخرها تلك التى عقدت فى سنة ١٨٩١ وقد تعهد فيها السلطان باسمه وباسم خلفائه وذريته بان لايتنازلوا عن جزء من اراضيهم ولا يؤجرونه او يبيعونه او يأذنون باحتلاله لاحد غير انكلترا

ولم يكتف الانكليز بما نالوه فى هذه المعاهدة بل عقدوا غيرها فى سنة ١٩١٣ مع السلطان فيصل بن تيمور والد السلطان الحالى وقد بسطوا بموجبها حمايتهم على هذه الامارة فقد تعهد السلطان بموجب هذه المعاهدة «ان يستشير المعتمد البريطانى فى جميع الامور» وبان لايعقد معاهدة مع دولة اخرى الا بعد موافقة الحكومة البريطانية مقدما ، وبان لايمنح امتيازا لاحد الا برضائها

وثار العمانيون على امامهم بقيادة شيوخ الدين لعقده هذه المعاهدة وقبوله الحماية البريطانية فدارت بينهم وبين رجاله معارك وانتهى القتال فى سنة ١٩٢٠ باتفاق عقد بين الفريقين يقضى بتقسيم البلاد العمانية الى قسمين : ساحلى وداخلى فيحكم السلطان القسم الساحلى مع بعض الولايات و يظل مشمولا بالحماية البريطانية و يحتفظ القسم الداخلى باستقلاله التام الكامل. ولهذا القسم اليوم حكومة دينية شرعية مقرها « نزوى » ويلقب رئيسها بالامام وهى مستقلة فى جميع شؤونها

وحاول الانكليز بعد ذلك الاتصال بامامة نزوى، وعقد اتفاقات معها فلم يفلحوا فاكتفوا بما نالوه من بسط نفوذهم على الساحل ، وفى مسقط اليوم مندوب بريطانى يتمتع بنفوذ واسع فلا يبرم امر ولا ينقض الا برأيه وبعد اخذ موافقته ولقبه « المستشار المالى » وليس لانكلترا جيش احتلال فى هذه البلاد وانما هنالك سفن الاسطول البريطانى فى خليج فارس فهى تتجول بين هذه الامارات على الدوام لتأييد نفوذ المستشارين والقناصل والمعتمدين السياسيين المنتشرين هنا وهنالك

٤

الساحل العمانى

يطلق اسم الساحل العمانى او السواحل المهادنة على المنطقة الممتدة من رأس الكلبة فى ساحل عمان شمالا الى العبيد على حدود قطر جنوبا وتشمل مدن دبى وراس الخيمة وابوظبى والشارقة وام الكراين

ولما شرعت انكلترا فى بسط نفوذها على الخليج سيرت فى سنة ١٨٠٥ حملة لمقاتلة قبيلة الجاسم ، أعظم قبائل تلك المنطقة شأنا باسم مقاومة القرصنة وانتهت هذه الحملة بعقد اتفاق مع شيوخ هذه البلاد فى سنة ١٨٠٦ تعهدوا فيها باحترام راية شركة الهند الشرقية البريطانية وعدم التعرض لسفنها او الاعتداء على التابعين لها

وتجدد الخلاف بين الانكليز ورجال هذه السواحل فى سنة ١٨٢٠ على اثر مهاجمتهم لجزر البحرين فارسلت حملة بحرية قاتلتهم واخرجتهم منها وعقدت معهم اتفاقا جديدا دخلوا بموجبه تحت حمايتها

وعزز الانكليز هذا الاتفاق باتفاق آخر عقدوه سنة ١٨٩٢ وقد تعهد فيه ممثلو هذه البلاد بان لايعقدوا اى اتفاق مع دولة غير بريطانية وان لايتصلوا بسواها ، كما تعهدوا بان لايأذنوا لوكيل حكومة اجنبية بالاقامة فى اراضيهم الا بموافقتها و بان لايتنازلوا او يؤجروا او يبيعوا او يأذنوا بالاستيلاء على جزء من اراضيهم الا باجازة منها

ولم يطرأ اى تغيير على وضع هذه السواحل منذ عقد هذه المعاهدة وترجع الى معتمد بريطانيا فى الخليج اى انه ليس فى بلادها لامعتمد سياسى ولا جيش احتلال

٥

قطر

هى شبه جزيرة بين العبيد والعقير (الحسا) منفصلة عن البلدان المجاورة لها سياسيا ومستقلة برئاسة آل ثانى ولا يزيد عدد سكانها عن ٥٠ الفا

وسرى النفوذ البريطانى الى هذه المقاطعة فعقد الانكليز مع شيخها اول معاهدة فى سنة ١٨٢٠ ثم عقدوا معاهدة اخرى سنة ١٨٣٥ تعهد فيها بما تعهد به جيرانه شيوخ السواحل

ووقعت اختلافات بين الشيخ وجيرانه سكان ابو ظبى فاتخذ الانكليز ذلك ذريعة لعقد معاهدة جديدة وقع عليها سنة ١٨٦٧ اخذوا عليه العهد فيها بان لايبنى سفينة حربية وان يرجع الى المعتمد البريطانى فى الخليج فى كل خلاف يحدث بينه و بين جيرانه وان يعترف بسيادة البحرين

واغتنم الشيخ فرصة رجوع الدولة العثمانية الى التدخل فى شؤون الخليج ووصول قواها الى الحسا فى عهد مدحت باشا سنة ١٨٦٩ فاعلن خضوعه لها وطاعته فعينته قائمقاما على قطر وانشأت فى الدوحة (من ثغور قطر) محطة للفحم ومرسى للسفن

وابى الانكليز الاعتراف بما وقع وانكروه ونادوا بان قطر مشمولة بحمايتهم ، وظل الحال على هذا المنوال حتى عقدت معاهدة لندن فى سنة ١٩١٣ بين انكلترا وتركيا وقد تنازلت بموجبها الاخيرة عن جميع مالها من الحقوق فى قطر الى سكانها

ولا تزال الحالة فى قطر على ما كانت عليه ولا تزال هذه البلاد مشمولة بالنفوذ البريطانى ولا يتدخل الانكليز فى شؤونها مباشرة

٦

البحرين

البحرين او جزر اوال اسم لمجموع جزر متجاورة تناوح الشاطئ العربى فى الخليج وتقع على مقربة من قطر والحسا وهى غير البحرين المعروفة فى التاريخ الاسلامى ، وتلك هى مقاطعة الحسا الواقعة بقربها

وجزر البحرين هى : المنامة ، والمحرق ، والرقاع ، والحد ، والبديع ، والاولى اعظمها شأنا ، ويبلغ عدد سكانها ٤٠ الفا وهم عرب ماعدا طائفة قليلة من الفرس

اغار الشيخ احمد بن خليفة من قبائل عتيبة على البحرين فى سنة ١٧٨٢ قادما من قطر فحارب الشيخ نصر آل مذكور حاكم الجزيرة المشمول بالنفوذ الفارسى وانتزعها منه ثم ضم اليها اقطارا مجاورة وكانت قطر فى جملتها ، ووقعت الاختلافات بعد ذلك بين آل خليفة انفسهم وقام بعضهم يحارب بعض فاغتنم الموظفون الانكليز الفرصة ، وكانت لهم يد فى اذكاء نار الفتن ، وعقدوا سنة ١٨٦١ معاهدة مع الشيخ محمد آل خليفة تعهدوا فيها بالدفاع عن امارته ورد كل غارة عنها مقابل عدوله عن تجهيز السفن البحرية واعداد الجنود اى انهم سلبوه بموجب هذا الاتفاق حق التسليح وهو من اعظم مظاهر الاستقلال

وثار اهل قطر سنة ١٨٦٧ على البحرين فارسل الشيخ محمد خليفة اخاه الشيخ على الى بوشهر ليطلب من المعتمد البريطانى انجاده بالقوى لاخماد الثورة طبقا للاتفاق المعقود بينهما ، وطال غيابه كما يظهر ، فجهز الشيخ قوة من البحرين لقتال الثوار ، لانه كان امام خطر داهم ، فساء ذلك المعتمد وعده انتها كا للعقد المعقود

بينهما ، فجاء بسفنه البحرية واطلق المدافع على البحرين ، لينتقم من الشيخ لنقضه العهد ، فدمر القلعة ، ثم عين الشيخ عليا شقيق الشيخ محمد شيخا بدلا من اخيه الذى اعتبره - كما قال - متنازلا عن الحكم ، فتسلم هذا الزمام من يد المعتمد ، وجمع الشيخ محمد المخلوع طائفة من الانصار والاعوان لقتال اخيه فدارت معارك بينهما انتهت بسقوط الشيخ على وعودة الشيخ محمد الى الحكم ، ولم يطل عليه الامر حتى قبض عليه بعض ابناء اسرته وقتلوه ، بعد ما خلعوه ، فنشبت فتنة جديدة جاء على أثرها المعتمد البريطانى من بوشهر يقود قوة بحرية ، فجمع مجلسا من الاهالى واستشارهم فى من يوليه الحكم ثم اختار الشيخ عيسى بن الشيخ على اى ابن الشيخ المقتول

واراد هذا ان يكافىء الانكليز على ما اسدوه اليه من يد فعقد يوم ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨٠ معاهدة معهم هذا نصها :

نحن عيسى بن على آل خليفة شيخ البحرين اتعهد باسمى واسم من سيخلفنى بعدى فى امارة البحرين ان لااقدم على عقد اية معاهدة كانت مع اية دولة كانت لعقد اى اتفاق كان دون الحصول على رضاء وموافقة الدولة البريطانية واتعهد ايضا بان لا امنح دون الحصول على رضاء بريطانيا اى امتياز كان لاية دولة كانت بتأسيس قنصليات او بتأسيس محطات لاخذ الفحم

« ان هذا الاتفاق لايؤثر قط على الصلات الودية الموجودة بين حكومتنا والحكومات المحلية المجاورة لها ولا يشملها »

وفى يوم ١٣ مارس سنة ١٨٩٢ قطع الشيخ عيسى امير البحرين على نفسه العهد الآتى :

« نحن شيخ البحرين عيسى بن خليفة نتعهد رسميا امام اللافتننت كولونيل ا . س تالبر الموظف السياسى البريطانى فى خليج فارس باسمنا واسم ورثائنا من بعدنا باتمام الشروط الآتية :

١ - ان لاندخل فى مخابرة واتفاقات مع اية دولة كانت عدا بريطانيا

٢ ـ ان لانسمح باية صورة من الصور لاى مندوب من مندوبى الدول الاجنبية بالبقاء او تأسيس علاقات له مع بلادنا دون الحصول على موافقة بريطانيا

٣ ـ نتعهد بعد استثناء الحكومة البريطانية بان لا نرهن ولا نعطى ولا نبيع قطعة ارض من اراضى بلادنا الى اى كان ولا نسمح قط باية صورة كانت لاجنبى ان يمتلك قطعة فى بلادنا »

وعينت بريطانيا على اثر توقيع هذا الاتفاق معتمدا سياسيا لمراقبة امور الجزيرة اتخذ المنامة مقرا له ، ورفع العلم البريطانى عليها رسميا

وفى ٣٠ ابريل سنة ١٨٩٨ عقد الشيخ عيسى معاهدة ثالثة مع انكلترا تعهد فيها بان يمنع ادخال السلاح الى بلاده او ان يجعلها مركزا لتصدير السلاح الى غيرها

ولم يكتف الانكليز باعتراف شيخ البحرين بوضعه بلاده تحت حمايتهم بل انتزعوا اعترافا من الدولة العثمانية بخروجها عن سيادتها وكانت تدعى ملكية هذه البلاد والسيطرة عليها . فقد جاء فى المادة ١٣ من المعاهدة المعقودة يوم ٢٩ يوليو سنة ١٩١٣ بين انكلترا وتركيا مانصه : « تتعهد الدولة العلية العثمانية بالتنازل عن سائر حقوقها فى جزر البحرين مع جزيرتى لبنان الاعلى ولبنان الادنى وتعترف باستقلال البحرين وتصدق عليه »

« وتعلن الحكومة البريطانية انه ليس فى نيتها قط الحاق جزر البحرين بممتلكاتها »

ويمثل بريطانيا فى البحرين معتمد يقيم فى جزيرة المنامة ويقبض رسميا على السلطة تشد ازره قوة من الجنود الانكليز يسمونهم الليفى وعددهم ١٥٠ جنديا يقودهم ضابط بريطانى وتدفع خزينة البحرين نفقاتهم

٧

الحسا

المعاهدة بين انكلترا وابن السعود

لم تنشأ علاقات سياسية مباشرة بين الامارة السعودية فى نجد و بين الانكليز فى خليج فارس لعدم وجود ساحل لها يقربها منهم

وتبدل الموقف فى سنة ١٩١٣ وعقب غارة عبد العزيز السعود على مقاطعة الحسا وكانت لاتزال تابعة للحكومة العثمانية فى العراق مغتنما فرصة ضعف الدولة وخروجها منهوكة القوى من الحرب البلقانية

وراى الترك ان مصلحتهم تقضى بان لايفتحوا بابا جديدا للشغب والشقاق فاسرعوا بالاعتراف بالامر الواقع واتفقوا مع ابن سعود على تعيينه متصرفا على الحسا ومنحه لقب باشا

وتعد مقاطعة الحسا من اجزاء الخليج الخصبة المهمة وتمتد حدودها من عمان وصحراء الجافورة حتى حدود الكويت وتشمل المدن الآتية :

القطيف وسيهات والعقير وجبيل وجزيرة جنة وجزيرة بوعلى والحبش وصفوة

ومد الانكليز بابصارهم الى المقاطعة الجديدة التى انسلخت عن الترك يبغون السيطرة عليها ، واخذوا ينصبون الشباك و يتحينون الفرص فتم لهم فى سنة ١٩١٥ اى بعد سنتين فقط ماارادوه فعقدوا مع ابن سعود المعاهدة الآتية :

بسم الله الرحمن الرحيم

بين الحكومة البريطانية من جهة و بين عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل

السعود امير نجد والحسا والقطيف وجبيل وجميع المدن والمرافئ التابعة لهذه المقاطعات من جهة اخرى

الحكومة البريطانية باسمها وعبد العزيز باسمه وباسم ورثته وخلفائه ورجال عشيرته ، عينت الحكومة البريطانية الكولونيل السر برسي كوكس معتمدها فى سواحل الخليج الفارسى مفوضا لاجل ان يعقد معاهدة مع عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود ضمن المقاصد الآتية :

توطيد وتوكيد الصداقة الموجودة بين الطرفين منذ زمن طويل وتأييد منافعهما المتقابلة : ان الكولونيل السر برسى كوكس وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود المعروف بابن السعود اتفقا وتعاقدا على المواد الآتية :

١ ـ ان الحكومة البريطانية تعترف بان نجدا والحسا والقطيف وجبيل وملحقاتها التى تعين هنا ، والمرافئ التابعة لها على سواحل خليج فارس ، كل هذه المقاطعات هى تابعة للامير ابن سعود وآبائه من قبل وهى تعترف بان ابن سعود حاكم مستقل على هذه الاراضى ، ورئيسا مطلقا على جميع القبائل الموجودة فيها ، وتعترف لاولاده واعقابه الوارثين من بعده على ان يكون خليفته منتخبا من قبل الامير الحاكم وان لا يكون مخاصما لانكلترا بوجه من الوجوه ، اى انه يجب ان لا يكون ضد المبادئ التى قبلت فى هذه المعاهدة

٢ ـ اذا تجاوزت احدى الدول على اراضى ابن سعود او اعقابه من بعده دون اعلام الحكومة البريطانية ودون ان تمنح الوقت المناسب للمخابرة مع ابن سعود لاجل تسوية الخلاف فالحكومة البريطانية تعاون ابن سعود ضد هذه الحكومة ، وفى مثل هذه الظروف يمكن للحكومة البريطانية بمساعدة ابن سعود ان تتخذ تدابير شديدة لاجل محافظته وحماية منافعه

٣ ـ يتعهد ابن سعود ان يمتنع عن كل مخابرة او اتفاق او معاهدة مع اية حكومة او دولة اجنبية ، وعلاوة على ذلك فانه يتعهد باعلام الحكومة عن كل تعرض او تجاوز يقع من قبل حكومة اخرى على الاراضى التى ذكرت آنفا

٤ ـ يتعهد ابن سعود بصورة قطعية ان لايتخلى ولا يبيع ولا يرهن ولا بصورة من الصور يقبل ترك قطعة او التخلى عن الاراضى التى ذكرت آنفا ، ولا يمنح امتيازا فى تلك الاراضى لدولة اجنبية او لتبعة دولة اجنبية دون رضاء الحكومة البريطانية وان يتبع نصائحها التى لاتضر بمصالحه

٥ ـ يتعهد ابن سعود بان يبقى الطرق المؤدية الى الاماكن المقدسة مفتوحة وان يحافظ على الحجاج فى اثناء ذهابهم الى الاماكن المقدسة ورجوعهم منها

٦ ـ يتعهد ابن سعود كما تعهد والده من قبل بان يمتنع عن كل تجاوز وتداخل فى ارض الكويت والبحرين واراضى مشايخ قطر وعمان وسواحلها وكل المشايخ الذين تحت حماية انكلترا والذين لهم معاهدات معها

٧ ـ الحكومة البريطانية وابن سعود يتفقان فيما بعد بمعاهدة على التفصيلات التى تتعلق بهذه المعاهدة

حرر يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٩١٥

الغاء هذه المعاهدة

ولما تم لابن سعود فتح الحجاز ونودى به ملكا عليه يوم ٨ يناير سنة ١٩٢٦ كتب الى الحكومة البريطانية يطلب الغاء معاهدة سنة ١٩١٥ لانها ماعادت تتفق مع مابلغه ووصل اليه و يقترح عقد معاهدة جديدة تحل محلها وتنظم علاقات الحكومتين على اساس مقبول فانتدبت انكلترا مندوبا (السر جلبرت كليتن) فسافر الى جدة وفاوض الملك وانتهت هذه المفاوضة يوم ٢٠ مايو سنة ١٩٢٧ بتوقيع المعاهدة الآتية :

« جلالة ملك بريطانيا وارلندا والممتلكات البريطانية وراء البحار وامبراطور الهند من جهة ، وجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها من جهة اخرى، رغبة فى توطيد

العلاقات الودية السائدة بينهما وتوثيقها وتأمين مصالحهما وتقويتها، قد عزما على عقد معاهدة صداقة وحسن تفاهم ولذلك اوفد صاحب الجلالة البريطانية حضرة السر جلبرت مكنجهام كليتن مندوبا مفوضا عنه وانتدب صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها صاحب السمو الامير فيصل عبد العزيز نجله ونائبه فى الحجاز مندوبا مفوضا عنه

بناء على ماتقدم و بعد الاطلاع على مستندات اعتمادهما والتثبت من صحتها قد اتفق سمو الامير فيصل بن عبد العزيز وحضرة السر جلبرت كليتن على المواد الآتية :

١ – يعترف صاحب الجلالة البريطانية بالاستقلال المطلق لممالك حضرة صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها

٢ – يسود السلم والصداقة بين صاحب الجلالة البريطانية وصاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها و يتعهد كل من الفريقين المتعاقدين ان يحافظ على حسن العلاقات مع الفريق الآخر وان يسعى بكل مالديه من الوسائل لمنع استعمال بلاده قاعدة للاعمال غير المشروعة الموجهة ضد السلام والسكينة فى بلاد الفريق الآخر

٣ – يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بتسهيل اداء فريضة الحج لجميع الرعايا البريطانيين والاشخاص المحتمين بالحماية البريطانية اسوة بسائر الحجاج و يعلن صاحب الجلالة الملك انهم يكونون آمنين على اموالهم فى اثناء اقامتهم فى الحجاز

٤ – يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بتسليم مخلفات من يتوفى من الحجاج المذكورين آنفا والذين ليس لهم فى بلاد جلالته اوصياء شرعيون للمعتمد البريطانى فى جدة او من يندبه لذلك الغرض لايصالها لورثة الحاج المتوفى المستحقين بشرط ان لا يكون تسليم تلك المخلفات الى الممثل البريطانى الا بعد ان تتم المعاملات بشأنها امام المحاكم المختصة وتستوفى عليها الرسوم المقررة فى القوانين الحجازية النجدية

٥ ـ يعترف صاحب الجلالة البريطانية بالجنسية الحجازية النجدية لجميع رعايا صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها عند مايوجدون فى بلاده او فى البلاد المشمولة بحماية جلالته ، وكذلك يعترف صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بالجنسية البريطانية لجميع رعايا جلالته ولجميع الاشخاص المحتمين بحماية جلالته عند مايوجدون فى بلاده ، على ان تراعى قواعد القانون الدولى المرعى بين الحكومات المستقلة

٦ ـ يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بالمحافظة على علاقات حسن الجوار مع الكويت والبحرين ومشايخ قطر والساحل العمانى الذين لهم معاهدة خاصة مع حكومة صاحب الجلالة البريطانية

٧ ـ يتعهد صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها بان يتعاون بكل مالديه من الوسائل مع صاحب الجلالة البريطانية للقضاء على الاتجار بالرقيق

٨ ـ على الفريقين المتعاقدين ابرام هذه المعاهدة ، وتبادل قرارات الابرام باقرب وقت ، وتصير نافذة اعتبارا من تاريخ قرارات الابرام ، ويعمل بها مدة سبع سنوات ابتداء من ذلك التاريخ ، وان لم يعلن احد الفريقين المتعاقدين الفريق الآخر قبل انتهاء السنوات السبع بستة اشهر انه يريد ابطال المعاهدة تبقى نافذة ولا تعتبر باطلة الا بعد مضى ستة اشهر من اليوم الذى يعلن فيه احد الفريقين الفريق الآخر ابطالها

٩ ـ تعتبر المعاهدة المعقودة بين صاحب الجلالة البريطانية وصاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتها يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٩١٥ يوم كان جلالته حاكما لنجد وما كان ملحقا بها اذ ذاك ملغاة ابتداء من تاريخ ابرام المعاهدة

١٠ ـ دونت هذه المعاهدة باللغتين العربية والانكليزية وللغتين قيمة واحدة ، اما اذا وقع خلاف فى تفسير قسم منها فيرجع الى النص الانكليزى

١١ ـ تعرف هذه المعاهدة بمعاهدة جدة

وقعت هذه المعاهدة فى جدة يوم ٢٧ ذى القعدة سنة ١٣٤٥ الموافق ٢٠ مايو سنة ١٩٢٧ وتعرف بمعاهدة جدة

وللمعاهدة ملاحق اربعة تختص بمعاملة الرقيق و بشراء الاسلحة و بالوضع القائم فى العقبة ومعان و بمعاملة الحجاج

ولا تزال احكامها نافذة حتى الآن



صاحب السمو امير الكويت احمد الجابر

٨

الكويت

تكون امارة الكويت نصف دائرة على الساحل الغربى من رأس الخليج وتقع جنوبى العراق ، وشمالى الحسا (نجد) وتمتد حدودها الشمالية من ام قصر الى سفوان مارة قرب جبل سنام الى الباطن ، اما الحدود الغربية فتتبع الباطن الى قرب الحفر حيث تتصل بالحدود العراقية النجدية ومن هنالك تتجه الى الجنوب الغربى حيث تتصل ايضا بالحدود النجدية و يبلغ طولها من الشمال الى الجنوب نحو ١٨٠ ميلا ومن الشرق الى الغرب نحو ٢٥ ميلا

واتجهت الانظار فى اواخر القرن الماضى الى الكويت حينما ظهر مشروع سكة حديد بغداد الى الوجود وقيل انها ستكون منتهاه ، وحينما قام الروس والالمان ينافسون الانكليز فى خليج فارس و يحاولون الحلول محلهم

ووقع فى تلك الفترة شقاق بين الاسرة الحاكمة فى الكويت فلجأ بعضهم الى الدولة العثمانية فى البصرة طالبا تدخلها فعينت الشيخ مبارك الصباح (شيخ الكويت يومئذ وجد سمو الامير الحالى) عضوا فى شورى الدولة بالاستانة وارسلت بارجة لنقله الى عاصمتها

واسرع الشيخ فعقد معاهدة يوم ٢٣ يناير سنة ١٨٩٩ مع الانكليز جاء فيها « ان الكويت تظل صديقة دائمة لانكلترا التى تتعهد بحماية مصالحها (الكويت) فى الخارج وتدافع عنها ، مع احتفاظها بالاستقلال التام فى شؤونها الداخلية » وهكذا قضى على المشروع التركى واعاد الانكليز البارجة التركية ولم يسمحوا لها بدخول الكويت

ولم يعترف الباب العالى بما وقع وانكره فلم يؤثر انكاره ، وعينت انكلترا فى سنة ١٩٠٣ معتمدا سياسيا لها فى الكويت فقابل الترك ذلك بالاحتجاج على انهم عادوا بعد ذلك فتنازلوا بموجب المعاهدة المعقودة بينهم و بين انكلترا فى لندن يوم ٢٩ يوليو سنة ١٩١٣ عن سيادتهم على الكويت وتعهدوا بأن لايجندوا احدا من ابنائها النازلين فى العراق ولا يأخذوا من صيادبها رسوما

ولم يطرأ اى تبديل على حالة الكويت السياسية و يمثل بريطانيا فيها معتمد سياسى ليس له اى تدخل فى شؤونها و يتمتع سمو شيخها بالاستقلال التام فى الادارة الداخلية وتتمتع بلاده فى ظله بالهدوء التام

الاستيلاء على العراق

١

نظرة تاريخية

كان الاستيلاء على العراق وضمه الى املاك التاج البريطانى مما نص عليه فى البرنامج الخاص بطريق الهند ، لانه اقرب الطريق اليها ولاتصاله بخليج فارس وفيه مفتاحه الشمالى

وواصل الانكليز السعى منذ مارسخت اقدامهم فى الهند للاستيلاء على العراق وامتلاكه ، متذرعين لذلك بشتى الذرائع من اقتصادية وتجارية وسياسية كما اتصلوا بشيوخ العراق وعائلاته الكبرى واسره الممتازة واحكموا الود معها واتجروا بالاسلحة ووزعوها وفعلوا كل ما اعتقدوا انه يزيد فى نفوذهم ، ويسهل اسباب استيلائهم ، يضاف الى ذلك جهودهم السلبية الاخرى القائمة على اضعاف نفوذ الحكومة العثمانية المسيطرة على البلاد واظهارها بمظهر العاجز المجرد من كل حول وطول ، وتشويه سمعتها واغراء الرعية بها ، ولم يقصر القناصل ولا الموظفون الانكليز الذين كانوا منتشرين فى الخليج وفى العراق من هذه الناحية تحت سمع موظفى الترك و بصرهم

ورأى الانكليز فى دخول الدولة العثمانية الحرب العظمى الى جانب المانيا افضل وسيلة لتحقيق آمالهم فاصدروا امرا الى الحملة العسكرية التى حشدوها فى البحرين استعدادا للطوارىء بالزحف الى العراق فسارت الى البصرة على جناح السرعة

واول قوة انكليزية وصلت الى العراق هى الحملة التى قادها الجنرال دولماين فقد بلغت (مصب شط العرب) صباح ٣ نوفمبر سنة ١٩١٤ اى بعد دخول تركيا

الحرب بمدة قليلة فاستولت على مراكز الترك يوم ٧ منه وانزلت قواها بعد مقاومة طفيفة . ثم تقدمت فاستولت على البصرة يوم ٢٣ منه

واحتشد الترك بعد سقوط البصرة فى جوار الشطرة وقرروا الدفاع عنها وجاءوا ببعض قوات كانت لهم هنالك

وفى يوم ٣ ديسمبر تحركت طلائع الجيش البريطانى الى القرنة (محل اجتماع نهر دجلة بنهر الفرات) وسار الجيش على اثرها يوم ٦ منه فاستولى عليها بعد مقاومة وسلم صبحى بك قائد فرقة البصرة وواليها سلاحه مع ضباطه وجنوده للانكليز بدون قيد ولا شرط فارسلوا الى الهند

وزحف الانكليز يوم اول يناير سنة ١٩١٥ للاستطلاع فى شمالى عران ثم ارتدوا الى القرنة واستأنفوا الزحف فى ٢٠ منه فتقدموا الى المزيرعة على ضفة دجلة اليمنى فصدمهم الترك فدارت معركة بين الفريقين انتهت بارتداد الانكليز بعد ما جرح قائد الترك العام وتحول الموقف بعد هذه المعركة و بعد التدابير العسكرية التى اتخذها الترك الذين تلقوا نجدات جديدة فصاروا مهاجمين بعد ما كانوا مدافعين

ودارت معارك عنيفة بين الفريقين فى هذا الميدان كانت معركة الشعيبة يوم ٤ ابريل اعظمها شأنا فقد حمل الترك حملة عنيفة على معسكر البريطانيين فثبت هؤلاء ودحروا المهاجمين وردوهم واخذوا منهم ثلاثة آلاف اسير ، فلجأ الفارون من بقايا الجيش التركى الى الناصرية

وواصل الانكليز تقدمهم فاستولوا على العمارة واسروا قائد الترك العام الجديد كما احتلوا الناصرية بعد معركة عنيفة . ثم اشتبك الفريقان فى معركة حامية يوم ٢٧ سبتمبر فى مكان اسمه «السن» فدارت الدائرة على الترك فتراجعوا الى خط الدفاع الذى انشأوه قرب سلمان باك - طيسفون للدفاع عن بغداد وتقدم الانكليز من الكوت الى سلمان باك فدارت معركة بين الجيشين يوم ٢١ نوفمبر فاز الانكليز فى ابتدائها وهزموا فى ختامها فقد وصلت والمعركة دائرة نجدات للترك

فرجحت كفتهم فبدأ الانكليز ليلة ٢٢ منه بالتراجع وارتدوا حتى الكوت (كوت الامارة) فلحق بهم الترك وضربوا الحصار عليهم وكانت عدتهم ١٣٥٠٠ جنديا عدا الضباط

وسعى الانكليز كثيرا لانقاذ جيشهم المحصور فاخفقوا ونفد ماعنده من ميرة واشتدت عليه المجاعة فسلم للترك يوم ٢٩ ابريل سنة ١٩١٦ بعد ما اتلف سلاحه ومعداته

واعد الانكليز حملة جديدة فى البصرة عدتها ٤٠ الف مقاتل بقيادة الجنرال مود واصلت التقدم حتى امام محمد فهاجمت مواقع الترك يوم ٩ يناير سنة ١٩١٧ فاستولت عليها بعد قتال عنيف ثم سارت حتى سلمان باك فاستولت عليها يوم ٦ مارس ومنها زحفت الى بغداد فدخلتها فجر ١١ مارس سنة ١٩١٧ واستأنف الانكليز الزحف الى الشمال بعد راحة غير طويلة فاحتلوا سامراء (شمالى بغداد) يوم ٢٢ ابريل ثم زحفوا الى شرقاط فاستولوا عليها وعلى البلاليج والجرناف ووصلوا التقدم حتى ابواب الموصل فاسرع الترك بالجلاء عنها

وعقدت الهدنة بين الحلفاء والترك يوم ٣٠ اكتوبر سنة ١٩١٨ اى قبل دخول الانكليز الموصل فعاد قوادهم ورجالهم اليها وفى يوم ٢ نوفمبر انذر الانكليز قائد الجيش التركى بوجوب الجلاء فغادرها يوم ٥ منه الى نصيبين تحرسه المدرعات البريطانية خوف اللصوص فى الطريق وفى يوم ١٢ منه تم انشاء الحكومة العسكرية الجديدة فى الموصل

وارسل الانكليز قوات اخرى الى شرقى العراق استولت على كركوك والسليمانية والبلاد المجاورة لهما . كما ارسلوا قوات اخرى استولت على مقاطعة الرمادى فى غربى العراق وهكذا تم لهم الاستيلاء على هذا القطر من اقصاه الى اقصاه بعد حروب استمرت نحو اربع سنوات

٢

الانتداب البريطانى للعراق

....

نشر الانكليز فى خلال حروبهم الطويلة مع الترك منشورات عديدة فى العراق قالوا فيها انهم جاءوا محررين ومنقذين لا فاتحين ولا مستعمرين وانهم سيساعدون العرب فى احياء مجدهم وانشاء دولتهم ، و بشروا باتفاقهم مع الملك حسين وتحالفهم معه

وتناسى الانكليز بعد انتصارهم الحاسم على الترك واستيلائهم على العراق وعودهم للعرب وعملوا على ترسيخ اقدامهم وتعزيز نفوذهم ، وانشأوا نظام حكم عسكرى استعمارى يعد من اقسى الانظمة واسوأها ، فاقاموا فى كل مدينة من المدن العراقية الكبرى والمتوسطة حاكما عسكريا برتبة يوز باشى (كبتن) او بكباشى (ميجر) يحكمها حكما كيفيا اداريا و يرجع فى شؤونه الى حاكم بغداد العام وهو عسكرى برتبة كولونيل ، وكان معظم هؤلاء الضباط (الحكام) من الذين سبق لهم العمل فى المستعمرات السحيقة او الهند فنشأوا على احتقار الشعب الذى يحكمونه وازدرائه

ونهض العراقيون فى كل بلد من بلدانهم يطالبون الانكليز بتحقيق وعودهم الخاصة لهم ووعودهم العامة المقطوعة للحسين باسم العرب و يلحون بانشاء حكومة عربية مستقلة فى بلادهم و يقولون انهم لايبغون عن الاستقلال بديلا

واستخف الانكليز بارادة الشعب العراقى وظنوا ان فى استطاعتهم تطبيق خططهم بالقوة وعملا بالاتفاق المعقود بينهم و بين فرنسا لاقتسام بلاد العرب (معاهدة سايكس ـ بيكو) استصدروا من مجلس الحلفاء الاعلى يوم ٢٥ ابريل سنة ١٩٢٠

قرارا بانتداب انكلترا للعراق وفلسطين مقابل انتداب فرنسا للشام وهذا هو نص صك الانتداب للعراق وقد اقره مجلس جامعة الامم يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢ :

عملا بالمادة ١٣٢ من معاهدة الصلح الموقع عليها فى سيفر يوم ١٠ اغسطس سنة ١٩٢٠ وقد تنازلت بموجبها تركيا عن كل حقوقها وتملكها فى العراق الى دول الحلفاء الكبرى ، وعملا بالمادة ٩٤ من معاهدة فرساى وقد قررت بموجبها هذه الدول وفقا للفقرة الرابعة من المادة ٢٢ من الفصل الاول (ميثاق جامعة الامم) ان تعترف بالعراق دولة مستقلة بشرط قبولها المشورة الادارية والمساعدة من قبل دولة منتدبة الى ان تصبح قادرة على القيام بنفسها ، وعلى ان تختار الدول المتحالفة دولة منتدبة لها ، وحيث ان الدول المتحالفة الكبرى قد اختارت صاحب الجلالة البريطانية منتدبا من قبلها على العراق وحيث ان شروط الانتداب ابلغت الى جامعة الامم للمصادقة عليها وحيث ان صاحب الجلالة البريطانية قبل ان يكون منتدبا على البلاد المذكورة وتعهد بذلك بالنيابة عن جامعة الامم طبقا للمواد الآتية لجامعة الامم توافق على صك الانتداب كما يأتى :

المادة الاولى — على الدولة المنتدبة ان تضع فى اقرب وقت وعلى ان لايتجاوز ثلاث سنوات من تاريخ تنفيذ الانتداب قانونا اساسيا للعراق يعرض على مجلس جامعة الامم للمصادقة عليه وينشر سريعا ، وهذا القانون يسن بمشورة الحكومة الوطنية ويبين حقوق الاهالى الساكنين ضمن البلاد ومنافعهم ورغائبهم ويحتوى على مواد تسهل تدرج العراق وتقدمه كدولة مستقلة وتجرى الادارة فى العراق طبقا لروح الانتداب قبل تنفيذ القانون الاساسى

المادة الثانية — يحق للدولة المنتدبة ان تضع قوة عسكرية فى البلاد الواقعة تحت الانتداب بقصد الدفاع عنها والى ان ينفذ القانون الاساسى ويوطد الامن العام ، يحق لها ان تؤلف جيشا محليا لتأييد الامن والدفاع عن البلاد يجند من الاهلين القاطنين فى البلاد فقط ، ويكون هذا الجيش مسؤولا لدى الحكومة المحلية وخاضعا للسلطة التى

تتولاها الدولة المنتدبة ، ولا يجوز للحكومة العراقية ان تستخدم هذا الجيش فى سبيل آخر غير ماذكر آنفا الا بموافقة الدولة المنتدبة ، وليس هنالك مانع يمنع الحكومة العراقية من الاشتراك فى نفقات كل جيش تقيمه الدولة المنتدبة ، ويحق لهذه استعمال الطرق والسكك الحديدية والمراسى العراقية لنقل القوات المسلحة والوقود والميرة

المادة الثالثة ـ تتولى الدولة المنتدبة ادارة علاقات العراق الخارجية ويكون لها حق اصدار التفويض للقناصل الذين تعينهم الدول الاجنبية وكذلك يكون لها حق الحماية السياسية والقنصلية على الرعايا العراقيين فى الخارج

المادة الرابعة ـ الدولة المنتدبة مسؤلة عن المحافظة على الاراضى العراقية فلا تتنازل عنها ولا تؤجرها ولا تضعها تحت سلطة اية دولة اجنبية

المادة الخامسة ـ تلغى الامتيازات الاجنبية فى العراق وتلغى الحماية التى كان الاجانب يتمتعون بها نظاما او عرفا فى ايام الحكومة العثمانية مدة دوام هذا الانتداب

المادة السادسة ـ على الدولة المنتدبة ان تنشئ فى العراق نظاما قضائيا يضمن :

١ ـ مصالح الاجانب

٢ ـ القانون

٣ ـ الاختصاص الشرعى المرعى الآن ـ بقدر الامكان ـ وذلك فيما يتعلق بالعقائد الدينية عند بعض الطوائف كنظام الاوقاف والامور الشخصية

وتوافق الدولة المنتدبة على ان الاشراف على الاوقاف وادارتها يجريان طبقا للشريعة وارادة الواقفين

المادة السابعة ـ تضمن الدولة المنتدبة للجميع حرية الاعتقادات وحرية العبادات فى جميع هيئاتها واشكالها بشرط ان لايخل ذلك بالامن العام والآداب ولا تميز فئة على اخرى بسبب جنسية او دين او لغة . وتشجع الدولة المنتدبة التعليم بلغات العراق الوطنية وتساعد الطوائف على التعليم بلغاتها الخاصة على ان ينطبق ذلك على مقتضيات التعليم التى ترسمها الحكومة

المادة الثامنة ـ لايجوز ان يفسر شيء مما تقدم فى هذا الصك بانه يمنح الدولة المنتدبة حق التدخل فى مبانى او ادارة المعاهد المقدسة التى تظل بعيدة عن كل تدخل

المادة التاسعة ـ تراقب الدولة المنتدبة اعمال المبشرين فى العراق حسبما تقضى به الحاجة لتوطيد الامن العام وحسن ادارة الحكومة ، وما عدا ذلك فلا تتخذ وسيلة لمعارضة اعمال المبشرين او التدخل فيها ولا يميز بين ارسالية وغيرها من الارساليات بسبب مذهب او جنسية

المادة العاشرة ـ لاتميز الدولة المنتدبة بين رعايا دولة من الدول الداخلة فى جامعة الامم (ويشمل ذلك الشركات المؤلفة طبقا لانظمة تلك الدول) ولا تفرق بينها فى كل مايختص بالضرائب والتجارة والصناعات والفنون او فى معاملة البواخر التجارية والطائرات المدنية

وكذلك فلا يميز فى العراق بين البضائع الصادرة الى دولة ما او البضائع الواردة من بلاد دولة ما وتضمن حرية النقل فى جميع الانحاء بشروط عادلة ، وفيما عدا ذلك فان لحكومة العراق الحق ، بعد استشارة الدولة المنتدبة ، بان تفرض الضرائب وتضع الرسوم الجمركية ، وان تتخذ افضل الوسائل لاستغلال موارد البلاد الطبيعية وضمان مصالح السكان ، ولا شيء هنالك يحول بين الحكومة العراقية ، بعد استشارة الدولة المنتدبة من عقد اى اتفاق جمركى مع اية دولة كانت قبل سنة ١٩١٤ فى تركيا اسيا او جزيرة العرب

المادة الحادية عشرة ـ توافق الدولة المنتدبة بالنيابة عن الحكومة العراقية مقدما على الاتفاقات الدولية المعقودة او التى ستعقد فى المستقبل تحت رعاية جامعة الامم لمقاومة الرقيق او تجارة الاسلحة او المخدرات او للمساواة التجارية او حرية النقل والملاحة والملاحة الجوية والسكك الحديدية والبرق واللاسلكى والاختراعات وحقوق المؤلفين والفنيين

المادة الثانية عشرة ـ تتعهد الدولة المنتدبة بان تساعد بقدر ماتسمح به

الاحوال الدينية والاجتماعية ، فى تنفيذ السياسة العـامة التى تتخذها جامعة الامم لمنع الامراض ومحاربتها بما فيها امراض النبات والحيوان

المادة الثالثة عشرة ـ تتعهد الدولة المنتدبة بان تسن فى خـلال ١٢ شهرا من تاريخ وضع هذا الصك موضع التطبيق نظاما للآثار القديمة وذلك طبقا للمادة ٤٢١ من الفصل الثالث عشر من المعاهدة التركية بدلا من نظام الآثار القديمة التركى ، على ان يضمن النظام الجديد المساواة فى كل ما له صلة بالتنقيب عن الآثار بين رعايا الدول الداخلة فى جامعة الامم

المادة الخامسة عشرة ـ ليس فى هـذا الصك مايحول بين الدولة المنتدبة و بين انشاء حكومة ادارية مستقلة فى المقاطعات الـكردية طبقا لمـا يلوح لها

المادة السادسة عشرة ـ تضع الدولة المنتدبة فى كل سنة تقريرا مفصلا عن سير الانتـداب وعن الاعمال التى عملت فى خلال السـنة ويرفق بنسخ عن جميع الانظمة والتعليمات التى صدرت فى خلال تلك السنة

المادة السابعة عشرة ـ لابد من موافقة جامعة الامم على ادخال كل تعديل على هذا الصك ويشترط ان يتم ذلك باكثرية ثلثى اراء المجلس اذا اقترحت الدولة المنتدبة ذلك كتابة

المادة الثامنة عشرة ـ اذا وقع خـلاف بين اعضاء جامعة الامم على تفسير او تطبيق مادة من مواد هـذا الصك يرفع الامر الى محكمة العدل الدائمة فى الهاى وهى المحـكمة المؤلفة طبقا للمادة ١٤ من عهد الجامعة

المادة التاسعة عشرة ـ يتخذ مجلس جامعة الامم عنـد انتهاء هـذا الانتداب التدابير اللازمة لجعل الحـكومة العراقية تحت كفالة جامعة الامم على ان تدفع للدولة المنتدبة جميع النفقات القانونية التى انفقتها مع حقوق الموظفين بالمـكافأة والتقاعد

تحفظ هـذه النسخة فى سجل جامعة الامم وترسل سكرتيرية الجامعة صورة رسمية عنها الى جميع الدول الموقعة على معاهدة الصلح مع تركيا

٣

ثورة العراق على الانكليز

استنفد العراقيون جميع الوسائل السلمية لحمل الانكليز على الوفاء بالعهود التى قطعوها لهم خاصة وللعرب عامة وسعوا سعيا حثيثا للتفاهم معهم وا كثروا من ارسال الوفود وتقديم المذكرات فلم يؤثر ذلك فى نفوس الانكليز ولم يحملهم على تعديل شىء من خططهم واساليبهم اذا لم نقل انهم زادوا الشعب العراقى ارهاقا واضطهادا ، وكان وضع بلاده تحت الانتداب البريطانى آخر سهم راشوه من كنانتهم فادرك العراقيون انه لاامل ولا رجاء الا فى الثورة والانتقاض

واعدت معدات الثورة و بدرت بوادرها فى الشمال (الموصل) وفى الجنوب (الفرات) ونادى مناديها يوم ٣٠ يونيو سنة ١٩٢٠ اى بعد اقرار صك الانتداب البريطانى للعراق بشهرين وخمسة ايام وقام سوقها فى ميدان الفرات وفى ديالى وفى مناطق اخرى واستمرت خمسة اشهر وانتهت فى اواخر شهر نوفمبر من تلك السنة بعد ما تعهد الانكليز بانشاء دولة عربية فى العراق برئاسة شريف عربى يختاره الشعب العراقى

ولقد فصلنا اخبار الثورة العراقية تفصيلا وافيا ، ونشرنا وثائقها وصور زعمائها و بعض مناظرها فى القسم الثانى من الجزء الثانى من كتابنا الثورة العربية الكبرى فليرجع اليه من يشاء التوسع فى دراستها فهى مفخرة من مفاخر العرب وصفحة من صفحات تاريخهم الذهبى

٤

الدولة العراقية الجديدة

تأسست الدولة العربيـة الجديدة فى بغداد يوم ٢٣ اغسطس سـنة ١٩٢١ ففى هـذا اليوم نودى بها وتوج جلالة الملك فيصل بن الحسين ملكا عليها بارادة الشعب العراقى الذى اختاره ملكا دستوريا

وانشأ جلالته حكومة دستورية برلمانية وعقد فى سنة ١٩٢٢ معاهدة نظم بها صلات العراق السياسية مع الانكليز وعدلت هذه المعاهدة غير مرة وكان آخرها يوم ٣٠ يونيو سنة ١٩٣٠

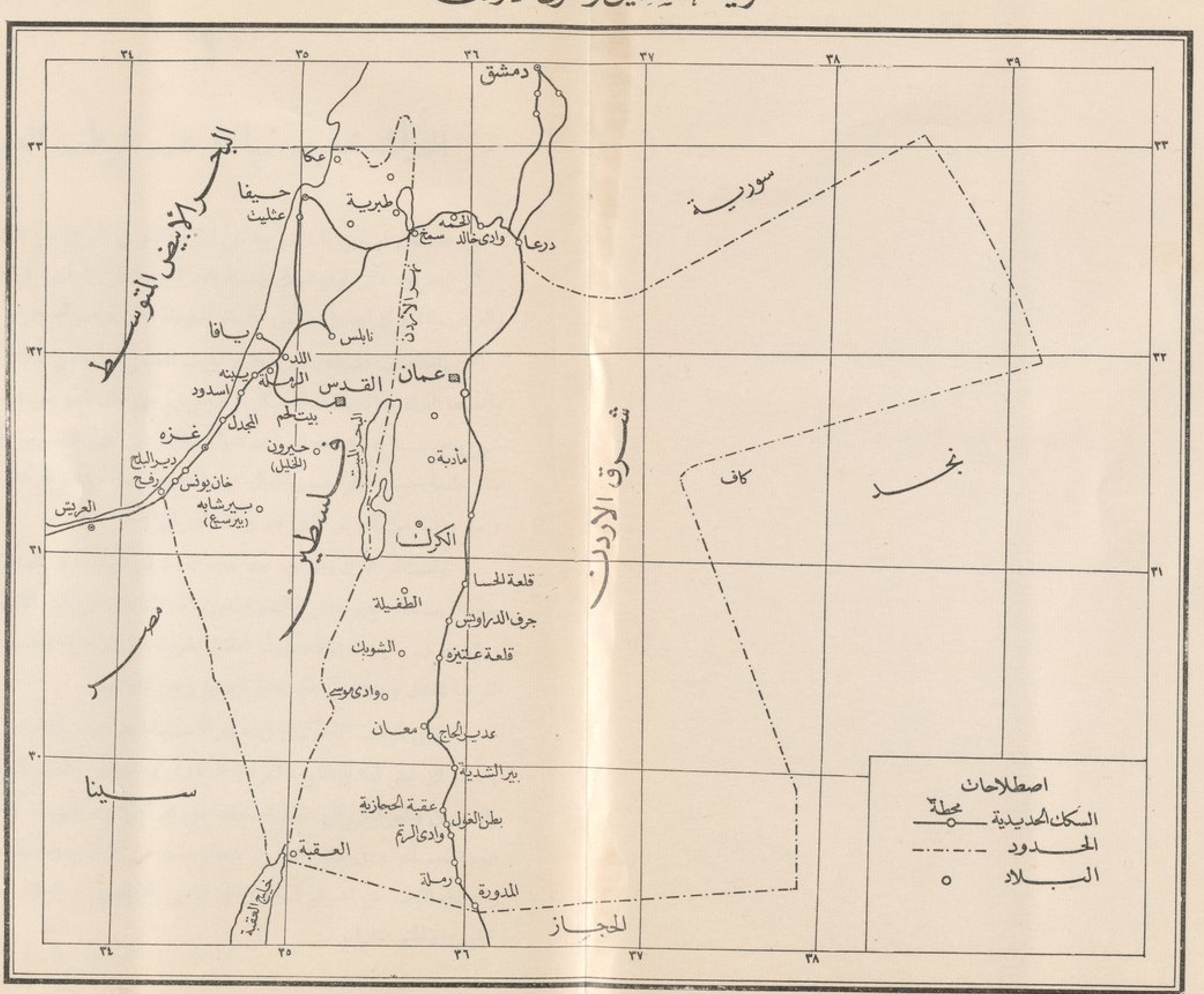
وتم فى يوم ٣ اكتوبر سنة ١٩٣٢ دخول العراق عضوا فى جامعة الامم فكان ذلك ايذانا بحصوله على الاستقلال التام اذ يشترط فى الدول الداخلة فى هذه الجامعة ان تكون متمتعة بالاستقلال

والعراق هو القطر العربى الوحيد الذى استطاع الافلات من مخالب الاسد البريطانى بعد ما انشبها فيه وذلك بفضل اخلاص ابنائه وهو يسير قدما فى طريق التقدم والرقى وقد قطع خطوات واسعة وانشأ دولة تعد من افضل دول العرب فى الشرق اليوم مما جاء برهانا على حسن استعداد العربى وعلى انه لايقل عن ابناء الشعوب الاخرى المجاورة له ذكاء وكفاءة بل ربما سبقها وبزها متى فك عقاله وازيلت العقبات من طريقه

وسنعود الى الكلام على الثورة العراقية والدولة العربيـة الجديدة فى العراق فى الجزء الثالث من هذا الكتاب فنبسطها بقدر مايتسع المقام فهى عنوان النهضة القومية الجديدة فى بلاد العرب واحدى ثمراتها المباركة

الاستيلاء على فلسطين

خريطة فلسطين وشرق الاردن



١

الترك يجلون نهائيا عن الوطن العربي

فلسطين او سورية الجنوبية هي الجزء الجنوبي الغربي من بلاد الشام وتتمتع بمركز جغرافي ممتاز لوقوعها في وسط بلاد العرب تقريبا فهي بين مصر والحجاز والعراق والشام كما انها على شاطىء البحر المتوسط وعلى سيف الصحراء

ولقد ظلت فلسطين حتى اعلان الحرب العظمى جزءا من املاك الدولة العثمانية واتخذها الترك والالمان قاعدة عسكرية لهجومهم على قنال السويس فزحفوا منها في شهر يناير سنة ١٩١٥ بقيادة احمد جمال باشا طاغية الترك المشهور وقابلهم الانكليز بنار حامية حينما حاولوا عبور القنال يوم ٢ فبراير سنة ١٩١٥ فارتدوا على اعقابهم ، واسر جانب من الفريق الذي عبر ومات الفريق الآخر

واستقر الترك والالمان بعد هذه الغارة غير الموفقة في الصحراء الشرقية او صحراء سيناء بين مصر والشام يشنون الغارات على مراكز الانكليز العسكرية ويزعجونهم . وجلا هؤلاء منذ اعلان الحرب عن الصحراء وخندقوا وراء الضفة الغربية للقنال وجعلوا من الماء حاجزا بينهم و بين اعدائهم

وظل الموقف العسكري في صحراء سيناء على هذه الحال حتى اواسط سنة ١٩١٦ اي حتى اعلان الثورة العربية الكبرى في الحجاز وانضمام العرب الحجازيين والشاميين والعراقيين الى الحلفاء تخلصا من نير الترك وعسفهم ، وقد جازوهم على اخلاصهم لهم ، في تلك الحرب ، باعدام عدد من كبرائهم ومفكريهم وشبانهم ، واقصاء المئات من اسرهم الكبرى الى اقاصي الاناضول ، واحلال مهاجري الارمن محلهم وانزالهم منازلهم

وشرع الانكليز بالهجوم على مراكز الترك فى الصحراء بعد ماحالفوا العرب وضمنوا تأييدهم فى تلك الحرب الضروس فساروا من القنال موغلين شرقا لطرد الترك من الشام

وبينما كان الانكليز يهاجمون مراكز الترك العسكرية فى الصحراء و يستولون عليها الواحد بعد الآخر كان الجيش العربى الفتى يهاجم مراكز الترك العسكرية على طول سكة حديد الحجاز ثم تقدم الى ثغر العقبة فاستولى عليه واتخذه قاعدة لاعماله العسكرية فى جنوبى بلاد الشام الشرقية وهاجم الكرك والطفيلة وظهر على ساحل البحر الميت وعلى ابواب الشام وانتهى هذا الدور باستيلاء الجيش الانكليزى على القدس يوم ٩ ديسمبر سنة ١٩١٧ وارتداد الترك الى خط اللبن على طريق نابلس والى قلقيلة - طولكرم على طريق حيفا - يافا والى اريحا على طريق السلط

وكانت الاعمال العسكرية التى عملت فى المرحلة الثانية اقل واسهل فقد شرع الجيش البريطانى يوم ١٨ سبتمبر سنة ١٩١٨ بالهجوم على خطوط الترك الجديدة فاخترقها الواحد تلو الآخر وتقدم على ثلاثة طرق :

١ - طريق الساحل وقد زحف منه الى حيفا وصيدا و بيروت

٢ - طريق القدس - نابلس وقد زحف منه على نابلس وكانت لاتزال بايدى الترك فاستولى عليها وواصل تقدمه حتى سمخ ومنها الى درعا

٣ - طريق القدس - اريحا حيث عبر نهر الاردن واتجه شرقا الى السلط ثم سار شمالا الى عجلون ومنها الى درعا فانضم الى الجيش الذى جاء من سمخ

وكانت الخطة العسكرية التى وضعت لهذا الزحف الكبير بين هيئة اركان حرب الجيش العربى والجيش الانكليزى تقضى بان يتولى الاول الاعمال التمهيدية وان يقطع طرق مواصلات الترك و يعطلها بين حيفا ودرعا بنسف جسور سكة الحديد التى تفصل بينها و بين درعا ودمشق ، ودرعا وعمان وان يستولى على درعا نفسها (عاصمة

حوران الادارية اليوم وكانت ولا تزال من اعظم مراكز المواصلات لانها محل اجتماع قطارات سكة حديد الحجاز القادمة من دمشق ومن الحجاز ومن فلسطين وتبعد عن حيفا ١٣٤ كيلو مترا وعن دمشق ١٢٨ وعن عمان ٩٤ كيلو مترا) وقد قام هذا الجيش بما عهد اليه واداه على الوجه الاكمل فاستولى على درعا وعطل خطوط مواصلات الترك وتقدم الى دمشق فاستولى عليها يوم ٣٠ سبتمبر سنة ١٩١٨ وفى دمشق اجتمعت الجيوش العربية والبريطانية وواصل الجيش العربى الزحف شمالا فاستولى على حمص وحماه وحلب وقد انتزع الاخيرة انتزاعا من الترك بعد معركة دارت فى جنوبيها معهم وكانوا بقيادة مصطفى كمال باشا (اتاتورك) فارتدوا الى شماليها وعقدت الهدنة بعد خمسة ايام (٣٠ اكتوبر سنة ١٩١٨) فكان عقدها مؤذنا بانتهاء الاعمال العسكرية التى ضمنت للجيشين العربى والانكليزى الاستيلاء على المنطقة الممتدة من قنال السويس حتى شمالى حلب

ولما كانت احكام معاهدة الهدنة المعقودة بين الحلفاء والترك (معاهدة موندروس) تجيز للحلفاء احتلال اى بقعة ارادوها من بلاد الترك ، فقد تقدم الجيش البريطانى فاستولى على ولاية ادنه الواقعة شمالى حلب

وكان هنالك جيش بريطانى آخر يعمل فى العراق منذ ابتداء الحرب العظمى ، وكان قد استولى على ولايتى البصرة و بغداد و بلغ ابواب الموصل عند عقد الهدنة

واصدرت حكومة الاستانة بعد الهدنة امرا الى الجيش التركى المرابط فى اليمن وعسير بان يجلو عنها و يسلم البلاد لاهلها ففعل ، كما اصدرت امرا آخرا الى قائد المدينة المنورة وكان لايزال يرابط وراء اسوارها بان يسلمها للجيش العربى فسلمها وهكذا تم جلاء الترك نهائيا عن جميع اجزاء الوطن العربى فى ختام الحرب العظمى او فى سنة ١٣٣٨ هـ بعد ماقضوا ٤١٦ سنة فى ارجائه (٩٢٢ - ١٣٣٨) حكموه فى خلالها اسوأ حكم واوصلوه الى احط الدركات

٢

فلسطين بين العرب والانكليز واليهود

نشأت صلات مودة وصداقة بين الشعبين العربي والانكليزي في ابان الحرب العظمى ، فقاتل ابناؤهما جنبا الى جنب ، وفتح العرب قلوبهم للانكليز ووثقوا بهم وكانوا مسوقين الى ذلك بسائق فطرتهم الطبيعية التي لا تعرف الخداع والمداهنة والكذب والرياء

وبينما كانت الامور تسير على هذا المنوال وصلات المودة تزداد قوة ومتانة بين رجال الحرب ورجال السياسة كانت هنالك مفاوضات سرية تجرى بين وزارة الخارجية البريطانية وبين زعماء الجمعية الصهيونية لانتزاع فلسطين من العرب ومنحها لليهود مقابل اشتراكهم في قرض النصر البريطاني في سنة ١٩١٧ واكتتابهم فيه بمئة مليون جنيه

وانتهى هذا الدور يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ اى قبيل احتلال القدس باصدار وعد بلفور ، فكان اول اعتراف رسمي بالصهيونية السياسية ، وهو بشكل كتاب موجه من اللورد بلفور وزير الخارجية البريطانية الى اللورد روتشلد كبير اليهود وعظيمهم قال :

عزيزي اللورد

يسرني جدا ان ابلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك انها تنظر بعين الرضى والارتياح الى المشروع الذي يراد به ان ينشأ في فلسطين وطن قومي لشعب يهودي ، وتفرغ خير مساعيها لادراك هذا الغرض

« وليكن معلوما انه لايسمح باجراء شيء يلحق الضرر بالحقوق المدنية

والدينية التى للطوائف غير اليهودية الموجودة فى فلسطين الآن او فى الحقوق التى يتمتع بها اليهود فى البلدان الاخرى و بمركزهم السياسى فيها »

وسعى اليهود عند الحكومة الفرنسوية فاعترفت رسميا بالوطن القومى اليهودى وكذا اعترفت به ايطاليا والولايات المتحدة

وما كاد خبر هذا الوعد يتصل بالعرب حتى احتجوا عليه وانكروه وطالبوا بريطانيا بالعدول عنه لانه لايتفق وعهودها المقطوعة لهم بمساعدتهم فى انشاء دولة عربية مستقلة تكون فلسطين احدى مقاطعاتها فلم يلقوا سامعا واصرت انكلترا على تنفيذ ماتعهدت به لليهود متناسية جميع عهودها للعرب وما ذلك الا بسبب ضعفهم وتخاذلهم

٣

العرب ونظام الانتداب

الانتداب بدعة سياسية جديدة ابتدعتها الدول الكبرى عقب الحرب العظمى لستر نياتها الاستعمارية

واول صك دولى نص على انشاء الانتداب هو ميثاق جامعة الامم فقد جاء فى المادة ٢٢ منه مانصه :

« ان المستعمرات والبلدان التى قضت نتائج الحرب الاخيرة بخروجها عن سلطة الدول التى كانت تسيطر عليها فى الماضى والتى تسكنها شعوب لا تزال الى الآن غير قادرة على الوقوف منفردة فى معترك الحياة الجديدة يجب ان يطبق عليها المبدأ القاضى بوضع سعادة شعوبها وتقدمها وديعة مقدسة فى يد العالم المتمدن ، ويجب ان تدرج فى هذا العهد الضمانات على حسن القيام بهذه الوديعة ، والطريقة المثلى لطبيعة هذا المبدأ عمليا هو ان يعهد بالوصاية على هذه الشعوب الى الدول الراقية التى تمكنها مواردها المالية او اختباراتها او موقعها الجغرافى من القيام بهذه المسئولية افضل من غيرها وتكون مستعدة لقبول هذه المسئولية

وتتحقق هذه الوصاية من جامعة الامم بطريق الانتداب

وتحقق طبيعة هذه الوصاية باختلاف درجات هذه الشعوب فى التقدم وموقع البلاد الجغرافى واحوالها العمرانية وما اشبه من الظروف

وحيث ان بعض الشعوب الصغيرة التى كانت سابقا ضمن السلطنة العثمانية وصلت الى درجة من الرقى يمكن الاعتراف بها مبدئيا كشعوب مستقلة على ان تقدم لها المشورة او المساعدة الادارية من جانب احدى الدول المنتدبة ريثما يصبح فى استطاعتها الوقوف منفردة بنفسها ، ويجب مراعاة رغائب هذه الشعوب فى اختيار الدولة المنتدبة

ويجب فى جميع الاحوال على كل دولة من الدول المنتدبة ان تقدم تقريرا سنويا الى مجلس جامعة الامم عن حالة البلاد الموضوعة فى عهدتها »

تلك هى المادة الخاصة بالانتداب فى صك جامعة الامم . وابى الملك حسين بن على توقيع الصك واقراره حينما عرض عليه لان الانتداب لا يتفق والعهود التى قطعتها له انكلترا باستقلال البلدان العربية التى يراد ان يشملها نظام الانتداب الجديد

والواقع ان ابتكار هذا النظام والنص عليه فى ميثاق جامعة الامم لم يكن سوى حيلة شرعية احتال بها الانكليز بالاشتراك مع الفرنسويين للتملص من العهود التى قطعوها للعرب باستقلالهم فى زمن الحرب العظمى و بمساعدتهم فى انشاء الدولة العربية الكبرى

ولم يقف الحسين عند حد الرفض فقد احتج الملك فيصل باسم والده على نظام الانتداب بموجب مذكرة ارسلها يوم ٢٧ فبراير سنة ١٩٢١ الى السير اريك درمند السكرتير العام لجامعة الامم وقال فيها :

« ان العرب قبل ان يخوضوا الحرب تلقوا وعدا من بريطانيا العظمى بنيل استقلالهم ، ولم يرد حينئذ ذكر للانتداب على الاطلاق ، فلما نص عليه فى معاهدة فرساى ابى الملك حسين ان يبرمها ، ويأسف الملك لان بلاده ليست عضوا فى جامعة الامم ، ولان دول الحلفاء ندبت نفسها للبلدان العربية من غير ان تراعى نصوص العهد الذى قطعته للعرب . ثم ان الحوادث التى حدثت فى البلاد العربية من حين عقد الهدنة لم تك مما يبدد شكوك العرب فى نيات الحلفاء . اما الآن وقد نشرت صكوك الانتدابات فليس فيها ما ينشط العرب على ابرام المعاهدة اكثر من ذى قبل

« وقد امرنى والدى بتقديم احتجاج رسمى و رجائى ان لا توافق جامعة الامم على هذه الانتدابات قبل ان تستشيره فهو الذى قاد العرب فى اثناء الحرب وشد ازر الحلفاء وان لا تنشر صكوك الانتداب رسميا قبل ان تقف على رغائب اهل الولايات التى تشملها المادة ٢٢ من عهد الجامعة »

ولما عقد مؤتمر الشرق فى لندن فى شهر مارس سنة ١٩٢١ الق مندوب الملك

فيصل فيـه بيانا مطولا باستنكار نظام الانتداب والمعـاملة التى عومل بها العرب بعد الحرب ثم قال :

١ — يعترض جلالته على نظام الانتـداب فانه لم يذكر فى العهود ويقول ان روح عهد جامعة الأمم كما يظهر فى المادة ٢٢ والفقرة الرابعة منها لا تناقض آمال العرب ولـكن الالفاظ التى افرغ فيهـا مطلقة المعنى وقد اثبتت نصوص الانتداب كما نشرتها الصحف ان العهد فسر تفسيرا يخالف هـذا الروح ، فالملك حسين وجميع العرب يرفضون هذا التفسير بتاتا ولهذا يطلب جلالته ان يصحح تحديد هذه المساعدة ويبين بجلاء ووضوح ان نيات الحلفاء تقتصر على بذل المساعدة التى ورد ذكرها فى العهود ومن غـير تعرض للاستقلال القومى الذى مافتىء الحلفاء يفهمون العرب انه حظهم المنشود من سنة ١٩١٥

٢ — وافقت الدول العظمى المتعاقدة بمعاهدة فرساى على عهد جامعـة الامم الذى كتب فى ٢٦ مادة وادمج هذا العهد فى المعاهدة وجرى مثل هذا فى معاهدة سيفر وصارت كل مادة من مواد هـذا العهد جزءا من هـذه المعاهدة . وغنى عن البيان انه لا يصح من الوجهة القانونية ان تنقض مادة من مواد هذه المعاهدة بمادة اخرى منها ، فالمادة ٢٢ تقول فى الفقرة الرابعة ان مشيئة هذه الشعوب يجب ان يكون لها الاعتبار الا كبر فى اختيار الدولة المنتدبة ولـكن المادة ٩٤ تقول فى الفقرة الثـالثة « ان دول الحلفاء الـكبرى تختار الدولة المنتدبة » فلم يشر هنا بشىء الى مشيئة الشعوب وهـذا الاغفال يؤول حتما الى الالتبـاس لأن الحلفاء تغافلوا حين توزيع الانتـدابات فى سان ريمو عن المـادة ٢٢ فوزعوا الانتدابات من دون استشارة الشعوب ذات الشأن للوقوف على رغائبها »

٤

الصهيونية فى تقرير دولى

سعى جلالة الملك فيصل حينما ذهب الى اوربا فى سنة ١٩١٨ لتمثيل والده فى مؤتمر الصلح لاقناع المؤتمر بارسال لجنة دولية الى سورية لاستفتاء اهلها فى تقرير مصيرهم ، وذلك بعد ما ادرك انه ليس فى الطاقة حمل الانكليز على تنفيذ وعودهم للعرب

وايد الرئيس ولسن رئيس جمهورية الولايات المتحدة الملك فيصل فى مشروعه وعضده فأصدر المؤتمر يوم ٣٠ يناير سنة ١٩١٩ قرارا اشترك فى اصداره مندوبو انكلترا وفرنسا وايطاليا واليابان بفصل بلاد العرب عن تركيا وباستفتاء سكانها فى تقرير مصيرهم

وعملا بهذا المبدأ قرر المؤتمر فى جلسته يوم ٢١ مارس من تلك السنة تعيين لجنة دولية من الحلفاء لدرس مسائل آسيا الصغرى والوقوف على رغائب سكانها .

واسرع الرئيس فعين اللجنة الاميركية التى تشترك فى اللجنة الدولية وطلب من الانكليز والفرنسويين ان يعينوا لجنتيهما فتسافر اللجان الثلاث وتعمل بالاشتراك فماطل الفرنسويون وسوفوا لأنهم ادركوا ان تحقيق اللجنة يحول دون تحقيق اغراضهم الاستعمارية فى احتلال سورية وكانوا يحتلون جزءها الساحلى وحذا الانكليز حذوهم وكانوا يحتلون فلسطين عسكريا ويعملون على ترسيخ اقدامهم فى ربوعها

واصدر الرئيس ولسن امره الى اللجنة الامريكية بان تسافر منفردة وان

لا تكون مقيدة باللجنتين الانكليزية والفرنسوية . فوصلت الى يافا يوم ١٠ يونيو سنة ١٩١٩ واذاعت عقب وصولها البيان الآتى :

« ان الشعب الاميركى ليس له مطامع سياسية فى اوربا او الشرق الادنى وهو يفضل على قدر الامكان تجنب كل علاقة بالمشاكل الاوربية والاسيوية والافريقية ويرغب باخلاص فى ان يسود السلام الدائم وانه بهذه الروح يدنو من مشكلات الشرق الادنى

« لقد عين مجلس الاربعة (مؤتمر الصلح) لجنة دولية لدرس الحالة فى المملكة التركية وعلاقاتها بالوصايات فغاية اللجنة الاميركية الآن الوقوف جهد المستطاع على احوال السكان والطبقات وعلاقاتهم ليكون الرئيس ولسن والشعب الاميركى على بينة من الحقائق فى كل سياسة يدعى اليها فيما يتعلق بالشرق الادنى سواء كان ذلك فى مؤتمر الصلح او فى جامعة الامم »

وقال العرب الفلسطينون للجنة ان المؤتمر السورى المعقود فى دمشق هو الذى يمثلنا ويتكلم باسمنا فاذهبى اليه وحادثيه ، وفى يوم ٣ يوليو قابل رئيس هذا المؤتمر اللجنة فى دمشق وسلمها قرار المؤتمر الاجماعى وقد جاء فى مقدمته :

« اننا نحن الموقعين ادناه امضاءاتنا واسماءنا اعضاء المؤتمر السورى المنعقد فى دمشق الشام والمؤلف من ممثلى المناطق الثلاث : الجنوبية (فلسطين) والشرقية (سورية الداخلية) والغربية (ساحل سورية) الحائزين على اعتمادات سكان مقاطعاتنا قد قررنا فى جلستنا المنعقدة يوم الاربعاء المصادف ٢ يوليو سنة ١٩١٩ وضع هذه « اللائحة » مبينة لرغبات سكان البلاد الذين انتدبونا ورفعها الى الوفد الاميركى المحترم من اللجنة الدولية وهى :

١ ـ اننا نطلب الاستقلال السياسى التام الناجز للبلاد السورية التى تحدها شمالا جبال طوروس وجنوبا رفح فالخط المار من جنوبى الجوف الى جنوب العقبة الشامية ، والعقبة الحجازية وشرقا نهر الفرات فالخابور والخط الممتد شرقى البوكمال الى شرقى الجوف وغربا البحر المتوسط بدون حماية ولا وصاية

٢ ـ اننا نطلب ان تكون حكومة هذه البلاد السورية ملكية ، مدنية ، نيابية ، تدار مقاطعاتها على طريقة اللامركزية ، الواسعة وتحفظ فيها حقوق الاقليات على ان يكون ملك هذه البلاد الامير فيصل الذى جاهد فى سبيل تحرير هذه الامة جهادا استحق به ان تضع تمام الثقة فى شخصه وان تجاهر بالاعتماد التام على سموه

٣ ـ وحيث ان الشعب العربى الساكن فى البلاد السورية شعب لايقل رقيا من حيث الفطرة عن سائر الشعوب الراقية وليس هو فى حالة احط من حالات شعوب البلغار والصرب واليونان ورومانيا فى مبدأ استقلالها فاننا نحتج على المادة ٢٢ الواردة فى عهد جامعة الامم (نظام الانتداب) والقاضية بادخال بلادنا فى عداد الامم المتوسطة التى تحتاج الى دولة منتدبة الخ

وجاء فى المادة السابعة من هذا القرار :

« اننا نرفض مطالب الصهيونية بجعل القسم الجنوبى من البلاد السورية اى فلسطين وطنا قوميا للاسرائيليين ونرفض هجرتهم الى اى قسم من بلادنا لانه ليس لهم فيها ادنى حق ، ولأنهم خطر شديد على شعبنا من حيث الاقتصاديات والقومية والكيان السياسى . اما سكان البلاد الاصليون من اخواننا الموسويين فلهم ما لنا وعليهم ما علينا »

وجاء فى المادة الثامنة :

« اننا نطلب عدم فصل القسم الجنوبى من سورية المعروف بفلسطين والمنطقة الغربية الساحلية التى فى جملتها لبنان ، عن القطر السورى ونطلب ان تكون وحدة البلاد مصونة لا تقبل التجزئة بأى حال كان »

وجاء فى تقرير اللجنة الامريكية وقد ضمنته خلاصة دراستها وآرائها « انها تلقت مدة طوافها فى سورية ١١ عريضة تؤيد البرنامج الصهيونى وهو انشاء وطن قومى لليهود وفتح باب الهجرة لهم وجميع هذه العرائض من اللجان اليهودية و ٨ عرائض اخرى تحبذ انشاء المستعمرات اليهودية فى فلسطين بدون موافقة على البرنامج الصهيونى كله

أما العرائض التى تلقتها اللجنة ضد الصهيونية فهى ١٨٥٠ عريضة او ٣ر٧٣ فى المئة من مجموع ما تلقته وهذا العدد هو الثالث فى اى مطلب آخر وهو يمثل الرأى العام الاسلامى ـ المسيحى اكثر من سواه ، وكانت حركة المقاومة للصهيونية قوية فى فلسطين على الأخص اذ كانت ٢٢٢ عريضة من اصل ٢٦٠ عريضة ضدها ، او ٣ر٨٠ بالمئة وهذه اكبر نسبة من مطلب آخر

وتلقت اللجنة ١٠٣٣ عريضة بالاحتجاج على مبدأ الانتداب و بتأييد طلب الاستقلال التام لسورية بحدودها الطبيعية »

وعقدت اللجنة فى تقريرها فصلا خاصا عن الصهيونية جاء فيه :

وتشير اللجنة بوجوب تنقيح البرنامج الصهيونى لفلسطين تنقيحا كبيرا لا سيما مهاجرة اليهود غير المحدودة ـ التى ترمى الى جعل فلسطين بلادا يهودية للاسباب الآتية :

باشرت اللجنة درس الصهيونية وهى ميالة الى استحسانها ولكن الحقائق الحسية التى وجدتها فى فلسطين مع قوة المبادىء العامة التى اعلنها الحلفاء وقبلها السوريون حملتها على وضع المشورة الآنفة

تلقت اللجنة من الجمعية الصهيونية فصولا انشائية كثيرة عن البرنامج الصهيونى وسمعت كثيرا عن المستعمرات الصهيونية ومطالبها فى المؤتمر ورأت بنفسها شيئا مما فعلته ووجدت عددا كبيرا يؤيد امانى الصهيونيين وخططهم وهى تعجب من انصراف تلك الجوالى الى العمل وتغلبها بالوسائط الحديثة على العقبات الطبيعية

وتعتقد اللجنة ان الصهيونيين حصلوا على تشجيع معلوم من الحلفاء فى تصريح اللورد بلفور الذى كثر اقتباسه والاستشهاد به وتصديق ممثلى الحلفاء الآخرين عليه ، انما اذا عمل بهذا التصريح الذى يقضى بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين مع الفهم الصريح بأنه لا يجب ان يعمل شىء يسىء الى الحقوق الدينية والمدنية التى للجماعات غير اليهودية فى فلسطين فانه لا يبقى شك فى انه يجب ادخال تعديل كبير على البرنامج الصهيونى

ان انشاء وطن قومى « للشعب اليهودى » لا يعنى جعل فلسطين بلادا يهودية بدون اهتضام الحقوق الدينية والمدنية التى للجماعات غير اليهودية فى فلسطين ، والحقيقة التى وقفت اللجنة عليها فى احاديثها مع ممثلى اليهود هى ان الصهيونيين يتوقعون ان يجلوا السكان غير اليهود من فلسطين بشراء الأراضى منهم

واتضح للجنة ان الشعور العدائى ضد الصهيونية غير قاصر على فلسطين بل يشمل سكان سورية بوجه عام فان ٧٢ فى المئة من مجموع العرائض فى سورية ضد الصهيونية ولم ينل مطلب نسبة اكبر من هذه النسبة غير الوحدة السورية والاستقلال

ولا ينبغى لمؤتمر الصلح ان يتجاهل ان الشعور ضد الصهيونية فى فلسطين وسورية بالغ اشده وليس من السهل الاستخفاف به فان جميع الموظفين الانكليز الذين حادثتهم اللجنة يعتقدون ان البرنامج الصهيونى لا يمكن تنفيذه الا بالقوة المسلحة ، ويجب ان لاتقل هذه القوة عن خمسين الف جندى وهذا فى نفسه برهان واضح على ما فى البرنامج الصهيونى من الاجحاف بحقوق غير اليهود . لا بد من الجيوش فى بعض الاحيان لتنفيذ القرارات ولكن ليس من المعقول ان تستخدم الجيوش لتنفيذ قرارات جائرة . هذا فضلا عن ان مطالب الصهيونيين الاساسية فى حقهم على فلسطين مبنية على كونهم احتلوها من الفى سنة وهذه دعوى لا تستوجب الاكتراث والاهتمام

وهنالك امر لا يجوز اغفاله اذا كان العالم يريد ان لا تصير فلسطين مع الوقت بلادا يهودية وهو ان فلسطين هى الارض المقدسة عند اليهود والمسيحيين والمسلمين على السواء يهم امرها ملايين من المسيحيين والمسلمين فى العالم ولا سيما ما يتعلق من تلك الاحوال بالعقائد الدينية والحقوق فمسألة فلسطين وما يتفرع منها مسألة دقيقة حرجة ومن المستحيل ان يرضى المسلمون والمسيحيون بوضع الاماكن المقدسة تحت رعاية اليهود مهما حسنت مقاصد هؤلاء والسبب فى ذلك هو ان الاماكن الاكثر تقديسا عند المسيحيين هى ما له علاقة بالمسيح والاماكن التى يقدسها المسلمون غير

مقدسة عند اليهود بل مكروهة ولا يستطيع المسيحيون والمسلمون فى هـذه الاحوال ان يرضوا عن وضع تلك الاماكن تحت اشراف اليهود ثم هنالك اماكن اخرى لها فى نفوس المسلمين مثل هذا الشعور ، ولما كانت هذه الاماكن كلها مقدسة ومحترمة من المسلمين كانت وصايتهم عليها فيما مضى امرا طبيعيا فالذين يطلبون صيرورة فلسطين يهودية لم يحسبوا للنتائج حسابها ولا للشعور العدائى ضد الصهيونية فى جميع انحاء العالم التى تعتبر فلسطين ارضا مقدسة

و بناء على ما تقدم تشعر اللجنة مع عطفها على مسألة اليهود ان الواجب يقضى عليها بأن تشير على المؤتمر بان لا يؤيد غير برنامج صهيونى معتدل يجب العمل فيه بالتدريج و بعبارة اخرى يجب تحديد المهاجرة اليهودية الى فلسطين والعدول بتاتا عن الخطة التى ترمى الى جعل فلسطين حكومة يهودية

ولا يوجد هنالك سبب يمنع ضم فلسطين الى سورية المتحدة كأقسام البلاد الاخرى ووضع الاماكن المقدسة تحت ادارة لجنة دولية دينية تكون كما هى الحال فى الوقت الحاضر تحت اشراف الدولة الوصية وجامعة الامم ويكون لليهود بالطبع عضو فى هذه اللجنة

٥

الانتداب البريطاني لفلسطين

لم يغن عن العرب احتجاجهم ولا استنكارهم ، ولم يمنع تقرير اللجنة الاميركية الحلفاء عن اقتسام بلادهم ، واستصفاء اقطارهم ، فقد قرر مجلس الحلفاء الأعلى ـ وهو يتألف من مندوبى انكلترا وفرنسا وايطاليا واليابان فى جلسته المعقودة يوم ٢٥ ابريل سنة ١٩٢٠ـ تقسيم بلاد الشام والعراق بين فرنسا وانكلترا فنالت الاولى سورية الشمالية والساحلية وهى البلاد المشمولة بانتدابها فى الوقت الحاضر مع كيليكية (ادنه) ونالت انكلترا العراق وسورية الجنوبية (فلسطين) مع شرقى الاردن وذلك باسم الانتداب .

ولا ريب ان لانسحاب الولايات المتحدة من حلبة السياسة الدولية ومن مؤتمر الصلح ـ وقد انسحبت فى اوائل سنة ١٩٢٠ وتركت اوربا وشأنها تأثيرا فى المصير السيء الذى صارت اليه قضية العرب فلو بقيت فيه ، وكان المستر ويلسن رئيس الجمهورية ورئيس الوفد الاميركى يعطف عطفا زائدا على الشعب العربى لما وقع ما وقع ولما طبق الانكليز والفرنسيون معاهداتهم السرية فى بلاد العرب واقتسموها فيما بينهم متناسين كل وعد وعهد واعتبار

ابلاغ الانتداب

ولما اصبح الانتداب حقيقة واقعة دعا حاكم القدس يوم ٢٩ ابريل سنة ١٩٢٠ بعض اعيان فلسطين وتلا عليهم البيان الآتى :

« قرر المجلس الاعلى للحلفاء انتداب دولة لفلسطين وان يدمج وعد بلفور بانشاء وطن قومى لليهود فى معاهدة الصلح مع تركيا ، وقد عرض هذا الانتداب على بريطانيا فقبلته وهى تحكم البلاد لخير سكانها ، واتلو عليكم وعد بلفور واقول لكم ان ادماجه فى صك الانتداب يعنى عدم التعرض للعادات الدينية والاماكن المقدسة وعدم تقييد شىء من الحرية الدينية بشرط المحافظة على النظام والامن العام ، ويسمح للمهاجرين بدخول البلاد على قدر حاجتها الى النمو والارتقاء ، وتسيطر حكومة بريطانيا على المهاجرة ولا يخرج اصحاب الاملاك الحاليون عن املاكهم ولا تنزع منهم ولا تمنح امتيازات اقتصادية لافراد او جماعات اذا كان فى منحها ضرر لغيرهم

« فالحكم سيكون للحكومة البريطانية ولا يسمح بحال من الاحوال لاقلية ان تسيطر على الاكثرية من السكان ، ومتى حان الوقت لانشاء شكل من اشكال الحكم النيابى ففى هذه الحالة تعقد الآمال العظيمة على زيادة اليسر لجميع السكان . وقد صدر هذا القرار بعد طول انتظار فيجب انهاء الخلافات السياسية والاضطرابات وعلى جميع الفلسطينيين الحقيقيين ان يبادروا لخدمة فلسطين وخير الاجيال المقبلة »

واحتج الفلسطينيون على قرار مجلس الحلفاء الاعلى وطلبوا الغاءه ومنحهم الاستقلال والحرية فلم يصغ اليهم ، وجاء مجلس جامعة الامم فاقر فى اجتماعه المعقود فى لندن يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٢ انتداب بريطانيا لفلسطين ووافق على الصك الذى وضعته وهذا ماجاء فى مقدمته :

« حيث ان دول الحلفاء الكبرى وافقت تنفيذا لنصوص المادة ٢٢ من عهد جامعة الامم على ان تعهد الى دولة منتدبة تختارها الدول المذكورة لادارة شؤون فلسطين التى كانت تابعة للسلطة العثمانية ضمن الحدود التى ترسمها الدول المذكورة

« وحيث ان دول الحلفاء الكبرى وافقت ايضا على ان تكون الدولة المنتدبة مسؤلة عن تنفيذ التصريح الذى صرحت به حكومة جلالة ملك بريطانيا يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ للشعب اليهودى مع البيان الجلى بان لايفعل شىء يضر الحقوق الدينية

والمدنية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة فى فلسطين ولا الحقوق او المركز السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الاخرى

« وحيث ان ذلك اعتراف بالصلة التاريخية التى تصل الشعب اليهودى بفلسطين والبواعث التى تبعث على اعادة انشاء وطنهم القومى فى تلك البلاد

« وحيث ان دول الحلفاء قد اختارت الحكومة البريطانيـة لتكون الدولة المنتدبة لفلسطين

« وحيث ان الانتداب لفلسطين قد صيغ فى النصوص الآتيـة وعرض على مجلس جامعة الامم لموافقته عليه

« وحيث ان الحكومة البريطانية قبلت الانتداب لفلسطين وتعهدت بتنفيذه بالنيابة عن جامعة الامم طبقا للنصوص والشروط الآتية

« وحيث ان المادة ٢٢ الآنفـة الذكر الفقرة « ٤ » تنص على ان درجـة السلطة او السيطرة او الادارة التى تكون للدولة يتفق عليها بين اعضاء جامعة الامم فان مجلس الجامعة ينص على ذلك نصا صريحا

« فالمجلس بعد تأييد الانتداب المذكور يحدد شروطه ونصوصه بما يأتى :

ويلى ذلك نص صك الانتداب وقد اغفلنا نشره لانه لايدخل فى موضوعنا

دستور فلسطين

وفى شهر اغسطس سنة ١٩٢٢ وضعت الحكومة البريطانية دستورا لحكومة فلسطين استمدت احكامه من الانظمة الموضوعة لادارة المستعمرات

جهود الفلسطينيين

وعمل الفلسطينيون كثيرا فى خلال هـذه الفترة ولا يزالون يعملون لتحرير وطنهم وللافلات من النير البريطانى الثقيل ولمقاومة الصهيونية التى يحميها البريطانيون ويوطئون لها ويساعدونها فى خططها القائمة على امتلاك فلسطين واجلاء اهلها العرب

عنها ، فلم يصيبوا نجاحا ولا تزال حالتهم تزداد سوءا يوما عن يوم ، فهم بين قوتين شديدتين قوة الاستعمار البريطانى وقوة الاستعمار الصهيونى

ومما لاشك فيه ان مصيرهم ينذر باشد الاخطار اذا لم ينهض العرب لانقاذهم وكشف الضر المحيق بهم

وسنصف فى الجزء الثالث من هـذا الـكتاب نهضة الفلسطينيين وكفاحهم وصفا وافيا

الحماية على شرق الاردن

١

مقاطعة شرقى الاردن

....

مقاطعة شرقى الاردن هى آخر بقعة عربية سيطر عليها الانكليز فى بلاد العرب ودخلت فى دائرة امبراطوريتهم

وتقع شرقى الاردن فى المنطقة الواسعة بين الحجاز جنوبا وحوران شمالا ونهر الاردن غربا والعراق ونجد شرقا وقد كانت حتى اعلان الحرب العظمى جزءا من ولاية « سورية » التركية وتتألف من لواء (متصرفية) الكرك ويتبعها قضاءا السلط ومعان ماعدا العقبة وقضاء الطفيلة ومن قضاء عجلون واربد من لواء حوران

ولم يقاتل الانكليز فى سبيل امتلاك شرق الاردن ولم يرسلوا الحملات لاحتلالها كما فعلوا فى فلسطين والبلدان العربية الاخرى ، بل هى التى سعت اليهم وخطبت الدخول فى دائرة امبراطوريتهم لانهم جعلوها امام امر واقع واضطروا سكانها اضطرارا الى طلب حمايتهم وانتدابهم

وهنالك امر آخر لابد لنا من التنبيه عليه وهو ان جيش الثورة العربية (جيش الشمال العربى) الذى زحف من الحجاز فى سنة ١٩١٧ لتحرير بلاد الشام وانقاذها من نير الترك فتح هذه البلاد وحررها بالسيف بعد حرب عوان ومعارك شديدة دارت بينه و بين الترك

فقد تدفق هذا الجيش فى زحفه قادما من الجنوب الى الشمال فسار من ينبع الى الوجه ومن الوجه الى العقبة فاستولى عليها يوم ١٠ اغسطس سنة ١٩١٧ واتخذها قاعدة عسكرية لاعماله فى شرقى الاردن وكانت للترك قوات عظيمة فى معان وفى عمان نفسها وعلى طول محطات سكة الحديد بين درعا والمدورة خوفا من غارات

الجيش العربى وقد اقلقهم ظهوره فى هذه الناحية وخوف مباغتة يباغتهم بها الانكليز وكانوا قد تقدموا حتى ضفة نهر الاردن الغربية بعد استيلائهم على القدس ورابطوا بقربها

ودارت معارك عنيفة فى هذه البطاح بين العرب والترك بيعت فيها الارواح بيع السماح فهنالك معركة الطفيلة ومعركة وادى موسى ومعارك معان واستمر القتال مدة سنة ونيف وانتهى فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٨ بانهيار خطوط الدفاع التركية وباستسلام الذين ظلوا احياء من الترك فى طول هذه البلاد وعرضها للجيش العربى ولا يقل عددهم عن ٤٠ الف جندى فارسلوا الى مراكز الاعتقال فى مصر

واستولى الجيش العربى على معان والكرك والسلط وعمان والطفيلة وبقية المدن التى تتالف منها هذه المقاطعة فى الوقت الحاضر، وانشأ فيها حكومة وطنية تتبع حكومة دمشق الفيصلية مباشرة بعكس فلسطين التى وضع الانكليز يدهم عليها وانشأوا فيها حكما عسكريا بريطانيا مباشرا من يوم استيلائهم

٢

شرقي الاردن في العهد الفيصلي

اشترك مندوبو الكرك ومعان وعمان والسلط وبقية اجزاء شرقي الاردن الاخرى في المؤتمر السوري (سنة ١٩١٩ - ١٩٢٠) وبسطت الحكومة الفيصلية نفوذها على هذه المقاطعة وكانت حدودها تمتد الى جنوبي معان اي ان معان نفسها كانت داخلة في نطاق حكومة دمشق الفيصلية

وكان للسلطة العسكرية البريطانية ممثلون من الضباط يمثلونها في المراكز الكبرى في هذه المقاطعة فكان هنالك ضابط في السلط وآخر في عمان وثالث في الكرك، ولم يك في وجودهم مايستوقف النظر في اول الامر لان «الحملة المصرية» كانت تحتل بلاد الشام من اقصاها الى اقصاها

وتم الاتفاق نهائيا في شهر نوفمبر سنة ١٩١٩ بين انكلترا وفرنسا على اقتسام بلاد العرب وعلى ان يجلو الجيش البريطاني عن البلاد التي تقرر ان تكون لفرنسا فجلا الانكليز عن كيليكية وبيروت ولبنان وحل الفرنسويون محلهم فيها . اما في سورية الداخلية فقد رفضت الحكومة الفيصلية السماح بدخول جنود فرنسويين الى بلادها

واستثنى الانكليز الاراضي التي تتألف منها مقاطعة شرقي الاردن الحاضرة من هذا التدبير لانها كانت من نصيبهم بموجب الاتفاق الجديد المعقود فاستبقوا فيها ضباطهم ومندوبيهم فلم يغادرها احد منهم

٣

شرقي الاردن بين فلسطين والحجاز

....

ما كاد الجنرال غورو يضرب ضربته الكبرى فى ميسلون يوم ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٠ ويقوض دعائم الحكومة الفيصلية فى الشام حتى نشط الضباط الانكليز فى شرقى الاردن الى بث دعاية بين السكان لتأليف وفد يسافر الى القدس ويطالب بانتداب بريطانيا لبلادهم فلقيت دعوتهم قبولا بسبب الحالة الادبية التى كانت عليها الامة

وفى ٢٠ اغسطس سنة ١٩٢٠ غادر المندوب السامى البريطانى القدس الى السلط وفى يوم ٢١ منه وقف فى دار الحكومة يخطب شيوخ البلاد الذين اجتمعوا حوله ويقول :

« زارنى فى القدس على اثر حوادث دمشق الاخيرة عدد كبير من مشايخ واعيان شرقى الاردن وتلقيت رسائل من سواهم ومن بعض اعيان السلط ، وقد طلبوا منى ان اوسع نطاق الادارة البريطانية حتى تشمل بلادهم ، ولا يخفى عليكم ان الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسوية اتفقتا من مدة طويلة على ان هذه البلاد داخلة فى منطقة نفوذ بريطانيا وغير داخلة فى منطقة النفوذ الفرنسوى . وتلقيت من ايام تلغرافا من لندن جاء فيه ان الحكومة الفرنسوية جددت عهدها بانها لاتروم التعرض لامور هذه الجهات بوجه من الوجوه . ولما كانت الحكومة الفرنسوية قد وطدت نفوذها فى دمشق فمن الضرورى فصل هذه الجهة عن حكومة دمشق

« ورب قائل يقول وما هو نوع المساعدة التى تساعدكم بريطانيا بها فاقول انها لاتنوى ان تدخلكم فى النظام الحالى لحكم فلسطين ، بل تنشىء لكم ادارة منفصلة

عن فلسطين ، تساعدكم على ان تحكموا انفسكم بانفسكم وترسل نفرا من الضباط السياسيين تختارهم من العادلين الخبيرين باعمال الادارة والذين يعرفون الاهالى واللغة العربية ، و بعضهم تعرفونهم حق المعرفة ، فيقيمون فى المدن الكبرى فى هذه الجهات ويساعدونكم فى تنظيم امور الدفاع اذا هاجمكم مهاجم من الخارج ، وفى تنظيم البوليس المحلى الذى يحافظ على الامن والنظام وينشطون التجارة و يعززون السلام ، ويساعدونكم على اجراء العدل ، وعلى انفاق الضرائب التى تجبى منكم فى سد حاجاتكم و يستشيرونكم فى الوجوه التى ينفق مال الضرائب فيها واصلاح الطرق وتمهيدها ، و بناء المدارس وتدبير الاسعاف الطبي

« وتطلق حرية الاتجار مع فلسطين ، ويمون اهل البلاد الواقعة فى شرق الاردن بالبترول والارز والسكر وغيرها كما يمون اهل فلسطين بها ، وسنسهل لكم السبيل لبيع ماتريدون بيعه وستتخذ التدابير فى الحال لفتح بنك لمساعدة التجار ، وسنسهل المواصلات البريدية مع فلسطين وسواها ونمدكم بالمشورة الفنية فى فتح الطرق وغيرها من الامور التى تهمكم

« اما الموظفون الذين يشتغلون باعمال الحكومة تحت ادارة العدد اليسير من الضباط البريطانيين فيعين من اهل البلاد كل من يمكن تعيينه منهم ، ولا يكون عندكم تجنيد اجبارى ، ولسنا ننوى نزع سلاحكم ولكن لايسمح بنقل الاسلحة الى فلسطين طبقا لما هو متبع الآن ، فاذا كنتم ترغبون فى مساعدة البريطانيين لكم فهذا خير شكل للمساعدة

« وسيكون فى رأس التعليمات العمومية التى تصدرها الحكومة البريطانية للضباط فى هذه الجهات مساعدة الاهالى ليحكموا انفسهم والمحافظة على مبادىء النزاهة والعدل ، التى هى شارات الحكم البريطانى فى جميع انحاء العالم ، واساس الحكم الحسن الصحيح

« وعسى ان تكون نتيجة هذا الاجتماع رفاهية ورخاء بلادكم التى اسأل الله القدير على كل شىء ان يسبغ عليها وعلى سكانها البركات »

معان والعقبة تعود الى الحجاز

ودخلت مقاطعات السلط والكرك وعمان واربد وجرش وعجلون اى المقاطعات الشمالية فى دائرة الانتـداب البريطانى وقبلته وارتضت به باعتباره اخف شرا من الانتداب الفرنسوى

اما المقاطعة الجنوبية ونعنى بها مقاطعة معان وثغر العقبة فقد عادت الى حضن حكومة الحجاز الهاشمية التى ارسلت قوة عسكرية رابطت فيها وعينت لها موظفين مدنيين يسوسون امورها

وهكذا انقسمت بلاد شرق الاردن الى قسمين : القسم الجنوبى وقد وضعت يدها عليه الحكومة الهاشمية والقسم الشمالى المجاور لسورية وفلسطين وقد قبـل الانتداب البريطانى وارتضاه

٤

الامير عبد الله فى شرقى الاردن

فى شهر سبتمبر سنة ١٩١٩ و بعد سقوط الحكومة الفيصلية فى الشام بشهرين تقريبا غادر الامير عبد الله بن الحسين مكة ، فجاء الى المدينة المنورة واقام فيها اياما ضيفا على اخيه الملك على ثم سافر منها بسكة الحديد الى معان ، وكانت قد دخلت فى حوزة حكومة الحجاز فاثار وصوله ضجة شديدة بين عرب سورية وفلسطين الموتورين من الانكليز والفرنسويين واليهود ، اقلقت ممثلى الاحتلال فى بيروت ودمشق والقدس فحسبوا حسابها وخافوا نتائجها

وقضى الامير اسابيع فى معان اتصل فيها بالمندوبين الانكليز الذين زاروه ودارت محادثات بينه و بين حكومة القدس انتهت بالاتفاق مبدئيا على انشاء حكومة عربية فى شرق الاردن اى فى القسم الذى قبل الوصاية البريطانية ـ برئاسته

وفى يوم ٨ مارس سنة ١٩٢١ وصل الامير عبد الله بقطار خاص الى عمان قادما من معان فاستقبل استقبالا حافلا رسميا اشترك فيه الموظفون الانكليز وفى يوم ٢٧ منه غادر عمان الى القدس لمقابلة المستر تشرشل وزير المستعمرات البريطانية وكان يزور الشرق زيارة رسمية فى تلك الايام . وفى خلال اجتماع الامير بالوزير تم الاتفاق على القواعد الآتية :

١ ـ تؤسس حكومة عربية وطنية فى شرقى الاردن برئاسة الامير عبد الله

٢ ـ تكون هذه الحكومة مستقلة استقلالا اداريا

٣ ـ تساعد بريطانيا هذه الحكومة ماديا لتوطيد الامن

٤ ـ تسترشد هذه الحكومة برأى مندوب بريطانى يقيم فى عمان

٥ ـ تحافظ هذه الحكومة على الحدود السورية والفلسطينية وتحول دون وقوع اعتداء عليها

٦ ـ تنشىء بريطانيا مركزين للطيران فى عمان والجيزة

٧ ـ تتوسط بريطانيا لتحسين الصلات بين الامير عبد الله والسلطة الفرنسوية فى سورية

الانتداب لشرقى الاردن

ولما قدمت بريطانيا صك انتدابها لفلسطين الى مجلس جامعة الامم لاقراره فى سنة ١٩٢٢ ادمجت شرقى الاردن فيه ، واستثنته من الوطن القومى اليهودى بموجب مذكرة رسمية ارسلتها يوم ١٦ سبتمبر الى سكرتير جامعة الامم وهذا نصها :

« تطلب حكومة جلالة الملك من مجلس جامعة الامم وفقا للشروط الواردة فى صك الانتداب لفلسطين ان يقرر مايأتى [1] :

« لاتطبق المواد الآتية من نظام الانتداب الفلسطينى فى القطر المعروف بشرقى الاردن الذى يشمل جميع المقاطعات الواقعة الى شرقى خط ممتد من نقطة واقعة على خليج العقبة على بعد ميلين الى غرب مدينة العقبة مارا بمنتصف وادى عربة والبحر الميت ونهر الاردن حتى المنطقة التى يلتقى بها هذا النهر بنهر اليرموك فمنتصف هذا النهر حتى الحدود السورية » .

---

(١) الاشارة هنا الى المادة ٢٥ من صك الانتداب لفلسطين وهى :

« يحق للدولة المنتدبة بسماح مجلس جامعة الامم ان تؤجل او توقف تطبيق ماتراه من هذه الشروط غير مطابق للاحوال المحلية الحاضرة فى الاملاك الواقعة بين نهر الاردن والحد الشرقى لفلسطين كما سيعين فى آخر الامر وان تضع من التدابير لادارة هذه الاملاك ما تراه ملائما لتلك الاحوال بشرط ان لايعمل عملا يكون مخالفا لشروط المواد ١٥ و ١٦ و ١٨ »

والمواد الملغاة هى :

١ ـ الفقرة الثانية والثالثة من ديباجة صك الانتداب والمواد الثانية والرابعة والسادسة والسابعة والجملة الثانية من الفقرتين الاولى والثانية من المادة ١١ والمواد ١٣ و ١٤ و ٢٢ و ٢٣

وفى تطبيق نظام الانتداب على شرق الاردن تقوم حكومته بالاعمال التى تقوم بها حكومة فلسطين فى فلسطين تحت مراقبة الدولة المنتدبة

٢ ـ تقبل حكومة جلالة الملك التبعة التى تقع على عاتقها فى تطبيق نظام الانتداب على شرق الاردن وتتكفل بان الشروط التى توضع لادارة ذلك القطر وفقا للمادة ٢٥ لاتكون باية وسيلة غير مطابقة لبقية شروط نظام الانتداب التى لم يشر الى عدم تطبيقها فى هذا القرار »

٥

ضم العقبة ومعان الى شرقى الاردن

قلنا آنفا ان حكومة مكة الهاشمية وضعت يدها على مقاطعة معان وثغر العقبة عقب سقوط الحكومة الفيصلية فى الشام لانهما من املاك الحجاز الاصلية وعينت لهما الموظفين الملكيين والعسكريين (١)

ولم يعزب عن اذهان ممثلى الاستعمار البريطانى فى الشرق خطورة مركز ثغر العقبة السياسى والعسكرى والاقتصادى فسعوا عند الامير عبد الله لانتزاعه من الحجاز مع مقاطعة معان وضمهما الى امارته المشمولة بنفوذهم فسعى هو عند والده و بما له من

(١) يقول الامير شكيب ارسلان فى مجلة المنار (ج ١ م ٣٠ ص ٨٠) « انه كان مرة فى دمشق فى ايام ولاية ناظم باشا وعلم من محمد فوزى باشا العظم وكان عمدة مجلس الادارة ان ولاية سورية راجعت الباب العالى فى ان العقبة باتصالها بارض معان وبكونها ميناء لمعان و بلاد الشراه يجب الحاقها بمتصرفية الكرك ، بدلا من الحاقها بولاية الحجاز ـ تسهيلا للاشغال ـ فرد الباب العالى على ولاية سورية قائلا ان هذه الملاحظة لاتخفى علينا ، ولكن هنالك ملاحظات سياسية اهم منها وهى انه اذا الحقت العقبة بلواء الكرك صارت من ولاية سورية ودخلت تحت المعاهدات التى بين الدولة والدول الاجنبية وصار يجوز للاجانب ان يتملكوا فيها بخلاف ما اذا كانت تابعة للحجاز فليس للاجانب حق ان يتملكوا شيئا فى الحجاز وهوامر متفق عليه بين الدول . فبقيت بذلك العقبة تابعة للحجاز ولم تتبع الكرك كما طلبت ولاية سورية »

حظوة لديه تنازل له عنها فى شهر مارس سنة ١٩٢٤ واشترط فى هذا التنازل ان يكون شخصيا

ولما وقعت الحرب الحجازية النجدية وحل الملك على فى عرش الحجاز محل ابيه استأنف الامير عبد الله مساعيه عند اخيه لانتزاع هذه المقاطعة رسميا ونهائيا فتم له ما اراد

وعقدت يوم ٥ يونيو سنة ١٩٢٥ معاهدة تنازلت بها الحكومة الهاشمية لامارة شرقى الاردن عن هذه المقاطعة ، وفى يوم ٤ يوليو من تلك السنة ارسل الامير عبد الله الى رئيس حكومته الكتاب الآتى :

« نظرا لتنسيب صاحب الجلالة الهاشمية الملك على المعظم ، ملك البلاد المقدسة الحجازية ، ايده الله وادام نصره ، ضم ولاية معان والعقبة الى امارتنا اقتضى اصدار ارادتنا الملكية اليكم اعلانا بذلك مع الشكر الدائم »

وفى يوم ١٦ يوليو من تلك السنة سافر الامير عبد الله مع كبار رجال حكومته الى معان حيث احتفل رسميا بضم هذه المقاطعة الى شرقى الاردن

ابن سعود يعترض

Hadda Agreement

ولما دخل الحجاز فى حوزة الملك عبد العزيز سعود اعترض جلالته على تنازل الملك على عن هذه المقاطعة لاخيه لانها من املاك الحجاز الاصلية وابى ان يقره . ودارت مفاوضات طويلة بينه و بين الانكليز فى جده حين البحث فى تنظيم صلات حكومته بحكومتهم انتهت بالاتفاق يوم ٢٠ مايو سنة ١٩٢٧ على الاحتفاظ بالحالة الراهنة فى هذه المقاطعة ريثما تحل مشكلتها بمفاوضات خاصة تدور بين هاتين الحكومتين

ولا تزال الحالة فيها على ما كانت عليه ولا تزال تدار من جانب امارة شرقى الاردن

الخاتمة

كلمة فى صلات العرب والانكليز

....

اثبتنا فى هذا الجزء الجانب الاكبر من تاريخ الامة العربية السياسى مع الانكليز وهو يدور على سعى هؤلاء لاستصفاء بلادها قطرا بعد قطر و بلدا بعد بلد فقد بدأوا باستئجار عدن فى القرن الماضى (سنة ١٢٠٠) وانتهوا بشرقى الاردن فى سنة ١٣٤٠ فتم لهم فى خلال هذه المدة الطويلة امتلاك عدن والنواحى التسع فى جنوبى اليمن و بسط نفوذهم على مصر والسودان والامارات العربية فى خليج فارس ثم العراق وفلسطين وشرقى الاردن

بدأ الانكليز تدخلهم فى شؤون العالم العربى عمليا بارسال حملتهم العسكرية الى مصر سنة ١٨٠١ لمقاومة الفرنسويين فاخرجوهم منها ثم وضعوا امتلاك عدن الواقعة على طريق الهند نصب اعينهم فامتلكوها وتدخلوا بعد ذلك فى الخلاف القائم بين محمد على باشا والدولة العثمانية فوقفوا فى جانب هذه ، وارسلوا جنودهم وقواهم فحاربته واخرجته من بلاد الشام والاناضول ثم ارسلوا اسطولهم الى مصر لمحاصرتها وانتهى هذا الدور باعادة جميع الاقطار العربية التى استولى عليها محمد على باشا ما عدا مصر والسودان الى تركيا ومنح مصر استقلالا اداريا فى داخل حدودها الجغرافية برئاسة محمد على باشا

و بينما كان الانكليز يعملون هذه الاعمال على ضفاف البحر الاحمر كان رسلهم فى الخليج الفارسى يعملون ايضا لاستصفاء بلاد العرب القائمة على ضفته الغربية وعلى وادى الفرات ودجلة فنجح هؤلاء وهؤلاء بسبب ضعف حالة العرب الادبية والاجتماعية وتفرق كلمتهم ثم جاءت الحرب العظمى فساعدتهم فى اتمام ما بدؤا به

و يسرت لهـم امتلاك العراق وفلسـطين وشرقى الاردن كما يسرت لهـم بسط نفوذهم السياسى على نجد وتهامة وعسير وانشاء تحالف مع الحكومة الهاشمية فى الحجاز

والباحث فى الاسباب والعوامل التى سهلت لهم هذا الفوز وجعلتهم يسيطرون على الجانب الاكبر والارق والاغنى والاوسع من بلاد العرب يراها كثيرة متعـددة بعضها عام و بعضها خاص و يمكن تلخيصها بما يأتى :

١ ـ الانحطاط الاجتماعى والعلمى الذى خيم على البـلاد فى تلك الفترة بسبب الحـكم التركى

٢ ـ ضعف ما كان هنالك من صلات سياسية وادبية بين هـذه الاقطار و بين الحكومة العثمانية لبعد عاصمتها

٣ ـ ضعف الدولة العثمانيـة ماديا وادبيا وعسـكريا وماليا وكثرة ارتباكاتها ومشاغلها وعجزها عن ارسال القوى ـ فى معظم الاحيان ـ للدفاع عن البـلاد التى تـكون هدفا للغارة ، والتجاؤها الى الاساليب الديبلوماسية واعتمادها على سياسة التوازن الدولى غالبا

٤ ـ ضعف اخـلاق بعض امراء العرب وحكامهم من الذين سـعى الانـكليز لامتلاك بلادهم ، ونقص تجاربهم واختباراتهم

٥ ـ تسلط بعض الافـكار الرجعية على العالم العربى وانتشار فـكرة الاقليمية ، وانـكماش كل قطر فى داخل حدوده الجغرافيـة واهماله شؤون الاقطار الاخرى

٦ ـ تواطؤ الدول الاوربية الـكبرى على تقسيم بلاد العرب وسعيها لامتلاكها بالتعاون والاتفاق على قاعدة المقايضـة والتبادل ، فقد نزل الانـكليز مصر وقضوا على الحركة الوطنية فى نفس الوقت الذى كان الفرنسويون يحتلون فيـه تونس وكذلك كان الامر فى احتـلال الغرب الاقصى فلم يثب عليها الفرنسويون الا بعـد الاتفاق مع الانـكليز و بعد ماأطلقوا ايديهم ، ولم يهاجم الايطاليون طرابلس و برقة الا بعـد مانالوا تصريحا من الانـكليز و موافقة من فرنسا

٧ - دخول الدولة العثمانية الحرب العظمى الى جانب الالمان والنمسويين وانكسار هؤلاء فى ختامها ، وانسحاب روسيا من المعترك وخروج الولايات المتحدة من مؤتمر الصلح ، فقد هيأ ابتعاد هاتين الدولتين عن الميدان جوا صالحا للانكليز والفرنسويين ساعدهم على تطبيق سياستهم الاستعمارية من دون ان يحسبوا حسابا لاحد

تلك هى فى نظرنا العوامل الرئيسية التى ساعدت الانكليز على امتلاك ما امتلكوه من بلاد العرب وعلى بسط نفوذهم على الاجزاء الاخرى ، يضاف الى ذلك انهم لم يبدؤا غارتهم على العالم العربى الا بعد ان اسسوا امبراطوريتهم الكبرى وانشأوا هذا الاسطول الضخم القوى ، فكان من الطبيعى ان لا تعجزهم ولا تمتنع عليهم ، وما كانوا يهاجمونها و يمتلكونها بالعنف وانما كانوا يمهدون لذلك و يهيئون اسبابه ثم يتقدمون للعمل فيفوزون بدون صعوبة كما فعلوا فى مصر والسودان واليمن السفلى وشرقى الاردن ، والقطران العربيان اللذان لقوا صعوبة فى امتلاكهما هما فلسطين والعراق فقد صمد لهم الترك وقاتلوهم قتالا عنيفا بمساعدة الالمانيين ، وكانت لهؤلاء مصالح فى خليج فارس وكانوا يطمعون ان يحلوا محل الانكليز فيه - وانتهى الامر بانكسار الترك والالمان

وكذلك فلا بد لنا من القول ان طبيعة الاستعمار البريطانى وخصائصه وما امتاز به من ميزات اكسبت الانكليز تفوقا ، فهم يكيفون استعمارهم طبقا لطبيعة البلد وروحه وحالته الاقتصادية والاجتماعية والدينية فهو فى فلسطين غيره فى السودان وهو فى مصر غيره فى مسقط وهو فى الكويت غيره فى البحرين نفسها ، وهو يتمثل احيانا بمعتمد سياسى كما هو فى الكويت ، و يتمثل احيانا بمعاهدة فقط كما كان الحال مع امارة نجد ، ويتمثل احيانا برواتب تدفعها الحكومة البريطانية نفسها لشيخ القبيلة العربية التى عاقدتها وتعهدت بان لا تعاقد دولة غيرها وان لاتؤجر شيئا من اراضيها الا بموافقتها - كما هو الحال فى النواحى التسع اليمانية فلكل شيخ ناحية منها راتب سنوى يتقاضاه من حكومة عدن ، و يتمثل احيانا

بجيش احتلال كما هو الحال فى البحرين ، وقد يكون مباشرا كما هو الحال فى السودان وفى فلسطين وهو فى الأخيرة شر انواعه لانه يحمى الحركة الصهيونية ويؤيدها ويوطىء لها لامتلاك هذا القطر العربى

فمرونة الاستعمار البريطانى واستعداده للتحول بحسب حاجة المحيط (ولا يستثنى من ذلك سوى فلسطين) وتجافى ممثليه عن استعمال القوة والعنف الا عند الضرورة القصوى ، وسعيهم للتقرب من الشعب المحكوم واستمالته كان من جملة العوامل التى مكنت له فى بلاد العرب ، وجعلت بعض امرائهم يطمئن اليه ويثق به

ولا ريب ان حسن حال العرب الذين خضعوا للاستعمار البريطانى بالنسبة لحالة الذين خضعوا للاستعمارين الفرنسوى والايطالى - وسنفصل اخبارهم تفصيلا فى الجزء الثانى من هذا الكتاب - كان من جملة الاسباب التفضيلية . ويدعونا واجب الانصاف الى الاعتراف بان الاستعمار البريطانى ساعد فى بعض حالات على تحسين حالة اكثر البلدان التى خضعت له من الناحية المادية والصحية كما ساعد على نشر العلم ولكن فى دائرة ضيقة محدودة

وتبدلت العلاقات بين العرب والانكليز بعد دخول تركيا الحرب الى جانب الالمان ، فارسلوا رسلهم ودعاتهم الى جزيرة العرب واتصلوا بزعمائها ورؤسائها من الذين كانوا خاضعين لتركيا ودعوهم الى الانضمام اليهم وتأييدهم فى نضالهم ، وتعهدوا لهم بان يساعدوهم فى انشاء الدولة العربية الكبرى التى يحلمون بتأسيسها وقطعوا لهم عهودا جلية لا امتراء فى صحتها فانضموا اليهم وحملوا السلاح فى جانبهم ، وما كادت بوارق النصر تبتسم للحلفاء - وقد انضم اليهم العرب فى اشد الظروف حراجة - حتى تجهموا لهم وانكروا عهودهم وجحدوها واكتفوا بان اعترفوا باستقلال الدولة الهاشمية فى الحجاز

وتحرك العالم العربى حركة عنيفة بعد ماوضعت الحرب العظمى اوزارها ، احتجاجا على المصير السيء الذى اعد له وطلبا للحرية والاستقلال اللذين وعد

بهما ، فسارت مصر فى الطليعة فكانت نهضة ١٩١٨ - ١٩١٩ المعروفة وقد نازل فيها المصريون الانكليز وقاوموهم واستردوا جانبا من حقوقهم وسندون اخبار هذه النهضة المباركة فى الجزء الثالث من هذا الكتاب حين درس تاريخ اليقظة الجديدة عند العرب ، وثار عليهم العراقيون واضطروهم للاعتراف باستقلالهم وقام الفلسطينيون يطالبون بحقوقهم ثم نهض السودان فى سنة ١٩٢٤ فكانت احداث مريعة وقف فيها العرب امام الانكليز وجها لوجه واستردوا جانبا من حقوقهم

والذى نرجوه ونتمناه ان يكون الانكليز فى معاملتهم للشعوب العربية خلال المرحلة المقبلة ، اكثر تساهلا ، وألين عريكة ، فيعترفوا لهذا الشعب بحقوقه ويساعدوه فى انشاء دولته وفى تحقيق امانيه ، فيكون عضدا لهم وسندا فى الشرق الادنى بدلا من ان يكون خصما وعدوا ، فقد دلت التجارب العديدة انه لم يعد فى الامكان اخضاعه للاساليب التى كانت متبعة فى القرن الماضى واوائل القرن الحاضر وان نهضته نهضة صحيحة قوية قائمة على العلم والوطنية

ان مصلحة الانكليز هى فى التماس ود الشعب العربى ، اعظم شعوب الشرق الادنى واكثرها عددا واشدها نشاطا ، واستعدادا للاخذ باسباب الحضارة والعمران ، لافى اغضابه ولا فى استفزازه ، وهو لايحجم عن التفاهم معهم متى صدقوا النية وعاملوه معاملة الند للند والصديق للصديق

ولسنا فى حاجة الى دحض الخرافة القائلة بان انشاء امبراطورية عربية يؤلف خطرا على الهند وطريقها فهى دعوى ظاهرة البطلان ، تذرعوا بها لمقاومة الحركة العربية ومقاتلتها فى سنتى ١٨٤٠ و ١٨٨٢ و ١٩١٨ فالعرب لايطمعون فى اكثر من الحصول على استقلالهم ، والحياة الحرة فى داخل حدودهم القومية ، واستغلال خيرات بلادهم واصلاحها وتنظيمها ، وهذا يحتاج الى وقت كبير ، وجهد عظيم ، يصرفهم عن التفكير فى اى امر آخر ، يضاف الى هذا ان سهولة المواصلات وتقدمها فى هذا العصر تسقط هذه الدعوى من نفسها فقد صار فى استطاعة الطائرات البريطانية ان تبلغ الهند فى خلال يومين بعد مغادرتها لندن مع انهم فى القرن الماضى ما كانوا

يبلغونها فى اقل من اشهر وبديهى ان من شأن هـذا التحول العظيم فى نظام المواصلات ان يخفف من قلق الانـكليز على الهند

و بعد فما اردنا من بسط المعلومات التاريخية التى بسطناها فى هـذا الجزء عن صلات الانـكليز ببلاد العرب الا تذكير الشعبين فى خلال المرحلة المقبـلة من مراحل تحولهما ـ بحوادث المـاضى و وقائعـه فيضعها المسؤلون من رجالهـم امام انظارهم و يعملون لاتقاء الخطيئات السابقـة وتلافيها فقد استـدار الزمان وتقدمت المواصلات ونهض العرب فى كل قطر يسعون للاستقلال والحرية ، فمن مصلحة انـكلترا السياسية والاقتصادية بل والعسكرية ان تـكون عونا لهم فى جمع شملهم وانشاء وحدتهم ، ولا يزال فى الوقت متسع للعمل اذا ارادته . والله الموفق والمستعان

القاهرة يوم ٢٠ ذى القعدة سنة ١٣٥٤

و ١٣ فبراير سنة ١٩٣٦

تقويم الكتاب

الثورة العرابية واحتلال انكلترا لمصر

الاستيلاء على السودان

امتلاك عدن والسيطرة على جنوبى اليمن

الامارة الادريسية

السيطرة البريطانية على خليج فارس

الاستيلاء على العراق

الاستيلاء على فلسطين

شرقى الاردن

مصادر الكتاب

الكتب العربية

يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ للامير عمر طوسون

تاريخ الحركة القومية بمصر للرافعي

ابراهيم باشا فى سورية لسليمان عز الدين

ابراهيم البطل الفاتح لداود بركات

السودان من التاريخ القديم الى رحلة البعثة المصرية : لعبد الله حسين

منشورات المهدى

اخبار لحج واليمن للامير احمد محسن

قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزه

جزيرة العرب فى القرن العشرين لحافظ وهبه

مذكرات احمد عرابى باشا غير مطبوعة

على طريق الهند

الكتب الاجنبية

دائرة المعارف البريطانية

مذكرات سعيد باشا الصدر الاعظم (باللغة التركية)

